أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمّى

تفسير البيضاوي

تأليف
القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه وضبط نصّه
محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلّد الثاني

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

المجلّد الثاني

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشرُطه الإمام لمقتحم خطر عطيةً له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أمرُها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار[١]. وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبانُهم حتى قَتَلوا سبعين وأَسَروا سبعين ثم طلبوا نفلهم ـ وكان المال قليلاً ـ فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء[٢]، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي . . . .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٢) و(٥/ ٣٢٤) وابن حبان (ص٤١٠ رقم ١٦٩٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٥) و(٢/ ٣٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩٢) و(٦/ ٣١٥) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ١٧٢) من طرق عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت. وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١٧٥ رقم ٢٧٣٧) وابن حبان (ص٤٣١ رقم ١٧٤٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ ٣٢٦) والنسائي ـ كما في تحفة الأشراف (٥/ ١٣٢) ـ من حديث ابن عباس. وهو حديث صحيح.

وقاص[(١)] رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلَبي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخُذه[(١)]. وقرىء يسألونك عَلَّنفَال بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفالَ أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه[(٢)]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَزِعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله. وقيل هو الرجل يهمّ بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه. وقرىء وَجَلت بالفتح وهي لغة، وفرَقَت أي خافت. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(٤) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، وحقاً صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: هو عبدالله حقاً. ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أُعِدّ لهم في الجنة لا ينقطعُ عدده ولا ينتهي أمده.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٨٠) وأبو عبيد في الأموال (ص٢٧٩ رقم ٧٥٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٧٣) وابن أبي شيبة، وابن مردويه كما في «الدر» (٤/ ٣). عنه.
ورجال إسناده ثقات، إلاّ أن محمد بن عبيدالله لم يدرك سعد بن أبي وقاص (المراسيل لابن أبي حاتم: ص١٨٤ رقم ٦٦٥).
● وأخرجه أبو داود (٣/ ١٧٧ رقم ٢٧٤٠) والترمذي (٥/ ٢٦٨ رقم ٣٠٧٩) والنسائي في تفسيره (١/ ٥١٣ رقم ٢١٦) وابن جرير (٦/ج٩/ ١٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩١) عن سعد نحوه.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٦٧ رقم ٣٣/ ١٧٤٨) عن سعد نحوه مختصراً.

(٢) وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (س٤/ ٣).

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥

(٥) ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم. ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهلَ مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عِيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبدالمطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبقَ بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضىٰ بهم إلى بدر وهو ماءٌ كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلاَّ ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالا فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انْظُر أمرَك فامضِ فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امضِ لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أشيروا عليَّ أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوّف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دَهَمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال: أجل، قال: آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لَصُبُر عند الحرب صُدْق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع ....

(١) المائدة: «٢٤».

القوم[١]. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالعير فناداه العباس وهو في وَثاقه لا يصلح فقال له لِمَ؟ فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله[٢].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه. ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنهم يُنصَرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي يَكْرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ على إضمار اذكر[٣]، وإحدى ثاني مفعولي يعِدكم وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، والشوكة الحِدّة مستعارة من واحدة الشوك[٤]. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يثبته ويعليه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحىٰ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/١٨٥ ـ ١٨٦) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبدالله بن عباس وأخرجه أيضاً ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٩٥ ـ ٣٠٦) من نفس الطريق.
● أما حديث ندب الرسول أصحابه لملاقاة العير فقد صرح ابن اسحاق بالسماع وسنده صحيح.
● وأما حديث رؤيا عاتكة: فقد صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع.
● أما مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرجه البخاري (٧/ ٢٨٧ رقم ٣٩٥٢) عن ابن مسعود. ومسلم (٣/ ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ رقم ٨٣/ ١٧٧٩) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٩، ٣١٤، ٣٢٦) والترمذي (٥/ ٢٦٩ رقم ٣٠٨٠) والحاكم (٢/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الترمذي ضعيف الإسناد.
قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة. كما أن العباس كان من الأسارى فكيف عرف كلام الله هذا؟.

(٣) والتنكير بالوقت ـ مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث ـ للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها ـ (س٤/ ٦) ـ.

(٤) والتعبير عنهم بذلك للتنبيه على سبب مودتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير (س٤/ ٧).

بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد. وقرىء بكلمتِه. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تَلقوْا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي فَعَل ما فعل، وليس بتكرير لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مُرَادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من إذ يَعِدكم، أو متعلق بقوله ليحق الحق، أو على إضمار اذكر، واستغاثتُهم أنهم لما علموا أنْ لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تُعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربَّك فإنه سينجزُ لك ما وعدك[١]. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ بأني ممدكم، فحذف الجارّ وسلط عليه الفعل. وقرأ أبو عمرو بالكسر[٢] على إرادة القول أو إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ مُتْبِعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً، مِنْ أردفته أنا إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب مُرْدَفين ـ بفتح الدال ـ أي متبَعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم، وقرىء مُرُدِّفين بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع، وقرىء بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران[٣]. ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم. واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها[٤].

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ رقم ٥٨/١٧٦٣) والترمذي في السنن (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٨١) وأحمد (١/ ٣٠ ـ ٣٢).

(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

(٣) آل عمران: «١٢٥».

(٤) وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة (س٤/٧).

فيزول ما بها من الوجل لقلّتكم وذلتكم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العَدد والأُهَبِ ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدلٌ ثان من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة، أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيءَ إذا غشيته إياه، والفاعل على القراءتين هو الله تعالى، وقرأ ابن كثير وأبو عمر يَغْشَاكم النعاسُ بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أمْناً من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس متضمن معنى تنعسون، ويغشاكم بمعناه، والأمنة فعْل لفاعله، ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعلَ المغشي، وأن تَجْعَل على القراءة الأخيرة فعلَ النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشيهم فكأنه حصلت له أمنة من الله لولاها لم يغشَهم كقوله:

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُوناً تَهَابُكَ فَهْوَ نَفَّارٌ شَرُودُ

وَقرىء أَمْنَةً كرَحْمة وهي لغة. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كثيب أَعْفَرَ تَسُوخُ فيه الأقدامُ على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصَرون، وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلون محدِثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، فأشفقُوا فأنزل الله المطر، فمُطِروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُدْوته وسَقُوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[١]. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدل ثالث، أو متعلق بيثبت. ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم، وهو مفعول يوحي. وقرىء بالكسر[٢] على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم، فيكون قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله أني معكم فثبتوا، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن مَنَعَ ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَأُلْقِى﴾ إلى قوله ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس (روح المعاني ٩/ ١٧٦).
(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

للملائكة ما يثبتون المؤمنين به كأنه قال: قولوا لهم قولي هذا. ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جُزّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم[1].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به، والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قَبْل. ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بسبب مشاقّتهم لهما، واشتقاقه من الشّقّ لأن كلاً من المتعاديَيْن في شق خلاف شِق الآخر كالمعاداة من العُدوة والمخاصمةِ من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، ومحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقعٌ، أو نُصِب بفعل دل عليه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو غيره مثل باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عُجّل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرىء وإنّ بالكسر على الاستئناف.

(١٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ كثيراً بحيث يُرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ إذا دب على مِقْعَده قليلاً قليلاً سمي به وجُمع على زحوف، وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ بالانهزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[2] الآية، ويجوز أن ينتصب «زحفاً» حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوْا، وهم اثنا عشر ألفاً.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفر وتغرير العدو، فإنه من مكايد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يَعْتبر القرب لما روىٰ ابنُ عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففرّوا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكّارون وأنا فئتكم»[3].

---

(١) وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره (س٤/ ١١).
(٢) الأنفال: «٦٥».
(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧ رقم ٢٦٤٧) والترمذي (٤/ ٢١٥ رقم ١٧١٦). وأحمد (٢/ ٧٠، ٨٦، ١١١) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٧٦، ٧٧).

وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال، وإلا لغوٌ لا عمل لها، أو الاستثناء من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز مُتَفَيْعِل لا مُتفعّل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضِّعف لقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاءِ الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقَنْقل قال عليه الصلاة والسلام: «هذه قريش جاءت بخُيَلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبقَ مشرك إلا شُغِل بعينيه، فانهزموا ورَدِفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلتُ وأسرت، فنزلت[1]. والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد رمياً توصِله إلى أعينهم ولم تقدر عليه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتُم من قطع دابِرهم، وقد عرفتَ أن اللفظ يُطلق على المسمى وعلى ما هو كمالُه والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طُعِن بها أبيّ بن خلف يوم أُحُد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات[2]. أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كِنانةَ بن أبي الحقيق على . . . .

= والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٩٧٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نَعرفه إلاّ من حديث يزيد بن أبي زياد.

قلت: يزيد هذا ضعيف. انظر ترجمته (٩/ ٢٦٥) والكامل (٧/ ٢٧٢٩) والمجروحين (٣/ ١١٢) والميزان (٤/ ٤٢٣).

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعّفه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٠٣).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٢٠٤) عن هشام بن عروة مرسلاً وليس فيه (أمر جبريل له بذلك).

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٢٠٥) عن ابن عباس، (أمر جبريل له بذلك).

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) عن حكيم بن حزام ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد.

وانظر «الكافي الشافِ» للحافظ ابن حجر (ص٦٨ رقم ٦٤).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٦ والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي. وساقه ابن كثير وبين أن المراد أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه بشكل خاص. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٣).

فراشه[١]، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكِنْ بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين[٢]. ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فَعَل ما فَعَل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل أو الرمي، ومحله الرفعُ أي المقصود أو الأمر ذلكم، وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين وإبطالِ حِيَلِهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو مُوَهِّن بالتشديد، وحفص مُوهِنُ كيدِ بالإضافة والتخفيف[٣].

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرمَ الحزبين. ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته. ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَن تُغْنِىَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص وأَنَّ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك[٤]. وقيل: الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نَعُد عليكم بالإنكار أو تهييجِ العدو، ولن تغنيَ حينئذ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم، ويؤيد ذلك:

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذَكَرَ طاعةَ الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٥] وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق.

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما ذكر في الفتح السماوي ص٦٥٣.
(٢) وتجريد فعل الرمي عن المفعول به لأن المقصود الأصلي بيانُ حال الرمي نفياً وإثباتاً (س٤/١٣).
(٣) لعل الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «موهِنٌ كيدَ» بتنوين الأول وتخفيفه وبنصب الثاني.
(٤) لعل الأصل عند البيضاوي الكسر، أي «إن الله مع المؤمنين».
(٥) النساء: «٨٠».

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادّعوْا السماع. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأساً.

(٢٢) ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿ٱلصُّمُّ﴾ عن الحق. ﴿ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إياه، عَدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرَّها لإبطالهم ما ميزوا به وفُضِّلوا لأجله[1].

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات. ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لعنادهم. وقيل[2] كانوا يقولون للنبي ﷺ: أَحْيِ لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يَشْهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

(٢٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة[3]. ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحّد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تُسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبيّ وهو يصلي، فدعاه، فعجّل في صلاته ثم جاء، فقال: «ما منعك عن إجابتي؟» قال: كنت أصلي، قال: «ألم تُخبَر فيما أوحي إلي: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[4]؟. واختُلف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهرُ الحديث يناسب الأول. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهلُ موتُه. قال:

---

(١) وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم، فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه (س٤/ ١٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٤) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) كرر النداء مع وصفهم بالإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يَرِدُ بعده من الأوامر (س٤/ ١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٢١٤) والترمذي (٥/ ١٥٥ رقم ٢٨٧٥) بنحوه، وقال هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي بن كعب. . . الحديث.

وأخرجه البخاري (٨/ ١٥٦ رقم ٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلى.

وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٥٧): «وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما كما سأبينه» هـ.

وانظر تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ١٨٠).

لا تعجَبَنَّ الجَهُولَ حِلَّتُه فذاكَ مَيِّتٌ وَثَوْبُهُ كَفَن

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2] وتنبيهٌ على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبُها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يَحُول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصويرٌ وتخييل لتملّكه على العبد قلبَه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصدَه ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرىء بين المَرِّ بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الراء وإجراءِ الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيَكم بأعمالكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمّكم أثرُه كإقرار المنكَر بين أظهُركم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد، على أن قوله لا تصيبن إما جواب الأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾[3] وإما صفة لفتنة، ولا للنفي، وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو للنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جَنَّ الظلامُ واختلط جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وَإما جوابُ قسم محذوف كقراءة من قرأ لَتُصيبنّ وإن اختلفا في المعنى، ويُحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم لأن وبالَه يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومِنْ في منكم على الوجوه الأُوَل للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين، وفائدتُه التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس

---

(١) آل عمران: «١٦٩».
(٢) قٓ: «١٦».
(٣) النمل: «١٨».

والروم[١]. ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تُضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول في المغانم. وروي: أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانَهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعاتِ وأريحاء بأرض الشام، فأبىٰ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبَوْا وقالوا: أرسل إلينا أبا لُبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حَلْقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشدّ نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك فحلّ نفسك فقال: لا والله لا أحِلُّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام «يجزيك الثلث أن تتصدق به»[٢]. وأصل الخَوْن النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

(٢٨) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنةٌ من

(١) قوله«وإذ أنتم قليلٌ» آثر الجملة الاسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف (س٤/١٧).

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند، لكن سنده إليه في أول الكتاب.
وقد روى ابن إسحاق في المغازي: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمي: «أن رسول الله ﷺ حاصرهم ـ يعني قريظة ـ خمساً وعشرين ليلة ـ فذكر القصة بطولها ـ إلى أن قال: ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر فذكر قصة مختصرة.
وأخرجهاالبيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة فذكر نحو ما هنا وهكذا ذكرها عبدالرزاق (٥/٤٠٦) عن معمر عن الزهري، قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد فذكر القصة».
وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله كما في «الكافي الشاف»(ص٦٩ رقم ٦٧).

الله تعالى ليبلوَكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعىٰ حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مَخْرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يُشْهِرُ أمرَكم ويبث صيتكم من قولهم بتُّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح[1]. ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه، كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

(٣٠) ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تذكار لمّا مَكَر قريشٌ به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خَلاَصِه مِنْ مكرهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك. ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حِراك به ولا براح. وقرىء ليثبّتُوك بالتشديد، وليبيّتُوك من البيات، وليُقيِّدوك. ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ بسيوفهم. ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فَرِقُوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعَكم فأردت أن أحضُركم ولن تُعدَموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بئس الرأيُ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي يُفْسِدُ قوماً غيرَكم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العَقْل عَقَلْناه، فقال صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار[2]. ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ برد مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين

(١) وتكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأن مقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه(س٤/١٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني من لا أتهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: =

معهم بأن أخرجهم على بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة[١]، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصَّهم. أو قولُ الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام، وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرّعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أَنَفَتهم وفرط استنكافهم أن يُغْلَبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغُ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إنْ هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال ذلك[٢]. والمعنى إن كان هذا حقاً منزّلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمرادُ منه التهكمُ وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرىء الحقُّ بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل، وفائدةُ التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيلُه لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب

= «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ اعترضهم إبليس في هيئة شيخ. فذكره مطولاً».

وأخرجه الطبري ـ في جامع البيان (٦/ج٩/٢٧٧) ـ وأبو نعيم في الدلائل ـ (١/٢٥٨ ـ ٢٦١) ـ من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح. وليس في أوله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون فذكر معناها ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال: وعن ابن أبي خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه ـ كما في «الكافي الشاف» ـ للحافظ ابن حجر (ص٦٩ رقم ٨).

قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/٣٨٩ ـ ٣٩٠) عن معمر عن قتادة دون عروة.

(١) قوله للمزاوجة أي للمشاكلة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/١٩٩) بدون راوٍ ولا سند.

لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللامُ لتأكيد النفي والدلالةِ على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبيُّ ﷺ بين أظهُرِهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1].

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يُعذَّبون. ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وحالهم ذلك، ومِنْ صدهم عنه إلجاءُ رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارُهم عام الحديبية. ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء ونُدْخِل من نشاء. ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران لله. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنْ لا ولاية لهم عليه، كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

(٣٥) ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي دعاؤُهم، أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. ﴿ إِلَّا مُكَآءً ﴾ صفيراً، فُعَال من مكا يمكو إذا صَفَر. وقرىء بالقصر كالبُكَا. ﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾ تصفيقاً، تَفْعِلة من الصَّدَا، أو من الصدّ على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرىء صلاتَهم بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساقُ الكلام لتقريرِ استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمَنْ هذه صلاتُه. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجالُ والنساء مشبِّكين بين أصابعهم يُصَفِّرون فيها ويصفقون[2]. وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يُخلِطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة، واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: ائتنا بعذاب. ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر[3]، وكانوا

---

(١) هود: «١١٧».

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٠ بسند ضعيف لأن فيه عطية بن سعد العوفي وهو صدوق، كان يخطىء كثيراً، وكان شيعياً مدلساً.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٦) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٥).

● وأخرج ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن

اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُر. أو في أبي سفيان[1] استأجر ليوم أُحُد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا. والمرادُ بسبيل الله دينُه واتباع رسوله. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أُحُد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتَها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغةً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخرَ الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لِيُمَيِّز من التمييز وهو أبلغ من المَيْز. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمّ بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكانزين. ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمُ

= عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمٰن وعمرو بن سعد بن معاذ قالوا: لما أصابته المسلمون يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب ورجع فلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبدالله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم» إلى قوله والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ كما في فتح القدير (٢/ ٣٠٧) مرسلاً ـ. وهو صحيح الإسناد.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ج٩/ ٢٤٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير (٦/ ج٩/ ٢٤٥) عن ابن أبزى.
وذكر الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٧) ذلك عنهما بدون سند.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسِروا أنفسهم وأموالهم.

(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه، والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم. وقرىء بالتاء والكاف على أنه خاطبهم[١]، ويَغْفِرْ على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرىٰ على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وتضمحل عنهم الأديان الباطلة. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيَهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب تَعْمَلون بالتاء، على معنى فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير فيجازيكم، ويكون تعليقُه بانتهائهم دلالةً على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ولم ينتهوا. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصرُكم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم. ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره.

(٤١) ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ أي الذي أخذتموه من الكفار قهراً.. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأ خبرُه محذوف أي: فثابتٌ أن لله خمسه. وقرىء فإنّ بالكسر. والجمهورُ على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٢]، وأن المرادَ قَسْمُ الخمس على الخمسة المعطوفين. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكأنه قال: فأن لله خُمُسَه يصرفُ إلى هؤلاء الأخصين به، وحكمُهُ بعد باقٍ غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يُصرف إلى ما كان يَصْرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضي الله تعالى عنهما[٣]. وقيل إلى الإمام. وقيل إلى الأصناف الأربعة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية. وعن مالك رضي الله

---

(١) أي قرىء: «إن تَنْتَهوا يُغْفَرْ لكم...».

(٢) التوبة: «٦٢».

(٣) الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وذهب أبو العالية[١] إلى ظاهر الآية فقال يُقسم ستةَ أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلُها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة[٢]. وقيل سهم الله لبيت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذوو القربى: بنو هاشم وبنو المطلب، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخوانَنا من بني المطلب أعطيتَهم وحرمْتَنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وشبك بين أصابعه[٣]. وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر، وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلِّموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يُرِدْ منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعَرَض والمقصود بالذات هو العمل. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرىء عُبُدنا بضمتين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكافرون. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدل من يومَ الفرقان، والعُدْوة بالحركات الثلاث شط الوادي وقد قرىء بها، والمشهور الضم، والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البُعدىٰ من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياءً كالدنيا والعُليا تفرقةً بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقَوَد وهو أكثر استعمالاً من القُصْيَا. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي العير، أو قوادها. ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقعٌ موقع الخبر، والجملة حال من الظرف قبلَه، وفائدتُها الدلالةُ على قوة العدو واستظهارُهم بالرَّكْب وحرصُهم على

---

(١) أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي البصري، محدث مقرىء مفسر، من كبار التابعين، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، قيل عنه: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقران منه، توفي ٩٣ هـ (معجم المفسرين ١/ ١٩١).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص٢٩٩ رقم ٨٣٦) وأبو داود في المراسيل (ص٢٧٥ رقم ٣٧٤) وابن جرير (٦/ج١٠/ ٣ ـ ٤) عن أبي العالية. بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٨٢ رقم ٢٩٧٨) و(٣/ ٣٨٣ رقم ٢٩٨٠) وابن ماجة (٢/ ٩٦١ رقم ٢٨٨١) من حديث جبير بن مطعم.
وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٤٢).
وأخرج البخاري (٦/ ٢٤٤ رقم ٣١٤٠) و(٦/ ٥٣٣ رقم ٣٠٥٢) و(٧/ ٤٨٤ رقم ٤٢٢٩) كلهم من طرق، عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عنه.
ولفظه مثل لفظ أبي داود (رقم: ٢٩٧٨).

المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسهم على أن لا يُخَلّوا مراكزهم ويبذلوا منتهىٰ جَهْدهم وضعفِ شأن المسلمين والْتِياثِ أمرهم واستبعادِ غلبتهم عادة، وكذا ذِكْرُ مراكزِ الفريقين فإن العُدْوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يُمشىٰ فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العدوة القصوى، وكذا قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتالَ ثم علمتم حالَكم وحالَهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿وَلَكِن﴾ جُمِعَ بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيقاً بأن يُفعل، وهو نصرُ أوليائه وقهر أعدائه، وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً، والمعنى: ليموت من يموت عن بينة عاينَها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدَها لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفرُ من كفر وإيمانُ من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام. والمرادُ بمَنْ هلك ومن حيَّ المشارِفُ للهلاك والحياة، أو مَنْ هذا حالُه في علم الله وقضائه. وقرىء لِيَهْلَكَ بالفتح، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب مَنْ حَيِيَ بفك الإدغام للحمل على المستقبل. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمانِ من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدَّر باذكُر، أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبُنتم. ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقتْ آراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الضميران مفعولا يُري وقليلاً حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين ـ حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمَنْ إلى جنبه أتراهم سبعين؟ فقال أراهم مائة ـ تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل[١]: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا[٢] عليهم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤) بدون سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٩).
(٢) كُتِبت الهمزة على واو، والأصل كتابتها على نَبِرة.

ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يَرىٰ الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط. ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلَّل به، أو لأن المراد بالأمر ثَمَّةَ الاكتفاءُ على الوجه المحكي ههنا إعزازُ الإسلام وأهله وإذلالُ الإشراك وحزبه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاءُ مما غَلَب في القتال. ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ للقائهم. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقبين لنصره. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ويُقْبِل عليه بشراشِره[1] فارغَ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ باختلاف الآراء، كما فعلتم ببدر أو أحد. ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرىء: ﴿وَتَذْهَبْ رِيحُكُمْ﴾ بالجزم، والريحُ مستعارة للدَّوْلة[2] من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذِه مُشَبَّهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثُها الله، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[3]. ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالكلاءة والنصرة.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العِير. ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً. ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسولُ أبي سفيان أَنْ ارْجَعُوا فقد سلِمَتْ عيرُكم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نَقْدَم بدراً ونشربَ فيها الخمور وتعزف علينا القِيانُ ونطعِم بها من حَضَرنا من العرب، فوافوها ولكن سُقُوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بَطِرين مرائين، وأمرَهم بأن

---

(١) اي بكلِّيته.

(٢) الدَّوْلة بفتح الدال وضمها مِنَ التداول. وقيل: الدُّولة ـ بالضم ـ تكون في المال، وبالفتح تكون في الحرب (المصباح المنير مادة دَوَلَ).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٥٢٠ رقم ١٠٣٥) و(٦/ ٣٠٠ رقم ٣٢٠٥) و(٦/ ٣٧٦ رقم ٣٣٤٣) و(٧/ ٣٩٩ رقم ٤١٠٥). ومسلم (٢/ ٦١٧ رقم ٩٠٠) عن ابن عباس.

يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ معطوف على بَطَراً إنْ جعل مصدراً في موضع الحال، وكذا إن جُعِل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيكم عليه.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(٤٨) ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ مقدّر باذكر. ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ مقالة نفسانية، والمعنى: أنه ألقىٰ في روعهم وخيَّل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنّ اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجيرٌ لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدىٰ الفئتين وأفضلَ الدينين. ولكم خبرُ لا غالب، أو صفته، وليس صلته وإلا لانتصب كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا. ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ رجع القهقرى أي بطل كيدُه وعاد ما خُيِّل إليهم أنه مجيرُهم سببَ هلاكهم. ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة. وقيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحْنة وكاد ذلك يُثنيهم، فتمثَّل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإني مجيرُكم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تَنْزِل نكص وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناسَ سراقةُ، فبلغه ذلك فقال: والله ما شَعَرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان[١]. وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ إني أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يَرَ قبله، والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر. ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

(٤٩) ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿ دِينُهُمْ ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم[٢] به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨).
عن ابن عباس بإسناد صحيح.

(٢) أي لا قوة لهم به.

ألف. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يَذِلّ من استجار به وإن قلّ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو رأيت، فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكسُ إنْ. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ببدر، وإذ ظرف ترى، والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالَهم حينئذ، والملائكةُ فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾، والجملةُ حال من الذين كفروا، واستُغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين. ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاههم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أُقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول، أي ويقولون ذوقوا بشارةً لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضُربوا الْتهبت النار منها، وجواب لو محذوف لتفظيع الأمر وتهويله.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب[1]. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم، لا أن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب. وظلاّم للتكثير لأجل العبيد.

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثلَ دأب آل فرعون، وهو عملُهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكفِّ عن تعرض الآيات والرسل بمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ تبعه منهم والسعيِ في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته تعالى على تغييره متى يغيروا حالهم. وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء

---

(١) وما فيه من معنى البصر للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة (س٤/ ٢٧).

الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أُخِذَ به آلُ فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش. ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيهِ على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله:

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدلَ البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومِنْ لتضمين المعاهدة معنى الأخذ، والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة[1]. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سُبَّة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه، أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم، ﴿فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. وقرىء فشرذ بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر، ومِنْ خلفِهم، والمعنى واحد فإنه إذا شرَّد مَنْ وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين. ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك. ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إِلَيْهِمْ عهدهم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد، وهو في موضع الحال من النابذ على

---

(١) قوله «ينقضون» بصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال (س٤/ ٣٠).

الوجه الأول أي ثابتاً على طريق سوي أو منه أو من المنبوذ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء على أن الفاعل ضمير أحد أو مَنْ خلفهم، أو الذين كفروا والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتكرار، أو على تقدير أن سبقوا وهو ضعيف لأن أنْ المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وأنّ لا صلةٌ وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مُفْلتين، والأظهرُ أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبَهم عاجزاً عن إدراكهم، وكذا إن كسرتَ إنَّ إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف. ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر[1] سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إن القوة الرميُ» قالها ثلاثاً[2]. ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله، فِعَال بمعنى مفعول، أو مصدر سمي به يقال ربط رِبْطاً ورِباطاً ورابَطَ مرابطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفصيل وفِصَال. وقرىء رَبْطِ الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعَطْفِها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب تُرَهِّبون بالتشديد، والضمير لما استطعتم أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة. قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفُرس. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم[3]. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب[4].

---

(١) عقبة بن عامر: هو عقبة بن عامر بن نابي. الأنصاري السلمي بدري شهد العقبة الأولى وقتل باليمامة. ـ تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٨٤ رقم ٤١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٢ رقم ١٦٧/ ١٩١٧) عنه.

(٣) فسر البيضاوي علم الله تعالى بالمعرفة، وهذا غير صحيح لأن المعرفة مكتسبة. قال الراغب الأصفهاني. (ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا) المفردات مادة «عرف».

(٤) والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجِبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى (س٤/ ٣٢).

﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(٦١) ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا ومنه الجُناح. وقد يعدّىٰ باللام وإلى. ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ للصلح أو الاستسلام. وقرأ أبو بكر بالكسر. ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ وعاهد معهم، وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضها فيه. قال:

السِّلْـمُ تَـأْخُـذُ مِنْهَـا مَـا رَضِيـتَ بِـهِ ... والحَـرْبُ يَكْفِيـكَ مِـنْ أَنْفَـاسِهَـا جَـرَعُ

وقرىء فاجنُح بالضم. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولا تَخَفْ من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بنياتهم. والآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف.

(٦٢) ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ فإن مُحْسِبك الله وكافيك قال جرير:

إنِّـي وَجَـدْتُ مِـنَ المَكَـارِمِ حَسْبَكُـم ... أنْ تَلْبَسُـوا حَـرَّ الثِّيَـابِ وَتَشْبَعُـوا

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾[1] مع ما فيهم من العصبية والضغينة في أدنى شيء والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ، وبيانُه: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي تناهى عداوتهم إلى حد لو أنفق منفقٌ في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة لا يَعْصى عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم محن لا أمد لها ووقائعُ هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوْا وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إما في محل النصب على المفعول معه كقوله:

إذَا كَـانَـتِ الهَيْجَـاءُ وَاشْتَجَـرَ القَنَـا ... فَحَسْبُـكَ وَالضَّحَّـاكُ سَيْـفٌ مُهَنَّـدُ

أو الجرِ عطفاً على المكني عند الكوفيين، أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنون. والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر، وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست

---

(١) وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً (س٤/ ٣٣).

نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت[1]. ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في إسلامه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصلُه الحَرَض وهو أن ينهكه المرض حتى يَشفى على الموت. وقرىء حَرِّصْ من الحرص. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شرطٌ في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة والوعدِ بأنهم إنْ صبروا غَلَبوا بعون الله وتأييده. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تَكُنْ بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في وإنْ تكُن منكم مائة. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاءَ الثواب وعواليَ الدرجات قَتَلُوا أو قُتِلُوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

---

(١) ● أخرجه الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٨) والطبري في الكبير (١٢/ ٦٠ رقم ١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه ـ كما في فتح القدير (٢/ ٣٢٤) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي. ثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله عز وجل «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين».
وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٢٨) وقال: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذّاب.
● وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في فتح القدير (٢/ ٣٢٤). عن سعيد بن جبير نحوه، وذكر أنهم ثلاث وثلاثون. وهو مرسل. صححه السيوطي في «لباب النقول» ص١٣٣.
وقال الشيخ عصام بن عبدالمحسن الحميدان في تخريج أسباب النزول للواحدي ص٢٣٨ عقب الحديث: ولا أراه يصح، لأسباب: ـ
١ ـ قول الحافظ ابن كثير «في هذا نظر لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة، إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة» تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٤).
٢ ـ أن الثابت في السيرة أن عدد المؤمنين المهاجرين إلى أرض الحبشة ثلاث وثمانون رجلاً سوى النساء والأبناء ومن بقي بمكة (السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٦، ٢٩٤)) (السيرة النبوية لمحمود شاكر: ١٠١، ١٠٢) وإسلام عمر كان بعد ذلك فكيف يكون تمام الأربعين؟
٣ ـ أن معنى الآية يضعف هذا السبب، فالآية تأمر النبي ﷺ والذين آمنوا معه أن يكون الله وحده حسبهم، في حين أن معنى السبب يوحي بأن معنى الآية: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين مثل عمر. وهذا التفسير مستبعد جداً، لأن القرآن دائماً يقرر أن الاعتماد على الله وحده هو صلب التوحيد كما قال تعالى: «وإن يُريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» [الأنفال: ٦٢] وغير ذلك، وقد صح عن الشعبي أنه فسرها بمثل ما قررنا (٦/ج١٠/ ٣٧) وغيره، فتح القدير (٢/ ٣٢٥) والله أعلم» هـ.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

(٦٦) ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ لمّا أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثباتَ لهم وثَقُل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأُمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقين[1]. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون[2].

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ﴾ وقرىء للنبي على العهد. ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يُكثِر القتل ويبالغ فيه حتى يُذِلّ الكفر ويُقِل حِزْبه ويعزّ الإسلامُ ويستولي أهلُه، مِنْ أثخنه المرض إذا أثقله وأصله الثخانة، وقرىء يُثَخِّن بالتشديد للمبالغة. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامَها بأخذكم الفداء. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرىء بجرّ الآخرة على إضمار المضاف كقوله:

أكُلَّ امرىءٍ تَحْسَبِينَ امرَأً ونارٌ تُوقَدُ بِاللَّيلِ نَاراً

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغَلِّب أولياءه على أعدائه. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أَمَرَ بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخَيَّر بينه وبين المنّ لمّا تحولت الحالُ وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه الصلاة والسلام أُتيَ يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومُك وأهلك استَبْقِهم لعل الله يتوب عليهم وخذْ منهم فدية تقوّي بها أصحابَك وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقَهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء مكّني من فلان ـ لنَسيبٍ له ـ ومكنْ علياً وحمزة مِن أخويهما فنضرب أعناقهم، فلم يهوَ ذلك رسول الله ﷺ وقال: «إن الله لَيُلَيِّن قلوبَ رجال حتى تكون أَلْيَنَ من اللين، وإن الله ليشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] ومَثَلُك يا عمر مَثَلُ نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

---

(١) أي بفتح الضاد وضمها (الضَّعف، والضُّعف).

(٢) لم يتعرض هنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين ـ مع أن مدار الغلبة في الصورتين هو مجموع الأمرين ـ أي نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ـ وذلك اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر.

وما تشعر به كلمة «مع» من متبوعية مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر (س٤/ ٣٥).

(٣) إبراهيم: «٣٦».

ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١] فخيّر أصحابَه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجدُ بكاء بكيْت وإلا تباكيت فقال: «أبْكِ على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة»[٢]. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقَرون عليه.

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباتُه في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده أو أن لا يعذب أهلُ بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحِل لهم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»[٣]. وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أَمْسَكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب، والسببُ محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وبنحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَٰلًا﴾ حال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً. وفائدتُه إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وقرأ أبو عمرو من الأُسارىٰ. ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ

---

(١) نوح: «٢٦».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/٤٣) والترمذي (٤/٢١٣ رقم ١٧١٤) مختصراً مع الإشارة إلى القصة الطويلة، وأخرجه الترمذي أيضاً (٥/ ٢٧١ رقم ٣٠٨٤) والحاكم (٣/ ٢١ ـ ٢٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود.
قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٥ رقم ٥٨/ ١٧٦٣) في سياق أطول من ذلك لكنه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/٤٨) لكن ليس فيه ذكر عمر بن الخطاب وفيه زيادة: لقوله: (أي سعد بن معاذ) يا نبي الله كان الإثخان أحب إليّ من استبقاء الرجال.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧١ رقم ٨١).. «ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه. وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب».

﴿خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يَفْدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بَقِيت؟! فقال: «أين الذهب الذي دفعتَه إلى أم الفضل وقتَ خروجك وقلتَ لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدثٌ فهو لكِ ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقثم» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي تعالى»، قال: فأشهد أنك صادق وأنْ لا إله إلا الله وأنك رسوله والله لم يَطَّلِع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل[(1)]، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكِّنُكَ منهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون هَجَروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرفوها في الكُرَاع[(2)] والسلاح وأنفقوها على المحاويج. ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال[(3)]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار آووْا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نُسخ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[(4)] أو بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي من توليهم في الميراث. وقرأ حمزة وِلاَيَتِهم ـ بالكسر ـ تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكِتابة والإمارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٤) من حديث عائشة.
وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) الكراع أي الخيل.

(٣) ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً وأتم دفعاً للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (س٤/ ٣٧).

(٤) الأنفال: «٧٥».

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد، فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولّي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين. وقرىء كَثِير.

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ لمّا قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بيّن أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه في الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تَبِعة له ولا منّة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتّسم بسمتهم فقال:

(٧٥) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن. واستدل به على توريث ذوي الأرحام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ من الموارث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً واعتبار القرابة ثانياً. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطي حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يستغفرون له أيام حياته»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في الفتح السماوي ص٦٦٢ وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠). فهو حديث موضوع.

سُورَةُ التَّوبَةِ

ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

سورة التوبة مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة وقيل إلا آيتين من قوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾[1]

وهي آخر ما نزل. ولها أسماء أخر: التوبة والمقشقِشَة والبَحُوث والمبعثِرة والمنقِّرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكِّلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

. وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون. وإنما تُركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان، وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بيَّن موضعَها وتوفِّي ولم يبين موضعها، وكانت قصتُها تُشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذُها فضمت إليها[2]، وقيل لما اختلفت الصحابة في أنهما سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تُركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

(١) ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي هذه براءة، ومِنْ ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصلةٌ من الله ورسوله، ويجوز أن تكون براءة مبتدأ لتخصصها بصفتها والخبرُ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقرىء بنصبها على اسمعوا براءةً، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٨) والترمذي (٣٠٨٦) وأحمد (١/ ٥٧٥) والحاكم (٢/ ٢٢١، ٢٣٠) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

وإنما عُلِّقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاقِ الرسول فإنهما برئا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضَمْرة وبنو كنانة فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال:

(٢) ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضباء[١] ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل مني» فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرُّغاء[٢] فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أُمرتُ بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده[٣]. ولعل قوله ﷺ لا يؤدي عني إلا رجل مني ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه كثير لم يكونوا من عِتْرته، بل هو مخصوص بالعهود فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»[٤]. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإنْ أمهلَكُم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إعلام، فعَال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفعُه كرفع براءة على الوجهين. ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجَمَرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٥] وقيل يوم عرفة لقوله ﷺ: «الحج عرفة»[٦]. ووصْفُ الحج بالأكبر لأن العمرة تسمّىٰ

---

(١) أصل العضب القطع، والعضباء هي ناقة رسول الله ﷺ، وسميت بذلك لنجابتها لا لشق أذنها (المصباح المنير مادة عضب).

(٢) الرُّغَاء: صوت البعير.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٤٧٦ رقم ٣٦٧) و(٣/ ٤٨٣ رقم ١٦٢٢) و(٦/ ٢٧٩ رقم ٣١٧٧) و(٨/ ٨٢ رقم ٤٣٦٣) و(٨/ ٣١٧ رقم ٤٦٥٥ ورقم ٤٦٥٦) و(٨/ ٣٢٠ رقم ٤٦٥٧). ومسلم (٢/ ٩٨٢ رقم ١٣٤٧/٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٩٠) وهو حديث حسن أو صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٨٣ رقم ١٩٤٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) وابن ماجة (٢/ ١٠١٦ رقم ٣٠٥٨). من حديث ابن عمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجَه.

(٦) أخرج أحمد في المسند (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥) وأبو داود (٢/ ٤٨٥ رقم ١٩٤٩) والترمذي (٣/ ٢٣٧ رقم ٨٨٩) والنسائي (٥/ ٢٥٦) وابن ماجة (٢/ ١٠٠٣ رقم ٣٠١٥) وابن حبان (ص٢٤٩ رقم ١٠٠٩) والحاكم في المستدرك =

الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيدُه أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عزُّ المسلمين وذلُّ المشركين. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بأن الله. ﴿بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي من عهودهم. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطف على المستكنّ في بريء، أو على محل إن واسمها في قراءة مَنْ كسرها إجراءً للأذان مجرىٰ القول، وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إنّ أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله براءة من الله إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علّقه بالناس ولم يخصّه بالمعاهدين. ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولي عن الإسلام والوفاء. ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكأنه قيل لهم بعد أن أُمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط[1]. ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ إلى تمام مدتهم ولا تُجْروهم مجرىٰ الناكثين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضىٰ، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسَه مِنْ سَلْخ الشاة. ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهذا مخل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الناكثين. ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ من حل أو حَرَم. ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ وأسروهم، والأخيذُ الأسيرُ. ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ واحبسوهم أو حِيلُوا بينهم وبين المسجد الحرام. ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾

= (١/ ٤٦٤) والدارقطني في السنن (٢/ ٢٤٠ رقم ١٩) وابن الجارود في المنتقى (ص١٨٩ رقم ٤٦٨) والدارمي (٢/ ٥٩) والطيالسي في منحة المعبود (١/ ٢٢٠ رقم ١٠٥٦) والبيهقي (٥/ ١١٦) والبغوي في شرح السنة (٧/ ٢٩٠ رقم ٢٠٠١). من حديث عبدالرحمن بن يعمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم ١٠٦٤).

(١) كلمة «ثم» للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة (س/٤ ٤٢).

كل ممر لئلا يتبسطوا في البلاد، وانتصابُه على الظرف. ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الشرك بالإيمان. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فدَعُوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يُخلىٰ سبيله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف ووَعَد لهم الثواب بالتوبة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمِّنه. ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر[١]. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم، وأحدٌ رُفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إنْ من عوامل الفعل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغْرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبرُ يكون كيف وقُدِّم للاستفهام، أو للمشركين، أو عند الله، وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون، وكيف على الأخيرين حال من العهد، وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبيين[٢]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل. ومحله النصب على الاستثناء، أو الجرُّ على البدل، أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام[٣]. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[٤] غير أنه مطلق وهذا مقيد، وما تحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاءِ حكمه مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وخَبَّرتُماني أنَّما المَوْتُ بِالقُرَى ... فكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلِيبُ

(١) والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة (س٤/ ٤٤).

(٢) وتكرير كلمة «عند» للإيذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (س٤/ ٤٥).

(٣) والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب توكيدها (س٤/ ٤٥).

(٤) التوبة: «٤».

أي فكيف مات[١]. ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلًّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لعَمْرُكَ إنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كإلِّ السَّقْبِ مِنْ رَألِ النَّعَامِ

وقيل ربوبية، ولعله اشتق للحِلف من الإلّ وهو الجؤار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من ألَلَ الشيءَ إذا حدده أو من ألّ البرقُ إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرىء ايلا كجبرئل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر. ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقُبوا، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضوْن، ولأن المراد إثباتُ إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعةِ والوفاء بالعهد في الحال واستبطانِ الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه[٢]. ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما تتفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة تَزَعُهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء.

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله:

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين، وهذا خاص بالذين اشتروْا وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في

---

(١) قال أبو السعود: (وحذف الفعل المستنكَر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره، لا لمجرد كونه معلوما) س٤/٤٦.

(٢) ونسبة الإرضاء إلى الأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم (س٤/٤٦). =

الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود. ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين، فالتخصيص إما لأن قتلهم أهمّ وهم أحق به أو للمنع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل، والتصريح بالياء لحن[1]. ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا أيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً، وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾. وقرأ ابنُ عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وتشبث به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فيراقَبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقاتِلوا، أي ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه لا إيصالُ الأذية بهم كما هو طريقة المؤذِين.

(١٣) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال، لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاوَنوا بني بكر على خزاعة[2]. ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في

---

(١) القراءات في «أئمة» عند القراء السبعة هي أن بعضهم قرأ بهمزتين محققتين كما هو أصل قراءتها في العربية المشهورة. وقرأ قوم بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بين أي بين مخرج الهمزة والياء والألف، ولعلها الأصل عند البيضاوي. وقرأ قوم بإبدال الهمزة الثانية ياء صريحة، وقد أنكر الزمخشري هذه القراءة الأخيرة فقال: (وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحِنٌ محرف) الكشاف (١٤٢/٢) والبيضاوي تبع الزمخشري في ذلك حيث قال: (والتصريح بالياء لحن)... إلا أن هذه القراءة صحيحة وقد قرأ بها رأس القراء والنحاة، لذلك رد أبو حيان على الزمخشري فقال: (وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحناً وقد قرأ به رأس البصريين والنحاة أبو عمرو بن العلاء وقارىء مكة ابنُ كثير وقارىء مدينة الرسول ﷺ نافع) البحر المحيط (١٥/٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» بدون سند (١٨/٤). وانظر القصة وتخريجها قريباً.

أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١]. وقيل[٢] هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به. فعدَلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلةِ، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءكم ولا تتركوا أمره. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يُخشىٰ إلا منه..

(١٤) ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجِبه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه. ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم ـ إن قاتلوهم ـ بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدِموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذًى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم. والآيةُ من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً. وقرىء ويتوبَ بالنصب على إضمار أنْ على أنه من جملة ما أجيب به الأمر، فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل للمنافقين. وأمْ منقطعة، ومعنىٰ الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. ﴿أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ ولم يتبين الخلّص منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفىٰ العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إنّ تعلق العلم به مستلزِم لوقوعه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على جاهدوا داخلٌ في الصلة. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في «لمّا» من معنى التوقع منبّه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيح لما يُتوهم من ظاهر قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾[٣].

---

(١) الأنفال: «٣٠».

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٦١) من قول الجبائي.

(٣) وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم =

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم. ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام. وقيل هو المراد، وإنما جُمِع لأنه قبلة المساجد وإمامُها فعامرُه كعامر الجميع، ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد[١]. ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارةِ بيت الله وعبادةِ غيره. روي أنه لما أُسر العباس عيّره المسلمون بالشرك وقطيعةِ الرحم وأغلظَ له عليٌّ رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالُكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا إنا لنعمُر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني. فنزلت[٢]. ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لأجله.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي إنما تستقيم عَمَارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها تزيينُها بالفَرْش وتنويرها بالسُّرج وإدامةُ العبادة والذكر ودروس العلم فيها وصيانتُها مما لم تُبنَ له كحديث الدنيا[٣]، وعن النبي ﷺ:

= ومداراً للثواب.
وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (س٤/ ٤٩).

(١) أي (مسجد الله).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦ج١٠/ ٩٥) وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ١٤٥) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.
وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٦) وأبو الشيخ ـ كما في «الدر» (٤/ ١٤٦) ـ عن الضحاك.
● وأخرج مسلم (٣/ ١٤٩٩ رقم ١١١/ ١٨٧٩) وابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٥) وأحمد (٤/ ٢٦٩) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٦ رقم ٤٢٣).
عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ، فقالَ رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام، إلاَّ أنْ أُسْقِيَ الحاجَّ. وقال آخرُ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام. إلاَّ أنْ أعمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقال آخرُ: الجهادُ في سبيل اللهِ أفضلُ مما قلتُم. فزجرهُم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتَكُم عند منبر رسولِ الله ﷺ. وهو يومُ الجمعةِ. ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُهُ فيما اختلفتم فيه. فأنزل اللهُ عز وجلَّ: أجعلتم سقايةَ الحاجَ وعمارةَ المسجدِ الحرامِ كمن آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ» الآية إلى آخرها.
● وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/ ٩٥ ـ ٩٦) من وجه آخر عن النعمان به، وإسناده صحيح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجة (٢/ ١٣٧٧ رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنَّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ وعالمٌ أو متعلمٌ».
● وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٢٩ رقم ٤٠٢٨) عن عبدالله بن ضَمْرَة.
● وأخرجه أبو داود في «المراسيل» (رقم: ٥٠٢) وأحمد في الزهد (رقم: ١٥٤) عن محمد بن المنكدر، ورجاله ثقات رجال الشيخين.
● وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٧) و(٧/ ٩٠) والبيهقي في الزهد (رقم: ٢٤٦) من حديث جابر بن عبدالله.
وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣/ ٥٤٩ رقم ٤٢٨٠ ـ مع الفيض) وعزاه لأبي نعيم والضياء في المختارة، عن جابر. ورمز لصحته، وقال المناوي: رمز المصنف لحسنه. =

«قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبىٰ لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المَزُور أن يكرم زائره»[1]. وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما عُلِم أن الإيمان بالله قرينُه وتمامُه الإيمانُ به، ولدلالة قوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة عليه. ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جِبِلّية لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها.

•

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

(١٩) ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقىٰ وعَمَر فلا يُشبّهان بالجثث بل لا بد من إضمار تقديرُه أجعلتم أهل سقاية الحاج

= ● وأخرجه الطبراني ـ كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥) ـ من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي «فيه خداش بن المهاجر ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
● وأخرجه البزار في المسند (٤/ ١٠٨ رقم ٣٣١٠ ـ كشف) من حديث عبدالله بن مسعود وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٤) وقال: رواه البزار، وفيه المغيرة بن مطرف ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».
● وأخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧٣ رقم ٩٦): لم أجده هكذا. وفي الطبراني ـ المعجم الكبير (٦/ ٢٥٣ رقم ٦١٣٩) و(٦/ ٢٥٥ رقم ٦١٤٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣١) وقال: أحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، قلت: يعني رقم (٦١٤٥) ـ عن سلمان عن النبي ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره».
وروى عبدالرزاق [في المصنف (١١/ ٢٩٦ رقم ٢٠٥٨٤)] ـ ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، قال «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ـ وإن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها».
ومن هذا الوجه أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد ـ (ص٢ رقم٦) ـ» هـ.
● وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٣) عن أبي سعيد الخدري بلفظ «يقول الله يوم القيامة أين جيراني؟ فتقول الملائكة، ومن ينبغي أن يكون جيرانك؟ فيقول: عمار مسجدي». وقال: غريب من حديث أبي الهيثم سليمان بن عمرو العتواري، لا أعلم رواه له راوياً إلاَّ «دراجاً».
قلت: ـ وفيه مع ضعف دراج، بقية، وابن لهيعة.
وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (١/ ١٥٢) سنده ضعيف. ثم قال بعد أن أورد الحديث «وهو في الشعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح. وأسند ابن حبان في الضعفاء ـ (٢/ ٨٩ ـ ٩٠) ـ آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه» هـ.

كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ سُقاة الحاج وعَمَرَة المسجد والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبيّن عدم تساويهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكَفَرَةُ ظَلَمَةٌ بالشرك ومعاداةِ الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب؟! وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنىٰ عند الله دونكم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة يَبْشُرهم بالتخفيف، وتنكيرُ المبشر به إشعارٌ بأنه وراء التعيين والتعريف.

(٢٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إنْ هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين[2]. وقيل نزلت نهياً عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة[3]، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها[4].

---

(١) وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم.
وتوجيه النفي ههنا والإنكار فيما سبق «أجعلتم سقاية..» إلى الاستواء والتشبيه ـ مع أن دعوىٰ المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هي الأفضلية دون التساوي والتشابه ـ للمبالغة في الرد عليهم، فإن نفي التساوي والتشابه نفي للأفضلية بالطريق الأولىٰ (س٤/ ٥٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠١): أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.
قلت: فيه ثلاث علل: التعليق، وضعف جويبر، والانقطاع بين الضحاك عن ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤): ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب.
قلت: مقاتل هالك.

(٤) قوله «ومن يتولهم» إفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول، وللإيذان باستقلال كل واحد منهم في =

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(٢٤) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العُشْرة. وقيل من العشرة فإن العشيرة جماعة ترجع إلى عِقْد كعِقد العشرة. وقرأ أبو بكر وعشيراتُكم وقرىء وعشائرُكم. ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها[1]. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي، فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ جواب ووعيد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم وقَلّ من يتخلص منه.

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين، ويجوز أن يقدر في أيام مواطن، أو يفسر الموطن بالوقت كمَقْتل الحسين، ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ منه أن يعطَفَ على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جمع المواطن. وحنينٌ واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون ـ وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطُلقاء ـ هوازنَ وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف، فلما التقوْا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نُغلَب اليوم من قلّة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابُهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فَلُّهم مكة وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجامه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس ـ وكان صيّتاً ـ صِحْ بالناس، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكرّوا عُنُقاً واحداً يقولون لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا[2]. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ أي الكثرة. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو من

= الاتصاف بالظلم، لا أن المراد تولي فرد واحد (س٤/ ٥٤).

(١) وصفت الأموال بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكدّ اليمين (س٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ رقم ٧٦/ ١٧٧٥) وأحمد (١/ ٢٠٧) من حديث العباس ببعض يسير.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤) عن الربيع.
قلت: فيه أبو جعفر الرازي ضعيف، وكذلك أحمد بن عبدالجبار العطاردي ضعيف.

أمر العدو. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مفراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا[1]، وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حاليهما. وقيل[2] هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر والسبي. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم. روي أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم وقد سُبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالُنا ـ وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأُخِذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ـ فقال ﷺ: «اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم» فقالوا ما كنا نَعْدِل بالأحْسَاب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: «إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنّا خيّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبْي وطابت نفسه أن يرده فشأنُه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضىٰ، فمُروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا» فرفعوا أنهم قد رضوا[3].

= ● وأخرج الحاكم في المستدرك (٣/٤٨) من حديث أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة والمدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل، فلما اشتد القتال ولو مدبرين. . . الحديث.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح.
● وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه نحو حديث أنس ـ كما في الدر المنثور (٤/١٥٨).

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن أبزى رضي الله عنه في قوله «وعذّب الذين كفروا» قال: بالهزيمة والقتل. وفي قوله «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» قال: على الذين انهزموا عن النبي ﷺ يوم حنين ـ كما في «الدر» (٤/ ١٦٢) ـ.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٧٥) عن الحسن.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠٥): «ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله. وذكرها البخاري ـ في صحيحه =

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس[1] رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرىء نِجْس بالسكون وكسر النون وهو ككِبْد في كَبِد، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس. ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ يعني سَنَة براءة وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرفاق. ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفّق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتاروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرىء عائِلةً، على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿ إِن شَآءَ ﴾ قيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يعطي ويمنع.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيناه في أول البقرة[2]، فإن إيمانهم كلا إيمان[3]. ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة، وقيل رسولُه هو الذي يزعمون اتّباعه، والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه، مشتق من جَزَىٰ

= (٨/ ٣٢ رقم ٤٣١٨ ـ ٤٣١٩) ـ من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرد، وفيه الشعر الذي أنشده زهير» هـ.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٨٦) عنه بدون سند.

(٢) البقرة: «٦».

(٣) والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين (س٤/ ٥٨). =

دَيْنَه إذا قضاه. ﴿عَن يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنًى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أذلاء، أو من الجزية بمعنى نقداً مسلّمة عن يد إلى يد، أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنقُه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب، ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ أخذها من مجوس هَجَر[1] وأنه قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[2] وذلك لأن لهم شبهة كتاب فأُلحقوا بالكتابيين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روىٰ الزهري[3] أنه ﷺ صالح عَبَدة الأوثان إلا من كان من العرب[4]، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد. وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكَسُوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكَسوب.

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر مَنْ يحفظ التوراة، وهو لمّا أحياه الله بعد مائة عام أملىٰ عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يُكذِّبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عَزيْزٌ بالتنوين، على أنه عربي مخبر عنه بابن غيرُ موصوف به، وحذفُه في القراءة الأخرى[5] إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصفٌ والخبرُ محذوف مثل معبودُنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم. وإنما قالوه استحالةً لأن يكون وُلد بلا أب، أو لأن يَفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى مَنْ لم يكن إلهاً. ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيقٌ مماثِل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة باب جزية أهل الكتاب (٤٢) وإسناده صحيح.

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زُهْرة بن كلاب بن مُرَّة، الإمام أبو بكر القُرشيّ الزهريّ المدني أحد الأعلام، من تابعي أهل المدينة من الطبقة الرابعة، كان حافظ زمانه، قال الليث بن سعد: قال ابن شِهاب: ما صبرَ أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري. ولد سنة خمسين، وطلب العلم في أواخر عصر الصحابة وله نيف وعشرون سنة. وقد توفي سنة (١٢٤هـ).
[تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٠ ـ ٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ١٧٧)].

(٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٣٥/ ١٠٣٨) عن معمر عن الزهري.

(٥) القراءة الأخرى «عزيرُ» بالضم من دون تنوين.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة المشابهةُ، والهمز لغة فيه، وقرأ به عاصم، ومنه قولهم امرأة ضهيء على فعيل للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن مَنْ قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل اللهُ وتحليل ما حرم الله، أو بالسجود لهم[1]. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله[2]. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ وهو الله تعالىٰ وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة لله. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ يخمدوا. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يرضىٰ. ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجَب لأنه في معنى النفي[3]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف الجواب لدلالة

---

(١) الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العُبّاد.

(٢) وتخصيص المسيح بالاتخاذ يشير إلى أن اليهود لم يفعلوا ذلك بعزير.. وتأخيره في الذكر ـ مع أن اتخاذهم له عليه السلام رباً معبوداً أقوىٰ من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم ـ لأنه مختص بالنصارىٰ. ونسبته عليه السلام إلى أمه ـ من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية ـ للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بالجهل والحماقة (س٤/ ٦٠).

(٣) وفي إظهار النور في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف =

ما قبله عليه.

(٣٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضَمّوا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله. والضميرُ في ليظهره للدين الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، واللام في الدين للجنس أي على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم.

(٣٤) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرُّشا في الأحكام. سمّىٰ أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ دينه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضنّ به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل كبُر على المسلمين فذكر عمرُ رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام «ما أُدي زكاته فليس بكنز»[2] أي بكنز أُوعد عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كُوي بها»[3] ونحوه فالمراد منها ما لم يُؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام

= وإشعار بعلة الحكم (س٤/ ٦١).

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ رقم ١٦٦٤). والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وأقره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٥) قال الألباني: غيلان بن جامع ليس من رجال البخاري، وإنما روى له مسلم وحده، ثم قال: وعلة هذا الحديث الانقطاع.
انظر كلامه المفيد حول الحديث في «الضعيفة» (٣/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨ رقم ١٣١٩).

(٢) أخرجه إلطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٦٤) ـ وابن مردويه ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٧) ـ وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٢ ـ ٨٣) كلهم بأسانيدهم عن سويد بن عبدالعزيز عن ابن عمر. وقال الهيثمي عنه: ضعيف. وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٤٠): «لين الحديث».
● وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣) من طريق نافع وعبدالله بن دينار عنه موقوفاً. وقال: وهذا هو الصحيح.
والموقوف: أخرجه البخاري (٣/ ٢٧١، ٨/ ٣٢٤).
● وأخرج أبو داود (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ١٥٦٤) عن أم سلمة قالت: كنتُ ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت يا رسول الله: أكنزٌ هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزُكيَ فليس بكنز».
قال المنذري في «المختصر» (٢/ ١٧٥): في إسناده عتَّاب بن بشر، أبو الحسن الحراني، وقد أخرج له البخاري، وتكلم في غير واحد.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود» (ص١٥٥ رقم ٣٣٩/ ١٥٦٤) حسن ـ المرفوع منه فقط.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٩) وأحمد في المسند (٥/ ١٦٨) عن أبي ذر وفيه: أبو مجيب مجهول. [تعجيل المنفعة: ص٥١٨]. =

فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره»[١] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حميّ شديد عليها. وأصله تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال عليها والمذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز[٢]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[٣]. وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال، فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنىٰ والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوَرُّوا عن السائل وأعرضوا عنه وولوْه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقاديم البدن ومآخيره وجنباه. ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول. ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم أو ما تكنزونه. وقرىء تَكْنُزُون بضم النون.

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ معمولُ عِدّة لأنها مصدر. ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، والمعنى: أن هذا أمر ثابت

= وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٨ رقم ٧٦٣٦) عن أبي أمامة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢٥) وقال فيه: بقية وهو مدلس قلت: وقد عنعن.
فالخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٠ رقم ٢٤/ ٩٨٧) وأبو داود (٢/ ٣٠٢ رقم ١٦٥٨). وابن جرير (٦/ج١٠/ ١٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٤/ ١٠٩ رقم ٧١٥٠) والطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٨ ـ ١١٩) وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٩) ـ. عن علي بإسناد صحيح.

(٣) التوبة: «٣٤».

في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فَرْد وهو رجب وثلاثة سَرْد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعربُ ورثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرمها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأوّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحَرَم وحال الإحرام، وعن[1] عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحُرُم إلا أن يقاتَلوا ويؤيد الأول ما روي أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذي القعدة[2]. ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ جميعاً، وهو مصدر كفّ عن الشيء، فإن الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أي تأخير حُرْمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية وَرْش إنما النسيُّ بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء النَّسْيُ بحذفها والنَّسْءُ والنِّسَاءُ وثلاثتها مصادر نَسَأَه إذا أخّره. ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم. ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص يُضَلُّ على البناء للمفعول، وعن يعقوب يَضِلُّ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ يحلون المنسي من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حُرمته. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن آلهتكم قد أَحَلَّت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القبائل إن آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرم فحرموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم. وقرىء تَثَاقَلْتم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٤٥) وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٩٢) بدون سند.

على الأصل، وأثّاقلتم؟ على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضُمِّن معنى الإخلاد والميل فعُدِّي بإلىٰ، وكان ذلك في غزوة تبوك[1] أُمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عَسْرة وقَيْظ مع بُعْد الشُّقَة وكثرة العدوّ فشَقّ عليهم. ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر[2].

إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إن لا تنفروا إلى ما استُنْفِرتم إليه. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع كقَحْط وظهور عدوّ. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس[3] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ إذ لا يقدح تثاقُلُكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالىٰ وَعَدَ له بالعصمة والنصر ووَعْدُه حق. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحُذِف الجزاء وأُقيم ما هو كالدليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره. وإسنادُ الإخراج إلى الكفرة لأن همَّهُم بإخراجه أو قتلِه تسبَّبَ لإذن الله له بالخروج. وقرىء ثانيْ اثنين بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب، ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل مِنْ إذ أخرجه بدلَ البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغارُ نقب في أعلى ثَوْر، وهو جبل في يُمنىٰ مكة على مسيرة ساعة، مكثَا فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أو ظرف لثاني.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٣٤) عن مجاهد.
وذكر الواحدي في «الأسباب» ص٢٤٦ ذلك بدون راوٍ ولا سند.

(٢) وفي ترشيح الحياة الدنيا مما يؤذن بنفاستها ويستدعي الرغبة فيها وتحرير الآخرة عن مثل ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة (س٤/ ٦٥).

(٣) وإنما وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا. . (س٤/ ٦٥). =

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[1] فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروْه وقيل لمّا دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوتَ فنسجت عليه[2]. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أَمَنَتَهُ التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً. ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله «نَصَرَه الله». ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ يعني الشرك، أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب وكلمةَ اللهِ بالنصب عطفاً على «كلمةَ الذين»، والرفعُ أبلغُ لما فيه من الإشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار، ولذلك وَسَّط الفصل. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره.

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً، ولذلك لما قال ابن أم مكتوم[3] لرسول الله ﷺ: أَعليّ أن أنفر؟ قال: «نعم». حتى نزل: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٧٦ رقم ١٢٠): لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ [البخاري: (٨/ ٣٢٥ رقم ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ١/ ٢٣٨١)] ـ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال «نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنينِ الله ثالثهما».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن أبي مصعب المكي قال أدركت زيد بن أرقم، والمغيرة ابن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي ﷺ وأمر الله تبارك وتعالى فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار وأتى المشركون من كل فج حتى كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه ليس في الغار شيء... الحديث) ـ كما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣) ـ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم.

قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٤٣ رقم ١٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٢٢) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٩ رقم ٢٢٩) وغيرهم.

وفيه أبو مصعب المكي مجهول. وعون بن عمرو القيس: منكر الحديث مجهول. انظر «الميزان» (٣/ ٣٠٦).

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

فائدة: ـ قال الشيخ محمد درويش الحوت في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» ص٣٧٧: «فائدة: ما يذكر في السير من نبات شجرة عند فم الغار وقت هجرته ﷺ، وأنه فتح باب من ظهر الغار وظهر عنده نهر، وأن الحيّة لدغت أبا بكر في الغار باطل لا أصل له» هـ.

(٣) لم أقف عليه.

وأورده الحافظ في «الكافي الشافِ» ولم يخرجه رقم (١٢٣).

حَرَجٌ﴾[١]. ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من تركه. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٢) ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا﴾ أي لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً. ﴿قَرِيبٗا﴾ سهل المأخذ. ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ متوسطاً. ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تُقطَع بمشقة. وقرىء بكسر العين والشين[٢]. ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين. ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العِدّة أو البدن. وقرىء لوُ استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير في قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[٣]. ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ سادّ مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو حال من فاعله. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ بيان لما كنّىٰ عنه بالعفو ومعاتبة عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلُّوا بأكاذيب وهلاّ توقفت؟ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أخْذُه للفداء وإذنُه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما.

(٤٤) ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعِدَة لهم بثوابه[٤].

---

(١) النور: «٦١».
(٢) أي قرىء «بَعِدَت عليهم الشِّقَّة».
(٣) البقرة: «١٦».
(٤) تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول ـ الذي صلته فعل دال على الحدوث ـ وعن الفريق الثاني باسم الفاعل ـ المفيد للدوام ـ للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادثٌ في أمر خاص غير مصحح لنظمهم =

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ في التخلف. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما. ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون[1].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(٤٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أهبة. وقرىء عُدُّهُ بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فَانْجَرَدُوا وأَخْلَفُوكَ عَدَا الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

وعِدَّةً بكسر العين بالإضافة وعِدَةً بغيرها. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل. ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم. والقاعدين يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً، ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جُعل الاستثناء منقطعاً، وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل، مِنْ وَضَعَ البعير وضعاً إذا أسرع. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في أوضعوا. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضَعَفَة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نماًمون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم[2].

= في سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم في الكذب.
والتعبير عما يتعلق بالكذب بالعلم لأن المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذبُ احتمال عقلي فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه.. (س٤/ ٦٩).

(١) قوله «وارتابت قلوبهم» عبر عن ريبها بالماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (س٤/ ٧٠).

(٢) ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والتشديد في الوعيد، والإشعار بترتبه على الظلم (س٤/ ٧١).

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٨) ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلىٰ ذي جدة أسفل من ثنيّة الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكايد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكرِه انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أَذِن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بِنساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد عَلِمت الأنصارُ أني مولع بالنساء فلا تَفْتنّي ببنات الأصفر ولكني أعينك بمالي فاتركني[1]. ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه[2]. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها..

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٤٨) من طريق ابن جريج عن ابن عباس لسند ضعيف ومنقطع.
● وأخرج الطبراني معناه في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٢٢ رقم ١٢٦٥٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس.
قلت: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف». قلت: وفيه بشر بن عمارة ضعيف أيضاً.
● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٦٣ رقم ١١٠٥٢) نحوه دون ذكر الاسم من طريق مجاهد عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال «رواه الطبراني وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف».
قلت: بل هو متروك [التقريب (١/ ٣٩ رقم ٢٤١)].

(٢) وتصدير الجملة بحرف التنبيه «ألا» مع تقديم الظرف إيذانٌ بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجىً من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن.
وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردىٰ أسفل سافلين (س٤/ ٧٢).

﴿وَإِن تُصِبۡكَ﴾ في بعضها. ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ مسرورون[1].

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم. وقرىء هل يصيبُنا، وهل يُصَيِّبنا وهو من فَيْعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يَصُوب، واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به، وقيل من الصوْب. ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره[2].

(٥٢) ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا[3]. ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إلا إحدىٰ العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصرة والشهادة. ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ أمرٌ في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغةُ في تساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أُمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم، وهو جواب قول جد بن قيس وأعينُك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرُهم. وقرأ حمزة والكسائي أن يُقْبَل بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي، وقرىء يَقْبَلَ على أن

---

(١) وإسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصبك مصيبة تسررهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الأولىٰ مضطرون وفي الثانية مختارون (س٤/ ٧٣).

(٢) قوله «وعلى الله» أظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والتلذذ به (س٤/ ٧٣).

(٣) والتربص هو التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً.

الفعل لله. ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين. ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين. ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم. ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيُظهِرون الإسلام تَقِيَّة.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجؤون[1] إليه ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ غيراناً. ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه مفتعل من الدخول. وقرأ يعقوب مَدْخَلاً من دخل، وقرىء مُدْخَلاً أي مكاناً يُدخِلون فيه أنفسهم، ومُتَدَخَّلاً ومُنْدَخَلاً من تدخل واندخل ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح. وقرىء يَجْمَزُون ومنه الجُمَازة[2].

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يُعيبك. وقرأ يعقوب يُلْمِزُك بالضم، وابنُ كثير يُلامِزُك. ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ في قَسْمها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قيل إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق فقال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يَقْسِم صدقاتِكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل[3]. وقيل في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يَقْسم غنائمَ حنين فاستعطَفَ قلوبَ أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم، فقال: أعدِل يا رسول الله فقال: «ويلك إن لم أعدلْ فمن يَعْدل»[4]. وإذا للمفاجأة، نائبٌ مناب الفاء الجزائية.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة، وذكْرُ الله

---

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط «يجدون» لإفادة استمرار عدم الوجدان (س٤/ ٧٥).

(٢) الجُمَازة هي الناقة الشديدة العَدْوِ.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٦ رقم ١٢٦): «لم أجده».

(٤) أخرجه البخاري (٦/٦١٧ ـ ٦١٨ رقم ٣٦١٠) ومسلم (٢/ ٧٤٤ رقم ١٤٨/١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضلُه ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا. ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا من فضله. والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم. ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال:

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٦٠) ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم، وهو دليل على أن المراد باللمْز لمزُهم في قَسْم الزكوات دون الغنائم. والفقيرُ مَنْ لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفَقَار كأنه أصيب فَقَارُه. والمسكينُ من له مال أو كَسْب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾[1] وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر، وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبَهم، أو أشرافٌ قد يترتب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نُظَرائهم؛ وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك، وقيل أشراف يُستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم، والأصح أنه كان يعطيهم من خُمْس الخُمُس الذي كان خاصَّ مالِهِ وقد عُدَّ منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة. وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المُكَاتِبَ بشيء منها على أداء النُّجوم. وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتَق وبه قال مالك وأحمد، أو بأن يُفدىٰ الأسارى. والعدول عن اللام إلى «في» للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب، وقيل للإيذان بأنهم أحق بها. ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ والمَدْيونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها»[2] ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياع الكِرَاع والسلاح. وقيل وفي بناء القناطر والمصانع. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أيْ فَرَضَ لهم الله الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في للفقراء. وقرىء بالرفع على تلك فريضةٌ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في

(١) الكهف: «٧٩».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٣٦) وابن ماجه (١٨٤١) والبيهقي (٧/ ١٥) ومالك في الموطأ (١/ ٢٦٨) والحاكم (١/ ٤٠٧) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تصحيحه الفتح السماوي ص٦٨٥.

مواضعها. وظاهرُ الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وُجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جوازُ صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجابُ قَسْمها عليهم.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ يسمع كل ما يُقال له ويصدقه. سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فَرْط استماعه صار جملتُه آلةَ السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، أو اشتق له فعل من أَذِن أَذْناً إذا استمع كأنِف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أُذُن سامِعة نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول[1]. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أَذِن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدِّق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خُلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة[2]. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم. وقرأ حمزة ورحمةٍ بالجرّ عطفاً على خير، وقرىء بالنصب على أنها علة فعل دل عليه أُذُن خير أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع أُذْنُ بالتخفيف فيهما. وقرىء أُذُنٌ خَيْرٌ على أن خير صفة له أو خبر ثان ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه[3].

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ لترضوا عنهم، والخطابُ للمؤمنين. ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيدُ الضمير لتلازم الرضاءين، أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٢٥٤ وأورد نحوه عن السدي وابن إسحاق.

(٢) وهو من إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة (س٤/ ٧٧).

(٣) قوله «يؤذون» في صيغة الاستقبال ـ المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه ـ إشعار بقبول توبتهم (س٤/ ٧٧).

وقوله: «لهم عذاب أليم» في تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً للموصول ما لا يخفىٰ من المبالغة.

وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة «رسول الله» مضافاً إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيهِ على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (س٤/ ٧٨).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(٦٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ أن الشأن. وقرىء بالتاء. ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يشاقق مفاعَلَة من الحدّ. ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي فحقٌّ أنَّ له، أو على تكرير أنّ للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجوابُ محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يَهْلِك. وقرىء فإنّ بالكسر. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر، وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُبْرِز أو مظهِر. ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونَه هيهات هيهات، فأخبر اللهُ تعالىٰ به نبيه، فدعاهم فقال: «قلتمْ كذا وكذا؟» فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[1]. ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به وإلزاماً للحجة عليهم، ولا تعبأ باعتذارهم الكاذب.

(٦٦) ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فإنها معلومةُ الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مُقْدمين على الإيذاء والاستهزاء[2]. وقرأ عاصم بالنون فيهما، وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله، وإن تُعْفَ بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: إن تُرْحَمْ طائفةٌ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٧٣) بإسناد صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٨٦.

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ: «إنْ يُعفَ عن طائفة منكم تُعَذَّبْ طائفةٌ» وقد قرأ بها غير عاصم. انظر المبسوط لابن مهران ص١٩٥.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(٦٧) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حَلِفِهم بالله إنهم لمنكم وتقريرٌ لقولهم وما هم منكم وما بعدَه كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ عن المبارّ، وقبض اليد كناية عن الشحّ. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع، والمراد به ما وُعِدُوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

(٦٩) ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثلُ الذين، أو فعلتم مثلَ فعلِ الذين من قبلكم[١]. ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قُدِّر لصاحبه[٢]. ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدَجَة[٣] من الشهوات الفانية والْتهائهم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطَبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة[٤].

---

(١) «قبلكم» والالتفات فيه من الغيبة إلى الخطاب للتشديد عليهم بالخطاب (س٤/ ٨١).

(٢) «فاستمتعوا» أورده بصيغة الاستفعال لبيان الاستزادة والاستدامة في التمتع (س٤/ ٨١).

(٣) المُخْدَجَة أي الناقصة الفانية، وهو من أخدجت الناقة إذا ألقت ولدها ناقص الخلق (المصباح المنير، مادة خدج).

(٤) وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبوط والخسران (س٤/ ٨٢).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

(٧٠) ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أُغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلكوا بالريح. ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك نمروذ ببعوض وأهلَك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظُّلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط ائتُفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأُمطروا حجارة من سجيل. وقيل قريات المكذبين المتمردين وائتفاكُهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب[١].

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[٢] ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾[٣] تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»[٤]. ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عَدْن دار الله التي لم ترها

---

(١) قوله «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم... وتقديم المفعول «أنفسهم» لمجرد الاهتمام به... (س٤/ ٨٢).

(٢) التوبة: «٦٧».

وقد عبر عن هؤلاء بالولاية فقال: «بعضهم أولياء بعض» بينما عبر عن أولئك بمن الاتصالية حيث قال «بعضهم من بعض» للإيذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك، ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (س٤/ ٨٢).

(٣) وإظهار صفة الإيمان في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد. وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنه من لوازمه (س٤/ ٨٣).

(٤) أخرج البزار (٣/ ٥١ ـ ٥٢ رقم ٢٢١٧ ـ كشف الأستار).

من طريق جسر بن فرقد، عن يحيى بن سعيد ابن أخي الحسن، عن الحسن، قال: لقيتُ عمران بن حُصَين =

عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبىٰ لمن دخلكِ»[1]. ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تغاير وصفه فكأنه وَصَفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهىٰ الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أولَ ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرّىٰ عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكنُ الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعتريهم فيها فَناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[2]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها.

= وأبا هريرة فسألتهما عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيبة في جناتِ عَدْن» قالا: على الخبير سَقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: - قصر من دُرّة، في ذلك القصر سبعون ألف دار من زمرّدة خضراء في كل بيت، منها سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فِراشاً من كلِّ لون، على كلِّ فراشٍ امرأةٌ من الحور العين، في كل بيت مائدة على كل مائدة سبعون لوناً في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة يُعطى من القوة ما يأتي على ذلك كله في غداةٍ واحدةٍ.

قال البزار: لا نعلم أحداً رواه مرفوعاً إلا عمران، وأبا هريرة، ولا نعلم لهما طريقاً إلاّ هذا، وجَسر: لين الحديث، وقد حدَّث عنه أهل العلم. والحسن فلا يصحُّ سماعه، عن أبي هريرة من رواية الثقات.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه جسر بن فرقد: - وهو ضعيف، وقد وثقه سعيد بن عامر، وبقية رجال الطبراني ثقات».

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه البزار (٤/ ١٩٢ رقم ٣٥١٦ - كشف الأستار) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج١٠/ ١٨٠) والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١١٥١ - ١١٥٢) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٨ رقم ٢١) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣) كلهم من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء مرفوعاً.

قال ابن الجوزي «هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث، وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جداً، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك» هـ.

وقال البزار: «لا نعلم رواه بهذا اللفظ إلا أبو الدرداء، وزيادة لا نعلم روى عنه غير الليث، ولا نعلم أسند فضالة عن أبي الدرداء غير حدثين» وأورد الذهبي الحديث في «الميزان» (٢/ ٩٨) وقال «هذه ألفاظ منكرة لم يأتِ بها غير زيادة» هـ.

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٥ رقم ٦٥٤٩) و(١٣/ ٤٨٧ رقم ٧٥١٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٦ رقم ٩/ ٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف. ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ في ذلك ولا تحابهم. ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويُعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت[١] فتاب الجلاس وحسنت توبته[٢]. ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ من فتك الرسول، وهو أن خمسةَ عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخُطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفةُ بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا[٣]، أو إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة، أو بأن يتوّجوا عبدالله بن أبيّ وإن لم يرضَ رسولُ الله ﷺ. ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نقمتهم. ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولًى، فأمر رسولُ الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة، والضمير في يكُ للتوب. ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ بالإصرار على النفاق. ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤدي

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، في غير العبادلة. وليس الأثر عن العبادلة عنه.

(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في «يحلفون» لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرار الحلف وصيغة الجمع في «قالوا» مع أن القائل هو الجلاس ـ للإيذان برضا الباقين فكأنهم قالوا (س٤/ ٨٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٥٣) من حديث أبي الطفيل بلفظ مقارب للفظ الكتاب وفي إسناده. الوليد بن عبدالله بن جميع، صدوق يهم. قاله الحافظ في التقريب (٢/ ٣٣٣). وهو حديث حسن. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٦) و(٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) عن عروة، وابن إسحاق. وفي إسناد عروة (ابن لهيعة) ضعيف. وفي إسناد ابن إسحاق: (أحمد بن عبدالجبار العطاري) ضعيف أيضاً.

شكره خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسولُ الله ﷺ، فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدِّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجِعا حتى أرى رأيي، فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقُبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه[1].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراضُ عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فِعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨٩ - ١٩٠) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨٩ - ٢٩٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦٠ رقم ٧٨٧٣).

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣١ - ٣٢) وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧) وعزاه للحسن بن سفيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال والطبراني، وأبو منده، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر. عن أبي أمامة.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٧٧ رقم ١٣٣) «أخرجه الطبراني، والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مردويه. كلهم من طريق علي بن زيد، عن القاسم بن عبدالرحمٰن، عن أبي أمامة. وهذا إسناد ضعيف جداً. فقال السهيلي عن ابن إسحاق: ثعلبة بن حاطب قمر البدريين، وعن ابن إسحاق أيضاً في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه فلعلهما اثنان» هـ.

والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

فائدة: لقد تكلم حفاظ الحديث ونقاده في هذه القصة بكلام واضح بيِّن. جمعه وعلق عليه أخونا الشيخ «عداب محمود الحمش» في رسالة سمّاها «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه». فانظرها لزاماً لتقف على بطلان هذه القصة، وفيها توضيحات مفيدة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله والذب عن صحابة رسول الله ﷺ.

يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاءه وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح. ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ وبكونهم كاذبين فيه فإن خُلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من الوجهين أو المقال مطلقاً. وقرىء يُكَذِّبون بالتشديد.

(٧٨) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ أي المنافقون، أو من عاهد الله. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف. ﴿ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسميةُ الزكاة جزيةً. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه ذلك[1].

(٧٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ ذمّ مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرّهم. وقرىء يُلْمِزون بالضم. ﴿ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ المتطوعين. ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك اللهُ له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن علىٰ ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي بمائة وِسْقٍ من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال بتّ ليلتي أجُرّ بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثُره على الصدقات، فلَمَزَهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت[2]. ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ إلا طاقتهم. وقرىء بالفتح[3] وهو مصدر جَهِد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ يستهزئون بهم. ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سُخريتهم، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[4] ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم.

---

(١) وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى (س٤/ ٨٦).

(٢) أخرج قصة تصدق: عبدالرحمٰن. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٤) وابن مردويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ٢٥٠) ـ عن ابن عباس وفي سنده (كاتب الليث) وهو ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٤) من حديث أبي سلمة ورجاله ثقات إلاّ المثنى بن إبراهيم الآملي شيخ الطبري، فلم أجد من ترجم له. وتابع المثنى أبو كامل الجحدري عند البزار (٣/ ٥١ رقم ٢٢١٦) وأبو كامل ثقة حافظ ـ كما في التقريب (٢/ ١١٢) ـ وعمر بن أبي سلمة صدوق يخطىء ـ كما في التقريب (٢/ ٥٦) ـ.

وهذا الحديث وصله (طالوت بن عباد) عند البزار. فقال بهذا الإسناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وطالوت بن عباد هو الصيرفي الضبعي: صدوق كما في الجرح والتعديل (٤/ ٤٩٥). وانظر كلام الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٣٢) على هذا الحديث.
والخلاصة أن الحديث حسن إن شاء الله.
● وأخرج قصة عاصم بن عدي. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٦) عن ابن إسحاق. بسند ضعيف.
● وقصة تصدق أبي عقيل مخرج في الصحيحين البخاري (٨/ ٣٣٠ رقم ٤٦٦٨) ومسلم (٢/ ٧٠٦ رقم ٧٢/ ١٠١٨) من حديث ابن مسعود وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ١٣٤).

(٣) أي بفتح الجيم «جَهْدَهم». والجُهْد ـ بضم الجيم ـ الطاقة، وبفتحها: المشقة (س٤/ ٨٧).

(٤) البقرة: «١٥».

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبيّ وكان من المُخْلَصين سأل رسولَ الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين، فنزلت[1]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2]. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوَّز أن يكون ذلك حداً يخالفُه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنّه العدد بأسره. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[3].

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بقعودهم عن الغزو خلفَه يقال أقام خلافَ الحيّ أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أنّ مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٧٨ رقم ١٣٥): «لم أجده بهذا السياق».
وأصله في المتفق عليه - البخاري (٨/ ٣٣٣ رقم ٤٦٧٠) ومسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٥/ ٢٤٠٠) - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما تُوفيَ عبدُالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيَهُ قميصَهُ يكفِّنُ فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقامَ عمرُ فأخذ بثوب رسول الله، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرني الله فقال «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرّة» وسأزيدُهُ على السبعين. قال: إنهُ منافق قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره».

(٢) المنافقون: «٦».

(٣) التوبة: «١١٣».

فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أَخرجَه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتْم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

(٨٣) ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإنْ ردك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ إخبار في معنىٰ النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم، وأول مرة هي الخَرْجَةُ إلى غزوة تبوك. ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرىء مع الخَلِفِين على قصر الخالفين.

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ روي أن عبدالله بن أبيّ دعا رسولَ الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويكفنه في شِعَاره الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصَه ليكفَّن فيه وذهب ليصلي عليه، فنزلت[1]. وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم يُنْهَ عن التكفين في قميصه ونُهِيَ عن الصلاة عليه لأن الضنّ بالقميص كان مخلاً بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلْباسه العباس

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٣٦):
لم أجده هكذا. فأما أوله وهو «كان يقوم.. إلى آخره». وأما قصة عبدالله ففي الجنائز من المستدرك ـ (١/ ٣٤١) ـ من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن أبي ليعودهُ في مرضه الذي مات فيه، فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حبّ يهود. فقال: قد أبغضهم، أسعد بن زرارة فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه. فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخني فزاده الطبري (٦/ ج١٠/ ٢٠٦) من طريق معمر عن قتادة قال: أرسل عبدالله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني. وسأله قميصه أن يكفن فيه. فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل الله تعالى «ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً».

وفي الدلائل للبيهقي (٥/ ٢٨٥) من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال: فقال «ليس هذا بحين عتاب، هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه، ثم قال: وصلّ عليّ واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه وكان يقال له الحباب. فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك».

قميصَه حين أُسر ببدر[١]. والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يَحْيَ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأبيد الموت[٢].

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد، والأمرُ حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوسُ مغتبِطة عليها ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول[٣].

(٨٦) ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله، ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين قعدوا لِعذر.

(٨٧) ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء، جمع خالِفة، وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحُور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[٤] وهي جمع خَيْرة تخفيف خَيِّرة. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٤ رقم ١٣٥٠) و(٦/ ١٤٤ رقم ٣٠٠٨) من حديث جابر.

(٢) وقوله «ولا تصل على أحد منهم مات» جاء بصيغة الماضي «مات» تنبيهاً على تحقق الوقوع (س٤/ ٨٩).

(٣) وتقديم الأموال على الأولاد مع كونهم أعزّ منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات، وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولادَ لبقاء النوع، وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد (س٤/ ٩٠).

(٤) الرحمٰن: «٧٠».

(٥) تكرير اسم الإشارة للتنويه بشأنهم (س٤/ ٩١).

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

(٩٠) ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغَطَفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجَهد وكثرة العيال. وقيل[1] هم رهْط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طيّءُ على أهالينا ومواشينا. والمُعَذِّر إما من عَذَر في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عُذراً ولا عذر له، أو مِنْ اعتذر إذا مهد العذر بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يُقرأ بهما. وقرأ يعقوب المُعْذِرُون من أعذر إذا اجتهد في العذر. وقرىء المعَّذِّرُون بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكَذِبهُم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ كالهَرْمىٰ والزّمنىٰ. ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم كجُهينة ومُزَينة وبني عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتَبين لذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن؟.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: مَعقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبدالله بن مغفل وعلية بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحمِلنا على الخِفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نَغْزُ معك، فقال عليه السلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوْا وهم

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٨٣) عن الضحاك.

يكون[(١)]. وقيل هم بنو مُقَرِّن مَعقل وسويد والنعمان[(٢)]. وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد[(٣)]. ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا. ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي دمعاً، فإن مِنْ للبيان، وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز، وهو أبلغ مِنْ يفيضُ دمعُها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة، أو الحال، أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ لئلا يجدوا، متعلق بحَزَناً أو بتفيض. ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في مغزاهم.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون الأُهبة. ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظامُ في جملة الخوالف إيثاراً للدعة. ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته.

(٩٤) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السَّفْرة. ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾ بالمعاذير الكاذبة، لأنه ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، لأنه ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمَنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد[(٤)]. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وإمهال للتوبة[(٥)]. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/٢١٣) عن محمد بن كعب وغيره.

(٢) أورده الواحدي عن مجاهد ص٢٦٢.

(٣) وفي إيثار «لا أجد» على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفىٰ، فكأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (س٤/٩٢).

(٤) وقوله «نؤمن ونبّأنا» حيث جمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعهم من التصديق رأساً ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً وللإيذان بافتضاحهم بين المؤمنين كافة (س٤/٩٣).

(٥) وتقديم مفعول الرؤية على ما عُطف على فاعله من قوله تعالى «ورسولُه» للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما، وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم (س٤/٩٣).

(٦) والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به، وإيثار التنبئة عليها لبيان أن المنبأ به هو الأخبار المتعلقة بأعمالهم، وللإيذان =

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علةُ الإعراض وترك المعاتبة. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

(٩٦) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ بحَلِفِهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدَكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلْبِسوا عليكم لا يمكنهم أن يُلبِسوا على الله فلا يهتك سترَهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم[١].

(٩٧) ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمَدَر[٢]. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ. ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تَقِيَّة. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائر الزمان ونَوْبَه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبة الزمان، والسَّوْء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجلُ

= بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وأنهم يعلمونها يومئذ (س٤/ ٩٤).

(١) ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة الموجب لما حل بهم من السخط، وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك (س٤/ ٩٤).

(٢) أهل الوبر يراد بهم الأعراب حيث يستخدمونه في سكناهم والوبر للبعير كالصوف للغنم، وأهل المدر يراد بهم أهل القرى لأن معنىٰ المدر الطين حيث يستخدمونه في سكناهم (المصباح المنير مادة مَدَرَ وَوَبَرَ).

صِدْق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السُّوء هنا. وفي الفتح[1] بضم السين. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ سببَ قربات، وهي ثاني مفعولي يتخذ، وعند الله صفتُها أو ظرف ليتخذ[2]. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سنّ للمتصدَّق عليه أن يدعو للمتصدِّق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صلِّ على آل أبي أوفىٰ»[3]، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديقٌ لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإنّ المحقَّقة للنسبة، والضميرُ لنفقتهم. وقرأ ورش قُرُبَةٌ بضم الراء. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وَعْدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين لتحقيقه، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأُولىٰ في أسد وغطفان وبني تميم والثانيةُ في عبدالله ذي البجادين وقومِه.

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أهلِ بيعة العقبة الأولى ـ وكانوا سبعة ـ وأهلِ بيعة العقبة الثانية ـ وكانوا سبعين ـ والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير. وقرىء بالرفع عطفاً على والسابقون. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقرأ ابن كثير مِنْ تحتِها الأنهارُ كما في سائر المواضع. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) الفتح: «٦».

(٢) والتعرض لوصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر لبيان الاعتناء بإيمانهم واتصافهم به وبيان الفرق بين الفريقين (س٤/٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٦١ رقم ١٤٩٧) ومسلم (٢/٧٥٦ ـ ٧٥٧ رقم ١٠٧٨/١٧٦) وأبو داود (٢/٢٤٦ رقم ١٥٩٠) والنسائي (٥/٣١ رقم ٢٤٥٩) وابن ماجة (١/٥٨٢ رقم ١٧٩٦) وأحمد في المسند (٤/٣٥٣). من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ هم جُهَيْنة ومُزَيْنة وأَسْلَم وأَشْجَع وغِفَار كانوا نازلين حولها[١]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطف على ممن حولكم، أو خبر لمحذوف صفَتُهُ: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ونظيرُه في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامَه قوله:

أنَا ابنُ جَلا وَطلاَّعُ الثنَايَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فُصِل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلامٌ مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهُّرهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، وهو تقرير لمهارتهم فيه وتَنَوُّقِهم في تحامي مواقع التهم إلى حدِّ أُخفِيَ عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فِراستك. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم، إنْ قدروا أن يُلْبسوا عليك لم يقدروا أن يُلبسوا علينا. ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار[٢].

(١٠٢) ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لمّا بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم، فذُكر له أنهم أقسموا أن لا يَحُلّوا أنفسهم حتى تُحلَّهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أُحِلهم حتى أومر فيهم، فنزلت، فأطلقهم»[٣]. ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الفعل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيىء هو التخلف وموافقة أهل النفاق. والواوُ إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً، أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله: «اعترفوا بذنوبهم» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٣).
(٢) وإسناد عذابهم السابق «سنعذبهم» إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق «ثم يُردّون» إلى أنفسهم للإيذان باختلافهما حالاً، وأن الأول خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً (س٤/ ٩٨).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ ج١١/ ١٢ ـ ١٣).
ومراد السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٧٥) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» ـ (٥/ ٢٧٢) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي أنهم لما أُطلِقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهِّرنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فنزلت[١]. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرىء تُطْهِرُهم من أطهره بمعنى طهره، وتُطَهِّرْهُم بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعوّ لهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد[٢]. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكّن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحت، وتعديتُه بعن لتضمنه معنى التجاوز[٣]. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفىٰ عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم[٤]. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالموت[٥]. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين. ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجأته إذا أخرته[٦]. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مُرْجَوْن بالواو وهما لغتان. ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرىء والله غفور

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ١٦) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧٢) وفي إسناده كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) الأصل عند البيضاوي على قراءة من قرأ «صَلَوَاتِك» بالجمع، وقد قرأ بها الباقون.

(٣) وإظهار صفة العبودية لله «عباده» في موضع الإضمار للإشعار بعلية العبادة لقبولها (س٤/ ١٠٠).

(٤) قوله «ورسوله» عطف على لفظ الجلالة، وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (س٤/ ١٠٠).

(٥) وتقديم الغيب على الشهادة في الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره، أو للإيذان بأن رتبة السرّ متقدمة على رتبة العلن (س٤/ ١٠١).

(٦) أثبت البيضاوي الأصل على قراءة من قرأ بالهمزة «مُرْجَئون».

رحيم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلّموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى[١].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(١٠٧) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على وآخرون مرجئون، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا، أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو. ﴿ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين. وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانُهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية فصلّ فيه حتى نتخذه مصلّىٰ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كناسة[٢]. ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً. ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. ومن قبل متعلق بحارب أو باتخذوا أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بُني قُبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: «إنا على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل كرر عليه. فنزلت[٣] ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٤/ ٢١٢٠ ـ ٢١٢٨).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٨٠ ـ ٨١ رقم ١٥٢).
«لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد. وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبناء مسجد الضرار كان في غزوة تبوك. فبينهما تسع سنين.
لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال منهم (يخرج) جد عبدالله بن حنيف، ووديعة بن حزام، ومجمع بن جارية فبنوا مسجد النفاق ـ الحديث».
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٢٤) بسند ضعيف.

(٣) قال المناوي في الفتح السماوي ص٧٠٣: لم أقف عليه، إلا أن ابن حجر ذكر أنه روى ابن مردويه من طريق =

ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء أَسسه رسولُ الله ﷺ وصلىٰ فيه أيام مُقامِه بقباء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»[1] ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، و«مَنْ» يعم الزمان والمكان كقوله:

لمَــنِ الــدِّيَــارُ بِقُنَّــةِ الحَجْــرِ أَقْــوَيْــنَ مِــنْ حجَــجٍ وَمِــنْ دَهْــرِ

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أولىٰ بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبَه. قيل لما نزلت مشىٰ رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس! فقال عليه الصلاة والسلام: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضوْن بالقضاء»؟ قالوا: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء»؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون وربِّ الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط»؟ فقالوا: يا رسول الله نُتبعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ثم نُتبع الأحجار الماء، فتلا النبي: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾[2].

= ابن إسحاق عن الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري.. فذكر نحوه.. انظر الكافي الشافِ ص٨١ رقم (١٥٢).

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ رقم ١٣٩٨/٥١٤) عنه.
قال ابن كثير: (وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء..) ثم قال: (وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٨١ رقم ١٥٤) «لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدره أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله: «ورب الكعبة». وروى بقيته ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه» هـ.
● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٨٠ رقم ٣١٠٠) وأبو داود (١/ ٣٨ رقم ٤٤) وابن ماجة (١/ ١٢٨ رقم ٣٥٧). =

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ بنيان دينه. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها[١]. ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فأدىٰ به ـ لخوْره وقلة استمساكه ـ إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف ـ وهو ما جرفه الوادي ـ الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهياره به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان الله ومقتضياته التي الجنةُ أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر أُسِّسَ على البناء للمفعول، وقرىء أساسُ بنيانه، وأُسُّ بنيانه على الإضافة، وأُسُسُ، وآسَاسُ بالفتح والمدّ، وإِسَاسُ بالكسر وثلاثتها جمع أس، وتقوًى بالتنوين على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كتَتْرىٰ، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر جُرْف بالتخفيف. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ بناؤهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول[٢] وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء، وَوَصَفَ بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكّاً ونفاقاً، والمعنى

= عن أبي هريرة، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يتطهّروا» قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

وقد ضعفه الحافظ في «التلخيص» (١/ ١١٢) وقال: وروى أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم عن عويم بن مساعده نحوه، وأخرجه الحاكم (١/ ١٥٥) من طريق مجاهد عن ابن عباس لما نزلت الآية بعث النبي ﷺ إلى عويم بن مساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ قال ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره، فقال عليه السلام: هذا هو، وأخرج بنحوه ابن ماجة (١/ ١٢٧ رقم ٣٥٥) من حديث عتبة بن أبي حكيم، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك. وقال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢١٩): «وسنده حسن وعتبة بن أبي حكيم فيه مقال.

قال ابن عدي (٥/ ١٩٩٥): «أرجو أنه لا بأس به».

وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٤) وصححه. ورواه أحمد (١/ ٢٤٨) وابن أبي شيبة من حديث محمد بن عبدالله بن سلام. وحكى أبو نعيم في معرفة الصحابة الخلاف فيه. على شهر بن حوشب ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة.

والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين.

(١) وترك الإضمار في قوله «أم من أسس» للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافة (س٤/ ١٠٣).

(٢) ووصفه بالموصول ـ الذي صلته فعله ـ للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهن أساس، وللإشعار بعلة الحكم (س٤/ ١٠٤).

أن بناءهم هذا لا يزال سببَ شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وَسْمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة. والاستثناءُ من أعمّ الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار، وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء. وتُقطِّع ـ بمعنى تتقطع ـ وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص، وقرىء يُقطِّع بالياء، وتُقطَع بالتخفيف، وتُقَطِّعَ قلوبَهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول[1]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

(١١١) ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل يقاتلون في معنى الأمر[2]. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ﴾ مذكوراً فيهما كما أُثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظائم المطالب[3] كما قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رفعٌ على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾[4] أو خبرُه ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

---

(١) أي قرىء «ولو قُطِّعَتْ قلوبُهم» على البناء للمفعول، وقرىء «ولقد قَطَّعْتَ قلوبهم» على البناء للفاعل على أن الخطاب للنبي عليه السلام.

(٢) وتقديم حالة القاتلية «يَقْتُلون» على حالة المقتولية «يُقْتَلون» للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس (س٤/ ١٠٥).

(٣) قوله «فاستبشروا» التفات إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم. والاستبشار: إظهار السرور (س٤/ ١٠٦).

(٤) النساء: «٩٥».

وقرىء بالياء نصباً على المدح، أو جراً صفةٌ للمؤمنين. ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ لنعمائه أو لمَا نابهم من السراء والضراء. ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم»[١] شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد[٢] أو لطلب العلم. ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ في الصلاة. ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطفُ فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفصِّل الفضائل وهذا مُجْمِلها. وقيل إنه للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضعَ ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذفُ المبشَّر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يَجلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ روي أنه ﷺ قال لأبي طالب لمّا حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله» فأبىٰ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت[٣]. وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأَبْواء[٤] فزار قبرَ أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل علي الآيتين»[٥]. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بأنْ ماتوا على الكفر. وفيه

---

(١) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٣٩) عن عائشة موقوفاً عليها بلفظ «سياحة هذه الأمة الصوم» وفي إسناده إبراهيم بن يزيد متروك الحديث [التقريب (١/٤٦ رقم ٣٠٣)].
● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/٣٧) عن عبيد بن عمير، قال: «سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمونَ» بإسناد حسن ولكنه مرسل.
● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/٣٧) عن أبي هريرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ «السائحون هم الصائمون» وفي إسناده حكيم بن حزام وهو متروك [الميزان (١/ ٥٨٥ رقم ٢٢١٨)].
● وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٥٦ رقم ٩٠٩٥) عن عبدالله بن مسعود قال: «السائحون: الصائمون» وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤) وقال فيه عاصم بن بدلة وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) ● أخرج البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١ رقم ٤٨٤) من حديث عثمان بن مظعون أن النبي ﷺ قال «إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» بإسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وابن أنعم الأفريقي.
● وأخرج أبو داود (٣/ ١٢ رقم ٢٤٨٦) عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» وهو حديث حسن قاله الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٣ رقم ٣٨٨٤) ومسلم (١/ ٥٤ رقم ٣٩/ ٢٤).
من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه. وغفل الحاكم فاستدركه ـ كما في «الكافي الشاف» ص٨٢ ـ.

(٤) مكان قريب من مكة.

(٥) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٤٢) عن بريده مثله لكن ليس فيه ذكر نزول الآيتين. وإسناده =

دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلَبُ توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقيض باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وعدها إبراهيمُ أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[1] أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ أباه، أو وعدها إبراهيمَ أبوه وهي الوعد بالإيمان ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن[2] ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع استغفاره. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي ليُسمِّيهم ضُلاّلاً ويؤاخذهم مؤاخذتَهم ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام. ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسْلافه المشركين قَبْل المنع. وقيل إنه في قوم مضوْا على الأمر الأول في القِبْلة والخمر ونحو ذلك. وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً بيّن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشرِّ أشرَّهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ مِنْ إذن المنافقين في التخلف أو برأهم

= حسن.

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/٤٢) عن ابن عباس بلفظ أن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: وإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه فأنزل الله «وما كان استغفار إبراهيم» إلى «لأوّاه حليم» بسند ضعيف.

(١) الممتحنة: «٤».

(٢) أو تبيّن له أنه مُصرّ على الكفر، وهو الأنسب.

عن علقة الذنوب كقوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] وقيل: هو بَعْثٌ على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[2] إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقِص دونَه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهارٌ لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عُسْرة الظَّهْر ـ يَعْتَقِب العشرةُ على بعير واحد ـ والزادِ حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمرةً والماءِ حتى شربوا القَيْظ[3]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتّباع الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم، والعائد إليه الضمير في منهم. وقرأ حمزة وحفص يزيغ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي، وقرىء من بعد ما زاغت قلوبُ فريق منهم يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لِكَيْدُودتهم. ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم فإنهم المرجَوْون. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مَثَلٌ لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أُنس ولا سرور. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعلموا. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه. ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة. ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليُعدّوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً. وقرىء مِنَ الصادقين أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

---

(١) الفتح: «٢».

(٢) النور: «٣١».

(٣) والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه.

ووصف المهاجرين والأنصار باتباعهم له عليه السلام في تلك الساعة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، وذلك أنهم لم يغنهم ذلك عنها فلا يستغني عنها غيرهم بالأولى والأحرى (س٤/١٠٩).

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ نهي عبر به بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال. روي أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل ورُطَبٌ يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحّ والريح ما هذا بخير، فقام فرحّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسول الله ﷺ طَرْفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فَكَانَهُ، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له[1]. وفي لا يرغبوا يجوز النصب والجزم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يدوسون. ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل لكُتِب وتنبيهٌ على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سَعْي في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المُدَاوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو علاقة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة. ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم، وهو كل مُنْعرج ينفُذ فيه السيل، اسم فاعل من وَدِي إذا سال فشاع بمعنى الأرض. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك.

---

(١) ● أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم نحوه.
وفي إسناده: أحمد بن عبدالجبار العطاردي: وهو ضعيف.
● وأخرجه البيهقي أيضاً (٥/ ٢٢٥) عن موسى بن عقبة.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٣١ رقم ٥٤١٩) من طريق يعقوب بن محمد الزهري، ثنا إبراهيم بن عبدالله بن سعد بن خيثمة ثنا أبي عن أبيه به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣) وقال: فيه يعقوب بن محمد الزهري وهو ضعيف. قال: الحافظ في الإصابة (٣/ ٥٦): «والحق أنه غيره لإطباق أهل السير على أن صاحب هذه الترجمة استشهد ببدر» نقله مخرج المعجم الكبير قلت: ـ ويشهد لبعض الحديث ما أخرجه مسلم في أثناء قصة كعب (٤/ ٢١٢٢) وانظر «الكافي الشاف» (ص٨٢ رقم ١٦١).

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم.

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٢) ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعةٌ قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفَقَاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون منه، واستُدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفةٌ إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذَروا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يَفِد ذلك، وقد أشبعتُ القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي (المرصاد). وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأُمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابُهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفِرَق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا لبواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

(١٢٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أُمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشأم وهو قريب من المدينة. ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرىء بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين. ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاء. ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ السورة. ﴿إِيمَـٰنًا ۚ﴾ وقرىء أيَّكم بالنصب على إضمار فعل يفسره زادته. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها. ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين. وقرىء بالتاء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظا لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا وإن يرهم أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرىء مِنْ أَنْفَسِكُمْ أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قَدّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظةً على الفواصل.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان بك. ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك مَعَرَّتَهم ويعينك عليهم. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ المُلْك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرىء العظيمُ بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان، وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»[1] والله أعلم.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٨٣ رقم ١٦٧): ـ أخرجه ـ الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه.

سورة يونس

ترتيبها ١٠ — آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) ﴿الٓرۚ﴾ فخمها[١] ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص، وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدُهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحِكَم أو لأنه كلام حكيم، أو محكمٌ آياته لم ينسخ شيء منها.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعَجَباً خبرُ كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾. وقرىء بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على أنّ كانَ تامة، وأن أوحينا بدل من عجباً، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أَفْناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أعْوَن شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة الأنعام[٢]. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ هي المفسِّرة أو المخففة من الثقيلة، فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عمم الإنذار إذ قلما من أحد

---

(١) أي الراء.

(٢) الأنعام: «٩١».

ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يُبَشَّروا به حقيقة. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبْق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتُها إلى الصدق لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحِرٌ على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرىء «ما هذا إلا سحر مبين».

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات[1]. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يُقدِّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيىء بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة[2]. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعزِّ جلاله وردٌّ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثباتُ الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذْ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحِّدوه بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره، فاستعدوا للقائه. ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قولَه «إليه مَرجعُكم» وعدٌ من الله. ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد بدئه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعَدْله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غيّرَ النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيهِ على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابةُ؛ والعقابُ واقعٌ بالعَرَض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه؛ ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم

---

(١) وجمع السموات دون الأرض لما هو مشهور من أنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (س٤/١١٨).
(٢) وإيثار صيغة المضارع في قوله «يدبر» للدلالة على تجدد التدبير واستمراره (س٤/١١٨).

جميعاً» فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاةُ الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ أَنَّه يَبْدَأُ ـ بالفتح ـ أي لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نَصَبَ وعد الله أو بما نَصَب حقاً.

(٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ أي ذاتَ ضياء، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط، والياءُ فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قنبل هنا وفي الأنبياء وفي القصص[1] ضِئَاءً بهمزتين على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت. وقيل ما بالذات ضوءٌ وما بالعَرَض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعَرَض مقابلةِ الشمس والاكتساب منها. ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل، أو للقمر، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علله بقوله: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم[2]. ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها. وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص يُفَصِّل بالياء.

إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته. ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ العواقب، فإنه يحملهم على التفكر والتدبر.

(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ وسكنوا إليها مُقْصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها[3]. ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها، والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أن الوعيد على

---

(١) الأنبياء: «٤٨» والقصص «٧١».

(٢) وتقديم العدد على الحساب ـ مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلماً على العكس ـ لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلاً وإن لم تتحد الجهة، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر نازل من الحساب منزلة البسيط من المركب (س٤/ ١٢١).

(٣) وإيثار الباء على كلمة «إلى» المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة.
واختيار صيغة الماضي في «رضوا» و«اطمأنوا» للدلالة على التحقق والتقرر.
وصيغة المستقبل في «يرجون» للإيذان باستمرار عدم الرجاء (س٤/ ١٢٢).

الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرَ إلاَّ الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له[١].

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[٢]، أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبحك تسبيحاً. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم. ﴿فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف

---

(١) وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها (س/٤/١٢٣).

(٢) وهو حديث باطل.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٤ ـ ١٥) من حديث أنس.
وقال أبو نعيم: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه. وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الفتني في «تذكرة الموضوعات» ص٢٠. وقال: «لأبي نعيم ضعيف» هـ.
وأورده العجلي في «كشف الخفا» (٢/٣٤٧ رقم ٢٥٤٢) وقال: «رواه أبو نعيم عن أنس» هـ.
وأورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٣٠٦ رقم ٤٤) وقال: «رواه أبو نعيم، وهو ضعيف» هـ.
وقال ابن السبكي: (٦/٢٩٠) لم أجد له إسناداً.
وانظر «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» استخرج أبي عبدالله الحداد (١/٢٠٧ رقم ١٩٠).

الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام «وأنْ هي المخففة من الثقيلة، وقد قرىء بها وبنصب الحمد.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ ولو يسرعه إليهم. ﴿ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بأن المرادَ شر استعجلوه كقولهم «فأمطر علينا حجارة من السماء» وتقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير فحُذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب لقضىٰ على البناء للفاعل وهو الله تعالى، وقرىء لقضينا[١]. ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجا[٢].

(١٢) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا ﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ ملقى لجنبه، أي مضطجعاً. ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾ يعني مضىٰ على طريقته واستمر على كفره، أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما قال:

ونَحْـــرٌ مُشْـــرِقُ اللَّـــوْنِ كَـــأَن ثَـــدْيَـــاهُ حُقَّـــان

﴿ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ إلى كشف ضر. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك التزيين. ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

(١٣) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكة[٣]. ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم، وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا

---

(١) وإيثار صيغة المبني للمفعول «القضي» للجري على سنن الكبرياء (س٤/١٢٥).

(٢) وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما في حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج (س٤/١٢٦).

(٣) قوله «قبلكم» التفات من الغيبة إلى الحضور للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القَسَمي (س٤/١٢٧).

لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكُهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارُهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم أو نجزيكم، فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جُرمهم وأنهم أعلام فيه.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أتعملون خيراً أو شراً فنعاملكم على مقتضى أعمالكم، و«كيف» معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يَحْجُب أن يعملَ فيه ما قبلَه، وفائدتُه الدلالةُ على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسُن الفعل تارة ويَقْبُحُ أخرى.

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني المشركين[1]. ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فَيَلْزَمُوه. ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما يصح لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ من قِبَل نفسي، وهو مصدر استعمل ظرفاً، وإنما اكتفي بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناعَ الإتيان بقرآن آخر. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض وردٌّ لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامُه واختراعُه ولذلك قَيَّد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بالتبديل[2]. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح[3].

(١٦) ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غير ذلك[4]. ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أَعْلَمَكم به على

---

(١) قوله «آياتنا» أضافها إليه تعالى لتشريفها والترغيب في الإيمان بها والترهيب من تكذيبها وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالي، وللإيذان بأن كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي. (س٤/١٢٨).

(٢) قوله «ربي» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه السلام ـ لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ـ عليه السلام ـ عنه. (س٤/١٢٩).

(٣) وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووَصْفِه بالعِظَم لتهويل ما فيه من العذاب (س٤/١٢٩).

(٤) وصُدِّر بالأمر المستقل «قل» مع كونه دخلاً تحت الأمر السابق إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذاناً باستقلاله =

لساني، وعن ابن كثير ولأَدْرَاكم ـ بلام التأكيد ـ أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأَعْلَمَكم به على لسان غيري، والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أُرْسَلْ به لأرسل به غيري. وقرىء ولا أَدْرَأْكُم، ولا أَدْرَأْتُكُم بالهمز فيهما على لغة من يَقلِب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خُصَماء تدرؤونني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أَجْعَلَهُ على نحو ما تشتهونه، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقدار عمر أربعين سنة. ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشىء قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزّت فصاحتُه فصاحة كل مِنْطيق وعَلاَ عن كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عُلِمَ أنه معلم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تَفَادٍ مما أضافوه إليه كناية، أو تظليمٌ للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لذو شريك وذو ولد[1]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفَرَ بها. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود ينبغي أن يكون مُثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر[2]. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان. ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكّين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضارّ النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرونه. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، أو هؤلاء شفعاءُ عنده، وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما، وفيه تقريع وتهكم بهم ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكِّدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات

= مفهوماً وأسلوباً (س٤/١٢٩).

(١) وفي زيادة «كذباً» ـ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك ـ للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمناً وحمّلوه ـ عليه السلام ـ عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله كذب في نفسه فَرُبَّ افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط (س٤/١٣١).

(٢) وتقديم نفي الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أول المنافع (س٤/١٣١).

فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرَك به. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل والروم[1] بالتاء.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قَتَل قابيلُ هابيل[2] أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من الرسل. ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة وأَصرتْ أخرى. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق[3].

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفاسدَ تصرفُ عن إنزالها. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

(٢١) ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ صحة وسعة. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ كقحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها. قيل قَحِطَ أهلُ مكة سبعَ سنين حتى كادوا يَهْلِكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ منكم قد دَبَّر عقابكم قبل أن تدبروا كيدهم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية. والمكرُ إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحَفَظَة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

---

(١) النحل: «١، ٣» والروم: (٤٠).

(٢) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٩٨) عن مجاهد.
وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٤/٣٤٩) إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٣) وصيغة الاستقبال في «يختلفون» لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار. وكذا قوله «ويقولون» بعده (س٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر يَنْشُرُكم بالنون والشين، من النشر. ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ بمن فيها، عَدَلَ عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريح. ﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب إذا، والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أُهلِكوا وسُدّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل مِنْ ظنّوا بدلَ اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول، أو مفعول دَعَوُا لأنه من جملة القول[1].

(٢٣) ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم[2]. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فَاجَؤُوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحتراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله عليكم، أو أنه على أمثالكم أبناء جنسكم. ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقىٰ عقابها، ورفعُه على أنه خبر بَغْيكم وعلى أنفسكم صلتُه، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبرُ بغيكم، ونَصَبَهُ حفصٌ على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجارّ من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعولُ فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبرُه. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالُها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار

---

(١) وفي قوله «من الشاكرين» من المبالغة ـ أي ثابتين في الشكر مثابرين عليه ـ ما ليس في أن يقال لنشكرنّ (س٤/ ١٣٥).

(٢) والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (س٤/ ١٣٥).

الناس بها. ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضُه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حُسْنها وبهجتها. ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروسٍ أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها. وازينت أصله تَزَيّنت فأدغم، وقد قرىء على الأصل، وأَزينَت على أفْعِلت من غير إعلال كأغيلت والمعنى صارت ذاتَ زينة، وازيانّت كابياضت. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ ضَرَب زرعَها ما يجتاحُه. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ فيما قبيله. وهو مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأةً وذهابُه حطاماً بعدما كان غضاً والتفّ وزيّن الأرض، حتى طَمِع فيه أهلُه وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء، وإنْ وَلِيَه حرفُ التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلام من التقضّي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك، أو دارِ يُسَلِّم اللهُ والملائكة فيها على مَنْ يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غيرُ الإرادة وأن المُصِرَّ على الضلالة لم يُرد الله رشدَه.

(٢٦) ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وقيل[1] الحسنى مِثْلُ حسناتهم والزيادة عَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل[2] الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء[3]. ﴿وَلَا يَرْهَقُ

---

(١) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٧ ـ ١٠٨) عن قتادة قال:
كان الحسن يقول في هذه الآية «للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة» قال، الزيادة، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن مجاهد.

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن ابن زيد. في قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال الحسنى: الجنة، وزيادة: ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة، وقرأ «وآتيناه أجره في الدنيا» قال: ما آتاه مما يجب في الدنيا عجَّل له أجره فيها.

● وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة =

﴿وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها. ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرة فيها سواد[١]. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يُرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله «للذين أحسنوا الحسنى» على مذهب من يجوِّز: في الدار زيد والحجرةِ عمرو، أو الذين مبتدأ والخبر جزاء سيئة بمثلها على تقدير: وجزاءُ الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازىٰ سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف، أو كأنما أغشيت وجوههم، أو أولئك أصحاب النار وما بينَهما اعتراض فجزاء سيئة مبتدأ وخبرُه محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها[٢]. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقرىء بالياء[٣]. ﴿مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومَنْ عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ غطيت. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها، ومُظْلِماً حال من الليل والعاملُ فيه أغشيت لأنه العامل في قِطَعاً وهو موصوف بالجار والمجرور، والعاملُ في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في من الليل. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قِطْعاً بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون مُظْلِماً صفة له أو حالاً منه. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمة.

= عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: (وزيادةٌ): الزيادات على الحسنى، فلم يخصص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعمّ كما عمه عزّ ذكره» اهـ.

وأخرج مسلم (١/١٦٣ رقم ٢٩٧/١٨١) عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، قال يقول اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجابَ فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وانظر تفسير ابن كثير (٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠) وكتابنا «الأدلة المعتبرة في إثبات النظر إلى الله في الآخرة».

(١) قدم المفعول «وجوهَهم» على الفاعل «قترٌ» للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخر (س٤/١٣٨).

(٢) وإيراد الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم (س٤/١٣٨).

(٣) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذانٌ بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً (س٤/١٣٩).

(٢٨) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ﴾ الزَموا مكانكم حتى تنظروا ما يُفعل بكم[١]. ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطف عليه. وقرىء بالنصب على المفعول معه. ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم. ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرةُ بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل يُنْطِق الله الأصنام فتشافههُم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه العالم بكُنْه الحال. ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة[٢].

(٣٠) ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام. ﴿ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعَه وضره. وقرأ حمزة والكسائي تتلو من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التَّلْوِ أي تَتْبَعُ عملَه فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرىء نبلو بالنون ونصب كل وإبدال ما منه، والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بتعرف ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض. ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى جزائه إياهم بما أَسْلَفوا. ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولًى، وقرىء الحقَّ بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع عنهم. ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

(٣١) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل مِنْ لبيان مَنْ على حذف المضاف، أي مِنْ أهل السماء والأرض. ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أم من يستطيع خلقَهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء. ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك

(١) قوله «للذين أشركوا» حيث خصص وصف إشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم (س٤/ ١٣٩).

(٢) وقوله «عن عبادتكم» أي عبادتكم لنا، ولم يصرح به لظهوره وللإيذان بكمال الغفلة عنها (س٤/ ١٤٠).

لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهامُ إنكارٍ، أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال[1]. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال[2]. .

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر كلمات هنا وفي آخر السورة وفي غافر[3] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها، والمراد بها العِدَة بالعذاب.

(٣٤) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أُمِر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

(٣٥) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر، وهَدَىٰ كما يُعدّىٰ بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يُعدّى باللام للدلالة على أن المنتهى غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أُسند إلى الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَىٰ من قولهم: أهدى بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وهذا حال أشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير[4]. وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يَهَدِّي بفتح الهاء وتشديد

---

(١) إظهار لفظة «الحق» إما لأن المراد به غير الأول أو لزيادة التقرير ومراعاة المقابلة بينه وبين الضلال (س٤/ ١٤٢).

(٢) وقوله «تُصرفون» حيث آثر صيغة المبني للمفعول للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته، وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي (س٤/ ١٤٢).

(٣) آخر السورة الآية «٩٦» وغافر الآية «٦».

(٤) وإنما نفىٰ عنه الاهتداء ـ مع أن المفهوم نفي الهداية ـ لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالباً، فإن من اهتدىٰ إلى الحق لا يخلو عن هداية (س٤/ ١٤٤).

الدال، ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد، والأصل يهتدي فأُدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين، وروى أبو بكر يهدي بإتباع الياء الهاء، وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبالِ بالْتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وعن نافع برواية قالون مثله، وقرىء إلا أن يُهَدّى للمبالغة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريحُ العقل بطلانَه.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأَقْيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو مَنْ ينتمي منهم إلى تمييزٍ ونظر ولا يرضى بالتقليد الصِّرْف[1]. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، ويجوز أن يكون مفعولاً به ومن الحق حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

(٣٧) ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيار عليها شاهد على صحتها؟! ونصبه بأنه خبر لِكَان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرىء بالرفع على تقدير ولكنْ هو تصديقٌ. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ منتفياً عنه الريب. وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبرٌ آخر تقديره كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في فيه. ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد ﷺ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسْن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمَنْ أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك[2]. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

---

(١) أو أن تخصيص الأكثر بذلك للإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك (س٤/ ١٤٥).

(٢) وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في عُدْوة المضادة والمشاقة، لا لبيان=

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم[1]. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في «لمّا» أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لأخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المكذبين. ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتبرأ منهم فقد أعذرت، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخَذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم. ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً[2]. ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهْم المعنى المقصود منه ولذلك

= استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه (س٤/١٤٦).

(١) والتعبير عنه «بما لم يحيطوا بعلمه» دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به، لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما في حيّز الصلة له (س٤/١٤٦).

(٢) وجمع الضمير في «يستمعون» رعاية لجانب المعنى، كما أفرد فيما يأتي «مَنْ ينظر..» محافظة على ظاهر اللفظ. ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظُّلمة (س٤/١٤٨).

لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولُهم لما كانت مؤوفة[١] بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليدِ تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع الناس[٢].

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون. والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبَّهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله[٣]. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم. وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾، أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسرانهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول[٤]. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المَعَاوِن في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردىٰ والعذاب الدائم.

---

(١) (مؤوفة) أي مصابة بالآفة.

(٢) أي «ولكنْ الناسُ».

(٣) وتخصيص الساعة بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل (س٤/ ١٥٠).

(٤) والتعبير عنهم بالموصول ـ مع كون المقام مقام إضمار ـ لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم (س٤/ ١٥٠).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٦) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرنك. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة، وهو جواب نتوفينك، وجوابُ نرينّك محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكرُ الشهادة، وأراد نتيجتَها ومقتضاها، ولذلك رتبها على الرجوع بثم. أو مؤدٌّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأُهلك المكذبون. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تُنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بإنجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

(٤٩) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم[2]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه، أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسَيَحين وقتكم وينجز وعدكم[3].

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيَٰتًا﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون

---

(١) الزمر: «٦٩».

(٢) وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه، وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز. وما وقع في سورة الأعراف «١٨٨» من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه (س٤/ ١٥١).

(٣) وإظهار «أجلهم» في موقع الإضمار لزيادة التقرير، وإضافة الأجل إليهم لإفادة التعيين.
وقوله «يستأخرون» بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم.
وتقديم يستأخرون على يستقدمون لأن المقصود الأهم هو بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة. أما قوله تعالى: «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» ـ الحجر «٥» ـ فلأن المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم له (س٤/ ١٥٢).

وُضِع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجوابُ الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بأرأيتم أو بقوله:

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراضٌ، ودخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به؟! وعن نافع آلان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٥٣) ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة، والأظهرُ أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾. وقيل إنه للإنكار، ويؤيده أنه قرىء آلحق هو فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحقّ مبتدأ والضمير مرتفِع به ساد مسد الخبر أو خبر مقدم والجملة في موضع النصب بيستنبئونك. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيتُه لثابت، وقيل كلا الضميرين للقرآن. وإي بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إي والله ولا يقال إي وحده. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

(٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنهم بُهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا. وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سرُّ الشيء لخالصته من حيث إنها تَخفىٰ ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأسره إذا أظهره[١]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو

(١) قوله «وأسرّوا» حيث عدل إلى صيغة الجمع ـ مع تحقق العموم في صورة الإفراد ـ لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع.. (س/٤/ ١٥٤).

الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٥) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خُلف فيه[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبىٰ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكْمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوْا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم.

(٥٨) ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بإنزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قولُه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديرُه بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدةُ ذلك التكريرِ التأكيدُ والبيان بعد الإجمال وإيجابُ اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه قد جاءتكم، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجيئها فليفرحوا[2]. والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فيهما فليفرحوا، أو للربط بما قبلها والدلالةِ على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح، وتكريرُها للتأكيد كقوله:

وإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي

وعن يعقوب فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرىء فافرحوا. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب، وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالتاء، على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

---

(١) إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلة الحكم.
وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق «ألا إنّ» لبيان تحقق مضمونهما ووجوب المحافظة عليهما (س٤/١٥٥).

(٢) وتكرير الباء في «رحمته» للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح (س٤/١٥٦).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

(٥٩) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ جَعَل الرزق مُنَزَّلاً لأنه مقدر في السماء محصّل بأسباب منها، و«ما» في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم فإنه بمعنى أخبروني، و«لكم» دل على أن المراد منه ما حل ولذلك وبخ على التبعيض فقال: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1] مثل: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[2] ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[3] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة ذلك إليه، ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بأرأيتم وقُلْ مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله[4].

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم؟[5] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أن لا يجازوْا عليه؟ وهو منصوب بالظن، ويدل عليه أنه قرىء بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شَأَنْتُ شأنَه إذا قصدت قصده، والضمير في ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله، ومفعول تتلو ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ على أنّ مِنْ تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقرآن، وإضمارُه قبل الذكر ثم بيانُه تفخيم له أو لله. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رُقَباء مطلعين عليه. ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه. وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي

---

(١) وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (س٤/ ١٥٦).
(٢) الأنعام: «١٣٨».
(٣) الأنعام: «١٣٩».
(٤) وأظهر الاسم الجليل وقدمه على الفعل «تفترون» دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت عليهم (س٤/ ١٥٦).
(٥) وزيادة لفظ «الكذب» مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ـ لإظهار كمال قبح ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً (س٤/ ١٥٧).

سبأ[١]. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ موازن نملة صغيرة، أو هباء. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما. وتقديمُ الأرض لأن الكلام في حال أهلها، والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لما قبله، و«لا» نافية وأصغر اسمها وفي كتاب خبرها. وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، ومَنْ عَطَفَ على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بَدَلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمُجمَل فسره قولُه:

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيانٌ لتولّيهم إياه.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات وبشرى الملائكة عند النزع. ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلِّمين مبشرين بالفوز والكرامة، بيانٌ لتوليه لهم، ومحل الذين آمنوا النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبرُه لهم البشرى. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلافَ لمواعيده. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشَّرين في الدارين. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع يُحْزِنْكَ من أَحْزَنَه، وكلاهما بمعنى[٢]. ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل، ويدل عليه القراءة بالفتح، كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعزماتهم فيكافئهم عليها.

---

(١) سبأ: «٣».

(٢) وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد ـ مع شمول النفي السابق للحزن أيضاً ـ لما أنه لم يكن فيه ﷺ شائبة خوف حتى ينهى عنه، وربما كان يعتريه في بعض الأوقات نوع حزن فسلّي عن ذلك (س٤/ ١٦١).

(٦٦) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين[١]، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالدليل على قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون شركاء مفعول يَدْعون ومفعولُ يتبع محذوفٌ دل عليه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنَّهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بيتبع أو موصولة معطوفة على مَنْ. وقرىء تَدْعُون بالتاء الخطابية. والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين؟ أي أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[٢] فيكون إلزاماً بعد برهان، وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزرون ويقدِّرون أنها شركاء تقديراً باطلاً.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإنما قال مبصراً ولم يقل لتبصروا فيه تفرقةً بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي تبنّاه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يُتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ علة لتنزيهه، فإن اتخاذ الولد مسبَّب عن الحاجة. ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لغناه. ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم، و«بهذا» متعلقٌ بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل: إنْ عندكم في هذا من سلطان[٣]. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

---

(١) وتخصيصهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنهم مع شرفهم وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك (س٤/ ١٦١).

(٢) الإسراء: «٥٧».

(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام (س٤/ ١٦٣).

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

(٧٠) ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤُهم متاعٌ في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتُهم أو تقلبهم مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبرُه مع قومه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ عَظُمَ عليكم وشقّ. ﴿مَّقَامِى﴾ نفسي كقولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة. ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وَثِقت به. ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ فاعزموا عليه. ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي مع شركائكم، ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكّد للفصل. وقيل إنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي وأَمْرِ شركائِكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركاءكم وقد قرىء به، وعن نافع فَاجْمَعُوا من الجمع، والمعنى أَمَرَهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ في قصدي. ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، مِنْ غَمَّه إذا ستره. أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟﴾ أدوا. ﴿إِلَىَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي. وقرىء ثم أَفْضُوا إلى بالفاء أي انتهوا إليَّ بِشَرِّكم أو ابرزوا إليّ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

(٧٢) ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن تذكيري. ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم يثيبني به آمنتم أو توليتم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

(٧٣) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، لا جَرَمَ حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ من الغرق. ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ من الهالكين به. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾

بالطوفان[١]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد نوح. ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد، وقد مر تحقيق ذلك.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالآيات التسع[٢]. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترؤوا على ردها.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوٓا۟﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ إنه لسحر فحُذِف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون: ﴿أَسِحْرٌ هَـٰذَا﴾ لأنهم بتّوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه، اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[٣] فيستغني عن المفعول[٤].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يُبطل سحرَ السحرة. ولأن العالِمَ بأنه لا يفلحُ الساحرُ لا يُسْحَر، أو من تمام قولهم إن جعل أَسِحْرٌ هذا محكياً كأنهم قالوا أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

---

(١) قدم ذكر الإنجاء والاستخلاف على الإغراق لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين، وللإيذان بسبق الرحمة على الغضب (س٤/ ١٦٥)

(٢) وتخصيص الملأ بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات (س٤/ ١٦٧).

(٣) الأنبياء: «٦٠».

(٤) وتقديم الخبر «سحر» للإيذان بأنه مدار الإنكار (س٤/ ١٦٨).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(٧٨) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان. ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستتباعهم. ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به[1].

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل سَحّار. ﴿عَلِيمٖ﴾ حاذق فيه.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾[2].

(٨١) ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو آلسحر على أنّ ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرُها والسحر بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي آلسحر هو، ويجوز أن ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لا يثبته ولا يقويه[3]. وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له[4].

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ ويثبته. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. وقرىء بكلمته. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ذلك.

(٨٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ أي في مبدأ أمره[5]. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية

---

(١) وتثنية الضمير في هذين الموضعين «لكما» بعد إفراده فيما تقدم باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأما اللفت والمجيء له فحيث كان من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (س٤/ ١٦٩).

(٢) قوله «فلما...» عطف على مقدر وحذف للإيذان بسرعة امتثالهم لأمر فرعون (س٤/ ١٦٩).

(٣) وإظهار لفظ المفسدين للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم (س٤/ ١٧٠).

(٤) ما ذكره البيضاوي من أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ليس على إطلاقه، فمن السحر ما هو راجع إلى خفة اليد وهذا يسمىٰ سحراً مجازاً. ومن السحر ما هو تمويه وتخييل للعيون، وهو لا تأثير له على الواقع إنما يوهم العين فقط، لذلك قال عن سَحَرة فرعون «سحروا أعين الناس..» ـ الأعراف: «١١٦». ومن السحر ماله أثر على الإنسان وقد سحر لبيدُ بن الأعصم اليهودي رسولَ الله ﷺ.

(٥) وهو معطوف على مقدر، ولم يذكر تعويلاً على ما ذكر في موطن آخر، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأن في قوله تعالى «إن الله سيبطله» مما لا يحتمل الخلف أصلاً (س٤/ ١٧٠).

طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية، أو للقوم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف، وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيرُه إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

(٨٥) ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيبت دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذا مباءة. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكنون فيها، أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى، وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى عليه السلام يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى. وإنما ثنّى الضمير أولاً لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جَمَع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحّد لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة[1].

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب

---

(١) ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنه المدار في التبشير (س٤/ ١٧١).

ونحوهما. ﴿وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأنواعاً من المال. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما عُلم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيتَ ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريراً للأول تأكيداً وتنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهلكها، والطمس المَحْق. وقرىء اطْمُس بالضم. ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي وأقْسِها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ليضلوا، وما بينهما دعاء معترض.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهَلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى. وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولا تَتْبِعانِ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، ولا تتبعانِ من تَبِع ولا تتبعانٌ أيضاً.

(٩٠) ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي جوّزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرىء جَوَّزْنا وهو من فعل المرادف لفاعل كضعَّف وضاعَف. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم يقال: تَبِعْته حتى أتْبعتُه. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو. وقرىء وعُدُوّاً. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ لحقه. ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أي بأنه. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي إنه بالكسر على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لآمنت فنكب عن الإيمان، أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يُقبل[١].

(٩١) ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبقَ لك اختيار[٢]. ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

---

(١) وعبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة (س٤/ ١٧٣).

(٢) وفي حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكي في صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى (س٤/ ١٧٣).

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً[١]، أو نلقيك على نَجْوَة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب نُنْجِيك من أنجى، وقرأ نُنَحِّيك بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال أي ببدنك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً، أو عرياناً من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرىء بأبدانك أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بإجرامه، أو بدروعك كأنه كان مُظاهِراً بينها. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مُطَّرِحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرىء لمن خَلَقَك أي لخالقك آية أي كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه تعمدٌ منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه مُحَقَّق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكانُ وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أَشُك ولا أَسْأَل»[٢]. وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع، أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

---

(١) وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده من الإيمان هو النجاة، وتهكم به (س٤/ ١٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٦٨) عن قتادة من طريقين صحيحين.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يُكذب كلامُه ولا يُنتقض قضاؤه.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أُخر فرعون. ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأنْ يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهاليها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي[2] أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نِّينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث وقيل إلى ثلاثين وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أَسْود ذا دخان شديد فهبط حتى غَشِي مدينتَهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسُوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه. وهو دليل على القَدَرِيّة في أنه تعالى لم يشأ إيمانَهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيبُ الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديمُ الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه

---

(١) القصص: ٨٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١١/ ١٧١) عن قتادة بسند صحيح.

فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به، فنزلت. ولذلك قرره بقوله:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في هُداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان فإنه سببه. وقرىء بالزاي، وقرأ أبو بكر ونَجْعَلُ بالنون. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع، ويؤيد الأول قوله:

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ أي تفكروا. ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، وماذا إن جُعِلَت استفهامية عَلَّقَتْ انظروا عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه. وما نافية أو استفهامية في موضع النصب.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره، مِنْ قولهم أيامُ العرب لِوَقائِعها. ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاكَكُم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على محذوف دل عليه إلا مثلَ أيام الذين خلوْا، كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم[1]، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاءُ، أو إنجاءً كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نُهلك المشركين، وحقاً علينا اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي نُنْجِي مخففاً.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهلِ مكة[2]. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصحته. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاعْرِضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ....

(١) وما بينه وبين المعطوف عليه اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد (س٤/١٧٨).

(٢) وأوثر الخطاب باسم الجنس مصدّراً بحرف التنبيه «يا» تعميماً للتبليغ وإظهاراً للعناية بشأن ما بُلِّغ إليهم (س٤/١٧٩).

ويتوفاكم[١]. وإنما خص التوفّي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي، وحذف الجارّ مِنْ أَنْ يجوزُ أن يكون من المطرد مع أَنَّ وأَنْ يكون من غيره كقوله:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبِ

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على أن أكون غير أنَّ صلة أَنْ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهم في الغرض لأن المقصود وَصْلُها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه[٢]. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته[٣]. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإنْ دعوته. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادةَ مع الخير والمسَّ مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن ردّه. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير. ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

(١٠٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا

---

(١) وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية، وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر (س٤/ ١٧٩).

(٢) ومعنى حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة.

(٣) وقوله «ولا تدع» تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لما أجمل فيه وذلك إظهاراً لكمال العناية بالإلأمر وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون (س٤/ ١٨٠).

بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ بالامتثال والتبليغ. ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطلاعَه على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدّق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، أورده ابن الجوزي في الموضوعات، أبواب ما يتعلق بالقرآن (١/ ٢٤٠).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتابٌ خبرُ مبتدإٍ محذوف. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظمت نظماً محكماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو مُنعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أُحكمت بالحجج والدلائل، أو جُعلت حكيمة منقول من حَكُمَ ـ بالضم ـ إذا صار حكيماً لأنها مشتملة على أمهات الحِكَم النظرية والعملية[١]. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سوراً، أو بالإنزال نَجْماً نَجْماً[٢]، أو فصِّل فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرىء ثم فَصَلت أي فرقت بين الحق والباطل، وأحكمتُ آياتِه ثم فَصّلتُ على البناء للمتكلم. وثم للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو خبر بعد خبر، أو صلة لأحكمت أو فصلت، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لأنْ لا تعبدوا. وقيل أنْ مفسِّرة لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للإغراء على التوحيد أو الأمرِ بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزموه أو اتركوها تركاً. ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا ....

(١) وفي إسناد الإحكام إلى الآيات من الدلالة على كونه في أقصى غاية منه، فإنه مسند لكل آية منه (س٤/ ١٨٢).
(٢) أي جزءاً جزءاً.

تعبدوا[١]. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المُعْرِض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يُعَيِّشْكم في أمن ودَعَة. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلكُكم بعذاب الاستئصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تتغير. ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاءَ فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحِّد التائب بخير الدارين. ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن تتولوا. ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجِيَف. وقرىء وإن تُوَلُّوا من وَلّىٰ.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم، وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب، وكأنه تقدير لكبر اليوم.

أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولّون ظهورهم. وقرىء يثنوني بالياء والتاء من اثنونىٰ وهو بناء مبالغة، وتَثْنَونٌّ وأصله تَثْنَوْنَن من الثَّنِّ وهو الكلأ الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثني، وتَثْنَئِنّ من اثنأن كابيأض بالهمزة، وتَثْنَوِي. ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من الله بسرِّهم فلا يُطْلع رسولَه والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم؟. وقيل نزلت في المنافقين، وفيه نظر إذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة[٢]. ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ الا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعَلَنُهم فكيف يخفىٰ عليه ما عسى يُظهرونه؟![٣] ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها[٤].

(٦) ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفُّله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل. . . (س٤/ ١٨٤).

(٢) الثابت في البخاري (٤٦٨١) أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يستحيون أن يتخلوا أو يجامعوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء.

(٣) وقدم السر على العلن نعياً عليهم من أول الأمر وهو بخلاف قوله ما صنعوا، وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه، وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجه (س٤/ ١٨٦).

(٤) كأنه قيل: إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية في صدورهم، يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون (س٤/ ١٨٦).

بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض حين وُجدت بالفعل ومَوْدَعَها من المواد والمقارّ حين كانت بعد بالقوة. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها. ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ. وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيانُ كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيها كما مرّ بيانه في الأعراف، أو ما في جهتي العلو والسفل. وجَمْعُ السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لأنه كان موضوعاً على متن الماء، واستُدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أَجرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بخَلَق أي خلق ذلك كخَلْق مَنْ خلق ليعاملكم معاملةَ المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسبابٌ ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائلٌ وأماراتٌ تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوىٰ لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذَكَرَ صيغة التفضيل ـ والاختبارُ شامل لفِرَق المكلفين ـ باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحاسن المحاسن والتحضيضِ على الترقي دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[١]. والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي إلاّ سَاحِر على أن الإشارة إلى القائل، وقرىء أَنكم ـ بالفتح ـ على تضمن قلْتَ معنى ذَكَرتَ؛ أو أن يكون أَنَّ بمعنى علّ أيْ ولئن قلت علكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغةً في إنكاره.

(٨) ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة.

---

(١) رواه الطبري (١٢/٥) وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/٤٠٤) رواه الطبري بإسناد ساقط لأن فيه داود بن المحبر، ورواه ابن مردويه بإسناد أسقط لأن فيه سليمان بن عيسى ومحمد بن أشرس وانظر الفتح السماوي ص٧١٩.

﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاءً. ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ كيوم بدر. ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ وأحاط بهم، وَضَعَ الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع تستهزئون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء[1].

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به. ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

(١٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم وغنًى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ ﴾ بَطِر بالنعم مغتر بها. ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها. وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمسَّ مبتدأ الوصول.

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولاحقها. ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم. ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أقله الجنة. والاستثناء منْ الإنسان، لأن المراد به الجنس فإذا كان محلى باللام أفاد الاستغراق، ومَنْ حمله على الكافر لسبق ذكرهم جَعَل الاستثناءَ منقطعاً.

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء ـ لوجود ما يدعو إليه ـ وقوعُه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ههنا. ﴿ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ينفقه في

---

(١) وفي التعبير عن العذاب بالموصول «ما» تهويل لمكانه وإشعار بعلية ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته.
والتعبير بالماضي «حاق» للدلالة على تحقق الوقوع لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفيه من الدلالة على علو شأن المخبِر وتقرير وقوع المخبَر به.

الاستباع كالملوك. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه، وقيل الضمير في به مبهَم يفسره أن يقولوا. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك ردّوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به صدرك. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

(١٣) (١٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم منقطعة، والهاء لما يوحىٰ. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البيان وحسن النظم، تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عَجَزوا عنها سهّل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المَثَلِ باعتبار كل واحدة. ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ مختلَقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعوّدكم القريض والنظم. ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه مفترى ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه[1]، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدونهم وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازُه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعاوضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيهِ على قيام الموجب وزوال العذر.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرىء يُوَفِّ بالياء أي يوف الله، وتُوَفَّ على البناء للمفعول، ونُوفِ بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

---

(١) وعبر عنه بالاستجابة إيماء إلى أنه عليه السلام على كمال أمنٍ من أمره، كأن أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه (س٤/ ١٩٢).

وإنْ أَتَاهُ كَرِيمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرَمُ

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء، وقيل في المنافقين، وقيل في الكفرة وغرضِهم وبرّهم[1].

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدةُ في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بصنعوا على أن الضمير للدنيا. ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ في نفسه. ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرىء باطلاً على أنه مفعول يعملون وما إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

ولاَ خَارِجاً مِنْ فِيَّ زُورِ كَلاَمِ ... ...

وبَطَلَ على الفعل[2]

(١٧) ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ برهان من الله يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهمزة لإنكار أن يعقب مَنْ هذا شأنُه هؤلاء المقصِرين همَمَهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر وتقديرُه أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ، وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تتلوه في التصديق، أو البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد مَلَك يحفظه. والضمير في يتلوه إما لمَنْ أو للبينة باعتبار المعنى ومِنْ قبله كتاب موسى جملة مبتدأة. وقرىء كتابَ بالنصب عطفاً على الضمير في يتلوه أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق كقوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[3] ويقرأ من قبل القرآن

(١) وعبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق ـ مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه ـ كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق ـ مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك ـ بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم (س٤/ ١٩٣).

(٢) عطف على (وقرىء باطلاً...) أي وقرىء بطل على الفعل.

(٣) الأحقاف: «١٠».

التوراة[١]. ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزّل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهلِ مكة ومَنْ تحزّب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَردها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من الموعد، أو القرآن. وقرىء مُرْيَة بالضم. وهما الشك. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كأن أسنَدَ إليه ما لم ينزله، أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم[٢]. ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كأشراف جمع شريف. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة، وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم[٣]. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئناف. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعَّف بالتشديد. ﴿مَا لتصامهم عن الحق وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه مِنْ ولاية الآلهة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراض.

(٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى.. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

---

(١) وقدم في الذكر المؤخر في النزول ـ أي قدم القرآن ـ لكونه وصفاً لازماً له غير مفارق عنه، ولعراقته في وصف التلو (س٤/ ١٩٥).

(٢) عبر عن عرض أعمالهم بوجه أبلغ، فإن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (س٤/ ١٩٦).

(٣) وجمع الأولياء باعتبار أفراد الكفرة أو باعتبار ما كانوا يدعون من دون الله تعالى (س٤/ ١٩٧).

﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، مِنَ الخبْت وهو الأرض المطمئنة. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ دائمون.

(٢٤) ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

فَالآيِب الصَّابِح فَالغَانِم

وهذا من باب اللفّ والطباق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان. ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ﴾ بأني لكم. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على إرادة القول. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

(٢٦) ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل من أني لكم، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أنْ مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَدّ جِدُّه ونهارُه صائم للمبالغة.

(٢٧) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسّاؤنا جمع أرذل فإنه بالغلبة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهمزة. وانتصابُه بالظرف على حذف المضاف أي: وقتَ حدوث بادي الرأي، والعامل فيه اتبعك. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم

فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ بها أشرف عندهم والمحروم منها أرذل. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ لك ولمتبعيك. ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ إياك في دعوى النبوة وإياهم في دعوى العلم بصدقك فغلّب المخاطب على الغائبين.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي. ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البينة أو النبوة. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم فلم تَهْدِكم. وتوحيد الضمير لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة، أو على تقدير فعميت بعد البينة وحذفها للاختصار، أو لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حمزة والكسائي وحفص فعُمِّيت أي أخفيت[1]، وقرىء فَعَمَّاها على أن الفعل لله. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم على الاهتداء بها. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً وقدم الأعرف منهما جاز في الثاني الفصل والوصل.

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذُكر. ﴿مَالًا﴾ جعْلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه المأمول منه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم. ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردُهم؟[2] ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بلقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو في التماس طردهم، أو تتسفهون عليهم بأن تَدْعُوهم أراذل.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع انتقامه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرفوا أن التماس طردهم وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ رزقُه وأمواله حتى جحدتم فضلي. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ عطف على عندي خزائن الله، أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا. ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقول في شأن من

---

(١) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «فَعَمِيَتْ».

(٢) والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم (س٤/ ٢٠٢).

استرذلتموهم لفقرهم. ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعده الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء به افتعال من زرى عليه إذا عابه، قلبت تاؤه دالاً لتجانس الراء في الجهر، وإسناده إلى الأعين للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرؤية من غير رويّة بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم.

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا. ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأطلته أو أتيت بأنواعه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل جواب، والجملة دليل جواب قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقديرُ الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي[1]، ولذلك تقول لو قال الرجل أنتِ طالق إن دخلتِ الدار إن كلمت زيداً فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل أن يغويكم أن يهلككم، مِنْ غَوِيَ الفصيلُ غوًى إذا بَشِمَ[2] فهلك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ وباله. وقرىء أَجْرَامي على الجمع. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

---

(١) وتقييد عدم نفع النصح بإرادته ـ مع أنه محقق لا محالة ـ للإيذان بأن ذلك النصح منه مقارن للإرادة، وللاهتمام به، ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم. وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه ـ حيث لم يقل إن كان الله يغويكم ـ مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وعلا، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك؟. وزيادة «كان» للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها (س٤/ ٢٠٥).

(٢) بَشَم إذا أُتخِم من كثرة الأكل (المصباح المنير مادة بشم).

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ولا تتأسف. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أقنطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغتمّ بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

(٣٧) ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا، عبّر بكثرة آلة الحس الذي يُحفَظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

(٣٨) ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية[١]. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في بَرِّيّة بعيدة من الماء أوان عِزَّته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال[٢].

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم وبالعذابِ الغرقَ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه، أو يحل عليه حلول الديْن الذي لا انفكاك عنه. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار[٣].

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله «ويصنع الفلك» وما بينهما حال من الضمير فيه، أو حتى هي التي يُبتدأ بعدها الكلام. ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقِدْر تفور. والتنورُ تَنُّورُ الخبز ابتدأ منه النبوع على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها أو في الهند أو بعين وردة من أرض الجزيرة، وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِن كُلٍّ﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها. ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. هذا على قراءة حفص، والباقون أضافوا[٤] على معنى احمل اثنين من كل صنفٍ ذكرٍ وصنف أنثى[٥]. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على زوجين

---

(١) لاستحضار صورتها العجيبة.

(٢) أو أطلق السخرية عليه للمشاكلة (س٤/٢٠٧).

(٣) ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة. والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد. وتخصيصُه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة (س٤/٢٠٧).

(٤) أي قراءة حفص «كلٍّ» بالتنوين، وقراءة الباقين بالإضافة «من كلِّ زوجين».

(٥) قدم حمل كل زوجين على حمل الأهل وسائر المؤمنين لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج.. أما البشر فإنما يدخلون الفلك باختيارهم فيخف فيه معنى الحمل، أو لأنها =

أو اثنين، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنَه كنعان وأمه وَاعِلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم[١]. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسُمْكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير[٢].

۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

(٤١) ﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ أي صيروا فيها، وجَعَلَ ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ متصل باركبوا حالٌ من الواو أي اركبوا فيها مسمّين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المَجْرى والمَرْسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: آتيك خفوق النجم، وانتصابُهما بما قدرناه حالاً، ويجوز رفعهما ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجراؤها بسم الله على أن بسم الله خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسمُ مُقْحماً كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص مجراها بالفتح من جرى[٣]، وقرىء مَرْسَاها أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة، ومُجْرِيها ومُرْسِيها بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفَرَطاتكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

(٤٢) ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركِبوا مسمّين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كلُّ موْجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسةَ عشرَ ذراعاً وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان. وقرىء ابنها وابْنَهَ بحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان

= تحمل بواسطة البشر (س٤/٢٠٨).

(١) وإيثار صيغة الإفراد في «مَنْ آمن» محافظة على لفظ مَنْ للإيذان بقلتهم (س٤/٢٠٨).

(٢) وتعيين نوع السفينة وشكلها من الإسرائيليات التي أعرض القرآن الكريم عن ذكرها لعدم الفائدة في ذلك.

(٣) وقراءتهم المذكورة بفتح الميم وكسر الراء على الإمالة. أما الباقون فقراءتهم مثلها إلا أنها بضم الميم (انظر المبسوط لابن مهران ص٢٠٤).

وقد أثبت البيضاوي الأصل بالألف «مجراها» وينبغي كتابتها بما يدل على الإمالة «مَجرِنَها».

ربيبَهُ. وقيل كان لغير رشده[١] لقوله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانةُ في الدين، وقرىء ابناه على النَّدْبة ولكونها حكايةً سُوِّغَ حذفُ الحرف. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه، مَفْعِل للمكان مِنْ عزله عنه إذا أبعده. ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الياء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في لقمان[٢] في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قنبل، وعاصم فإنه فتح ههنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع، وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص[٣] لتقاربهما. ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدين والانعزال.

قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤٣) ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ أن يغرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ إلاالراحمُ وهو الله تعالى، أو الإمكان مِنْ رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم مُعْتَصَم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصَم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٤] وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء[٥].

(٤٤) ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ نوديا بما ينادىٰ به أولو العلم وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمرُ المنقادَ لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلعُ النشف، والإقلاع الإمساك. ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وُعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾

---

(١) أي ولداً من سفاح. وقوله «لغير رِشدة» تكنية موفقة واختيار لأدب اللفظ مع مقام النبوة، فلم يصرح بما قيل من الزنى وإن كان باطلاً، بل وإن كان في حق كافرة لمكان زوجها منها ﷺ.

(٢) لقمان الموضع الأول الآية «١٣» والموضع الثالث الآية «١٧».

(٣) هو حفص بن سليمان بن المغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي، ولد سنة تسعين من الهجرة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءة عاصم، تردد بين بغداد ومكة وهو يقرىء الناس القرآن الكريم.
قال عنه الذهبي: هو في القراءة ثقة ثبت ضابط.
توفي سنة ثمانين ومائة هجرية على الصحيح.
[غاية النهاية (١/ ٢٥٤) والأعلام للزركلي (٢/ ٢٦٤)].

(٤) الحاقة: «٢١».

(٥) وفي إيراد «كان» دون صار مبالغة في كونه منهم (س٤/ ٢١١).

واستقرت السفينة. ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل بالشام، وقيل بآمل. روي[١] أنه ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار ذلك سنّة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ هلاكاً لهم، يقال بَعُد بُعْداً وبَعَداً إذا أَبْعَدَ بُعْداً بَعيداً بحيث لا يُرجى عوْده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء. والآيةُ في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كُنْه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ وأراد نداءه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإنه النداء. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخُلْف، وقد وعدتَ أن تنجيَ أهلي فما حالُه أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكْمة كالدارع من الدِّرْع.

(٤٦) ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء[٢] تصف ناقة:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكَرَتْ ... فإنّما هي إقبالٌ وإدْبَارٌ

ثم بدّل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب إنه عَمِلَ غيرَ صالح، أي عَمِلَ عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك. وإنما سمّىٰ نداءه سؤالاً لتضمن ذكْر الوعد بنجاة أهله استنجازَه في شأن ولده، أو استفسارَ المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله:

(١) إن صيام يوم عاشوراء سنة للحديث الذي أخرجه البخاري (٤/ ٢٤٤ رقم ٢٠٠٤) ومسلم (٢/ ٧٩٥ ـ ٧٩٦ رقم ١١٣٠) وأبو داود (٢/ ٨١٨ رقم ٢٤٤٤) وابن ماجة (١/ ٥٥٢ رقم ١٧٣٤) عن عبدالله بن عباس. قال: قَدِمَ النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراءَ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نجّى اللهُ بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامَهُ وأمَرَ بصيامه».

(٢) هي الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة. اسمها تماضر. قال أبو عمر قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم.
وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.
[الإصابة (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩ رقم ٣٥٥)].

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأن استثناءَ من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتَبَه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة[١]، وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألَنني فحُذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكُسرت الشديدة للياء ثم حذفت اكتفاء بالكسرة[٢]، وعن نافع برواية رويس إثباتها في الوصل[٣].

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ فيما يستقبل[٤]. ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ما لا علم لي بصحته. ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال. ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالتوبة والتفضل عليّ. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ انزل من السفينة مسلَّماً من المكاره من جهتنا، أو مسلَّماً عليك. ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانياً. وقرىء اهْبُط - بالضم - وبرَكَة على التوحيد، وهو الخير النامي. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتحزبهم أو لتشعب الأمم منهم، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم المؤمنون لقوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية مَنْ معه. وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذابُ ما نزل بهم.

(٤٩) ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي بعضها. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ خبر ثان. والضمير لها أي موحاة إليك، أو حال من الأنباء، أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به، أو حال من الهاء في نوحيها[٥]. ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ خبر آخر أي

---

(١) أي قرأ «فلا تسئَلَنَّ».
(٢) أي «فلا تَسْئَلَنِّ».
(٣) أي «فلا تَسْئَلَنِّي».
(٤) وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كونه ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك (س٤/ ٢١٣).
(٥) والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة (س٤/ ٢١٥).

مجهولة عندك وعند قومك من قَبْل إيحائنا إليك، أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في إليك أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لمّا لم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على قوله: «نوحاً إلى قومه» وهوداً عطفُ بيان. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرىء بالجرّ حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

(٥١) ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خاطب كلُّ رسول به قومَه إزاحةً للتهمة وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع[1]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

(٥٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ اطلُبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة، وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرّ. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك، حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

---

(١) وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل صلته فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر (س٤/ ٢١٦).

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، مِنْ عراه يعروه إذا أصابه. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون لسبِّك إياها وصدك عنها ومن ذلك تَهْذِي وتتكلم بالخرافات، والجملة مقول القول، وإلاّ لغوٌ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

(٥٥) ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد اللهَ تعالىٰ على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يَشْهدوا عليه استهانةً بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنْظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عَجَزوا عن آخرهم ـ وهم الأقوياء الأشداء ـ أن يضروه لم يبقَ لهم شبهةٌ أنّ آلهتهم ـ التي هي جماد لا يضر ولا ينفع ـ لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجمَّ الغفيرَ من الجبابرة الفُتَّاكِ العِطَاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله، وتثبُّطِهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه، ولذلك عقبه بقوله:

(٥٦) ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ تقريراً له، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءَته وهو مالكي ومالكُكُم لا يحيق بي ما لم يُرِده ولا يقدرون على ما لم يُقَدِّره[1]، ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإن تتولوا. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أديت ما عليّ من الإبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرني ربي ويستخلِفْ. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ لتولّيكم. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر. ومَنْ جَزَمَ يستخلفْ أسقط النون منه. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستوْلٍ عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[2] عذابُنا أو أمرنا العذاب. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وكانوا

---

(١) وجيء بلفظ الماضي «توكلت» لكونه أدل على الإنشاء المناسب للمقام (س٤/٢١٨).

(٢) والتعبير عن العذاب بلفظ الأمر مع إضافة إلى ضميره تعالى وعن نزوله بالمجيء من التفخيم والتهويل ما لا يخفى (س٤/٢١٩).

أربعة آلاف. ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السَّمُوم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرُج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم. أو المراد به تنجيتَهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المُهْلَكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنَّثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها. ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومَنْ عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني كبراءهم الطاغين. وعنيد من عَنَدَ عَنَداً وعنداً وعُنُوداً إذا طغَىٰ، والمعنى عصوا مَنْ دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يُرْديهم.

(٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكُبُّهم في العذاب[1]. ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ جحدوه، أو كفروا نعمه، أو كفروا به فحذف الجار. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر «ألا» وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم. ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطفُ بيان لعاد. وفائدتُه تمييزُهم عن عاد الثانية عادِ إرم، والإيماءُ إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

(٦١) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسلَه منها من التراب. ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم من العُمُر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العُمْرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمِّرين ديارَكم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة. ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لداعيه.

(٦٢) ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشَد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلمّا سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك.

---

(١) قوله «ويوم القيامة» أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة، وهي عذاب النار، وحذفت لدلالة الأولى عليها وللإيذان باستقلالها عنها واختلافهما (س٤/ ٢٢٠).

﴿أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة مِنْ أرابه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أَرَابَ في الأمر.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ بيانٍ وبصيرة، وحرف الشك باعتبار المخاطبين. ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوّة. ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه[1] ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ إذَنْ باستتباعكم إياي. ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تُخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أَنْسِبكم إلى الخُسران.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ انتصب آية على الحال وعاملُها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها[2]. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾[3] تَرْعَ نباتها وتشرب ماءها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخىٰ عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام[4].

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلَيماً وَعَامِراً

أو غير مكذوب على المجاز وكأن الواعد قال له أَفِي بكَ فإنْ وَفَّىٰ به صدقه وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكُهم بالصيحة أو ذُلّهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع يومَئِذٍ ـ بالفتح ـ على

---

(١) والعدول إلى إظهار لفظ الجلالة للتهويل (س٤/ ٢٢١).
(٢) وإضافة الناقة إليه تعالى للتشريف وللتنبيه على مفارقتها لما يجانسها من حيث الخلقة (س٤/ ٢٢٢).
(٣) وإضافة الأرض إليه تعالى لتربية استحقاقها ذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (س٤/ ٢٢٢).
(٤) وتنكير السوء لتعميمه أي لا تمسوها بأي أمر يسوؤها.

اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي المعارج في قوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة الأعراف[2].

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نوّنه أبو بكر ههنا وفي النجم[3]، والكسائي في جميع القرآن، وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

(٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ ببشارة الولد، وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذَكَروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمْرُكم أو جوابي سلامٌ أو وعليكم سلام، رَفَعَه إجابةً بأحسن من تحيتهم[4]. وقرأ حمزة والكسائي سِلْم وكذلك في الذاريات[5] وهما لغتان كحِرْم وحَرَام. وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه، والجارّ في أَنْ مقدَّر أو محذوف. والحنيذ المشوي بالرَّضْف. وقيل الذي يقطر وَدَكُه من حنذت الفرس إذا عرّقْتُه بالجُلاَل لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[6].

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكِرَ وأَنْكر واستَنْكر بمعنى. والإيجاسُ الإدراك، وقيل الإضمار ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسَلَة إليهم بالعذاب، وإنما لم نَمُدَّ إليه أيدينا لأنا لا نأكل.

---

(١) المعارج: «١١».

(٢) الأعراف: «٧٨» عند قوله «فأخذتهم الرجفة» ولعل الرجفة بعد الصيحة. وإظهار لفظ «ظلموا» للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة نزول العذاب بهم (س٤/ ٢٢٣).

(٣) النجم: «٥١».

(٤) أي كان رده بأحسن من تحيتهم لرده بسلام مقدر بجملة اسمية أما سلامهم مقدر بجملة فعلية والاسمية أبلغ لأنها تفيد الدوام والاستمرار بينما الفعلية تفيد الحدوث.

(٥) الذاريات: «٢٥».

(٦) الذاريات: «٢٦».

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

(٧١) ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمُم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكاً فِي لُبَابَةٍ ... وَلَمْ يَعْدُ حُقّاً ثَدْيُهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صَمْغُها. وقرىء بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبَه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوبَ. وقيل إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفَتْحَتُه للجرّ فإنه غير مصروف، ورُدّ للفصل بينه وبين ما عُطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبرُه الظرفُ، أي ويعقوب مولود من بعده. وقيل الوراء ولد الولد رلعله سُمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته، وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيىٰ، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن وُلِدا فسُمِّيا به وتوجيهُ البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأُطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي، وأصلُه القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ محذوفٍ أي هو شيخ، أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر وبَعْلي بدل. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني الولد من هَرِمَيْن، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك:

(٧٣) ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ مُنكِرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصُهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يَستغرِبَه عاقل فضلاً عمن نشأت وشابَت في ملاحظة الآيات، وأهلُ البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة[1]. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ فاعلٌ ما يستوجب به الحمد. ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

---

(١) وإظهار لفظ الجلالة في «رحمة الله» لزيادة تشريفها.
وقوله «عليكم. . .» حيث عدل إلى خطاب جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه السلام (س٤/٢٢٦).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بدلَ الروع. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلتُه إياهم قولُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾[1]. وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شَرَعَ في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامَه مثل أخَذَ أو أقبل يجادلنا.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله. والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط ترحمه.

(٧٦) ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ على إرادة القول، أي قالت الملائكة يا إبراهيم. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قَدَرُه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم، وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئُهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان، فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومُه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدرُه، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، مِنْ عَصَبَه إذا شدّه.

(٧٨) ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يُدْفَعُون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يُهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فدى بهن أضيافَه كرماً وحَمِيّة، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يُجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء، أو مبالغةً في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرُقّوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية، وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقوله: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه. وقرىء أَطْهَرَ بالنصب على الحال، على أن هنّ خبر بناتي كقولك: هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو

---

(١) العنكبوت: «٣٢».

بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذُّكران.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو قويتُ بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم، شَبَّهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»[1]. وقرىء أو آوِيَ بالنصب بإضمار أَنْ كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أَوْياً، وجواب لو محذوف تقديره لدفعتكم. روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب[2].

(٨١) ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهوّن عليك ودعنا وإياهم، فخلاّهم أن يدخلوا، فضرب جبريلُ عليه السلام بجناحه وجوهَهم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاءَ النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقِطْع من الإسراء. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السُّرَىٰ[3]. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه، والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إنْ فُسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقضَ ذلك قراءةَ ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب الْتفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأَوْلى جعلُ الاستثناء في

---

(١) ● أخرجه البخاري (٦/٤١٥ رقم ٣٣٧٥) ومسلم (٤/١٨٤٠ رقم ١٥٣/٢٣٧٠) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/٤١٨ رقم ٣٣٨٧) من طريق سعيد بن المسيب وأبي عبيدة عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/٤١١ رقم ٣٣٧٢) ومسلم (١/١٣٣ رقم ٢٣٨).
من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/١٠٨) بدون راوٍ ولا سند.
وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/١٤٠) عن ابن عباس.

(٣) أي بهمزة الوصل «فأَسْرِ» والسُّرى: السير ليلاً.

القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلَه في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[١] ولا يبعُد أن يكون أكثرُ القرّاء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمْرُها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنه علة الأمر بالإسراء. ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل، وجعلُ التعذيب مسبَّباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جوابٌ لِمَا، وكان حقُّه جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر، فإنه روي[٢] أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها[٣]. ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجّر لقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[٤] وأصله سَنْك كلّ فعُرِّب. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأُبدلت نونه لاماً. ﴿مَّنضُودٍ﴾ نَضَد مُعَدّاً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به.

(٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمة للعذاب. وقيل معلمة ببياض وحمرةٌ. أو بسِيَما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يُرمىٰ بها. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطَر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»[٥]. وقيل الضمير للقُرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

---

(١) النساء: «٦٦».

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١٢/ ٨٠ ـ ٨١) عن سعيد.

(٣) وإسناد الجعل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبّب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب (س٤/ ٢٣٠).

(٤) الذاريات: «٣٣».

(٥) ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٨٧ رقم ١٩٣).

(٨٤) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسُمّي باسمه. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً ـ فإنه ملاك الأمر ـ ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخلّ بحكمة التعاوض. ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقُّها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تُنقصوا حقوقَهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه. وهو في الجملة علّة للنهي. ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يشذ منه أحد منكم، وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾[1]، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال. ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الازدياد إيفاء، وهو مندوب غير مأمور به، وقد يكون محظوراً. ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره[2]، وكذا قوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثّو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبَخْس المَكْسُ كأخذ العشور في المعاملات، والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدةُ الحال إخراجُ ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام[3]. وقيل معناه ولا تعثوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

(٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾[4]. وقرىء تَقِيَّة الله بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ احفظُكم عن القبائح أو احفظ عليكم أعمالكم فأجازيَكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أُعْذِرت حين أَنْذَرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

---

(١) الكهف: ٤٢.

(٢) أو صرح بالنهي عن البخس بعد علمها مما تقدم اهتماماً بشأنه وترغيباً في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها (س٤/ ٢٣١).

(٣) من خرق السفينة وقتل الغلام..

(٤) الكهف: ٤٦.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾

(٨٧) ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام، أجابوا به آمِرَهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعارِ بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تُواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جَمَعُوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد، والمعنى: أصلاتُك تأمرك بتكليف أن نتركَ، فحُذِف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ عطفٌ على ما، أي وأن نترك فعلنا ما نشاءُ في أموالنا. وقرىء بالتاء فيهما على أن العطف على أن نترك وهو جواب النهي عن التطفيفِ والأمرِ بالإيفاء. وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعادَه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعيْن عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

(٨٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهلْ يسع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟. وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضميرُ في منه لله أي من عنده وبإعانته بلا كدّ مني في تحصيله. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتيَ ما أنهاكم عنه لأستبدّ به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أُعرض عنه فضلاً عن أن أَنْهىٰ عنه، يقال خالفتُ زيداً إلى كذا إذا قصدتُه وهو مولٍّ عنه وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا أن أُصلحَكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمتُ أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعيَ في كل ما يأتيه ويذره أحدَ حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها: حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. وما مصدرية واقعة موقع الظرف، وقيل خبرية بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحُذِف المضاف. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصىٰ مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله

تعالى، والاستعانةِ به في مجامع أمره، والإقبالِ عليه بشراشِره[١]، وحسمِ أطماع الكفار وإظهارِ الفراغ عنهم وعدمِ المبالاة بمعاداتهم وتهديدِهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾

(٨٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِيٓ﴾ معاداتي. ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق. ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ من الرجفة. وأنْ بِصِلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يُعدى إلى واحد وإلى اثنين ككَسَبَ. وعن ابن كثير يُجْرِمنكم ـ بالضم ـ وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والأول أفصح فإن أَجْرَم أقل دَوَراناً على ألسنة الفصحاء. وقرىء مِثْلَ بالفتح لإضافته إلى المبنيّ كقوله:

لمْ يُمْنَع الشُّربَ مِنهَا غَيرَ أَنْ نَطَقَتْ حمَامَةٌ في غُصُون ذات أوْقَالِ

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ زماناً أو مكاناً فإنْ لم تعتبروا بمَنْ قبلهم فاعتبروا بهم[٢]، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمَسَاوِي فلا يَبْعد عنكم ما أصابهم، وإفرادُ البعيد لأن المراد وما إهلاكُهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يُسَوّىٰ في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زِنة المصادر كالصهيل والشهيق.

(٩٠) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَدُودٞ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغُ المودةَ بمَنْ يَوَدّه، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

(٩١) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحُرْمة البخس وما ذكرتَ دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانةً بكلامه، أو لأنهم لم يُلقوا إليه أذهانهم لشدة نُفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ لا قوة لك فتمتنع منّا إن أردنا بك سوءاً، أو مَهِيناً لاعزّ لك. وقيل أعمى بلغة حِمْيَر، وهو مع عدم مناسبته يرده التقييد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرقُ بيّن. ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ قومُك، وعزّتُهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ فتمنعنا عزتُك عن الرجم، وهذا ديْدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد، وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه، ولذلك:

---

(١) بشراشره أي بكُلّيّته.

(٢) ولم يصرح بذكر ما أصابهم للإيذان بأن ذلك مغْنٍ عن ذكْره لشهرته (س٤/ ٢٣٥).

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ ﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تُبقون علي لله وتُبقون عليّ لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. وظِهْرياً منسوب إلى الظَّهْر، والكسرُ من تغييرات النَّسَب. ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلا يخفىٰ عليه شيء منها فيجازي عليها.

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ سبق مثلُه في سورة الأنعام[1]. والفاء في فسوف تعلمون ثَمَّةَ للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سببٌ لذلك، وحذفُها ههنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير، أو المرتقب كالرفيع.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ إنما ذَكَره بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذِكْرُ وعدٍ يجري مجرىٰ السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذُكِرَ بعد الوعد وذلك قوله: ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[2] وقوله ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ ﴾[3] فلذلك جاء بفاء السببية. ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان[4].

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ ﴾ كأن لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبَّههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم . وقرىء

(١) الأنعام: «١٣٥».
(٢) هود: «٦٥».
(٣) هود: «٨١».
(٤) وقدم تنجيته عليه السلام على إهلاكهم اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبق رحمته تعالى على غضبه (س٤/ ٢٣٧).
(٥) والعدول عن الإضمار إلى الإظهار ـ أي أظهر لفظ مدين ـ ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسب بمن شبه هلاكُهم بهلاكهم (س٤/ ٢٣٨).

بَعُدَتْ بالضم على الأصل، فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعْد مصدر لهما والبَعَدُ مصدر المكسور.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة، أو العصا؛ وإفرادُها بالذكر لأنها أبْهَرُها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلنا بالجامع بين كونِهِ آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها، فإنّ أَبَانَ جاء لازماً ومتعدياً، والفرقُ بينهما أن الآية تعم الأمَارة، والدليل القاطع والسلطان يُخَصُّ بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتّبعوا أمره بالكفر بموسى، أو فما تبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيَّد بالمعجزات القاهرة الباهرة واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يَخفى فساده على من له أدنى مُسْكَة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم[1]. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رَشَد، وإنما هو غي محض وضلال صريح.

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال، يقال قَدِم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونزَّل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً، ثم قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه فإنه يُراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنارُ بالضدّ. والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسيرٌ له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا. ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يُلعَنون في الدنيا والآخرة[2]. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العون المعان أو العطاء المُعْطىٰ، وأصل الرِّفْد ما يضاف إلى غيره ليعمده. والمخصوص بالذم محذوف أي رِفْدُهم وهو اللعنةُ في الدارين.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النبأ. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ المهلَكة. ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرىٰ باقٍ كالزرع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثَر كالزرع المحصود.

---

(١) وتخصيص الملأ بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لكافة قومه وذلك لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور (س٤/ ٢٣٨).

(٢) واكتُفي ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون، كأنه قيل: إذا كان هذا حالهم فكيف بمن كان سبباً في إغوائهم وإضلالهم؟ (س٤/ ٢٣٩).

والجملة مستأنفة، وقيل حال من الهاء في نقصه، وليس بصحيح إذ لا واوَ ولا ضمير.

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن عرّضوها له بارتكاب ما يوجبه. ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم بل ضرّتهم. ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هلاك أو تخسير.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾. وقرىء أَخَذَ رَبُّك بالفعل، وعلى هذا يكون محل الكاف النصبُ على المصدر. ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلها[1]. وقرىء إذْ، لأن المعنىٰ على المضي. ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتُها الإشعارُ بأنهم أُخِذُوا بظلمهم وإنذارُ كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من وَخَامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجوّ الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة، أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَأٓيَةً﴾ لعبرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يَعتبر به عظمتَه لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو يَنزجر به عن موجباته لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، فإن مَنْ أنكر الآخرة وأَحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار وجَعَل تلك الوقائع لأسباب فَلَكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهْلَكين بها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة، دل عليه: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس. والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالةَ، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[2]. ومعنى الجمع له الجمعُ لما فيه من المحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: في مَحفَلٍ مِنْ نَواصِي النَّاس مَشْهُود، أي كثير شاهدوه، ولو جُعِل اليومُ مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزِه فإن سائر الأيام كذلك.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه غير معدود.

---

(١) وأسند الإهلاك إلى القرى للإشعار بسريان أثره إليها (س٤/ ٢٤٠).
(٢) التغابن: «٩».

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾[(١)] على أنّ يومَ بمعنى حين، أو اللهُ عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾[(٢)] ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة، وهو الناصب للظرف، ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(٣)] وهذا في موقف، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[(٤)] في موقف آخر، أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد. والضميرُ لأهل الموقف وإن لم يُذْكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو للناس[(٥)].

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفيرُ إخراج النفس والشهيقُ ردّه، واستعمالهما في أول النهيق وآخره، والمراد بهما الدلالةُ على شدة كربهم وغمهم وتشبيهُ حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير. وقرىء شُقُوا بالضم.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما ـ فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما ـ بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم؛ لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاوِمُ المنطوقَ. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضُها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[(٦)] وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مَظَلٍّ ومَقَلّ، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يَعرف أكثرُ الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فُسّاقُ الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم

---

(١) يوسف: «١٠٧».

(٢) البقرة: «٢١٠».

(٣) النبأ: «٣٨».

(٤) المرسلات: «٣٥، ٣٦».

(٥) قدم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/ ٢٤١).

(٦) إبراهيم: «٤٨».

منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وههنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القِسْمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار يُنقَلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمانُ توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقيل: «إلا» ههنا بمعنى سوّى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوّى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

(١٠٨) ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيهٌ على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فُرِّق بين الثواب والعقاب بالتأبيد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص سُعِدُوا على البناء للمفعول من سَعِدَه اللهُ بمعنى أسعده. وعطاءً نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء، أو الحال من الجنة[١].

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أُنزل عليك من مآل أمر الناس. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤدٍّ إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المِرْية أي هم وآباؤهم سواءٌ في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مِثْل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثلُه، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسبَّبات. ومعنى كما يعبد كما كان يعبد، فحُذف للدلالة مِنْ قبْلُ عليه[٢]. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية، فإنك تقول: وفيته حقه وتريد به وفاءَ بعضه ولو مجازاً.

---

(١) لم يذكر هنا أن لهم فيها بهجة وسروراً كما ذكر في أهل النار من أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً وذلك لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/ ٢٤٢).

(٢) والتعبير بصيغة المضارع في «يعبدون» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٤/ ٢٤٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني كلمةَ الإنظار إلى يوم القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة.

(١١١) ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإنَّ كلَّ المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل[١]. ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ اللام الأولىٰ موطئة للقسم والثانية للتأكيد، أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بالتشديد[٢]، على أن أصله لِمَنْ ما فقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات فحُذفت أولاهن، والمعنى لِمَنَ الذين يوفينهم ربك جزاء أعمالهم. وقرىء لمّاً بالتنوين أي جميعاً كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾[٣]، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾[٤] على أنّ إنْ نافية ولمّا بمعنى إلا، وقد قرىء به. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمّا بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامةِ مثلَ ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسّط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعْمالِ من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أُنْزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيبتني هود»[٥]. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن

---

(١) أي بتخفيف «إنّ» فقرئت «إنْ» مع إعمالها بالنصب لاسمها «كلاً».

(٢) وكأن الأصل عنده قراءة من قرأ بتخفيف «لمّا».

(٣) الفجر: «١٩».

(٤) يس: «٣٢».

(٥) وهو حديث صحيح.

أخرجه (٤/ ٣٥٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٥) من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيبتني هود، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

قلت: قد تابعه أبو الأحوص عن أبي إسحاق الهمداني به.

أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٦).

قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٧٦) =

معك، وهو عطف على المستكنّ في استقم وإنْ لم يؤكَّد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تخرجوا عما حدّ لكم. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان[1].

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تميلوا إليهم أدنىٰ مَيْل، فإن الركون هو الميل اليسير كالتزيّي بزيّهم وتعظيم ذِكْرهم واستدامته. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه ما يُسمى ظلماً كذلك فما ظنكَ بالركون إلى الظالمين؟ أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كلّ الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يُتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرىء تِرْكَنوا فتِمَسّكم ـ بكسر التاء ـ على لغة تميم، وتُرْكَنُوا على البناء للمفعول من أركنه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، والواو للحال. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يُبْقِي عليكم. وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم، ويجوز أن يكون مُنَزّلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا يُنصرون أصلاً.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوة وعشية، وانتصابُه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قرّبه وهو جمع زُلْفَة. وصلاة الغداة صلاة

= والحديث له شواهد:

(منها) ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٣٦) عن قتادة مرفوعاً مختصراً بلفظ «شيبتني هود وأخواتها».

وإسناده صحيح لولا أنه مرسل. لكن أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦ رقم ٧٩٠) عن عقبة بن عامر مرفوعاً به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٧): «ورجاله رجال الصحيح».

(ومنها): ما أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن سرين عن عمران بن الحصين مرفوعاً بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها».

وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٧٩): «وإسناده حسن».

والخلاصة أن الحديث صحيح. انظر «الصحيحة» رقم (٩٥٥).

(١) يريد من عبارته الانحراف عن مضمون النص ومحتواه باستعمال القياس والاستحسان ونحوه وليس المراد استعمال القياس والاستحسان بأصلهما، فإن استعمالهما هو إعمال للنصوص نفسها.

الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار وصلاةُ العشية صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزُّلَف المغرب والعشاء. وقرىء زُلُفاً بضمتين، وضمة وسكون كبُسْر وبُسُر في بُسْرَة، وزُلْفَىٰ بمعنى زلفة كقُربىٰ وقربة. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر»[١] وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها، فنزلت[٢]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقم وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

---

(١) ● أخرج مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٩ رقم ١٥/ ٢٣٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٩) من طريق هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهنَّ».

● وأخرج (٢/ ٤٨٤) من طريق العلاء بن عبدالرحمٰن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمسُ والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهنّ ما لم تُغش الكبائر».

● وأخرج مسلم (١/ ٢٠٩ رقم ١٦/ ٢٣٣) والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٧ رقم ٣٤٥) وأحمد (٢/ ٤٠٠). من طريق ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمرَ بن إسحاق مولى زائدة حدَّثهُ عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمسَ، والجمعة إلى الجمعة. ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر».

(٢) ● أخرج الترمذي (٥/ ٢٩٢ رقم ٣١١٥) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٨/ ٣٠٧ رقم ١١١٢٥) ـ.

من طريق موسى بن طلحة عن أبي اليَسَر بن عمرو، قال: أتَتْهُ امرأة، وزوجها قد بعثَهُ النبي ﷺ في بعثٍ، فقالت له: بعني بدرهم تمراً. فقال: فقلت لها ـ وأعجبتني ـ إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فانطلق بها فغمزها وقبّلَها، ففزعَ ثم خرجَ فلقي أبا بكر فقال له: هلكتُ. قال: ما شأنكَ، فقصَّ عليه أمرَهُ، وقال له: هل لي من توبة؟ قال: نعم، تُب ولا تعُد ولا تخبرنَّ أحداً، ثم انطلق حتى أتى النبي ﷺ فقص عليه فقال: «خلَّفتَ رجلاً من المسلمين غازياً في سبيل الله بهذا» وظننتُ أني من أهل النار، وأنّ الله لا يغفِرُ لي أبداً، وأطرق عني نبي الله ﷺ حتى نزلت عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فأرسل إليّ نبي الله ﷺ فقرأهُنَّ عليَّ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٣٧) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥ رقم ٣٧١) كلاهما من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبدالله بن مرهب ـ به وقيس بن الربيع: «صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به».

قاله ابن حجر في «التقريب» [٢/ ١٢٨ رقم (١٣٩)].

والخلاصة أن الحديث حسن.

وأصل القصة في الصحيحين: أخرج البخاري (٨/ ٣٥٥ رقم ٤٦٨٧).

ومسلم (٤/ ٢١١٥ رقم ٣٩) من حديث ابن مسعود.

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٥) ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ عدول[1] عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماءً بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص.

(١١٦) ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ فهلا كان. ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يُخرجه؛ ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذَوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرىء بَقْيَةٍ وهي المرة من مصدر بَقَاهُ يَبْقِيه إذا راقبه. ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جُعِل استثناءً من النفي اللازم للتحضيض. ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ ما أُنعِموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك. ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين. كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشوّ الظلم فيهم واتّباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. وقولُه واتّبع معطوف على مضمر دل عليه الكلام إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا، وكانوا مجرمين عَطْفٌ على اتبع أو اعتراض. وقرىء وأُتْبِع أي وأتبعوا جزاء ما أُترفوا، فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة، ويعضده تقدُّم الإنجاء.

(١١٧) ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ بشرك. ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فيما بينهم لا يضمّون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوقَ العباد. وقيل المُلْكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

(١١٨) ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مُسْلِمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غيرُ الإرادة وأنه تعالى لم يُرِدِ الإيمانَ من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعُه. ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضُهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

(١١٩) ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق

---

(١) وعبر عن ذلك بنفي الإضاعة ـ مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة ـ وذلك لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح، وكذا لإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه (س٤/ ٢٤٦).

والعمدة فيه. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إنْ كان الضمير للناس فالإشارةُ إلى الاختلاف؛ واللامُ للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمَنْ فإلى الرحمة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيدٌ، أو قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصاتهما. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكُلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادةُ يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكُلاً منصوب على المصدر بمعنى كلَّ نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورة[1]، أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

(١٢١) ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على حالنا.

(١٢٢) ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نَزَل على أمثالكم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يَخفىٰ عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيَرْجِع ـ لا محالة ـ أمرُهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص يُرْجَعُ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كلاً ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر النمل[2]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذّب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى»[3].

☆ ☆ ☆

(١) وتقديم الظرف أي «في هذه» على الفاعل «الحق» لأن المقصود بيان منافع السورة (س٤/٢٤٨).
(٢) النمل: «٩٣».
(٣) هو حديث موضوع كما ذكر ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩ ـ ٢٤٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تلك إشارة إلى آيات السورة وهي المرادُ بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرُها في الإعجاز أو الواضحةُ معانيها، أو المبيِّنة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آلُ يعقوب من الشأم إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ سُمِّي البعض قرآناً لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعضِ وصارَ عَلَماً للكل بالغلبة، ونصبُه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي عربياً أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، وعربياً صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال، وفي كل ذلك خلاف. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علةٌ لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص مُعْجِز لا يُتصور إلا بالإيحاء.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[1] أحسن الاقتصاص لأنه اقْتُصَّ على أبدع الأساليب، أو

---

(١) أخرج الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٦٩) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٥٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٨٧ رقم ٥٢/ ٧٤٠) وابن حبان (رقم: ١٧٤٦) موارد.
عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: «نحن نقص عليك أحسن القصص» قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى «آلر تلك =

أحسن ما يقص لاشتماله على العجَائب والحِكَم والآيات والعبر، فَعْلٌ بمعنى مفعول كالنّقْض والسّلْب، واشتقاقُه من قَصَّ أثره إذا اتبعه ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي بإيحائنا. ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني السورة، ويجوز أن يُجعل هذا مفعول نقصّ على أنّ أحسنَ نصب على المصدر. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قطّ، وهو تعليل لكونه موحىً، وإنْ هي المخففة من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة.

(٤) ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من أحسن القصص إن جُعل مفعولاً بدل الاشتمال، أو منصوب بإضمار اذكُر. ويوسف عبري ولو كان عربياً لصُرِف. وقرىء بفتح السين وكسرها، على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل مِنْ آسَفَ، لأن المشهورة شهدت بعُجْمته. ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعنه عليه الصلاة والسلام «الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1] ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله يا أبي فعوض عن الياء تاءَ التأنيث لتناسبهما في الزيادة، ولذلك قلَبها هاء في الوقف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وكَسَرها لأنها عِوَضُ حرف يناسبها، وفَتَحَها ابنُ عامر في كل القرآن لأنها حركةُ أصلِها أو لأنه كان يا أبتا فحَذَفَ الألف وبقي الفتحة، وإنما جاز يا أبتا ولم يجز يا أبتي لأنه جمْعٌ بين العِوَض والمعوّض. وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض، وإنما لم تُسكّن كأصلها لأنها حرف صحيح مُنَزَّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب. ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾[2] ولقوله: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾[3] ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾. روي عن جابر رضي الله تعالى عنه أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال: «إذا أخبرتُك هل تسلم»؟ قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله إ

= آيات الكتاب المبين» إلى قوله «نحن نقص عليك أحسن القصص» الآية. فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً» [الزمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن بإسناد حسن كما قاله ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٠).

وذكره الحافظ في «المطالب العالية» برقم (٣٦٥٢) وقال حديث حسن، ونسبه لابن راهويه، وأبي يعلى، والبزار.

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٦١ رقم ٤٦٨٨) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ١٢٦ رقم ٣٥٤٧) من حديث ابن عمر.

● وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٠٥) والترمذي (٥/ ٢٩٣ رقم ٣١١٦) والحاكم (٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ و٥٧٠ ـ ٥٧١) وأحمد (٢/ ٣٣٢ و٣٨٤) من حديث أبي هريرة بسياق أطول.

قال الترمذي: حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ١٦١٧).

(٢) يوسف: «٥».

(٣) يوسف: «١٠٠».

لأسماؤها[1] ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير، وإنما أُجريت مجرىٰ العقلاء لوصفها بصفاتهم.

(٥) ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن، صغَّره للشفقة أو لصِغَر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي الصافات بفتح الياء[2]. ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فَهِمَ يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوّقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم. والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فُرِّقَ بينهما بحرفَيْ التأنيث كالقربة والقربىٰ، وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتَتَصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيِّلة تحاكيه بصورةٍ تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهَدَةً، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه. وإنما عَدَّىٰ كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعْل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألو جَهْداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعزٍّ وكمال نفس. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام. والاجتباءُ من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾

---

(١) أخرجه البزار (٣/٥٣ رقم ٢٢٢) وابن جرير (٧/ج١٢/١٥١) والحاكم (٤/٣٩٦) والبيهقي في «الدلائل» (٦/٢٧٧) والعقيلي في «الضعفاء» (١/٢٥٩) وابن حبان في «المجروحين» (١/٢٥٠) وابن الجوزي في الموضوعات (١/١٤٥ ـ ١٤٦).
وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٤/٤٩٨) السعيد بن منصور، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم. عنه.
قال البزار «لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، والحكم فليس بالقوي، وقد روى عنه جماعة».
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٩) رواه البزار وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك.
وقال البيهقي: تفرد به الحكم بن ظهير.
وقال العقيلي: لا يصح في هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت.
وقال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ.
وقال ابن الجوزي: وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا. وفيه جماعة ليسوا بشيء والخلاصة أن الحديث من الموضوعات.

(٢) الصافات: «١٠٢» وقرأ الباقون «يا بُنَيِّ» بكسر الياء، وهو الأصل عند البيضاوي.

كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا؛ لأنها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة أو بأن يَصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بنيه؛ ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، أو نَسْلِهِ. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة. وقيل على إبراهيم بالخُلّة والإنجاءِ من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح[1] وفدائه بذِبْح عظيم. ﴿مِن قَبْلُ﴾

---

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافة، لذلك أضع هنا كلمة ضافية لابن القيم، فيها أبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» (١/ ٧١ ـ ٧٥): «وأمّا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشكُّ أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازونه لأنفسهم دون العرب، ويأبى اللهُ إلاّ أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى «لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوطٍ. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» [هود: ٧٠/ ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: ويعقوب من وراء إسحاق وقيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: «من وراء إسحاق يعقوب»، والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلاّ بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريبُ ذو فهمٍ فيه البتة، ثم يُضعف الجرّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال «فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيم. قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين» وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين [الصافات: (١٠٣ ـ ١١١)] ثم قال تعالى «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» [الصافات: ١١٢] فهذهِ بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي مقدراً نبوته فلا يمكن إخراجُ البشارة أن تقع على الأصل. ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلَة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى. =

أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

(٧) ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي في قصتهم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائلُ قدرةِ الله تعالى وحكمته، أو

= وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابينُ يوم النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمّه، وإقامةً لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النّحرُ بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى «هل أتاكَ حديث ضيفِ إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قوم منكرون» [الذاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» [الذاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل، فمن السُّرِيَّة. وأيضاً فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخُلة منصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولدُ شعبة من قلب الوالد. جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصود، فنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدّق الخليلُ الرؤيا وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأةَ الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة» فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن «سارة» حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِيَّة، فحينئذٍ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُريَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جُعْل آثارهما ومواطِيء أقدامها مناسكَ لعبادة المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضافته وذله وانكساره. قال تعالى «ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) والتعبير عنهما بالأب ـ مع كونهما أبا جده ـ للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام (س٤/ ٢٥٤).

علامات نبوتك[١]. وقرأ ابن كثير آية. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم، والمراد بإخوته بنو عَلاته العشرة وهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينة من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف، وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون: دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وتخصيصُه بالإضافة لاختصاصه بالأُخوّة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وَحّدَه لأن أفعَلُ مِنْ لا يُفَرِّقُ فيه بين الواحد وما فوقه والمذكر وما يقابله، بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلّىٰ جائز في المضاف. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيها، والعُصبة والعِصابة العشرة فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تَعْصُب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لتفضيله المفضول أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يَرىٰ فيه من المخايل وكان إخوته يَحْسُدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالَغَ حَسَدُهم حتى حملهم على التعرض له.

(٩) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله «إذ قالوا» كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال لا تقتلوا يوسف. وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مَنْكُورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى يَصْفُ لكم وجه أبيكم فيُقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد[٢]. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ جزم بالعطف على يَخْلُ، أو نصب بإضمار أَنْ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم، أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه يَنْتَظم لكم بعده بخلوّ وجه أبيكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل روبيل. ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم[٣]. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعره، سُمّي بها لغيبوبته عن أعين الناظرين. وقرأ نافع في

---

(١) وجمع الآيات للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام (س٤/ ٢٥٥).

(٢) وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (س٤/ ٢٥٦).

(٣) وإظهار اسم يوسف في مقام الإضمار لاستجلاب شفقتهم عليه، أو لاستعظام قتله (س٤/ ٢٥٦).

غيابات في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات، وقرىء غَيْبَة، وغَيَّابات بالتشديد. ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسيرون في الأرض. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي، أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه.

قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافُنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. والمشهور تأمنّا بالإدغام بإشمام، وعن نافع بترك الإشمام، ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين وتيمّناً بكسر التاء.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونحوها، مِنَ الرَّتْعَة وهي الخصب. ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال. وقرأ ابن كثير نَرْتَعِ بكسر العين على أنه مِنْ ارتعىٰ يرتعي، ونافعُ بالكسر والياء فيه وفي يلعب[١]، وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف[٢]، وقرىء يرتع من أرتع ماشيته، ويرتعِ بكسر العين ويلعبُ بالرفع على الابتداء. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(١٣) ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ لشدة مفارقته عليّ وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذأَبة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه. وقد هَمَزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي وأبو عمرو وقفاً، وعاصم وابن عامر وحمزة دَرْجاً. واشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

(١٤) ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابُه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعىٰ عليهم بالخسار، والواو في «ونحن عصبة» للحال[٣].

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب، وجواب لمّا محذوف

---

(١) أي «يَرْتَعِ ويَلْعبْ».

(٢) أي «يَرْتَعْ ويَلْعَبْ».

(٣) وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوي في المنع ولم يوردوا جواباً على الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (س٤/٢٥٨).

مِثْل فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلّوه فيها، فتعلق بشفيرها، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارىٰ به، فقالوا: ادْعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يُلْبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبعَ عشْرةَ سنة. وقيل كان مراهقاً أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وفي القصص: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جُرِّد عن ثيابه، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه. ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلوّ شأنك وبُعده عن أوهامهم وطول العهد المغيِّر للحُلىٰ والهيئات، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين فعَرَفَهم وهم له منكرون. بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له وتطييباً لقلبه. وقيل وهم لا يشعرون متصل بأوحينا أي آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي آخر النهار. وقرىء عُشَيّاً وهو تصغير عشي، وعُشىٰ بالضم والقصر جمع أعشىٰ، أي عُشُوا من البكاء. ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بنيّ وأين يوسف؟.

(١٧) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العَدْو أو في الرمي، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

(١٨) ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة. وقرىء بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين، وكدب بالدال غير المعجمة أي كَدِرٍ أو طريّ. وقيل: أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوّز تقديمها على المجرور. روي: أنه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكىٰ حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه ....

قميصه[1]، ولذلك ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً، من السوْل وهو الاسترخاء. ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلْق»[2]. ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صحّ.

وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الذي يَرِد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ فأرسلها في الجب ليملأها، فتدلىٰ بها يوسف، فلما رآه ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ نادىٰ البشرىٰ بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك، وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين يا بُشْرايَ بالإضافة، وأمالَ فتحةَ الراء حمزةُ والكسائي، وقرأ ورش[3] بين اللفظين، وقرىء يا بشريَّ بالإدغام وهو لغة[4]، وبُشْرايْ بالسكون على قصد الوقف. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي الواردُ وأصحابُه من سائر الرفقة. وقيل أخفوْا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوتَه، فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامُنا أبَقَ منّا فاشتروْه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه[5]. ﴿بِضَٰعَةٗۚ﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقُه من البَضْع[6] فإنه ما بُضِع من المال للتجارة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(٢٠) ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ وباعوه؛ وفي مرجع الضمير الوجهان، أو اشتروه من إخوته[7]. ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٣) عن السدي.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٦) عن حِبَّان بن أبي جبلة مرسلاً وفيه سنيد الحسين بن داود ضعيف.

(٣) هو عثمان بن سعيد بن عبدالله المصري، ويُكنى أبا سعيد، و(ورش) لقب له لُقِّب به لشدة بياضه.
كان جيد القراءة، حسن الصوت، انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه لا ينازعه فيها منازع.
توفي سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة.
[غاية النهاية (١/٥٠٢)].

(٤) على لغة من يقلب الألف ياء ويدغمها في ياء المتكلم. تقول هَوِيّ في هواي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٩) عن ابن العباس.

(٦) والبضع هو القطع.

(٧) وعدل عن صيغة الافتعال ـ فلم يقل اشتروه ـ لأن أخذهم إنما كان بطريقة البضاعة لا بطريق الاجتباء والاقتناء (س٤/ ٢٦٠).

مبخوس لزيفه أو نقصانه. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة فإنهم كانوا يَزِنون ما بلغ الأوقية ويَعُدّون ما دونها. قيل[1] كان عشرين درهماً وقيل[2] كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الراغبين عنه، والضمير في وكانوا إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم اُلتقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. وفيه متعلق بالزاهدين إن جُعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف يبينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملِك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسىٰ عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[3]. والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهوُ ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول فقيل[4]. عشرون ديناراً وزوجا نعلٍ وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً، والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِياعنا وأموالنا ونستَظْهِرَ به في مصالحنا. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل[5]: أَفْرسُ الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت «يا أبت

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس، بلفظ «كانت عشرين درهماً».

(٣) غافر: «٣٤».

(٤) هذا وغيره مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات. حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) من رواية أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وكذلك أخرجه (٣/ ٩٠) من رواية أبي عبيدة عنه.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي في كلا الطريقين. مع أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥ رقم ٨٨٢٩ و٨٨٣٠) من طريق سفيان وسعيد بن منصور عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٨) وقال «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح إن =

استأجره»[١]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكما مكنّا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجيناه وعطّفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمَر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه، أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيّه. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف، أراد به إخوتُه شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أراده. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمة وهو العلم المؤيّد بالعمل، أو حُكْماً بين الناس. ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره.

(٢٣) ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، مِنْ رَادَ يُرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد[٢]. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل كانت سبعة، والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أَقْبِلَ وبادر، أو تهيأت، والكلمةُ على الوجهين اسم فعل بُني على الفتح كأَيْنَ، واللام للتبيين كالتي في سُقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحَيْثُ، ونافعٌ وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعِيَط، وقرأ هشامٌ كذلك إلا أنه يهمز وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه، وقرىء هِيتَ كَجِيرَ، وهِئْتَ كجِئْتَ من هاء يهيىء إذا تهيأ، وقرىء هِيئت وعلى هذا فاللام من صلته. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الشأن. ﴿رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ سيدي قطفير أَحْسَنَ تعهدي إذ قال لكِ في: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فما جزاؤه أنْ أخونه في أهله. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطّف عليّ قلبَه فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن

= محمد بن كثير هو العبدي، وإن كان هو الثقفي فقد وثق على ضعف كثير فيه» اهـ.
قلت: ـ والطريق الأخرى للطبراني رجالها أيضاً ثقات إلا شيخ الطبراني محمد علي الصائغ المكي، فقد ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ١٥٢).
والخلاصة أن الأثر صحيح والله أعلم.

(١) القصص: «٢٦».

(٢) والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول «التي» لتقرير المراودة، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام (س٤/ ٢٦٦).

بالسيء. وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهمّ بالشيء قَصْده والعزم عليه ومنه الهُمَام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه، والمراد بهمّه عليه الصلاة والسلام مَيْل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله. ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالَطَها لشَبَقِ الغُلْمَة وكثرة المغالبة، ولا يجوز أن يجعل وهمّ بها جوابُ لولا فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابُها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله، وقيل قطفير، وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مِثْلُ ذلك التثبيت ثبتناه، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا. ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام، أي الذين أخلصوا دينهم لله.

(٢٥) ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحُذِف الجار أو ضُمّن الفعل معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فرَّ منها ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه، والقَدُّ الشق طولاً والقَطُّ الشق عرضاً[١]. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيهاماً بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييرَه على يوسف وإغراءَه به انتقاماً منه، وما نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن؟[٢].

(٢٦) ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل ابن عم لها. وقيل

---

(١) وإسناد القدّ إليها خاصة ـ مع أن لقوة يوسف دخلاً فيه ـ إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج (س٤/ ٢٦٧).

(٢) وعدم تعيين الجزاء لتهويله.
وقولها «بأهلك» حيث ذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز لإعظام الخطب وإغرائه على تحقيق ما تتوخاه (س٤/ ٢٦٨).

ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعةٌ صغاراً ابنُ ماشطة فرعون، وشاهدُ يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»[(١)] وإنما ألقىٰ الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قُدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه.

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتُها شهادة لأنها أدت مؤداها، والجمع بين إنْ وكان على تأويل أَنْ يعلمَ أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنتَ إلي اليوم فقد أحسنتُ إليك من قبل، فإن معناه إن تمنن علي بإحسانك أَمْنُن عليك بإحساني لك السابق. وقرىء مِنْ قُبُلُ ومِنْ دُبُرُ بالضم لأنهما قُطِعا عن الإضافة كقَبْلُ وبعدُ، وبالفتح كأنهما جُعِلا علمين للجهتين فمُنعا الصرف، وبسكون العين.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولَك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، أو إن السوء، أو إن هذا الأمر. ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء[(٢)]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٧٦ رقم ٣٤٣٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ رقم ٨) عن أبي هريرة.

● وأخرج أحمد (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) وابن حبان في الموارد (ص٣٩ رقم ٣٦) وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ رقم ١٩٠/ ٢٥١٧) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٩٣) والطبراني في الكبير (١٠/ ٤٥٠ ـ ٤٥١ رقم ١٢٢٧٩) والبزار في كشف الأستار (١/ ٣٧ رقم ٥٤).

كلهم من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه عقب حديث ماشطة ابنة فرعون المرفوع.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٨) فيه عطاء بن السائب قد اختلط.

وتعقبه الشيخ أحمد شاكر بقوله: وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه ـ كما في المسند رقم (٢٨٢٢) ـ. وقال العراقي في التقييد والإيضاح ص٤٤٣: «قال يحيى بن سعيد القطان سمع حماد بن زيد من عطاء بن السائب قبل أن يتغير.

وقال النسائي رواية حماد بن زيد، وشعبة، وسفيان عنه جيدة» هـ.

● وأخرج مسلم (٤/ ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١ رقم ٧٣/ ٣٠٠٥) من حديث صهيب الطويل وفيه «.... حتى جاءتِ امرأة ومعها صبيٌ لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري. فإنك على الحق».

ولمزيد من الإيضاح انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٨٠).

(٢) وتعميم الخطاب للإشارة إلى أنه خُلُق في النساء عريق (س٤/ ٢٦٩).

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطّنه للحديث. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يا راعيل. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المذنبين من، خَطِيء إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب.

(٣٠) ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جُرد فعلُه، وضم النون لغة فيها. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أي أشَعْن الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً: زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ تطلب مواقعة غلامها إياها. والعزيز بلسان العرب المَلِكُ. وأصل فتى فَتَيَ لقولهم فِتْيان، والفتوَّة شاذة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونصْبُه على التمييز لصرف الفعل عنه. وقرىء شَعَفَها مِنْ شعف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب[١].

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن. وإنما سماه مكراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتريهن يوسف، أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشينه عليها. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن، قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد. ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يُبْهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيُبَكَّتن بالحجة، أو يهابُ يوسفُ مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام، فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نُهِيَ عنه. قال جميل[٢]:

فظَلِلْنـا بنِعْمَـةٍ وَاتكَـأْنَـا ... وشَـرِبْنَـا الحَـلاَلَ مِـنْ قُلَلِـهْ

وقيل المتكأ طعام يُحَزُّ حزاً كأن القاطع يتكىء عليه بالسكين. وقرىء مُتَّكا بحذف الهمزة، ومتكاء بإشباع الفتحة كمنتزاح ومُتُكاً وهو الأترج أو ما يُقطَع من متك الشيء إذا بتكه، ومَتْكاً من تكىء يتكأ إذا اتكأ. ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ عظمنه وهَبْنَ حُسْنه

---

(١) وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن.
مجازفة، بل عن علم ورأي، مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه (س٤/ ٢٧١).

(٢) هو جميل بن عبدالله بن معمر العذري، القضاعي (أبو عمرو) شاعر افتتن ببثينة من فتيات قومه. فتناقل الناس أخبارها. من آثاره: ديوان شعر. مات عام ٨٢هـ.
[معجم المؤلفين (٣/ ١٦٠ ـ ١٦١) والأعلام (٢/ ١٣٨)].

الفائق[١]. وعن النبي ﷺ: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»[٢] وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حِضْن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحيض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي[٣]:

خفِ اللهَ وَاسْتُرْ ذَا الجَمَالَ بِبرقعٍ ... فإنَ لحتَ حَاضَتْ فِي الخُدُورِ العَواتِقُ

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله. وأصله حاشا كما قرأ أبو عمرو في الدرج فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً، وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوُضع موضع التنزيه، واللام للبيان كما في قولك سقيا لك. وقرىء حاشَ اللهِ بغير لام بمعنى براءةَ اللهِ، وحاشاً لله بالتنوين على تنزيله منزلة المصدر. وقيل حاشا فاعل من الحَشَا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف، أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرىء بَشَرٌ بالرفع على لغة تميم، وبِشِرَىٰ أي بعد مُشْتَرىٰ لئيم. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك.

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصوره، ولو تصورْتُنّه بما عاينتن لعذرتنني. أو فهذا هو الذي لمتنني فيه، فَوَضَعَ ذلك موضع هذا رفعاً لمنزلة المشار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أقرتْ لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي ما آمر به؛ فحذف الجار، أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الأذلاء وهو مِنْ صَغِرَ ـ بالكسر ـ يَصْغُر صِغَراً وصَغَاراً، والصغير من صَغُرَ بالضم صِغَراً. وقرىء ليكوننّ، وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف كنسفعاً على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتنوين.

---

(١) وقوله «فلما رأينه» عطف على مقدر يستدعيه المقام، وقد حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن (س٤/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. كما في الكافي الشاف رقم ٢٠٦ ـ قلت: أبو هارون العبدي ضعيف ـ.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي (أبو الطيب) شاعر حكيم ولد في الكوفة، ونشأ في الشام. واتصل بسيف الدولة فانقطع إليه، ثم مضى إلى مصر، فمدح بها كافور الأخشيدي، . . . من آثاره: ديوان شعر.

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر[١]. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي آثرُ عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه. وإسنادُ الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوّفنه من مخالفتها وزيّنّ له مطاوعتها، أو دعونه إلى أنفسهن. وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان الأَوْلىٰ به أن يسأل الله العافية، ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر[٢]. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبْوة الميل إلى الهوىٰ ومنه الصَّبَا لأن النفوس تستطيبها وتميل إليها. وقرىء أصب من الصبابة وهي الشوق. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعلمون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء[٣].

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: «وإلا تصرف» ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطّن نفسه على مشقة السجن وآثرَها على اللذة المتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ثم ظهر للعزيز وأهلِه من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقدّ القميص وقطع النساء أيديهَن واستعصامه عنهن، وفاعل بَدَا مضمَر يفسره: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنها خَدَعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تُبصرَ ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرىء بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيزَ علىٰ التعظيم أو العزيزَ ومَنْ يليه، وعتّىٰ[٤] بلغة هذيل.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي أُدخِل يوسف السجن واتُّفق أنه أُدخل حينئذ آخران من عَبيد الملك «شَرَابِيّهُ وخبّازه» للاتهام بأنهما يريدان أن يسُمّاه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعني الشَّرَابيُّ. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾

---

(١) أي بفتح السين «السَّجن».

(٢) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال عليه السلام: «قد سألت البلاء، فسل الله العافية» رواه أحمد (٢٠٩/١) وإسناده حسن كما في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا رقم (١٥٠) تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط.

(٣) قوله «السجن أحبّ..» حيث عبر عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس. والاقتصار على ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته (س٤/ ٢٧٤).

(٤) عطف على قوله وقرىء بالتاء، أي قرىء «عتىٰ حين» بالعين بدل الحاء وهي بلغة هذيل.

أي في المنام، وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي عنباً وسماه خمراً باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ تنهش منه. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الذين يُحسِنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذَكِّر الناس ويَعْبُرُ رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسِن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد ان يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلَهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك.

(٣٨) ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ أو كلامٌ مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتُهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جُوِّزَ للخامل أن يصف نفسه حتى يُعْرَفَ فَيُقْتَبَسُ منه، وتكريرُ الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة[1]. ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء. ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ بالوحي. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم. ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ هذا الفضل فيُعْرِضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضلِ الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيُلْغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يا سَارِقَ اللَيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ

﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

---

(١) وقدم ذكر تركه لملتهم على اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية (س٤/٢٧٧).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(٤٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ خطاب لهما ولمَنْ على دينهما من أهل مصر. ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أَسَامٍ أطلقتم عليها من غير حجة دل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماءَ المجردة. والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهيةَ عقلٌ ولا نقلٌ آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ما الحكم في أمر العبادة. ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجِدُ للكل والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة: بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلٰهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيرَه ولا يرتضي العلم دونَه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيخبطون في جهالاتهم.

(٤١) ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني الشَرَابيّ [١]. ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه قبلُ ويعود إلى ما كان عليه. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ يريد به الخبّاز. ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: كَذَبْنَا، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قُطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وَحَّدَه، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما [٢].

(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانُّ يوسف إن ذَكَرَ ذلك عن اجتهاد، وإنْ ذَكَرَه عن وحيٍ فهو الناجي. إلا أن يؤوّل الظنُّ باليقين. ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند المَلِك كي يخلّصني. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسيَ الشرابيَّ أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملابسته له أو على تقدير ذكر إخبار ربه، أو أُنسيَ يوسفُ ذكرَ الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً بعد

---

(١) وإنما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوؤه (س٤/ ٢٧٩).

(٢) وقد عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه، لأن الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلةِ الحكم المبهمة الجواب.

وإيثار صيغة الاستقبال في قوله «تستفتيان» مع سبق استفتائهما فيه لأنهما بصدده حتى يقضي عليه السلام من الجواب وَطَرَه (س٤/ ٢٧٩).

الخمس»[١]. والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ البِضع ما بين الثلاث إلى التسع، مِنَ البَضع وهو القطع.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ لما دنا فَرَجُه رأى الملِكُ سبعَ بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبعَ بقرات مهازيل فابتلعت المهازيلُ السمان. ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أدرَكَت فالتوت اليابساتُ على الخُضر حتى غلبت عليها، وإنما استَغْنىٰ عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجْرىٰ السمَان على المميز دون المميز لأن التميز بها، وَوَصَفَ السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف؛ فإنه لبيان الجنس؛ وقياسُه عُجُف لأنه جمع عَجْفاء لكن حُمِل على سِمَان لأنه نقيضه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ عَبِّرُوها[٢]. ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عِبَارة أثبت من عَبَّرتها تعبيراً، واللامُ للبيان، أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أُخر عن مفعوله ضعُف فقوّي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن تعبرون معنى فعلٍ يُعدّىٰ باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا.

(٤٤) ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطُها، جمعُ ضِغْث، وأصلُه ما جُمع من أخلاط النبات وحُزِم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جَمَعُوا للمبالغة في وصف الحُلُم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

(٤٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرىء ـ إمّة بكسر الهمزة ـ وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وأَمَهٍ أي نسيانٍ يقال أَمِهَ يَأمَهُ أَمَهاً إذ نسي، والجملة اعتراض ومقول القول: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

---

(١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط ـ كما في الكافي الشاف (ص٩٠ رقم ٢١٣).

(٢) وعبر عنه بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (س٤/ ٢٨٠).

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي فأُرسِل إلى يوسفَ فجاءَه فقال يا يوسف، وإنما وَصَفَه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جَرّب أحوالَه وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك[1]. ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبتّ الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

(٤٧) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على عادتكم المستمرة. وانتصابُه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدرِ بإضمار فعله أي تدأبون دأباً، وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص دَأَباً بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل[2]. وقيل تزرعون أَمْرٌ أَخرَجَه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهْلُهن ما ادّخرتم لأجلهن فأُسْنِد إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبَّر والمعبَّر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تُحرزون لبذور الزراعة.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يُمطَرون من الغيث، أو يغاثون مِنَ القحط مِنَ الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يُعْصَر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار[3]، وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي، وقرىء على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه، ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يُغيثهم الله ويغيث بعضُهم بعضاً، أو مَن أَعْصَرَتِ السحابةُ عليهم فعدِّي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد ان أَوَّل البقراتِ السمان والسنبلات

---

(١) قال له هنا «أفتنا» بينما قال في السابق هو وصاحبه «نَبِّئنا» وذلك بعدما عاين من علوّ رتبته عليه السلام وفضله. وفي قوله «أفتنا» بالجمع ـ مع أنه المستفتي وحده ـ للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره (س٤/ ٢٨٢).

(٢) الأصل عنده قراءة من قرأ بسكون الهمزة «دَأْباً» ولم يقرأ غير حفص بفتحها.

(٣) والتعرض لذكر العَصْر ـ مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة، كما اكتفي به عن ذكر تصرفهم بالحبوب ـ إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب لأن المذكورات يتوقف صلاحها على أمورٍ أخرى غير المطر، وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارةً له.
وتكرير «فيه» إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وعنواناً، وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام. ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين (س٤/ ٢٨٣).

الخضر بسنين مخصِبة والعجاف واليابسات بسنين مجدِبة وابتلاع العجاف السمانَ بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله عَلِمَ ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب بالخصب أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأنىٰ في الخروج وقدّم سؤال النسوة وفَحصَ حالهن لتظهر براءةُ ساحته ويُعْلَمَ أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يُجْتَهَدَ في نفي التّهم ويُتّقىٰ مواقعُها. وعن النبي ﷺ: «لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة»[1]. وإنما قال فاسأله ما بالُ النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب. وقرىء النُّسْوَة بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قُلْن لي أَطِع مولاتك، وفيه تعظيمُ كيدهن والاستشهادُ بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن.

(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن. والخَطْبُ أمر يَحِقُّ أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خُلُقٍ عفيف مثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ثبت واستقرّ، مِنْ حصحص البعير إذا ألقىٰ مَبارِكَه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ في صُمِّ الصفَا ثَفِنَاتِه ونَاءَ بِسَلْمَى نَوأَةً ثُمَّ صَمَّمَا

أو ظهر مِنْ حَصَّ شَعْرَه إذا ستأصله بحيث ظهرت بَشَرَةُ رأسه. وقرىء على البناء للمفعول. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[2].

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن، أي ذلك التثبتُ ليعلم العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

---

(١) رواه أحمد بلفظ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وفي الصحيحين بلفظ «... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٢) يوسف: «٢٦».

لا يُنفذه ولا يسدِّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغةً. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجَها وتوكيد لأمانته ولذلك عقّبه بقوله:

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يُرِد بذلك تزكيةَ نفسه والعجبَ بحاله، بل إظهارَ ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: «ليعلم أني لم أخنه بالغيب» قال له جبريل ولا حين هممت فقال: ذلك. ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمِلُ القوىٰ والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكنْ رحمةُ ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع بالسُّوِّ على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر هَمَّ النفس ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

(٥٤) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أجعله خالصاً لنفسي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء. ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٞ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي[1] أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه امره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

(٥٥) ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وَلِّني أمرها، والأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿عَلِيمٞ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة آثر ما تعم فوائده وتجل عوائده. وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن المَلِك أسلم على يده[2].

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٥٠) عن وهب بن منبه.
قلت: ولا يمكن الوقوف على الحكم عليه لأنه من الإسرائيليات.

(٢) إنما لم يذكر إجابة الملك لغناه عن التصريح وللتنبيه على أن كل ذلك من الله تعالى والمَلِكُ وسيلة لتنفيذ قدر الله =

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر[١]. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يَنزل من بلادها حيث يَهوى. وقرأ ابن كثير نشاء بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدراهم والدنانير حتى لم يبقَ معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك، فأَعْتَقَهم ورَدّ عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعانَ ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوبُ بنيه ـ غير بنيامين ـ إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٢] أي عرفهم يوسفُ ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه وتوهمهم أنه هلك وبُعْد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم في حُلاه من التهيب والاستعظام.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأَوْقَر ركائبهم بما جاؤوا لأجله، والجَهَاز ما يعد من الأمتعة للنُّقْلَة كعُدَد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزفّ به المرأة إلى زوجها. وقرىء بِجِهَازهم بالكسر. ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صدِّيق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ههنا قالوا عشرة، قال فأين الحادي عشر؟ قالوا عند أبينا يتسلى به عن الهالك، قال فمن يشهد لكم؟ قالوا لا يعرفنا أحدٌ ههنا فيشهد لنا، قال فَدَعُوا بعضكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدِّقكم، فاقترعوا فأصابت شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حِمْلاً فسألوه حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أَحْسَنَ إنزالَهم وضيافتَهم.

= (س٤/ ٢٨٧).

(١) وفي التعبير عن الجَعْل بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره سبحانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفىٰ (س٤/ ٢٨٧).

(٢) ولما كان إنكارهم لمعرفته مستمرة في المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية المفيدة للاستمرار (س٤/ ٢٨٨).

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري، وهو إما نهي أو نفي معطوف على الجزاء.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا نَتَوانىٰ فيه.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيّالين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص لِفِتْيانه على أنه جمع الكثرة ليوافق قولَه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وَكَّل بكل رَحْل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروْا بها الطعام وكانت نِعالاً وأدماً، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ حُكِمَ بمَنْعِه بعد هذا إنْ لم نذهبْ ببنيامين. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفعُ المانع من الكيل ونكتلْ ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ، أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(٦٤) ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف «وإنا له لحافظون» ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب حفظاً على التمييز، وحافظاً على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله دره فارساً، وقرىء خيرُ حافِظٍ، وخيرُ الحافظين. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء رِدَّت بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نَقْلَها في بيع وقيل. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمَنَا وأحسنَ مثوانا وباع منّا ورد علينا متاعنا، أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكَينا لك من إحسانه. وقرىء ما تَبْغي على الخطاب أي: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضِّح لقوله ما نبغي[1]. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾

---

(١) وإيثار صيغة البناء للمفعول في «ردت» للإيذان بكمال الإحسان الناشىء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال =

معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونميرَ أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وِسْقَ بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت ما استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجُمَلُ معطوفةً على ما نبغي، أي لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا ونحفظ أخانا. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفينا، استقلوا ما كِيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يُكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا في الملك ولا يتعاظمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه إن حِمْل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيتُ منكم ما رأيت. ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب القسم، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به. ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تُغلَبُوا فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تَهْلِكُوا جميعاً، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتنني به على كل حال إلا حالَ الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمتُ بالله إلا فعلتَ أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه[1]. ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

(٦٧) ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جَمَال وأُبَّهة مشتهرين في مصر بالقُربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيُعَانوا[2]. ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين، والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عوذته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة»[3]. ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

= غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله (س٤/ ٢٩٠).

(١) وإيثار صيغة الاستقبال «نقول» لاستحضار صورته المؤدي إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكرة ومراقبته (س٤/ ٢٩٢).

(٢) أي يصابوا بالعين.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) وأبو داود (رقم ٣٨٩٣) والترمذي (٣٥١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ورجاله ثقات بلفظ «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شر عباده، ومن شر همزات الشيطان، وأن يحضرون».

وله شاهد عند أحمد (٤/ ٧٤)، (٦/ ٦) من حديث الوليد بن الوليد، ورجاله ثقات لكن فيه انقطاع. ولفظه قال=

مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالةَ إن قضىٰ عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جَمَعَ بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأنّ الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب، فإن فِعْل الأنبياء سبب لأن يُقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ رَأْيُ يعقوب واتباعهم له. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام، فسُرِقُوا وأُخِذ بنيامين بوُجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقته عليهم وحرازته من أن يعانوا. ﴿قَضَىٰهَا﴾ أظهرها ووصّىٰ بها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغترّ بتدبيره[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامينَ على الطعام أو في المنزل، روي[2] أنه أضافهم فأجلسهم مثنىٰ مثنىٰ فبقي بنيامين وحيداً فبكىٰ وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لِينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؛ قال: مَنْ يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن، افتعالٌ من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضىٰ.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المَشْربة. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به. وقيل كانت تُسقىٰ الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة، وقيل من ذهب. وقرىء وَجَعَل على حذف جواب فلما تقديره أَمهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادىٰ منادٍ. ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ

= يا رسول الله إني أجد وحشة، قال «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ..».
والخلاصة فهو حديث حسن.

(١) وفي تأكيد الجملة بإن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه وتعالى من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبته وبيان علمه (س٤/ ٢٩٣) ولذلك قالوا بعد «نفقد صراع الملك».

(٢) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٥ ـ ١٦) وفي «تاريخه» (١/ ١٧٩) عن السدي، ووهب بن منبه. وهي من الإسرائيليات.

لَسَٰرِقُونَ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام، أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضا بنيامين، وقيل معناه إنكم لسارقون يوسفَ من أبيه، أو أئنكم لسارقون. والعِيرُ القافلةُ، وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تَعِير أي تتردّد، فقيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»[١]. وقيل جمع عير، وأصله فِعْل كسَقْفٍ فُعِلَ به ما فُعل ببيْض، تُجُوِّز به لقافلة الحمير ثم استُعير لكل قافلة.

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أيُّ شيء ضاع منكم. والفَقْدُ غيبة الشيء عن الحسّ بحيث لا يُعْرَف مكانُه[٢]. وقرىء تُفْقِدُون من أَفْقدتُه غذا وجدتُه فقيداً.

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٣١٧٠).
«رواه أبو الشيخ في «الناسخ والمنسوخ» عن عبدالكريم قال: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين، ، قال كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة، وفيها فأمر النبي ﷺ فنودِيَ في الناس يا خيل الله اركبي، فركبوا، لا ينتظر فارسٌ فارساً.
ـ وللعسكري عن أنس في حديث ذكره، فنادى منادي رسول الله ﷺ يا خيلَ الله اركبي.
ـ وفي رواية له عن أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان: كيف أصبحت؟ ـ الحديث ـ وفيه أنه قال يا نبي الله ادع لي بالشهادة، فدعا له، قال: فنودِيَ يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد.
ـ ولابن عائذ في «المغازي» عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذٍ ـ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب ـ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي.
ـ وعزى السهيلي في «روضه» في غزوة حنين هذه اللفظةَ لمسلم فلتنظره.
نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» ـ (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧) ـ أنه لما قدم رسول الله ﷺ من بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ صرخ في المدينة فقال «يا خيل الله اركبوا» وجاءت عن علي، وخالد بن الوليد، ففي المستدرك للحاكم ـ (٢/ ٣٦٥ ـ ٥٦٦) ـ في قصة أويس عن أسيد بن جابر، فذكر قصة، وقال في آخرها فنادى علي «يا خيل الله اركبي» وفي الردة للواقدي عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم القيامة «يا خيل الله اركبي» فركبوا وساروا إلى بني حنيفة.
ـ وقال أبو داود في السنن (٣/ ٥٤) باب النداء عند النفير يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا بخيل الله.
ـ وللعسكري من حديث ابن نفيع الحارثي عن شِيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صِيح في خيل الله فكونوا أول من شخص. وذكر حديثاً.
ـ قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي على المجاز والتوسع، أراد يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد، والله أعلم» هـ.
(٢) وصيغة المضارع في «تفقدون» لاستحضار الصورة. =

(٧٢) ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وقرىء صَاعَ، وصَوْعَ بالفتح والضم والعين والغين، وصواغ من الصياغة. ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعْلاً له. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجِعَالة، وضمان الجُعْل قبل تمام العمل[١].

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجب، والتاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ استشهَدُوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرّتيْ مجيئهم ومداخلتهم للمَلِك مما يدل على فَرْط أمانتهم كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم وكَعَمِّ الدواب[٢] لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[٣].

(٧٤) ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف. ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

(٧٥) ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي جزاء سرقته أَخْذُ من وُجد في رحله واسترقاقُه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقولُه فهو جزاؤه تقرير للحكم وإلزام له، أو خبرُ مَنْ، والفاءُ لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر جزاؤه على إقامةِ الظاهرِ فيها مقامَ الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ فبدأ المؤذّن. وقيل يوسف لأنهم رُدّوا إلى مصر. ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفياً للتهمة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يُذَكّر ويؤنث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ وقرىء بضم الواو، وبقلبها همزة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ مَلِكِ مصر، لأن دينَه الضربُ وتغريمُ ضِعف ما أُخذ دون الاسترقاق، وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فالاستثناء

= وأجابوا بقولهم «ماذا تفقدون» ولم يقولوا ماذا سُرق منكم لبيان كمال نزاهتهم، فلعله أن يكون فُقِد منهم (س٤/ ٢٩٥).

(١) الجُعْل والجعالة هو الأجر.

(٢) عمُّ الدواب أي كَمُّ أفواهها.

(٣) لم يكتفوا بنفي الإفساد السرقة بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب من اتهامهم بذلك (س٤/ ٢٩٥).

من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته[١]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتَجّ به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقَه من هو أعلم منه، والجوابُ أن المراد كل ذي علم من الخَلْق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(٧٧) ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شبّ أراد يعقوبُ انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوُجدت محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل[٢] كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجِيَف. وقيل كان في البيت عناق[٣] أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أكنّها ولم يُظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه، وقيل إنها كناية بشريطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من أَسَرّها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيثُها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسَّر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

(٧٨) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي في السنّ أو القَدْر، ذكروا له حالَه استعطافاً له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدلَه فإن أباه ثكلانٌ على أخيه الهالك مستأنِسٌ به. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من المتعوِّدين بالإحسان فلا تغير عاداتك.

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ فإنّ أَخْذَ غيره ظلم علىٰ فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانَه[٤] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مرادَه أن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذتُ غيره كنت ظالماً.

---

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في «نرفع» للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة (س٤/٢٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ج١٣/٢٨) عن سعيد بن جبير. وكذلك أخرجه (٨/ج١٣/٢٨) عن قتادة.
قلت: لم يرد نص صحيح في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها. والله أعلم.

(٣) العناق هي الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول (المصباح المنير مادة عنق).

(٤) وإيثار «من وجدنا متاعنا عنده» دون سَرَقَ متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام، مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محملٍ غير السرقة (س٤/٢٩٩).

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادةُ السين والتاء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين، وإنما وَحّده لأنه مصدر أو بزِنَتِهِ كما قيل هو صديق، وجمعُه أَنْجِيَة كنَدِيّ وأندية. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون، وقيل يهوذا. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ عهداً وثيقاً، وإنما جُعِل حَلِفُهم بالله مَوْثقاً منه لأنه بإذنٍ منه وتأكيد من جهته. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا. ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصّرتم في شأنه. وما مزيدةٌ ويجوز أن تكون مصدريةً في موضعَ النصبِ بالعطف على مفعول تعلموا ـ ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ـ أو على اسم أَنّ وخبرُه «في يوسف» أو «من قبل»، أو الرفع بالابتداء والخبرُ من قبلُ وفيه نظر؛ لأن «قبلُ» إذا كان خبراً أو صِلة لا يُقطَع عن الإضافة حتى لا يَنْقُص، وأن تكونَ موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الجناية، ومحلُّه ما تقدم. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه. روي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل: أيها المَلِك والله لَتَتْركُنا أو لأصيحن صيْحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فَمُسَّه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخرُ ذهب غضبه، فقال روبيل مَنْ هذا إن في هذا البلد لبِزْراً من بِزْر يعقوب. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

(٨١) ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرىء سُرِّق أي نُسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه. ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بأن رَأَينا أَنّ الصواع استُخْرِج من وعائه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لباطن الحال. ﴿حَافِظِينَ﴾ فلا ندري أنه سَرَقَ أو سُرِق الصواع في رحله، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم ندرِ حين أعطيناك الموثق أنه سيَسْرق، أو أنك تصاب به كما أُصبت بيوسف.

(٨٢) ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر أو قريةً بقربها لَحِقَهم المنادي فيها، والمعنى أَرْسِلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحابَ العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيدٌ في محل القَسَم.

(٨٣) ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: بل سولت أي زينت وسهلت. ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه فقدرتموه، وإلا فما أدرى المَلِكَ أن السارق يؤخذ

بسرقته؟ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبرٌ جميلٍ أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرهما.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهةً لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا أَسَفَا تعاليْ فهذا أوانُك، والأَسَفُ أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ـ والحادثُ رِزْؤُهما ـ لأن رِزْأَه كان قاعدةَ المصيبات وكان غضاً آخذاً بمجامع قلبه.. ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تُعْطَ أمة من الأمم» «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا[١]. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كأن العَبْرة مَحَقَتْ سوادهما، وقيل ضَعُفَ بصره، وقيل عمي. وقرىء من الحَزَن. وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قَلَّ من يَمْلِك نفسه عند الشدائد، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلبُ يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[٢]. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يُظهِره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٣] مِنْ كَظَمَ السِّقَاءَ إذا شده على مِلْئِه، أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[٤] مِنْ كَظَمَ الغيظَ إذا اجترعه، وأصلُه كَظَمَ البعيرُ جَرَّتَهُ إذا ردها في جوفه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢١٥): «أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي، عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفري، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً.
ـ وأخرجه الطبراني في «الدعاء» ـ (١٣٧٧/٣ رقم ١٢٢٨) من وجه آخر عن سفيان بن زياد.
ـ ورواه عبدالرزاق ـ في التفسير (١٢٩٨/٦٣) ـ من طريق الطبري عن القوزي عن سفيان عن زياد المعصفري عن سعيد بن جبير أقول.
ـ وكذا رواه البيهقي في الشعب ـ (١١٧/٧ رقم ٩٦٩١) ـ من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء» هـ.
قلت: وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير (٤٠/١٢ رقم ١٢٤١١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣٣٠/٢) وقال: فيه محمد بن خالد الطحان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٢/٣ ـ ١٧٣ رقم ١٣٠٣) ومسلم (١٨٠٧/٤ ـ ١٨٠٨ رقم ٦٢). من حديث أنس في سياق أطول من هذا.

(٣) القلم: «٤٨».

(٤) آل عمران: «١٣٤».

(٨٥) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فَحَذَفَ لا كما في قوله:

فقُلْتُ يَمين الله أَبْرَح قَاعِداً

لأنه لا يَلتبس بالإثبات، فإن القَسَمَ إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشْفياً على الهلاك. وقيل الحَرَضُ الذي أذابه همٌّ أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يُجْمَع، والنعتُ بالكسر كدَنِفٌ ودَنَفٌ. وقد قرىء به، وبضمتين كجُنُب. ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين.

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُوا۟ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يۡـَٔسُوا۟ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيۡهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُوا۟ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه، مِنَ البَثّ بمعنى النشر. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فَخَلُّوني وشكايتي. ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يُخَيِّبُ داعيَه ولا يَدَعُ الملتجىء إليه، أو مِنَ الله بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف. قيل رأى مَلَكَ الموت في المنام فسأله عنه فقال: هو حي، وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يَخِرّ له إخوتُه سُجَّداً.

(٨٧) ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما. والتحسس تطلّب الإحساس. ﴿وَلَا تَا۟يۡـَٔسُوا۟ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. وقرىء مِنْ رُوح الله أي من رحمته التي يحيا بها العبادُ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيۡهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ بعد ما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ شدة الجوع. ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ رديئة أو قليلة تُرَدّ وتدفَع رغبة عنها، مِنْ أَزجيتُه إذا دفعته، ومنه تزجيةُ الزمان. قيل كانت دراهم زيوفاً، وقيل صوفاً وسمناً، وقيل الصنوبر والحبة الخضراء، وقيل الأقط وسَويق المُقل[١]. ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ فأتمم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها[٢]. واختُلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا ﷺ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق التفضل

(١) وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة عليهم (س٤/٣٠٣).

(٢) وسموه تصدقاً للتواضع، أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم بالثمن (س٤/٣٠٣).

مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر: «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١]. لكنه اختص عرفاً بما يبتغىٰ به ثواب من الله تعالى.

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحَه فتبتم عنه، وفِعْلُهم بأخيه: إفرادُه عن يوسف وإذلالُه حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقِبَتَه، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبةً وتثريباً، وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك. وإنما جَهَّلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ صبياناً طياشين.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(٩٠) ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنَّ ودخولِ اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب[٢]. قيل عرفوه بِرُوائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقَرْنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ من أبي وأمي، ذَكَرَه تعريفاً لنفسه به وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جَمَعَ بين التقوى والصبر.

(٩١) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيبَ عليكم، تَفْعيلٌ من الثَّرْب وهو الشحم الذي يغشى الكِرْشَ للإزالة كالتجليد، فاستُعير للتقريع الذي يمزق العِرْض ويُذْهِبُ ماء الوجه. ﴿ٱلْيَوْمَۖ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدَّر للجارّ الواقع خبراً للتثريب، والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام؟ أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومِنْ كَرَم يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عَرَفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبُكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فَرَط منّا فيك، فقال: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بَلَّغَ عبداً بيع بعشرين درهماً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٤٧٨ رقم ٦٨٦).

(٢) أي قرأ «إنك».

ما بلّغ، ولقد شرُفْتُ بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾

(٩٣) ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ. ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأۡتُونِي﴾ أنتم وأبي. ﴿بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عُمْرانِها. ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ أوجده الله ريح ما عَبِق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفَنَد وهو نقصان عقلٍ يَحدُث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مُفْنِدة لأن نقصان عقلها ذاتي[1]. وجواب لولا محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلت إنه قريب.

(٩٥) ﴿قَالُواْ﴾ أي الحاضرون. ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قُدُماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقائه.

(٩٦) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأُفرِحُه بحمل هذا إليه. ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب عليه الصلاة والسلام أو يعقوبُ نفسُه. ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلامٌ مبتدأ والمقول لا تيأسوا من روح الله، أو إني لأجد ريح يوسف.

(٩٧) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ ومن حق المعترِف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

(٩٨) ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَخّره إلى السَّحَر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة، أو إلى أن يَستحِلَّ لهم من يوسف، أو يعلمَ أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسفُ خَلْفَه يُؤمِّن وقاموا خلفَهما أذلة خاشعين، حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله أجاب دعوتك في ولدك

(١) يقال شيخ مُفْنِدٌ ولا يقال عجوز مفندة إلا أن تكون في شبابها ذات رأي فتفند في كبرها.

وعَقَد مواثيقهم بعدك على النبوة، وهو إن صح[١] فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ روي[٢] أنه وَجَّه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسفُ والملِكُ بأهل مصر، وكان أولادُه الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهَرْمىٰ. ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما، نزَّلها منزلة الأم تنزيلَ العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[٣]، أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والرابّة تدعى أماً ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره، والمشيئةُ متعلقة بالدخول المكيَّف بالأمن، والدخولُ الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبلهم.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها، وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً، وقيل الضميرُ لله تعالى والواو لأبويه وإخوته. والرفعُ مؤخر عن الخُرور، وإن قُدِّم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ التي رأيتُها أيام الصبا. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يَذْكُر الجُبّ لئلا يكون تثريباً عليهم. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أفسد بيننا وحرّش، مِنْ نزغ الرائضُ الدابة إذا نَخَسها وحملها على الجري. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي[٢] أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: أمرني جبريل عليه السلام، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أَبْسَطُ مني إليه فاسأله، فقال جبريلُ: الله أمرني بذلك لقولك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[٤]، قال: فهلا خِفْتَني؟.

(١) قال الألوسي: (والحق عدم الصحة) روح المعاني (١٣/ ٥٦).
(٢) غالب هذه الأخبار مأخوذة عن أهل الكتاب، والله أعلم.
(٣) البقرة: «١٣٣».
(٤) يوسف: «١٣».

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ بعض المُلْك وهو مُلْك مصر. ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ الكُتُب أو الرؤيا، ومِنْ أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدعُهما. وانتصابُه على أنه صفة المنادى، أو منادى برأسه. ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ ناصري ومتولي أمري. ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ اقبضني. ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي، وأوصىٰ أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمةَ، ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تاقت نفسُه إلى المُلْك المخلد فتمنىٰ الموتَ فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهلُ مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقلَه موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل أفرائيم وميشا ـ وهو جد يوشع بن نون ـ ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام.

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ، وهو مبتدأ. ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ ﴾ خبران له. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كالدليل عليهما، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تَحْضُر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غَيَابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفىٰ على مكذبيك أنك ما لَقِيتَ أحداً سمع ذلك فتعلمتَه منه، وإنما حذف هذا الشِّقُّ استغناءً بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾[1].

(١٠٣) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات عليهم. ﴿ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿ مِنْ أَجْرٍۚ ﴾ من جُعْل[2] كما يفعله حَمَلَةُ الأخبار. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من آية، والمعنىٰ وكأيٍّ عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها.

---

(١) هود: «٤٩».

(٢) الجُعْل ـ بالضم ـ ومصدره الجَعْل ـ بالفتح ـ وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً. [النهاية: ١/٢٧٦].

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرىء والأرضُ ـ بالرفع ـ على أنه مبتدأ خَبَرُه يمرّون فيكون لها الضمير في عليها، وبالنصب على ويطؤون الأرضَ[1]، وقرىء والأرضُ يمشون عليها، أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحبار أرباباً ونسبةِ التبني إليه تعالىٰ، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة، وقيل في المنافقين، وقيل في أهل الكتاب.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

(١٠٨) ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوةَ إلىٰ التوحيد والإعدادَ للمعاد، ولذلك فَسَّر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الياء. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو، أو على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبرُه على بصيرة. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[2] وقيل معناه نفي استنباء النساء ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ كما يوحىٰ إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص نُوحِي في كل القرآن، ووافقه حمزة والكسائي في سورة الأنبياء[3]. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولدار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

---

(١) أي وقرىء بنصب الأرض، على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره «يمرون» وهو يطؤون.
(٢) فصلت: «١٤».
(٣) الآية: «٧» و«٢٥».

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١١٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غايةُ محذوفٍ دلّ عليه الكلام، أي لا يغررهم تمادي أيامهم فإن مَنْ قبلهم أُمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ أي كذَبَتهم أنفُسُهم حين حدثتهم بأنهم يُنْصَرون، أو كذبهم القومُ بوعد الإيمان. وقيل الضمير للمرسَل إليهم، أي وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل، أي وظنوا أن الرسل قد كُذِّبوا وأُخلِفوا فيما وُعِد لهم من النصر وخَلْط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أُخلِفُوا ما وَعَدَهم الله من النصر، إن صح[1] فقد أراد بالظن ما يَهْجُس في القلب على طريق الوسوسة. هذا وإن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أَوْعدوهم. وقرىء كَذَبُوا بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كَذَبوا فيما حَدَّثوا به عند قومَهم لمّا تراخىٰ عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ النبي والمؤمنين، وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول[2]، وقرىء فنجا. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيان للمَشِيئين.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول المبرأةِ من شوائب الإلف والركون إلى الحسّ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفترى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقونه. وعن النبي ﷺ: «علموا أرقّاءكم سورةَ يوسف، فإنه أيُّما مسلم تلاها وعلمها أهلَه وما ملكت يمينُه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يَحْسُد مسلماً»[3].

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه البخاري (٢٥٢٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة «فننجي» بنونين والبناء للفاعل، وقراءة عاصم ويعقوب وابن عامر «فَنُجِّيَ».

(٣) وهو حديث موضوع أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

سُورَةُ الرَّعۡدِ

ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

سورة الرعد مدنية

وقيل مكية إلا قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ. . الآية﴾[1] وهي ثلاث وأربعون آية.

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٩٩):

«أخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سورة الرعد نزلت بمكة».

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مكية.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة الرعد بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الرعد بالمدينة.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مدنية، إلا آية مكية. «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» [الرعد: ٣١]» هـ.

ـ وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٢٩٩):

«اختلفوا في نزولها على قولين:

(أحدهما): أنها مكية. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة. وروى صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين منها. قوله «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» إلى آخر الآية [الرعد: ٣١] وقوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلاً» [الرعد: ٤٣].

(والثاني): أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد، وروي عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله «ولو أن قرآناً سُيّرت به الجبال» إلى آخرها [الرعد: ٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله «هو الذي يريكم البرق ـ إلى قوله ـ له دعوة الحق» [الرعد: ١٤]» هـ.

وقال السيوطي في «الإتقان» (١/٣٦) بعد أن ذكر الاختلاف في سبب نزولها. =

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓرۚ﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ يعني بالكتاب السورة، وتلك إشارةٌ إلى آياتها، أي تلك الآياتُ آياتُ السورة الكاملة أو القرآن. ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو القرآن كله. ومحله الجر بالعطف على الكتاب عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو الرفع بالابتداء وخبرُه ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ والجملةُ كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزَّل بكونه حقاً فهو أعمّ من المنزَّل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزَّلُ بحسن اتباعه[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبرُ يدبر الأمرَ. ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ أساطين ـ جمعُ عِمَاد ـ كإهاب وأَهَبٌ، أو عمود كأديم وأَدَمٌ[2]. وقرىء عُمُدٍ كرُسُل. ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ صفة لعَمَد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السمواتِ كذلك، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعَها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجُرْمية واختصاصَها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصِّص ليس بجسم ولا جسماني يرجِّحُ بعضَ الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بالحفظ والتدبير. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ ذللهما لِمَا أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[3]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يُنَزِّلها ويبيِّنها مفصلة، أو يُحْدِث الدلائل واحداً بعد واحد. ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمالَ قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قَدِر على الإعادة والجزاء.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بَسَطَها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدامُ ويتقلبَ عليها الحيوان.

«والذي يجمع به بين الاختلاف: أنها مكية إلاّ آيات منها» هـ.

ـ وقال سيد قطب في الظلال (٤/ ٢٠٣٩): ـ

السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف ـ اعتماداً على بعض الروايات ـ أنها مدنية... ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها أو في جوها العام، الذي لا يخطىء تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن!» هـ.

(١) وفي التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفىٰ (س٥/ ٢).

(٢) جمع إهاب على أَهَب ـ بفتحتين ـ (كذلك أديم فهو على غير القياس والقياسُ بضمتين «أُهُب وأُدُم» قال بعضهم: وليس في كلام العرب فِعَالٌ يُجْمَع على فَعَلٍ ـ بفتحتين إلا إهاب وأَهَب وعِمَاد وعَمَد... (المصباح المنير مادة أهب).

(٣) التكوير: «١ـ٢».

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، مِنْ رسا الشيء إذا ثبت، جمعُ راسية والتاءُ للتأنيث على أنها صفة أَجْبُل أو للمبالغة[(١)]. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يُلْبِسُه مكانه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُغَشِّي بالتشديد. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهيأ أسبابها.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(٤) ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضها طيبة وبعضها سَبْخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيصُ قادرٍ موقِع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويَعْرِض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النِّسَب والأوضاع. ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع، وتوحيدُ الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص وزرعٌ ونخيلٌ بالرفع عطفاً على وجنّات[(٢)]. ﴿صِنْوَانٌ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متفرقات مختلفات الأصول[(٣)]. وقرأ حفص بالضم، وهو لغة بني تميم، كقِنْوانِ في جمع قِنْوٍ. ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادرٍ مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يُسقى بالتَّذكير على تأويل ما ذُكِر، وحمزةُ والكسائيّ يُفَضِّلُ بالياء ليطابق قوله: «يُدَبِّرُ الأمرَ» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر[(٤)].

---

(١) ولم يذكر الموصوف ـ الذي هو الجبال ـ لإغناء غلبة الوصف بها.
والتعبير عن الجبال بهذا العنوان ـ أي الرواسي ـ لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها (س٥/ ٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجر، وقد قرأ بها غير مَنْ ذكر وهي عطفٌ على أعناب.

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات مادة (صنو): الصِّنْوُ: الغصن الخارج عن أصل الشجرة، يُقال هما صِنْوا نخلة وفلان صِنْو أبيه، والتثنية صِنْوانِ [بكسر النون] والجمع صِنْوانٌ [بتنوين النون].

(٤) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي أنه أفرد الزرع لمراعاة أصله، وقدم ذكر الجنات عليه ـ مع كونه عمود المعاش ـ لظهور حالها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها.
ولعل تأخير ذكر النخيل لئلا يقع بينها وبين صفتها ـ وهي «صنوان وغير صنوان» ـ فاصل (س٥/ ٥).

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾

(٥) ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يُتعجب منه، فإن من قَدِر على إنشاء ما قُص عليك كانت الإعادة أيسرُ شيء عليه، والآياتُ المعدودةُ كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعاملُ في «إذا» محذوف دل عليه «أئنا لفي خلق جديد» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يُرجىٰ خلاصُهم أو يُغَلُّون يوم القيامة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك لأنهم استَعْجَلُوا ما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ عقوباتُ أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها ولم يُجَوِّزوا حلول مثلها عليهم؟. والمَثُلَةُ ـ بفتح الثاء وضمها كالصَّدَقَة والصدُقَة ـ العقوبةُ، لأنها مِثْلُ المعاقَبِ عليه، ومنه المُثَال للقصاص وأَمْثَلْتُ الرجلَ من صاحبه إذا اقتصصتُه منه. وقرىء المَثْلات بالتخفيف، والمُثُلاَت بإتْباع الفاءِ العينَ، والمُثْلات بالتخفيف بعد الإتباع، والمُثَلات بفتح الثاء على أنها جمع مُثْلَة كرُكْبة ورُكَبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسَهم. ومحله النصبُ على الحال، والعاملُ فيه المغفرةُ. والتقييدُ به دليل على جواز العفو قبل التوبة. فإن التائب ليس على ظلمه، ومَنْ منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفَّرَة لمجتنب الكبائر أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزُه لما هَنَأَ أحدٌ العيشَ، ولولا وعيدُه وعقابُه لاتّكل كلُّ أحد»[2].

---

(١) قال ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه» ص٤٤٤ ـ ٤٤٥:
«قد توهم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة، لأنه قال: المراد بالظلم ها هنا، الشرك. ثم نسخت بقوله «إنَّ الله لا يغفرُ أن يشرك به» [النساء: ٤٨] وهذا التوهم فاسد لأن الظلم عام. وتخصيصه بالشرك ها هنا يحتاج إلى دليل. ثم إن كان المراد به الشرك، فلا يخلو الكلام من أمرين:
ـ إما أن يراد به التجاوز عن تعجيل عقابهم في الدنيا.
ـ أو الغفران لهم إذا رجعوا عنه، وليس في الآية ما يدل على أنه يغفر للمشركين إذا ماتوا على الشرك» هـ.
وقال ابن الجوزي أيضاً في «زاد المسير» (٤/٣٠٦): «والمحققون على أنها محكمة» هـ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب «لما نزلت: «وإن ربك لذو مغفرة، الآية» قال رسول الله ﷺ فذكره ـ كما في «الكافي الشاف» لابن حجر (ص٩١ رقم ٢٢٢).
قلت: ـ مراسيل ابن المسيب مقبولة. ولكن في الأثر علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزَّلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مُرْسَل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيانُ بما تصح به نبوتُك من جنس المعجزات لا بما يُقْتَرَحُ عليك. ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو اللهُ تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاءُ هدايتَه بما يُنَزِّل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدَره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم يَنْزِل لعلمه بأن اقتراحَهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسَبْق قضائه عليهم بالكفر فقال:

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي حَمْلَها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقَّبة. ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وما تُنْقِصه وما تزداده في الجثَّة والمدة والعَدَد. وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبي حنيفة. روي[١] أن الضحاك ولد لسنتين وهرمَ بن حيان لأربع سنين[٢]. وأعلى عَدَده لا حد له، وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته وَلَدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده. وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد، قال تعالى: ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[٣] فإن جعلتهما لازمين تعين ما أن تكون مصدرية، وإسنادُهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقَدَر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٤] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿ هَادٍ ﴾[٥]

---

(١) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).

(٢) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).

قال ابن حزم في المحلى «١٠/ ١٣١ ـ ١٣٣» ـ «ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر، لقول الله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] وقال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» [البقرة: ٣٣]. فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً» هـ.

ثم ذكر ابن حزم جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، ولكنه عقب عليها بقوله «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يُعرف مَن هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا» اهـ.

قلت: هذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده. وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

(٣) الكهف: «٢٥».

(٤) القمر: «٤٩».

(٥) الرعد: «٧».

﴿وَالٍ﴾[١] و﴿وَاقٍ﴾[٢] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يَصِلُون بالتنوين ويقفون بغير ياء.

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

(٩) ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الحاضر له. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مُختَبأ بالليل. ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ بارز. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد[٤]، مِنْ سرب سُرُوباً إذا برز، وهو عطف على مَنْ أو مستخف على أنَّ من في معنى الاثنين كقوله:

تكن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقررِّه لكمال علمه وشموله.

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مُعَقِّبَـٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع مُعَقِّبة مِنْ عقَّبَهُ مبالغة عَقَبَه إذا جاء على عقِبه كأن بعضهم يَعْقِب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاءُ في القاف والتاءُ للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرىء مَعَاقيب جمع معقّب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين. ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار، أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرىء به. وقيل مِنْ بمعنى الباء، وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات، وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا راد له، فالعامل في إذا ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع

---

(١) الرعد: «١١».
(٢) الرعد: «٣٤».
(٣) النحل: «٩٦».
(٤) وتقديم الإسراء على الجهر والاستخفاء على السروب لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء (س٥/٨).

عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وانتصابُهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع، أو الحالِ من البرق أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاقِ المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَك موكل بالسحاب معه مخاريق[2] من نـار يسـوق بهـا ....

(١) التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وهو نوعان: تسبيح دلالة وتسبيح مقالة، أما تسبيح الدلالة فكل المخلوقات تدل على أن الله هو خالقها وأنه تعالى عالم قدير سميع بصير حي مريد.. وأما تسبيح المقالة فيكون من باب القول كما يتكلم الإنسانُ بلسانه.. ولما كان من منهج المعتزلة إخضاع جميع المخلوقات إلى حكم العقل قالوا بتعذر نطق المخلوقات وحملوها على غير الحقيقة... والبيضاوي تأثر بالزمخشري في بعض اعتزالياته وحمل السجود على غير الحقيقة.
لكنّ النطق والقول غير مختص بالإنسان والله تعالى هو الذي أنطق الإنسان وعلمه البيان وهو قادر على إنطاق جميع المخلوقات. والنصوص كثيرة في ذلك وحملها على المجاز تكلف، فسليمان عليه السلام علمه اللهُ منطق الطير وقد ذكر القرآن الكريم قصة محادثته مع الهدهد، وفي آخر الزمن تخرج دابة من الأرض تكلم الناس، والله تعالى يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل فتشهد على صاحبها يوم القيامة وكذلك الجلود.. وقد تكلم في المهد عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره... وفي الصحيح أنّ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكّت حتى استقرت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» ـ رواه البخاري ـ.
فإذا كان الأمر كذلك من نطق الجمادات فلماذا يُستبعَد نطق الرعد بالتسبيح لله تعالى ويُحمَل على غير حقيقته؟! وقد أثبت القرآن الكريم عدم فهم الإنسان لتسبيح الجمادات كما قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» ـ الإسراء «٤٤» ـ.

(٢) ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. [النهاية: ٢/٢٦].

السحاب»[١]. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل الضمير للرعد. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسولَ الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدالُ التشدد في الخصومة من الجَدْل وهو الفتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامرَ بن الطفيل وأَرْبَدَ بن ربيعة ـ أخا لبيد ـ وفدا على رسول الله ﷺ قاصديْن لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمىٰ عامراً بغدة فمات في بيتِ سلوليَّة، وكان يقول غدةٌ كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت[٢]. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المماحلةُ: المكايدةُ لأعدائه، من مَحَل فلانٌ بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، ولعل أصله المَحْل بمعنى القحط. وقيل فِعال من المَحْل بمعنى القوة. وقيل مِفعل من الحول أو الحيلة أُعِلّ على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعِدُ الله أشدُّ وموساه أحدُّ.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويُدعىٰ إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده. والحقُّ على الوجهين ما يناقض الباطل، وإضافةُ الدعوة إليه لما بينهما من الملابسة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجملتين إن كانت الآية في أربد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يَشْعرا به مِحَالٌ من الله إجابةٌ لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤ رقم ٣١١٧) عنه في سياق طويل.
وقال: حديث حسن غريب.
قلت: في إسناده بكير بن شهاب الكوفي قال الحافظ في التقريب (١/ ١٠٧): مقبول.
والحديث أخرجه أيضاً من هذا الوجه أحمد (٢/ ٢٧٤) في سياق أطول من سياق الترمذي وكذا النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٤).
والخلاصة أن الحديث حسن انظر «الصحيحة» للألباني (رقم: ١٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ج١٣/ ١٢٦) عن ابن جريج مختصراً.
وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٢) عن ابن جرير وابن زيد مطولاً.
وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ رقم ١٠٦٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٦٦). من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤١) وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.
قلت: ـ بل هو متروك انظر «التقريب (١/ ٥١١)».

وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحَالِهِ بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون فَحَذَفَ الراجعَ، أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه. ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة مَنْ بسط كفيه ﴿إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لأنه جماد لا يَشْعُر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيانِ بغير ما جبل عليه، وكذلك آلهتُهم. وقيل شبهوا في قلة جدوىٰ دعائهم لها بمَنْ أراد أن يغترف الماءَ ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرىء تَدْعُون ـ بالتاء ـ وباسطٍ بالتنوين. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرةُ كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ بالعَرَض، وأن يرادَ به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقيادُ ظِلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص. وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة، وقوله ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ ظرفٌ ليسجد، والمراد بهما الدوام، أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تُعظَّم وتكثر فيهما. والغدو جمع غداة كقُنِيٍّ جمع قناة، والآصالُ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر، ويؤيده أنه قد قرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل.

(١٦) ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقُهما ومتولي أمرِهما. ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو لقِّنْهم الجواب به ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثم أَلْزِمْهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاءَ أن يشفعوا لهم. ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها، والموحِّد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا، والهمزةُ للإنكار، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ خَلْقُ الله وخَلْقُهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثلَه حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خَلَقوا كما خلق اللهُ فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالقَ غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق موجِبَ العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ الغالب على كل شيء.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسِها فإن المبادىء منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ أنهار، جمعُ وادٍ وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتّسع فيه واستُعْمِلَ للماء الجاري فيه، وتنكيرُها لأن المطر يأتي على تناوبٍ بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالىٰ أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبَر. ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ رَفَعَه، والزَّبَدُ وَضَرُ الغَلَيَان. ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعمّ الفِلِزّات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حُلًى. ﴿أَوْ مَتَـٰعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصودُ من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي ومما يوقدون عليه زَبَد مثْلُ زبد الماء وهو خَبَثُه، ومِنْ للابتداء أو للتبعيض. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس[1]، وإضماره للعلم به. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ﴾ مَثَل الحق والباطل، فإنه مِثْلَ الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأوديةُ على قدر الحاجة والمصلحة فيَنْتَفِعُ به أنواعُ المنافع، ويمكث في الأرض بأن يَثْبُتَ بعضُه في منافعه ويسلك بعضُه في عروق الأرض إلى العيون والقُنِيِّ والآبار، وبالفلز الذي يُنتفع به في صوغ الحُلىٰ واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما، وبيّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يُجْفَأُ به أي يَرمي به السيلُ والفلزُّ المذاب. وانتصابه على الحال ـ وقرىء جُفَالاً ـ والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلزّ. ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلُها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتَبِهات.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الاستجابة الحسنىٰ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهم الكفرة، واللام متعلقة بيضرب على أنه جَعَلَ ضَرْبَ المَثَل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبرُ الحسنىٰ ـ وهي المثوبة أو الجنة ـ والذين لم يستجيبوا مبتدأٌ خبرُهُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو المناقشةُ فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يُغْفَرُ منه شيء. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المستقرّ، والمخصوصُ بالذم محذوف.

---

(١) أي «ومما يوقدون».

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يَستبصر فيستجيب، والهمزةُ لإنكار أن تقع شبهةٌ في تشابههما بعد ما ضُرِب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومعارضة الوهم.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلىٰ، أو ما عَهِد الله تعالى عليهم في كُتُبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وَثَّقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاةُ جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيدَه عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسِبُون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا[١].

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى[٢]. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بعضَه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يُعْرَفْ بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عُرِف به. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها فيجازُون الإساءة بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة الحسنة فتمحوَها[٣]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة. والجملةُ خبر الموصولات إن رُفِعَتْ بالابتداء، وإن جُعِلت صفات لأولي الألباب فاستئنافٌ بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبىٰ الدار، أو مبتدأٌ خَبَرُهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعَدْنُ: الإقامةُ، أي جناتٌ يقيمون فيها، وقيل هو بطنان ....

(١) خص البيضاوي الخشية بخشية وعيده تعالى، لكنّ الظاهر أن المراد به مطلق الخشية.
وقوله تعالىٰ في الأول «يخشون» وفي الثاني «يخافون» هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به (روح المعاني ١٣/ ١٤٠) وقد فرق الراغب بين الخشية والخوف فقال: (الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشىٰ منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: «إنما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماء» ـ فاطر «٢٨» ـ) المفردات مادة (خشي).

(٢) أورد الصبر بصيغة الماضي للدلالة على الاعتناء بشأنه ووجوب تحققه، فإنه ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة (س٥/ ١٧).

(٣) وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة (س٥/ ١٧).

الجنة[١]. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه والمعنىٰ أنه يَلحقُ بهم مَنْ صلح مِنْ أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يُقْرَن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أُنسهم، وفي التقييد بالصَّلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين:

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بِشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعليكم، أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم، لا بسلام.. فإن الخبر فاصل. والباءُ للسببية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وقرىء فَنَعْم بفتح النون، والأصلُ نَعِمَ فسُكِّن العينُ بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أي أهلُ مكة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعُجَالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أَشِرُوا بما نالوا من الدنيا ولم يَصْرِفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نَزْرٌ قليل النفع سريع الزوال.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات[٢]. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرىٰ التعجب من قولهم: كأنه قال قل لهم ما أَعْظَمَ عنادَكم! إن الله يُضِل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أُنزِلَت كلُّ آية، ويهدي إليه من أناب بما جئتُ به بل بأدنى منه من الآيات.

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل مِنْ مَنْ، أو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أُنساً به

---

(١) أي وسطها.

(٢) وإظهار الموصول «الذين كفروا» لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكي عنهم من أقوال (س٥/١٩).

واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو يذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه[1].

ﱡٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ﱠ

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأٌ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلىٰ من الطِّيب قُلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلَها، مصدر لطاب كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرىء: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب.

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك، يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ تقدمَتْها. ﴿أُمَمٌ﴾ أُرسلوا إليهم، فليس ببِدْعٍ إرسالُك إليهم. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحالُهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نِعَمَه وخصوصاً ما أُنْعِم عليهم بإرسالك إليهم. وإنزالِ القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنياوية عليهم[2]. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا: وما الرحمن؟![3] ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ أي الرحمنُ خالقي ومتولي أمري. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابُه، والمرادُ منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغةُ في عناد الكفرة وتصميمِهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارّها. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجُعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغايةُ في الإعجاز والنهايةُ في التذكير والإنذار، أو

---

(١) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «وتطمئن» لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (س٥/ ٢٠).

(٢) والعدول إلى المُظْهَر المتعرض لوصف الرحمة «الرحمن» من حيث إن الإرسال ناشىء منها (س٥/ ٢١).

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس من رواية الضحاك (ص٢٧٩) ومعلوم أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾[١] الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرّك أن نتبعك فسيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائعَ، أو سخِّرْ لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت[٢]. وعلى هذا فتقطيع الأرض قَطْعُها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينهما اعتراض. وتذكيرُ كُلِّم خاصة لاشتمال الموتىٰ على المذكر الحقيقي. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، وهو إضرابٌ عما تضمنته لو من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرُهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا أفلم يتبين، وهو تفسيره. وإنما استعمَلَ اليأسَ بمعنى العلم لأنه مسبَّب عن العلم، فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدي بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، أو بآمنوا. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تَقْرعهم وتُقْلقهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليفزعون منها ويتطاير إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتَغير حواليهم وتختطف مواشيَهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تَحُل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حلّ بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه. والإملاءُ أن يترك ملاوة من الزمان في دَعَة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبرُ محذوف تقديره كمن ليس كذلك، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) الأنعام: «١١١».

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٢/ ٤٠ ـ ٤١) وفي سنده عبد الجبار بن عمر الأيلي وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٤٦٦) وفيه عبدالله بن عطاء وهو مدلس وقد عنعن (التقريب ١/ ٤٣٤).
والحديث ضعفه الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٥).

شُرَكَآءَ﴾ استئناف أو عطف على كسبت إن جعلت ما مصدرية. أو لم يوحّدوه، وجعلوا عطفٌ عليه، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صِفُوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بل أتنبئونه. وقرىء تُنْبِئُونه بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنىً كتسمية الزنجي كافوراً، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيلَ ثم خالُوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم[1]. ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وصَدُّوا بالفتح، أي وصَدّوا الناس عن الإيمان، وقرىء بالكسر وصِدٌ بالتنوين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدىٰ.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته ودوامه. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حافظ.

(٣٥) ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي مَثَلٌ في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. وقيل خبرُه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حَذْفِ موصوفٍ أي مَثَل الجنة جنةٌ تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوفِ أو من الصلةِ. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك لا يُنْسَخُ كما ينسخ في الدنيا بالشمس. ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ مآلهم ومنتهىٰ أمرهم. ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني كَفَرَتُهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن . . . .

(١) فقوله «للذين كفروا» وضع الموصول موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر (س٥/ ٢٤).

الأشرف[١] وأصحابه والسيد[٢] والعاقب[٣] وأشياعهما. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحِّده، وهو العمدةُ في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس بِبِدْع مخالفةُ الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرىء ولا أشركُ بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القَدَر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنىً لإنكاركم المخالفة فيه.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يَحْكُمُ في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة[٤]. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجَماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ تُقْتَرَحُ عليه وحُكم يُلْتَمَسُ منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنه المليء بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يُكْتَب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

(٣٩) ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يَسْتَصْوِب نسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها، وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاءٌ ويترك غيره مثبَتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه، وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين، وقيل يمحو الفاسدات

---

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف مفصلاً في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧٤ ـ ٨٤).

(٢) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «والسيد: ثِمالُهم، وصاحِبُ رحلهم، ومجتمعهم، واسمه الأيهم» هـ.

(٣) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «العاقِبُ أميرُ القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يَصْدُرون إلاّ عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح» هـ.

(٤) والتعرض لوصفه حكماً ـ مع أن بعضه ليس بحكم ـ لتربية وجوب مراعاة وتحتم المحافظة عليه (س٥/ ٢٦).

الكائنات[١]. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويُثَبِّتُ بالتشديد. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحالُ أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله[٢]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفلْ بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإنا فاعلون له وهذا طلائعه.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا راد له، وحقيقته الذي يُعقِّب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقِّب لأنه يَقْفُو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل لا مع المنفي النصبُ على الحال، أي يحكم نافذاً حُكْمُه[٣]. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَيُعِدُّ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعَدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم. واللام تدل على أن المراد بالعقبىٰ العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلي الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو الكافرُ على إرادة الجنس، وقرىء الكافرون، والذين كفروا، والكُفْرُ أي أهله، وسَيُعْلَمُ مِنْ أَعْلَمَه إذا أخبره.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود[٤]. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أَظْهَرَ من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ

(١) والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات.

(٢) صيغة المضارع في «نعدهم» لحكاية الحال الماضية أو لتجدده. وإيراد البعض رمز لإرادة بعض الموعود (س٥/٢٧).

(٣) وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله «والله يحكم...» وبناء الحكم على الاسم الجليل «الله» من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفىٰ (س٥/٢٨).

(٤) وصيغة الاستقبال بقوله «ويقول» لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على التجدد والاستمرار (س٥/٢٩).

عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علم القرآن وما أُلِف عليه من النظم المعجز، أو عِلْمُ التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو عِلْمُ اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفىٰ بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يَعْلَمُ ما في اللوح المحفوظِ إلاَّ هوَ شهيداً بينَنا فَيُخْزِي الكاذبَ مِنَّا، ويؤيِّدُه قراءةُ مَنْ قرأ ومِنْ عِنْدِه بالكسر وعِلْمُ الكتاب. وعلىٰ الأول مرتفعٌ بالظرف فإنه معتمدٌ على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأً والظرف خبرُه وهو متعيِّنٌ على الثاني. وقُرِئ ومِنْ عِنْدِه عُلِمَ الكتابُ على الحرفِ والبناءِ للمفعول. عن رسول الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرعد أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بوزن كلِّ سحابٍ مضَىٰ وكلِّ سحاب يكون إلى يومِ القيامة من الموفينَ بعهدِ الله»[1].



(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبيّ (الفتح السماوي ص٧٤٢) وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠).

سُورَةُ إبراهيم

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

سورة إبراهيم عليه السلام مكية[1] وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتابٌ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائِك إيَّاهم إلى ما تضمَّنه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواعِ الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقِه وتسهيلِه، مُسْتَعَارٌ من الإذْنِ الذي هو تسهيلُ الحجاب، وهو صلة لِتُخْرِجَ أو حالٌ من فاعلِه أو مفعولِه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنه جوابٌ لِمَنْ يسألُ عنه. وإضافةُ الصراطِ إلى اللهِ تعالى إما لأنه مقصدُه أو المظْهِرُ له. وتخصيصُ الوصفين للتنبيه على أنه لا يَذِلُّ سالِكُه ولا يَخِيبُ سابِلُهُ.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[2] مبتدأٌ وخبرٌ، أو اللهُ

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣).
«أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت في مكة، سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً...» إلا آيتين نزلتا في قتلي بدر من المشركين وانظر «زاد المسير» (٤/٣٤٣).

(٢) قراءة نافع وابن عامر برفع لفظ الجلالة.

خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ والذي صِفتُه. وعلى قراءة الباقينَ عطفُ بيانٍ للعزيزِ لأنه كالعَلَم لاختصاصِه بالمعبودِ على الحقِّ. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفرَ بالكتاب ولم يَخرُجْ بهِ من الظلماتِ إلى النور. والويلُ نقيض الوَأْلِ وهو النجاة، وأصله النَّصْبُ لأنه مصدرٌ ـ إلا أنه لم يُشْتَقَّ منه فعلٌ ـ لكنه رُفِعَ لإفادةِ الثبات.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونَها عليها فإن المختارَ للشيءِ يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها من غيره. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويقِ الناس عن الإيمان. وقُرِىءَ ويُصِدونَ مِنْ أَصَدَّهُ وهو منقول من صدَّ صُدوداً إذا تنكَّبَ، وليس فصيحاً لأن في صدِّه مندوحةٌ عن تكلُّفِ التعديةِ بالهمزة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويبغون لها زيغاً ونُكُوباً عنِ الحقِّ ليقدحُوا فيه، فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ إلى الضميرِ. والموصولُ بِصِلَتِهِ يَحْتَمِلُ الجرَّ صفةً للكافرين والنَّصبَ على الذمِّ والرفعَ عليه، أو على أنهُ مبتدأٌ خبرُه: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ضلُّوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحلَ. والبعدُ في الحقيقة للضالِّ فوُصِفَ بهِ فِعْلُه للمبالغةِ، أو للأمرِ الذي به الضلالُ فَوُصِفَ به لملابستِه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إلا بلُغَةِ قومه الذي هو مِنْهم وبُعِثَ فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أُمِرُوا به فيفقهوهُ عنه بِيُسْرٍ وسُرْعةٍ، ثم ينقلوهُ ويترجموه إلى غيرِهم فإنَّهم أَوْلَى الناسِ إليه بأنْ يدعوهم وأحقُّ بأنْ يُنْذِرَهم، ولذلك أُمِرَ النبيُّ ﷺ بإنذارِ عشيرتِه أولاً. ولو نَزَلَ على مَنْ بُعِثَ إلي أُمَمٍ مختلفةٍ كُتِبَ على ألسنتِهم استقلَّ ذلكَ بنوعٍ منَ الإعجاز، لكنْ أدَّى إلى اختلافِ الكلمةِ وإضاعةِ فضلِ الاجتهادِ في تعلمِ الألفاظِ ومعانيها والعلومِ المتشعبةِ منها وما في إتعابِ القرائحِ وكدِّ النفوس من القُرَبِ المقتضيةِ لجزيلِ الثواب. وقُرِىءَ بِلِسْنِ وهوَ لغةٌ فيه كريشٍ ورياشٍ، ولُسُنٌ بضمتين، وضمةٍ وسكونٍ على الجمْعِ كَعُمُدٍ وعُمْدٍ. وقيلَ: الضميرُ في قومِه لمحمدٍ ﷺ وأن الله تعالى أنزلَ الكُتُبَ كلَّها بالعربية، ثم تَرْجَمَهَا جبريلُ عليهِ السلامُ أوْ كلُّ نبيٍّ بِلُغَةِ المنزَّلِ عليهم، وذلكَ ليسَ بصحيحٍ، يردُّه قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنه ضميرُ القوم، والتوراةُ والإنجيلُ ونحوُهما لم تُنْزَلْ لتُبيَّنَ للعرب. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيقِ له[1]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يُغْلَبُ على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يهدي إلا لحكمةٍ.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني اليدَ والعصَا وسائرَ معجزاتِه. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

(١) تقديم الإضلال على الهداية للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء. أو أن تقديم الإضلال لإبقاء ما كان على ما كان، والهداية إنشاء ما لم يكن (س٥/ ٣٢).

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بمعنَى أي أَخرِجْ لأن في الإرسالِ معنَى القولِ، أو بِأَنْ أَخرِجْ فإنَّ صِيَغَ الأفعالِ سواءٌ في الدلالةِ على المصدرِ فيصِحُّ أنْ تُوصَلَ بها أنْ الناصبةُ. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ بوقائِعه التي وقعتْ على الأُممِ الدارجةِ، وأيامُ العربِ حُرُوبُها. وقيلَ بنعمَائهِ وبلائِه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَصْبِر على بلائِه ويَشكر على نَعْمَائِه فإنه إذا سَمِعَ بما أُنْزِلَ على مَنْ قبلُ منَ البلاء وأُفِيضَ عليهم من النعماءِ اعتبرَ وتنبَّهَ لما يجبُ عليه من الصبرِ والشكرِ. وقيلَ: المرادُ لكل مؤمن وإنما عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصَّبرَ والشكرَ عُنْوَانُ المؤمن.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمتَه عليكم وقتَ إِنْجَائِه إيَّاكم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ بعليكم إنْ جُعِلَتْ مستقرةً غيرَ صِلَةٍ للنعمةِ وذلك إذا أُريدَ به العطيةُ دونَ الإنعامِ، ويجوز أن يكونَ بدلاً من نعمةِ الله بدلَ الاشتمالِ. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أحوالٌ من آل فرعونَ، أو من ضميرِ المخاطبينَ والمرادُ بالعذابِ ههنا غيرُ المرادِ به في سورة البقرة والأعرافِ[١] لأنه مفسَّرٌ بالتذبيحِ والقتْلِ ثَمَّةَ ومعطوفٌ عليه التذبيحُ ههنا، وهو إما جِنْسُ العذاب أو استعبادُهم أو استعمالُهم بالأعمالِ الشاقةِ[٢] ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ مِنْ حيثُ إنه بإقدار الله إياهم وإمهالِهم فيه. ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاءٌ منه. ويجوز أن تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ والمرادُ بالبلاءِ النعمةُ.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى عليه السلام، وتأذَّن بمعنى آذنَ كتوعَّد وأَوْعَدَ غيرَ أنه أبلغُ لما في التفعُّلِ من معنَى التكلُّفِ والمبالغةِ[٣]. ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ما أنعمتُ عليكم مِنَ الإنجاءِ وغيرِه بالإيمانِ والعملِ الصالحِ. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمتُ عليكم. ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فلعلِّي أعذِّبُكُم على الكُفْرَانِ عذاباً شديداً، ومن عادةِ أكرمِ الأكرمينَ أنْ يصرِّحَ بالوعْدِ ويُعَرِّضَ بالوعيد، والجملة مقُولُ قَوْلٍ مقدَّرٍ أو مفعولُ تأذَّنَ على أنه جارٍ مَجْرَى قالَ لأنه ضَرْبٌ مِنه.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الثقلينِ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنْ شكرِكُم.

---

(١) سورة البقرة الآية «٤٩» والأعراف الآية «١٤١».

(٢) معنى يسومونكم أي يبغونكم، مِنْ سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء، ومعنى يستحيون نساءكم أي يبقونهن في الحياة مع الذل والصغار.

(٣) والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث (س٥/ ٣٥).

﴿حَمِيدٌ﴾ مُسْتَحِقٌّ للحمْدِ في ذاتِه، محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ وتنطِقُ بنعمته ذرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضَرَرتُم بالكفر إلا أنفسَكم حيثُ حرَمتُموها مزيدَ الإنعامِ وعرَّضتُموها للعذاب الشديد.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مِنْ كلام موسى عليه الصلاة والسلام، أو كلامٌ مبتدأ منَ الله. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ وقَعَتِ اعتراضاً، أو الذينَ مِنْ بعدِهم عطفٌ على ما قبلَه ولا يعلمُهم اعتراضٌ، والمعنى أنهم لكثرتِهم لا يعلَمُ عددَهم إلا اللهُ، ولذلكَ قال ابنُ مسعود[1] رضي الله تعالى عنه: كَذَبَ النَّسَّابونَ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فعضُّوها غيظاً مما جاءتْ به الرسلُ عليهم الصلاةُ والسلام كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]، أو وضعُوها عليها تعجُّباً منه أو استهزاءً عليهِ كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتاً للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام وأمراً لهم بإطباقِ الأفواهِ، أوْ أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقتْ به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أنْ لا جوابَ لهم سواه، أوْ رَدُّوها في أفواهِ الأنبياء يمنعونَهم من التكلُّم، وعلى هذا يُحْتَمَلُ أن يكونَ تمثيلاً. وقيلَ الأيدي بمعنَى الأيادي، أيْ ردُّوا أيادي الأنبياءِ التي هي مواعظُهم وما أُوحِيَ إليهم من الحكم والشرائعِ في أفواهِهم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلُوها فكأنَّهم ردُّوها إلى حيثُ جاءت منه. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعْمِكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان. وقُرِىءَ تَدَّعُونا بالإدغام. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِعٍ في الريبة أو ذي ريبةٍ وهي قلقُ النفس وأن لا تطمئنَّ إلى الشيء.

(١٠) ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أُدخِلَتْ همزةُ الإنكارِ على الظرفِ لأنَّ الكلامَ في المشكوكِ فيه لا في الشكِّ، أيْ إنما ندعوكم إلى اللهِ وهو لا يحتملُ الشكَّ لكثرةِ الأدلة وظهورِ دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو صفةٌ أو بَدَلٌ، وشكٌّ مرتَفِعٌ بالظرفِ[3]. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بِبَعْثِه إيَّانا. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أو يدعُوكم إلى المغفرةِ كقولك: دعوتُه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٨٧) عنه.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) آل عمران: «١١٩».

(٣) لم يُجِب الرسل على قول الكافرين «إنا بما أرسلتم به كافرون» لأن مقصدهم الأقصى هو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ـ وإظهارُ البينات وسيلة إلى ذلك ـ فاقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى (س٥/ ٣٧).

لِيَنْصُرَني، على إقامةِ المفعولِ له مقامَ المفعولِ به. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلامَ يجبُّه دونَ المظالم. وقيلَ جِيْءَ بِمِنْ في خطابِ الكَفَرةِ دونَ المؤمنينَ في جميعِ القرآنِ تَفْرِقَةً بينَ الخطابَيْنِ. ولعلَّ المعنَى فيهِ أن المغفرةَ حيثُ جاءتْ في خطابِ الكفارِ مُرَتَّبَةٌ على الإيمانِ وحيثُ جاءتْ في خطابِ المؤمنينَ مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّبِ عن المعاصي ونحوِ ذلكَ فتتناولُ الخروجَ عنِ المظالم. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقْتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه آخِرَ أعمارِكُم. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فَضْلَ لكم علينا فَلِمْ تُخَصُّونَ بالنبوَّةِ دونَنَا؟! ولو شاءَ الله أن يبعثَ إلى البشرِ رُسُلاً لبعثَ مِنْ جِنْسٍ أفضلَ. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذهِ الدعوى. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على فضلِكم واستحقاقِكم لهذه المزيةِ، أو على صِحَّةِ ادِّعَائِكم النُّبُوَّةَ، كأنَّهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيناتِ والحججِ واقترحُوا عليهم آيةً أخرى تَعَنُّتاً ولَجَاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣)﴾

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سلَّموا مشاركتَهم في الجِنْسِ وجعلوا الموجِبَ لاختصاصِهم بالنبوةِ فضلَ اللهِ وَمَنَّهُ عليهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النبوةَ عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعضِ الجائزاتِ على بعضٍ بمشيئةِ اللهِ تعالَى. ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليسَ إلينا الإتيانُ بالآياتِ ولا تَسْتَبِدُّ به استطاعتُنا حتى نأتيَ بما اقترحتموهُ، وإنما هو أمرٌ يتعلقُ بمشيئةِ الله تعالى فيَخُصُّ كلَّ نبيٍّ بنوعٍ منَ الآيات. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلنتوكلْ عليه في الصَّبْرِ على معاندتِكم ومعاداتِكم. عمَّمُوا الأمرَ للإشعارِ بما يوجِبُ التوكُّلَ وقصدُوا به أنفسَهم قَصْداً أَوَّلِيّاً، أَلاَ تَرَى قولَه تعالَى:

(١٢) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ: أيُّ عُذْرٍ لنا في أنْ لا نتوكلَ عليهِ؟! ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرفُه ونعلَمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيده. وقرأ أبو عمروٍ بالتخفيفِ هَهُنا وفي العنكبوتِ[1]. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ أكَّدوا به تَوَكُّلَهم وعدَمَ مبالاتِهم بما يجري من الكفارِ عليهم. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فَلْيَثْبُتِ المتوكلونَ على ما استحدَثُوه مِنْ تَوَكُّلِهم المسببِ عن إيمانِهم.

(١٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ حلَفُوا على أنْ يكونَ أحدُ الأمرينِ: إمَّا إخراجُهم للرسلِ أو عَوْدُهم إلى ملتهم، وهو[2] بمعنى الصيرورةِ لأنَّهم لم يكونُوا

---

(١) قراءة أبي عمرو بالتخفيف، أي بتخفيف الباء، أي بسكونها فقرأ «سُبْلَنَا» وقرأ بها هنا أي الآية «١٢» من سورة إبراهيم وفي العنكبوت «٦٩».

(٢) وهو أي العَوْد.

على مِلَّتهم قطُّ. ويجوز أن يكونَ الخطابُ لكلِّ رسولٍ ومَنْ آمنَ معه، فَغَلَّبوا الجماعةَ على الواحد. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رُسُلِهم. ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ على إضمارِ القولِ، أو إجراءِ الإيحاءِ مَجْرَاهُ لأنهُ نوعٌ منه.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضَهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾[1]. وقرِئَ لَيُهْلِكَنَّ وَلَيُسْكِنَنَّكم بالياءِ اعتباراً لأَوْحَىٰ كقولكَ: أقسمَ زيدٌ لَيَخْرُجَنَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى بهِ، وهو إهلاكُ الظالمينَ وإسكانُ المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي وهو الموقفُ الذي يقيم فيه العبادَ للحكومةِ يومَ القيامة، أو قيامي عليه وحِفْظي لأعمالِه، وقيل المقامُ مُقْحَمٌ. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعودَ للكفار.

(١٥) ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ سألوا مِنَ اللهِ الفتحَ على أعدائهم، أوِ القضاءَ بينَهم وبينَ أعدائهم، مِنَ الفتاحَةِ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]، وهو معطوفٌ على فأَوْحَىٰ. والضميرُ للأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلام، وقيلَ للكفرةِ، وقيلَ للفريقَيْنِ، فإنَّ كلَّهم سألوه أن يَنصُرَ المحِقَّ ويُهلكَ المبطِلَ. وقُرِئَ بلفظِ الأمرِ عَطْفاً على لَيُهْلِكنَّ[3]. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتحَ لهم فأفلحَ المؤمنونَ وخابَ كلُّ جبارٍ عاتٍ متكبِّرٍ على الله معانِدٍ للحق فلم يُفلِحْ، ومعنى الخيبةِ إذا كان الاستفتاحُ مِنَ الكفرةِ أو مِنَ القبيلَيْنِ كانَ أوقعَ.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي من بينِ يديه[4] فإنه مُرْصَدٌ بها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة. وقيل من وراءِ حياتِه، وحقيقتُه ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ عطفٌ على محذوفٍ تقديرُه من ورائهِ جهنمُ يلقَىٰ فيها ما يُلْقَى ويُسْقَى منْ ماءٍ. ﴿صَدِيدٍ﴾[5] عطفُ بيانٍ لماءٍ، وهو

---

(١) الأعراف: «١٣٧».

(٢) الأعراف: «٨٩».

(٣) أي قرىء بكسر التاء في «واستفتِحوا».

(٤) انظر «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥) لابن جرير الطبري.

(٥) أخرج الترمذي (٤/ ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٤/ ١٧٤ رقم ٤٨٩٤) وأحمد (٥/ ٢٦٥) وابن المبارك في الزهد ـ زوائد نعيم على رواية المروزي ـ (رقم ٣١٤) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٦ رقم ٧٤٦٠) والحاكم (٢/ ٣٥١، ٣٦٨ ـ ٣٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢) والبيهقي في «البعث والنشور» (رقم: ٥٤٩) والبغوي في «شرح السنة» (١٥/ ٢٤٣ رقم ٤٤٠٥) كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيدالله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: «ويُسقى من ماء صديد يتجرعه» قال «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربَهُ قطع أمعائه حتى يخرج من دبره». =

ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النار(١).

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلَّفُ جَرْعَهُ. وهو صفةٌ لماءٍ، أو حالٌ من الضميرِ في يُسْقَىٰ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقاربُ أنْ يسيغَه فكيفَ يُسِيغُهُ بل يَغَصُّ به فيطولُ عذابُه. والسَّوْغُ جوازُ الشرابِ على الحَلْقِ بسهولةٍ وقَبُولِ نَفْسٍ. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُه مِنَ الشدائدِ فتحيطُ به مِنْ جميعِ الجهاتِ. وقيل مِنْ كلِّ مكانٍ مِنْ جسدهِ حتَّى مِنْ أصولِ شَعْرِهِ وإبهامِ رِجْلِه. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريحُ. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يَسْتَقْبِلُ في كلِّ وَقْتٍ عذاباً أشدَّ مما هو عليه، وقيلَ هو الخلودُ في النارِ، وقيلَ حَبْسُ الأنفاسِ. وقيل الآيةُ منقطعةٌ عن قصةِ الرسلِ نازلةٌ في أهلِ مكةَ طلبوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيِّهِم التي أرسلَ الله تعالى عليهم بدعوة رسولِهِ، فخيَّبَ رجاءَهم فلم يَسْقِهِم ووعدَ لهم أن يَسْقِيَهُم في جهنَّمَ بدلَ سُقْياهم صديدَ أهلِ النارِ.

(١٨) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أيْ فيما يُتْلَىٰ عليكم صفتُهم التي هيَ مَثَلٌ في الغَرابةِ، أو قوله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأولِ جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لبيانِ مَثَلِهِم. وقيلَ أعمالُهم بَدَلٌ من المثلِ والخبرُ كرمادٍ. ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملتْه وأسرعتِ الذهابَ بهِ. وقرأَ نافعٌ الرياحُ. ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصْفُ اشتدادُ الريحِ، وصفَ بهِ زمانَه للمبالغةِ كقولهم: نهارُه صائمٌ وليلُه قائمٌ. شبَّه صنائعَهم من الصدقةِ وصلةِ الرَّحِمِ وإغاثةِ الملهوفِ وعَتْقِ الرِّقابِ ونحوِ ذلكَ مِنْ مكارمِهم في حُبُوطِها وذهابِها هباءً منثوراً، لبنائِها على غيرِ أساسٍ مِنْ معرفةِ الله تعالى والتوجُّهِ بها إليه، أو أعمالُهم للأصنامِ برمادٍ طيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لحبوطِه فلا يرونَ له أثراً من ....

= يقول الله تعالى: «وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم» [محمد: ١٥] ويقول الله تعالى: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب» [الكهف: ٢٩].

قال الترمذي: «هذا حديث غريب. هكذا قال محمد بن اسماعيل عن عبيدالله بن بسرٍ ولا نعرف عبيدالله بن بسر إلا في هذا الحديث» هـ.

وقال الذهبي عن عبيدالله هذا «مجهول لا يُعرف» كما في الميزان (٣/ ٤).

وقال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص٣٠٤ رقم ٤٧٧/ ٢٧٢٢): حديث ضعيف.

تنبيه: وقع عند ابن المبارك «عبدالله بن بشر» وهو خطأ.

ووقع عند الطبراني والحاكم وأبي نعيم والبيهقي «عبدالله بن بسر».

(١) الصديد: هو ما حال بين الجلد واللحم من القيح (المفردات مادة صدد) وتخصيصه بالذكر من بين أنواع العذاب يدل على أنه من أشد أنواعه (س٥/ ٣٩).

الثَّواب[1]. وهوَ فَذْلَكَةُ التمثيلِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضلالهم مع حُسْبَانِهم أنَّهم محسنون. ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فإنه الغايةُ في البُعْدِ عن طريقِ الحقِّ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به أمتُه. وقيلَ لكلِّ واحدٍ من الكفَرةِ على التلوينِ. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمةُ والوجه الذي يحقُّ أن تخلقَ عليه. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ السمواتِ. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُعْدِمْكم ويخلُقْ خلقاً آخرَ مكانكم، رَتَّبَ ذلكَ على كونه خالقاً للسمواتِ والأرض استدلالاً به عليه، فإن مَنْ خلقَ أصولَهم وما يتوقفُ عليه تخليقُهم ثم كوَّنَهم بتبديلِ الصورِ وتغييرِ الطبائعِ قَدَرَ أن يبدلهَم بخلْقٍ آخرَ ولم يمتنعْ عليه ذلكَ كما قال:

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بِمُتَعَذِّرٍ أو متعسِّر فإنه قادرٌ لذاته لا اختصاصَ له بمقدورٍ دونَ مقدور. ومَنْ كان هذا شأنُه كان حقيقاً بأن يُؤْمنَ به ويُعْبَدَ رجاءَ لثوابِهِ وخَوْفاً من عقابه يومَ الجزاء.

(٢١) ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزونَ من قبورِهم يومَ القيامةِ لأمْرِ الله تعالى ومحاسبتِه، أو لله على ظنِّهم فإنهم كانوا يُخْفُونَ ارتكابَ الفواحِشِ ويظنونَ أنها تَخْفَى على الله تعالى فإذا كان يومُ القيامة انكشفُوا لله تعالى عندَ أنفسِهم. وإنما ذُكِرَ بلفظ الماضي لِتَحقُّقِ وقوعِهِ. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ الأتباعُ جَمْعُ ضعيفٍ يريدُ به ضعافَ الرأي. وإنما كُتِبَتْ بالواو على لفظِ مَنْ يفخِّم الألفَ قبلَ الهمزة فَيَمِيْلُهَا إلى الواو. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ لرؤسائِهم الذينَ استَتْبَعُوهم واستَغْوَوهُم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيبِ الرسلِ والإعراضِ عن نصائِحِهم. وهو جمعُ تابعٍ كغائبٍ وغَيَبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمبالغة، أو على إضمارِ مضافٍ. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ دافعونَ عنّا. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِنَ الأُولَى للبيانِ واقعةٌ موقعَ الحالِ، والثانيةُ للتبعيضِ واقعةٌ موقعَ المفعولِ أيْ بعضَ الشيء الذي هو عذابُ الله، ويجوزُ أن تكونا للتبعيض أي بعضَ شيءٍ هوَ بعضُ عذابِ الله، والإعرابُ ما سبقَ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ الأُولَى

(١) والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ـ مع أن لها عقوبات هائلة ـ للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى (س٥/ ٤٠).

مفعولاً والثانيةُ مصدراً أي فهل أنتم مُغْنُونَ بعضَ العذابِ بعضَ الإغناءِ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأَتْبَاع واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ووفَّقَنا له. ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنَا فأَضْلَلْنَاكم أي اخْتَرْنا لكم ما اخترناهُ لأنفسِنا، أَوْ لو هدانا اللهُ طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرَّضْناكم له، لكنْ سدَّ دونَنا طريقُ الخلاص. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويانِ علينا الجزَعُ والصبرُ. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مَنْجَى ومهربٍ من العذاب، منَ الحَيْصِ وهو العدْلُ على جهةِ الفرارِ، وهو يحتملُ أن يكونَ مكاناً كالمبيتِ ومصدراً كالمغيبِ. ويجوز أن يكون قولُه سواءٌ علينا من كلام الفريقين ويؤيِّدُه ما رُوِيَ أنهم يقولون: تعالَوْا نجزعْ فيجزعون خمسمائةِ عامٍ فلا ينفعُهم، فيقولون تعالَوْا نصبرْ فيصبرون كذلك ثم يقولون سواءٌ علينا[١].

(٢٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أُحْكِمَ وفُرِغَ منه ودخلَ أهلُ الجنةِ الجنّةَ وأهلُ النارِ النارَ خطيباً في الأشقياءِ منَ الثقلَيْنِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز عداً أنجزَه وهو الوعْدُ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وَعْدَ الباطلِ وهوَ ألاَّ بعثَ ولا حسابَ، وإن كانا فالأصنامُ تشفعُ لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعلَ تَبَيُّنَ خَلْفِ وعدِه كالإخلافِ منه. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تَسَلُّطٍ فأُلْجِئُكم إلى الكفرِ والمعاصي. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إيَّاكم إليها بتسويلي، وهو ليسَ من جنس السلطانِ ولكنَّه على طريقة قولهم: تحيةُ بينِهم ضَرْبٌ وجيعٌ[٢]. ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطعاً. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أسرعتُم إجابتي. ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوسوستي فإنَّ مَنْ صرَّح العداوةَ لا يلام بأمثالِ ذلك. ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيثُ أطعتموني إذ دعوتُكم ولم تطيعوا ربَّكم لمَّا دعاكم. واحتجتِ المعتزلةُ بأمثالِ ذلكَ على استقلالِ العبدِ بأفعالِه وليسَ فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لِصِحَّتِها أنْ يكونَ لقدرةِ العبدِ مدخلٌ ما في فعله وهو الكسْبُ الذي يقولُه أصحابُنا. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثِكم من العذاب. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بمغيثيَّ[٣]. وقرأ حمزةُ بكسرِ الياءِ على الأصل في التقاء الساكنينِ، وهوَ أصلٌ مرفوضٌ في مثله لما فيه من اجتماع ياءينِ وثلاثِ كسراتٍ مع أنَّ حركةَ ياءِ الإضافةِ الفتحُ، فإذا لم تُكسَرْ وقبلَها أَلِفٌ فبالحريّ أنْ لا تُكْسَرَ وقبلَها ياءٌ، أو على لغةِ مَنْ يزيدُ ياءً على ياءِ الإضافةِ إجراءً لها مَجْرَى الهاءِ والكافِ في: ضربتُه وأعطيتُكَهُ وحذفَ الياءَ اكتفاءً بالكسرةِ[٤]. ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ

---

(١) أخرجه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال أبي حاتم هو مجهول.
[مجمع الزوائد (٧/٤٣) والدر المنثور (٥/١٧) والجرح والتعديل (٢/٢٨٨)].

(٢) أي من باب تأكيد الشيء بضده مبالغة.

(٣) وتعرضُ الشيطان لعدم إصراخه لهم وإصراخهم له ـ مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال ـ للمبالغة في عدم إصراخه إياهم، وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير؟ (س٥/٤٣).

(٤) ما ذكره البيضاوي من التعليق على قراءة حمزة ـ وهي من المتواتر ـ غير مُسَلَّم به. وقد أنكر هذه القراءة جمع من أئمة اللغة كالفراء وأبي عبيد والأخفش والزجاج والزمخشري، واقتفىٰ أثرهم بعض الخلف. وقد ناقش أبو حبان ما ذهبوا إليه وبين صحة هذه القراءة من حيث اللغة، إلا أن المشهور عند اللغويين ما قرأ به الجمهور من نصب الياء «بمُصْرِخِيَّ». قال أبو حبان: (وما ذهب إليه مَنْ ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه... فلا يجوز أن يقال فيها إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكنه قَلَّ استعمالها، ونص قطرب

﴿أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ ما إما مصدريةٌ ومِنْ متعلقةٌ بأشركتموني، أي كفرتُ اليومَ بإشراكِكُم إيايَ مِنْ قبلِ هذا اليومِ أي في الدنيا بمعنى تبرأتُ منه واستنكرتُه كقولِه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[1]. أو موصولةٌ بمعنى مَنْ، نحوُ ما في قولهم: سبحانَ ما سخَّركُنَّ لنا، ومِنْ متعلقةٌ بكفرتُ أي كفرتُ بالذي أشركتمونيهِ وهو اللهُ تعالى بطاعتِكم إيايَ فيما دعوتُكم إليه من عبادةِ الأصنامِ وغيرِها منْ قبلِ إشراكِكُم حين رددتُ أَمْرَهُ بالسجود لآدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ. وأشركَ منقولٌ من شَرَكْتُ زيداً للتعديةِ إلى مفعولٍ ثانٍ. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمةُ كلامِه، أو ابتداءُ كلامٍ منَ الله تعالى. وفي حكايةِ أمثالِ ذلكَ لُطفٌ للسامعينَ وإيقاظٌ لهم حتى يحاسِبُوا أنفسَهم ويتدبَّرُوا عواقِبَهُم.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذنِ الله تعالى وأَمْرِهِ والمدخِلون هم الملائكةُ. وقرِىءَ وأُدخِلُ على التكلُّم فيكون قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تُحَيِّيهِمُ الملائكةُ فيها بالسلام بإذنِ ربِّهم.

(٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمدَه ووضعَه. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعلَ كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ، وهو تفسيرٌ لقوله ضرب اللهُ مثلاً، ويجوز أن تكونَ كلمةً بدلاً من مثلاً وكشجرةٍ صفتُها أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هيَ كشجرةٍ، وأن تكونَ أولَ مفعولَيْ ضربَ إجراءً له مَجْرَى جعلَ. وقد قُرِئَتْ بالرَّفعِ على الابتداءِ. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضاربٌ بِعُروقِه فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يريدَ وفروعُها أي أفنانُها على الاكتفاءِ بلفظ الجنسِ لاكتسابِه الاستغراقَ من الإضافة. وقرىء ثابتٌ أصلُها، والأولُ على أصلِه ولذلك قيل إنه أقوى ولعلَّ الثاني أبلغُ.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها. ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقَّتَهُ اللهُ تعالى لإثمارِها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادةِ خالقِها وتكوينه. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضَرْبِها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنه تصويرٌ للمعاني وإدناءٌ لها من الحسِّ.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمثلِ شجرةٍ خبيثةٍ ﴿اجْتُثَّتْ﴾ استُؤْصِلَتْ وأُخِذَتْ جُثَّتُها بالكُلِّية. ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لأن عروقَها قريبةٌ منه. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار. واختُلِفَ في الكلمةِ

= على أنها لغة في بني يربوع...) تفسير البحر المحيط (٥/ ٤٢٠).

(١) فاطر: «١٤».

والشجرةِ، فَفُسِّرَتِ الكلمةُ الطيبةُ بكلمةِ التوحيدِ ودعوةِ الإسلامِ والقرآن، والكلمةُ الخبيثةُ بالشركِ باللهِ تعالى والدعاءِ إلى الكفرِ وتكذيبِ الحقِّ، ولعلّ المرادَ بهما ما يعمُّ ذلك فالكلمةُ الطيبة ما أَعْرَبَ عنْ حقٍّ أو دعا إلى صلاحٍ، والكلمةُ الخبيثةُ ما كان على خلافِ ذلك. وفُسِّرَتِ الشجرةُ الطيبةُ بالنخلة ورُوِيَ ذلكَ مرفوعاً[1]، وبشجرةٍ في الجنة، والخبيثةُ بالحنظلةِ والكُشوثِ[2]، ولعلَّ المرادَ بهما أيضاً ما يعمُّ ذلك.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبتَ بالحُجَّةِ عندَهم وتَمَكَّنَ في قلوبهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزالون إذا فُتِنُوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيسَ وشمعونَ والذين فَتَنَهُمْ أصحابُ الأخدود. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمُون إذا سُئِلُوا عن مُعْتَقَدِهِم في الموقف، ولا تدهشُهم أهوالُ يوم القيامة. ورُوِيَ أنَّهُ ﷺ ذَكَرَ قبضَ روح المؤمنِ فقال: ثم تُعَادُ رُوحُه في جسدهِ فيأتيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ في قَبْرِهِ ويقولانِ له: مَنْ ربُّك وما دينُك ومَنْ نبيُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ ودينيَ الإسلامُ ونبيِّ محمدٌ ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أنْ صدقَ عبدي فذلك قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[3]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذينَ ظلموا أنفسَهم بالاقتصارِ على التقليد فلا يهتدون إلى الحقِّ ولا يَثْبُتُونَ في مواقفِ الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيتِ بعض وإضلالِ آخَرِينَ من غيرِ اعتراضٍ عليه.

(٢٨) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي شُكْرَ نعمتِه كفراً بأن وضعُوه مكانَه، أو بدَّلُوا نفسَ النعمة كفراً، فإنهم لما كَفَرُوها سُلِبَتْ مِنْهُم فصاروا تاركينَ لها محصِّلِينَ للكفر بَدَلَها كأهلِ[4] مكةَ، خلقَهمُ الله تعالى وأسكنَهُم حَرَمَهُ وجعلَهم قُوّامَ بَيْتِهِ ووسَّع عليهم أبوابَ رزقهِ وشرَّفهم بمحمدٍ ﷺ،

---

(١) أخرج البخاري (١/ ١٤٥ رقم ٦١) ومسلم (٤/ ٢١٦٤ ـ ٢١٦٥ رقم ٦٣/ ٢٨١١) والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٠٧ رقم ١٤٣) والنسائي في تفسيره (١/ ٦١٥ رقم ٢٨١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقُطُ ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي. قال عبدالله، ووقع في نفسي إنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هيَ يا رسول اللهِ قال: هي النخلة».

(٢) الكشوث: هي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض.

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ١١٤ ـ ١١٥ رقم ٤٧٥٣) والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٩) صححه على شرطهما. وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٨٠) من رواية المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء.
وأصله في الصحيحين من رواية سعد بن عبيدة عن البراء مرفوعاً.
البخاري (٣/ ٢٣١ رقم ١٣٦٩) ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم ٧٣/ ٢٨٧١).

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٣٧٨ رقم ٤٧٠٠) عن ابن عباس «ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً» قال: هم كفار أهل مكة.

فكفروا ذلكَ فَقُحِطُوا سبعَ سنينَ وأُسِرُوا وقُتِلُوا يومَ بدرٍ وصارُوا أذلاَّءَ، فبقُوا مسلُوبِيْ النعمةِ وموصوفينَ بالكفرِ، وعن عمرَ[1] وعليٍّ[2] رضيَ الله تعالى عنهما: همُ الأفْجَرانِ من قريشٍ بنو المغيرةِ وبنو أميَّةَ، فأما بنو المغيرةِ فكُفِيتُموهم يومَ بدر، وأما بنو أمية فَمُتِّعوا إلى حين. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعوهُم في الكُفر. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دارَ الهلاكِ بِحَمْلِهِم على الكفر.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِنْها أو منَ القوم، أي داخلينَ فيها مُقَاسِيْنَ لحرِّها، أو مُفَسِّرٌ لفعلٍ مُقَدَّرٍ ناصبٍ لجهنَّمَ. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي وبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمروٍ ورويسٌ عن يعقوبَ بفتح الياء، وليسَ الضلالُ ولا الإضلال غرضُهم في اتخاذِ الأندادِ لكنْ لما كانَ نتيجتَه جُعِلَ كالغرضِ[3]. ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ بشهواتِكم أو بعبادةِ الأوثانِ فإنَّها من قبيلِ الشهوات التي يُتَمَتَّعُ بها. وفي التهديد بصيغة الأمر إيذانٌ بأنَّ المهدَّدَ عليه كالمطلوبِ لإفضائِه إلى المهدَّدِ به، وأن الأمريْنِ كائنانِ لا محالةَ ولذلكَ علَّلَهُ بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وأنَّ المخاطَبَ لانهماكِه فيهِ كالمأمور به من آمِرٍ مُطَاع.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصَّهم بالإضافةِ تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمونَ لحقوقِ العبودية، ومفعولُ قلْ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُه: أيْ قلْ لعبادي الذينَ آمنوا أقيمُوا الصلاةَ وأنفقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فيكونُ إيذاناً بأنَّهم لِفَرْطِ مطاوعَتِهم للرسولِ ﷺ بحيثُ لا ينفكُّ فعلُهم عن أمرِه، وأنه كالسَّبَبِ الموجِبِ لهُ، ويجوزُ أن يُقَدَّرَا بلامِ الأمرِ لِيَصِحَّ تعلُّقُ القولِ بهما وإنما حَسُنَ ذلكَ ههنا ولم يَحْسُنْ في قوله:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢١) عنه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢٢) عنه.
(٣) ظاهر النظم يقتضي الترتيب بأن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى، ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد، ثم إضلالهم لقوم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار. لكنه غير الترتيب إلى ما هو عليه النظم الكريم لتثنية التعجيب وتكريره وللإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضي منه العجب بذاته (س٥/ ٤٥).

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرٍ تَبَالاً

لدلالةِ قُلْ عليه. وقيلَ هما جَوَابا أَقِيمُوا وأَنْفِقُوا مُقَامَيْنِ مُقَامَهُمَا، وهو ضعيفٌ لأنه لا بدَّ من مخالفةٍ ما بينَ الشَّرطِ وجوابِهِ ولأن أمرَ المواجهةِ لا يُجَابُ بلفظِ الغيبةِ إذا كانَ الفاعلُ واحداً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مُنْتَصِبَانِ على المصدر أي إنفاقُ سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الحال أي ذوي سِرٍّ وعلانية، أو على الظرفِ أي وَقْتَيْ سرٍّ وعلانيةٍ، والأحبُّ إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ به. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتداركُ به تقصيرَه أو يفدي به نفسَه[1]. ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مُخَالَّةٌ فيشفعُ لكَ خليلٌ، أو مِنْ قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مُخَالَّةٍ وإنَّما ينتفعُ فيه بالإنفاق لِوَجْهِ اللهِ تعالى. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ بالفتحِ فيهما على النفي العام.

(٣٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشونَ به وهو يشملُ المطعومَ والملبوسَ، مفعولٌ لأَخرَجَ ومِنَ الثمراتِ بيانٌ لهُ وحالٌ منه، ويُحْتَمَلُ عكسُ ذلكَ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بِهِ المصدرُ فينتصِبُ بالعلَّةِ، أوِ المصدرُ لأَنَّ أَخرَجَ في معنَى رَزَقَ[2]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته إلى حيثُ تَوَجَّهْتُم[3]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ فجعلَها مُعَدَّةً لانتفاعِكم وتصرُّفِكم. وقيلَ تسخيرُ هذهِ الأشياءِ تعليمُ كيفيةِ اتخاذِها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سَيْرِهِمَا وإنارتِهما وإصلاحِ ما يُصْلِحَانِه منَ المكونات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبانِ لِسُبَاتِكُم ومعاشِكم.

(٣٤) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعضَ جميعِ ما سألتموهُ يعني مِنْ كلِّ شيءٍ سألتموهُ شيئاً، فإنَّ الموجودَ من كل صِنفٍ بعضُ ما في قدرةِ الله تعالى، ولعلَّ المرادَ بما سألتموهُ ما كان حقيقاً بأنْ يُسْأَلَ لاحتياجِ الناسِ إليه سُئِلَ أولم يُسْأَلْ، وما يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولةً وموصوفةً ومصدريةً ويكونَ المصدرُ بمعنَى المفعول. وقُرِىءَ مِنْ كلٍّ بالتنوين، أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ ما احتجْتُم إليه وسألتموه بلسانِ الحال، ويجوزُ أنْ تكونَ ما نافيةً في موقع الحال أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ غيرَ سائِلِيهِ. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تَحْصُرُوهَا ولا تُطِيقُوا عدَّ أنواعِها فضلاً عن أفرادِها، فإنها غيرُ متناهية. وفيهِ دليلٌ على أنَّ المفردَ يفيدُ الاستغراقَ بالإضافة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلمُ النعمةَ بإغفالِ شُكْرِها، أو يظلمُ نفسه بأنْ يعرِّضَها للحِرْمانِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكفرانِ. وقيلَ ظلومٌ في الشدة يشكو ويَجْزعُ كَفَّارٌ في النِّعمةِ يجمعُ ويمنَعُ.

---

(١) وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، والتذكير بإتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه. وتخصيص التأكيد بانعدام البيع لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضِّنَّة به (س٥/٤٧).

(٢) وتقديم المجرور «من السماء» على المنصوب «ماءً» إما باعتبار كونه مبدأ لنزوله، أو لتشريفه كقولك: أعطاه السلطان من خزانته مالاً، أو للتشويق إلى المؤخَّر (س٥/٤٧).

(٣) وتخصيص الفُلْكِ بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءىٰ من ظاهر الحال (س٥/٤٨).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بلدةَ مكةَ. ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أَمْنٍ لمن فيها، والفرقُ بينَه وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[1] أن المسؤول في الأول إزالةُ الخوف عنه وتصييرُه آمناً، وفي الثاني جَعْلُه من البلاد الآمنة. ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بَعِّدْني وإيَّاهم، ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ واجعلْنا منها في مجانبَ. وقُرِىءَ وأَجْنِبْني وهما على لغة نَجْدٍ، وأما أهلُ الحجاز فيقولون جَنِّبْني شرَّه. وفيه دليلٌ على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحِفْظِه إياهم، وهو بظاهره لا يتناولُ أحفادَه وجميعَ ذرِّيته. وزعم ابنُ عيينه[2] أن أولادَ إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام لم يَعبدُوا الصنَم محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارةٌ يدورون بها ويسمُّونها الدوَّارَ ويقولون البيتُ حجرٌ فحيثُما نَصَبْنَا حَجَراً فهو بمنزلته.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلذلك سألتُ منك العصمةَ واستعذتُ بك من إضلالهنَّ. وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتبارِ السببيةِ كقوله تعالى ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ديني. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي بَعْضِي لا ينفكُّ في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَقْدِرُ أنْ تغفرَ له وترحمَه ابتداءً، أو بعدَ التوفيق للتوبة. وفيه دليلٌ على أن كلَّ ذَنْبٍ فلله أن يَغْفِرَهُ حتَّى الشركَ، إلاَّ أنَّ الوعيدَ فرَّقَ بينَه وبينَ غيرِه[4].

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضَ ذريتي أو ذريةً من ذريتي، فحذفَ المفعولَ وهم إسماعيلُ ومَنْ وُلِدَ منهُ فإن إسْكَانَه متضمِّنٌ لإسْكَانِهم. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكةَ فإنها حَجَريَّةٌ لا تُنْبِتُ. ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرَّمتَ التعرضَ له والتهاونَ به، أولم يزلْ معظَّماً مُمنّعاً يهابُه

---

(١) البقرة: «١٢٦».

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي. ولد في الكوفة ليلة النصف من شعبان من سنة (١٠٧هـ) وأدرك الأئمة الأربعة واجتمع بهم وتتلمذ الشافعي وأحمد عليه، وقد رد على المعتزلة والمرجئة والقدرية، وحذَّر من البدع ونفَّرَ من الغلو، وكان عالماً ورعاً متواضعاً جريئاً. مات ابن عيينة في مكة المكرمة (سنة: ١٩٨هـ).
[الحلية لأبي نعيم (٧/ ٢٧٠ ـ ٣١٨) والتاريخ للخطيب (٩/ ١٧٤ ـ ١٨٤).
والعقد الثمين للفارسي (٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)].

(٣) الأنعام: «٧٠».

(٤) صدر الدعاء بالنداء «رب» إظهاراً لاعتنائه به ورغبة في استجابته.
وقوله «ومن عصاني» عبر عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة، وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (س٥/ ٥١).

الجبابرةُ، أو منعَ منه الطوفان فلم يستولِ عليه ولذلكَ سُمِّيَ عتيقاً أي أُعْتِقَ منه. ولو دَعا بهذا الدعاءِ أولَ ما قدمَ فلعلَّه قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. رُوِيَ أنَّ هاجرَ كانتْ لِسارةَ رضيَ اللهُ عنها فوهبتْها لإبراهيمَ عليه السلام فَوَلَدَتْ منه إسماعيلَ عليه السلام، فغارتْ عليهما فناشدتْه أنْ يخرجَهما من عندها، فأخرجَهما إلى أرضِ مكةَ، فأظهرَ الله عينَ زمزم، ثمَّ إنَّ جُرْهُمَ رأوا ثَمَّ طيوراً فقالوا لا طيرَ إلا على الماء، فقصدَوه فرَأَوْهُما وعندَهُما عينٌ فقالوا: أشرِكِينا في مائِكِ نُشْرِكْكِ في ألبانِنَا ففعلتْ. ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ لامُ كيْ وهيَ متعلقةٌ بأسكنتُ، أي ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلقعِ من كلِّ مرتفَقٍ ومرتزَقٍ إلا لإقامةِ الصلاةِ عندَ بيتِك المحرَّم[١]. وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه للإشعارِ بأنها المقصودةُ بالذاتِ مِنْ إسكانِهم ثمةَ. والمقصودُ من الدعاء توفيقُهم لها. وقيل لامُ الأمرِ والمراد هو الدعاءُ لهم بإقامةِ الصلاة كأنه طلبَ منهمُ الإقامةَ وسألَ من الله تعالى أن يوفِّقَهم لها. ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدةً من أفئدةِ الناس. ومِنْ للتبعيضِ ولذلكَ قيلَ لو قالَ أفئدةَ الناسِ لازدحمتْ عليهم فارسُ والرومُ ولحجَّتِ اليهودُ والنَّصارى، أو للابتداءِ كقولك: القلبُ مني سقيمٌ أي أفئدةُ ناسٍ. وقرأ هشامٌ أفْئِيدَةً بخلفٍ عنهُ بياءٍ بعدَ الهمزة. وقُرِىءَ آفِدَةً، وهوَ يُحتملُ أنْ يكونَ مقلوبَ أفئدةٍ كآدُرٍ في أَدْؤُرٍ، وأنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ منْ أَفَدَتِ الرحلةُ إذا عجَّلت أي جماعةً يعجِّلُونَ نحوَهم، وأَفِدَةً بطرحِ الهمزةِ للتخفيف، وإن كان الوجهُ فيه إخراجُها بينَ بينَ ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ أفِدَ. ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرعُ إليهم شوقاً وَوِدَاداً. وقُرِىءَ تُهْوَىٰ على البناءِ للمفعولِ منْ أَهْوَى إليه غيرُه، وتَهْوَىٰ من هَوَىٰ يهوي إذا أحبَّ، وتعديتُه بإلى لِتَضَمُّنِهِ معنى النزوعِ. ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معَ سُكْنَاهُم وادياً لا نباتَ فيه. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلكَ النعمةِ. فأجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعوتَه فجعلَه حَرَماً آمناً يُجْبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ حتَّى تُوْجَدَ فيهِ الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يومٍ واحدٍ.

(٣٨) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلمُ سرَّنا كما تعلم عَلَنَنَا. والمعنَى إنك أعلمُ بأحوالنا ومصالِحنا وأرحمُ بنا منا بأنفسِنا، فلا حاجةَ لنا إلى الطلبِ لكنَّا ندعُوك إظهاراً لعبوديتكَ وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندَك. وقيلَ ما نخفي مِنْ وَجْدِ الفُرْقَةِ وما نعلنُ منَ التضرُّعِ إليك والتوكلِ عليك، وتكريرُ النداءِ للمبالغة في التضرُّع واللجأ إلى اللهِ تعالى[٢]. ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنهُ العالم بِعِلْمٍ ذاتيٍ يستوي نسبتُه إلى كلِّ معلومٍ، ومِنْ للاستغراق[٣].

(٣٩) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي وهبَ لي وأنا كبيرٌ آيِسٌ منَ الولدِ، قَيَّدَ الهبةَ بحالِ الكِبَرِ استعظَاماً للنعمةِ وإظهاراً لما فيها مِنَ آلائِهِ. ﴿ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾. رُوِيَ[٤] أنهُ وُلِدَ لهُ إسماعيلُ لتسعٍ وتسعينَ سنةً، وإسحاقُ لمائةٍ واثنتي عَشْرَةَ سنةٍ. ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي لمجيبُه مِنْ قولِكَ سمعَ

---

(١) وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر الشعائر لفضلها (س٥/ ٥٢).

(٢) وتقديم «ما نخفي» على «ما نعلن» لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن (س٥/ ٥٣).

(٣) والالتفات إلى الاسم الجليل «وما يخفىٰ...» لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم، وللإيذان بعمومه (س٥/ ٥٣).

(٤) ذكر ذلك ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٩٤) بدون سند.

الملكُ كلامي إذاً اعتدَّ به، وهو من أبنيةِ المبالغةِ العاملةِ عَمَلَ الفعلِ أُضِيْفَ إلى مفعولهِ أو فاعلهِ على إسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ الله تعالى على المجازِ. وفيهِ إشعارٌ بأنه دعا ربَّه وسأل منه الولدَ فأجابه ووهبَ له سُؤْلَه حينَ ما وقعَ اليأسُ منه ليكونَ من أجلِّ النِّعَمِ وأَجْلاَهَا.

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مُعْدِلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطفٌ على المنصوب في اجعلني[١]. والتبعيضُ لِعِلْمِهِ بإعلام الله أو استقراءِ عادَتِه في الأُمَمِ الماضية أنهُ يكون في ذرِّيتهِ كفارٌ. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ واستجب دعائي أو وتقبلْ عبادتي.

(٤١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وقُرِىءَ ولأبويَّ، وقدْ تقدَّم عُذْرُ استغفارِه لهما. وقيلَ أرادَ بهما آدَمَ وحواءَ. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يثبتُ مستعارٌ منَ القيامِ على الرجلِ كقولهم: قامتِ الحرب على ساقٍ، أو يقومُ إليه أهلُه فحذفَ المضافَ أو أسندَ إليه قيامَهم مَجَازاً.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، والمرادُ به تثبيتُه على ما هوَ عليه من أنه تعالى مطَّلِع على أحوالهم وأفعالِهم لا يخفَى عليه خافيةٌ، والوعيدُ بأنهُ معاقِبُهُم على قليله وكثيره لا محالةَ، أو لكلِّ مَنْ توهَّمَ غَفْلَتَهُ جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهالِه. وقيلَ إنه تسليةٌ للمظلوم وتهديدٌ للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخِّرُ عذابهم[٢] وعن أبي عمروٍ بالنونِ[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي تشخَصُ فيه أبصارُهم فلا تقرُّ في أماكِنها من هولِ ما تَرَى.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعينَ إلى الداعي، أو مقبلينَ بأبصارهم لا يَطْرِفُون هيبةً وخوفاً، وأصلُ الكلمة هو الإقبالُ على الشيء. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل تثبُتُ عيونُهم شاخصةً لا تَطْرُفُ، أو لا يرجع إليهم نظرُهم فينظروا إلى أنفسِهم. ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خَلاءٌ أي خاليةٌ عن الفَهْمِ لِفَرْطِ الحيرةِ والدهشةِ، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبُه هواءٌ أي لا رأيَ فيه ولا قوةَ، قال زهيرٌ:

---

(١) وتوحيد ضمير المتكلم بقوله «رب...» مع شمول دعوته لذريته ـ للإشعار بأنه المقتدىٰ به في ذلك وذريتُه أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد ـ لا كما في قوله «ربنا إني أسكنت من ذريتي» فإن إسكانه لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للادعاء الذي هو مخصوص بذريته (س٥/ ٥٤).

(٢) وإيقاع التأخير عليهم ـ مع أن المؤخر إنما هو عذابهم ـ لتهويل الخطب، وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما لا أنهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة، وللإيذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه. ولو قيل إنما يؤخر عذابهم لما فُهم ذلك (س٥/ ٥٥).

(٣) أي «نؤخرهم».

هواءٌ من الظلمانِ جُؤْجُؤُهُ

وقيلَ خاليةٌ عن الخير خاويةٌ عن الحقّ.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يومَ القيامة، أو يومَ الموتِ فإنه أولُ أيام عذابِهم، وهو مفعولٌ ثانٍ لأنْذِر. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشركِ والتكذيبِ. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخِّرِ العذابَ عنَّا أو رُدَّنا إلى الدنيا وأمهِلْنا إلى حدٍّ منَ الزمانِ قريب، أوْ أخِّرْ آجالَنا وأبْقِنا مقدارَ ما نؤمنُ بكَ ونجيبُ دعوتَك. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمرِ[1] ونظيرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ على إرادةِ القولِ، وما لكم جوابُ القَسَمِ جاءَ بلفظِ الخطابِ على المطابقةِ دونَ الحكايةِ، والمعنى أقسمْتُم أنكم باقونَ في الدنيا لا تزالونَ بالموت. ولعلَّهم أقسَمُوا بَطَراً وغُرُوراً أو دلَّ عليهِ حالُهم حيثُ بَنَوْا شديداً وأمَّلُوا بعيداً. وقيلَ أقسمُوا أنَّهم لا ينتقلون إلى دارٍ أُخرى وأنَّهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3].

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ والمعاصي كعادٍ وثمودَ، وأصلُ سَكَنَ أنْ يُعَدَّىٰ بفي ككفرَ وغنيَ وأقامَ، وقد يُسْتَعْمَلُ بمعنَى التبوُّءِ فيُجرىٰ مجراهُ كقولكَ سكنتُ الدارَ[4].

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونَه في منازلهم من آثارِ ما نزلَ بهم وما تواتَرَ عندَكم من أخبارِهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ من أحوالِهم أي بيّنَا لكم أنكم مِثْلُهم في الكفرِ واستحقاقِ العذاب، أو صفاتِ ما فعلُوا وفُعِلَ بهم التي هيَ في الغرابةِ كالأمثالِ المضروبة.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغَ فيه جُهْدُهم لإبطالِ الحقِّ وتقريرِ الباطلِ. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوبٌ عندَه فعلُهم فهو مُجَازِيهم عليه، أو عندَه ما يُمكِرُهُم به جزاءً لمكرِهم وإبطالاً له[5]. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العِظَمِ والشِّدةِ. ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مُسَوًّىٰ لإزالة الجبال. وقيل

---

(١) وصيغة الجمع «للرسل» لبيان اتفاق جميعهم على التوحيد وأن معصية أحدهم معصية للجميع، أو أن المحكي هو كلام ظالمي الأمم جميعاً (س٥/٥٦).

(٢) المنافقون: «١٠».

(٣) النحل: «٣٨».

(٤) وفي إيقاع الظلم على أنفسهم ـ بعد إطلاقه فيما سلف ـ إيذان بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه (س٥/٥٧).

(٥) وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم أو لكونه في صورة المكر في الإتيان من حيث لا يشعرون (س٥/٥٨).

إنْ نافيةٌ واللامُ مؤكِّدةٌ لها، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾[١] على أن الجبالَ مَثَلٌ لأمرِ النبيِّ ﷺ ونحوِه. وقيلَ مخففةٌ من الثقيلةِ، والمعنى أنَّهم مكرُوا ليزيلُوا ما هو كالجبالِ الراسية ثباتاً وتمكُّناً من آياتِ اللهِ تعالى وشرائعِه. وقرأ الكسائيُّ لَتَزُولُ بالفتح والرفع على أنَّها المخففةُ واللامُ هي الفاصلةُ، ومعناه تعظيمُ مَكْرِهم. وقرِىء بالفتحِ والنصبِ على لغةِ مَنْ يفتَحُ لامَ كي[٢]. وقرِىءَ وإنْ كادَ مكرُهُم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

(٤٧) ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ مِثْلُ قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾[٣] ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾[٤]. وأصلُه مُخْلِفُ رسلَه وعدَه، فقدَّم المفعولَ الثاني إيذاناً بأنهُ لا يخلفُ الوعدَ أصلاً كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[٥] وإذا لم يخلفْ وعدَه أَحَداً فكيف يُخْلِفُ رُسُلَهُ. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ لا يُمَاكَرُ قادرٌ لا يُدَافَعُ. ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لأوليائهِ مِنْ أعدائِه.

(٤٨) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ بدلٌ مِنْ يومَ يأتيهم، أو ظرفٌ للانتقام، أو مقدَّرٌ باذكُرْ أو لا يخلفُ وعْدَه. ولا يجوزُ أن ينتصبَ بمخلِفَ لأنَّ ما قبلَ أنْ لا يعملُ فيما بعدَه[٦]. ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ عطفٌ على الأرض وتقديرُه والسمواتُ غيرُ السمواتِ. والتبديلُ يكونُ في الذاتِ كقولكَ: بدَّلْتُ الدراهِمَ دنانيرَ وعليهِ قولُه ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[٧]، وفي الصفةِ كقولكَ بدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً إذا أَذَبْتَها وغيَّرتَ شَكْلَها، وعليه قولُه ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾[٨] والآية تحتملُهما، فعنْ عليٍّ[٩] رضيَ الله تعالى عنه: تُبَدَّلُ أرضاً مِنْ فِضَّةٍ وسمواتٍ منْ ذهبٍ. وعن ابنِ مسعودٍ[١٠] وأنسٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهما: يُحْشَرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ لم يُخْطِىءْ عليها أحدٌ خطيئةً. وعنِ ابنِ عباسٍ[١١] رضيَ الله تعالى عنهما: هيَ تلكَ الأرضُ وإنما تُغَيَّرُ صِفَاتُها. ويدلُّ عليه ما روىٰ أبو هريرةَ[١٢] رضيَ اللهُ تعالى

---

(١) الأنفال: «٣٣».
(٢) أي «لَتَزُولَ».
(٣) غافر: «٥١».
(٤) المجادلة: «٢١».
(٥) آل عمران: «٩».
(٦) وتقديم تبديل الأرض على السموات لقربها منا، ولكون تبديلها أعظم أثر بالنسبة إلينا (س٥/ ٦٠).
(٧) النساء: «٥٦».
(٨) الفرقان: «٧٠».
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥١) عنه وزاد السيوطي نسبته في الدر (٥/ ٥٧) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة».
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) عنه، وانظر الدر المنثور (٥/ ٥٦ ـ ٥٧) وقال البيهقي: والموقوف أصح.
(١١) لم أقف عليه.
(١٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥٢) عنه.

عنه أنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ: «تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ فَتُبْسَطُ وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكَاظِيِّ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[١] اعلمْ أنه لا يلزمُ على الوجْهِ الأولِ أنْ يكونَ الحاصلُ بالتبديلِ أَرْضاً وسماءً على الحقيقة، ولا يبعدُ على الثاني أن يَجْعَلَ اللهُ الأرضَ جهنَّم والسمواتِ الجنةَ على ما أشعرَ بهِ قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[٢] وقوله ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[٣]. ﴿وَبَرَزُواْ﴾ من أجداثِهم ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ لمحاسَبتِه ومجازاتِه. وتوصيفُه بالوصْفَيْنِ للدلالةِ على أنَّ الأمرَ في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[٤] فإنَّ الأمرَ إذا كانَ لواحدٍ غلابٌ لا يُغَالَبُ فلا مُسْتَغَاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُسْتَجَارَ.

وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بعضُهم معَ بعضٍ بحسبِ مشاركتِهم في العقائدِ والأعمالِ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[٥]، أو قُرِنُوا مع الشياطين، أو معَ ما اكْتَسَبُوا من العقائدِ الزائغة والملَكَاتِ الباطلة، أو قَرِنتْ أيديهم وأرجلُهم إلى رِقَابِهم بالأغلال، وهو يحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لمؤاخذتِهم على ما اقترفَتْه أيديهم وأرجلُهم[٦]. ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ متعلّق بمقرنِيْنَ أو حالٌ من ضميره. والصَّفَدُ القيدُ، وقيلَ الغلُّ، قالَ سلامةُ بنُ جندلٍ.

وزَيْـدُ الخَيْـلِ قَـدْ لاَقَـى صِفَـاداً ... يعـضُّ بِسَـاعِـدٍ وَبِعَظْـمِ سَـاق

وأصله الشدُّ.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمْصَانُهم. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجاءَ قطرانُ لُغَتَيْنِ فيه[٧]، وهو ما يَتَحَلَّبُ من الأَبْهَلِ[٨] فيطبخُ فتَهناً بهِ الإبلُ الْجَرْبَى فَيَحْرِقُ الْجَرَبَ بِحِدَّتِه، وهو أسودُ مُنْتِنٌ تشتعلُ فيه النارُ بسرعةٍ، تُطْلَىٰ به جلودُ أهل النار حتى يكونَ طِلاؤُه لهم كالقُمُص ليجتمعَ عليهم لَذْعُ القطرانِ ووحشةُ لونِه ونَتَنُ ريحهِ معَ إسراعِ النارِ في جلودِهم، على أن التفاوتَ بينَ القَطِرانين كالتفاوتِ بينَ النارَيْنِ، ويحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لمَا يحيطُ بجوهرِ النفس من الْمَلَكَاتِ الرديئةِ والهيئاتِ الوحشيةِ فيجلبُ إليها أنواعاً من الغمومِ والآلامِ. وعنْ يعقوبَ قَطِرآنٍ. والقِطْرُ النُّحَاسُ أوِ الصُّفْرُ المذابُ، والآنيّ المتناهي حرَّهُ، والجملَةُ حالٌ ثانيةٌ أو حالٌ منَ الضميرِ في مقرنِيْنَ. ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وتتغشَّاها لأنَّهم لم يتـوجَّهُـوا بهـا إلـى الحـقِّ ولـم يستعمِلُـوا فـي تَـدَبُّـرِهِ مشـاعِـرَهـم وحـواسَّهـم التـي خُلِقَـتْ فيهـا

---

(١) طه: «١٠٧».

(٢) المطففين: «١٨».

(٣) المطففين: «٨».

(٤) غافر: «١٦».

(٥) التكوير: «٧».

(٦) قوله «وترىٰ» عدل إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار (س٥/ ٦٠).

(٧) الأولى بفتح القاف وكسر الطاء «قَطِرَان» والثانية بكسر القاف وسكون الطاء «قِطْرَان» (المصباح المنير مادة قطر).

(٨) الأبهل نوع من الشجر.

لأجْلِهِ[١]، كما تَطَّلِعُ على أفئدتِهم لأنَّها فارغةٌ عن المعرفةِ مملوءةٌ بالجهالاتِ، ونظيرُه قولُه تعالَى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾[٣].

لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ أي يفعلُ بهم ذلكَ ليجزيَ كلَّ نفسٍ مُجْرِمَةٍ. ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أَوْ كلَّ نَفْسٍ مِنْ مُجْرِمَةٍ أو مطيعةٍ، لأنه إذا بيَّنَ أن المجرمِيْنَ يعاقَبُونَ لإجرامِهم عُلِمَ أن المطيعينَ يثابُونَ لطاعتِهم، ويتعيَّنُ ذلكَ إنْ عُلِّقَ اللامُ بِبَرَزُوا. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ لأنه لا يَشْغَلُه حسابٌ عنْ حساب.

(٥٢) ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى القرآن أو السورةِ أو ما فيه العِظَةُ والتذكيرُ أو ما وَصَفَهُ من قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾[٤]. ﴿ بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفايةٌ لهم في الموعظَةِ. ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي لِيُنْصَحُوا ولِينذَرُوا بهذا البلاغ، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ تقديرُه: ولينذَرُوا به أُنْزِلَ أو تُلِيَ. وقرىء بفتح الياءِ مَنْ نَذِرَ بِهِ إذا علمَه واستعَدَّلَهُ.

﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ بالنظرِ والتأملِ فيما فيه منَ الآياتِ الدالةِ عليه أو المنبهة على ما يَدُلُّ عليه[٥]. ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فيرتدعُوا عما يُرْدِيهم ويتدرَّعُوا بما يُحْظِيهم. واعلمْ أنه سبحانَه وتعالى ذكرَ لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكُتُب، تكميلُ الرسلِ للناس، واستكمالُ القوةِ النظريةِ التي مُنْتَهَى كَمَالِهَا التوحيدُ، واستصلاحُ القوةِ العمليةِ الذي هوَ التدرعُ بلباسِ التقوى، جَعَلَنا اللهُ تعالى منَ الفائزينَ بهما. وعن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ إبراهيمَ أُعْطِيَ من الأجْرِ عَشْرُ حسناتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأصنام وعددِ مَنْ لم يَعْبُدْهَا»[٦].

☆ ☆ ☆

---

(١) وتخصيص الوجوه بذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة ومجمع المشاعر والحواس (س٥/ ٦١).
(٢) الزمر: «٢٤».
(٣) القمر: «٤٨».
(٤) إبراهيم: «٤٢».
(٥) وتقديم الإنذار على العلم لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر في قوله «وليذكر أولوا الألباب» (س٥/ ٦٢).
(٦) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضات (١/ ٢٤٠) وقد رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٤٦).

سورة الحجر

ترتيبها ١٥ — آياتها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

سورة الحجر مكية[1] وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آيات السورةِ، والكتابُ هو السورةُ، وكذا القرآنُ. وتنكيرُه للتفخيم أي آياتُ الجامعِ لكونهِ كتاباً كاملاً وقرآناً يُبَيِّنُ الرُّشْدَ من الغيِّ بياناً غريباً.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حينَ عاينوا حالَ المسلمين عندَ نزولِ النصر، أو حلولَ الموت، أو يومَ القيامة. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ رُبَمَا بالتخفيف[2]، وقرىء رَبَمَا بالفتح والتخفيف. وفيه ثمانِ لغاتٍ: ضمُّ الراء وفتحُها مع التشديد والتخفيف وبتاءِ التأنيث ودونَها[3]، وما كافَّةٌ تكفُّه عن الجرِّ فيجوز دخولُه على الفعل، وحقُّه أن يدخلَ الماضي لكنْ لما كان المترقَّبُ في أخبار الله تعالى كالماضي في تحقُّقِه أُجْرِيَ مَجْرَاهُ، وقيل: ما نكرةٌ موصوفةٌ كقوله:

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ   لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ

ومعنى التقليلِ فيه بالإيذانِ بأنهم لو كانوا يودُّون الإسلامَ مرةً فبالحريِّ أن يسارِعوا إليه، فكيف وهم يودُّونه كلَّ ساعة. وقيل تدهشُهم أهوالُ القيامة فإن حانتْ منهم إفاقةٌ في بعض الأوقات تمنَّوْا ذلكَ. والغَيْبَةُ في حكاية وَدَادَتِهِم كالغيبةِ في قولك: حلفَ بالله ليفعلنَّ.

---

(١) مكية بالإتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير انظر الدر المنثور (٥/ ٦١).

(٢) وقرأ الباقون من السبعة بتشديد الباء.

(٣) وذكر ابن هشام في مغني اللبيب (١/ ١٣٨) أن فيها ست عشرة لغة. وقوله (وبتاء التأنيث) أي بدل ما (ربت).

(٣) ﴿ ذَرْهُمْ﴾ دعهم. ﴿ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهُم[١]. ﴿ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغِلُهم توقُّعهم لطولِ الأعمار واستقامةِ الأحوال عن الاستعدادِ للمعاد. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم إذا عاينوا جزاءَه. والغرضُ إقناطُ الرسولِ ﷺ مِن ارعوائِهم وإيذانُه بأنهم من أهل الخذلان، وإنْ نَصَحَهم بعد اشتغالٍ بما لا طائلَ تحتَه، وفيه إلزامٌ لِلْحُجَّةِ وتحذيرٌ عن إيثار التنعُّم وما يؤدي إليه طولُ الأمل.

(٤) ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ أجلٌ مقدَّرٌ كُتِبَ في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملةٌ واقعةٌ صفةً لقريةٍ، والأصل أن لا تدخلَها الواوُ كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[٢] ولكن لما شابهتْ صورتُها صورةَ الحال أُدْخِلتْ تأكيداً لِلُصُوقِها بالموصوف.

(٥) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه[٣]، وتذكيرُ ضميرِ أُمَّةٍ فيه لِلْحَمْلِ على المعنَى.

(٦) ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ نادَوْا به النبيَّ ﷺ على التهكُّم، ألا ترى إلى ما نادَوْه له وهو قولُهم: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظيرُ ذلك قولُ فرعونَ: إن رسولَكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون، والمعنى إنك لتقول قولَ المجانينِ حينَ تدَّعي أن الله تعالى نزَّل عليك الذكرَ، أي القرآن[٤].

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨

(٧) ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركِّبَ لو معَ ما كما رُكِّبَتْ مع لا لمعنيينِ: امتناعِ الشيءِ لوجودِ غيرِه، والتحضيض. ﴿ بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ليصدقوك ويعضُدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتتِ الأممُ المكذِّبة قبلُ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواكَ.

(٨) ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء ونَصْبِ الملائكةِ على أن الضميرَ لله تعالى. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ

---

(١) وفي تقديم الأكل على التمتع إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب (س٥/ ٦٥).

(٢) الشعراء: «٢٠٨».

(٣) وصيغة الاستفعال «وما يستأخرون» للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له. وإيثار صيغة المضارع في الفعلين ـ بعدما ذكر نفي الإهلاك بصيغة الماضي ـ لأن المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى الأمة ـ بعد إسناد الإهلاك إلى القرية ـ لما أن السبق والاستئخار حال الأمة دون القرية.. وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم ـ مع كون المقام مقامَ المبالغة في بيان تحقق عذابهم ـ إما باعتبار تقدم السبق في الوجود، وإما باعتبار أن المراد بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك (س٥/ ٦٦).

(٤) وتقديم الجار والمجرور «عليه» على القائم مقام الفعل «الذكر» لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى، لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله تعالى «لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم».
فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى.
وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل (س٥/ ٦٧).

وحفصٌ بالنون، وأبو بكرٍ بالتاءِ والبناءِ للمفعولِ ورفعِ الملائكةِ. وقرىء تَنَزَّلُ بمعنى تَتَنَزَّلُ. ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجهِ الذي قدَّره واقتضَتْه حِكْمتُه، ولا حكمةَ في أن تأتيَكم بِصُوَرٍ تشاهدونَها فإنه لا يزيدُكم إلا لَبْساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإنَّ منكم ومِنْ ذراريكم مَنْ سبقتْ كَلِمَتُنا له بالإيمان. وقيلَ الحقُّ الوحيُ أو العذابُ. ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ إذاً جوابٌ لهم وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي ولو نَزَّلْنا الملائكةَ ما كانوا مُنْظَرِيْنَ.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارِهم واستهزائِهم، ولذلك أكَّده من وجوهٍ وقرَّرَهُ بقولهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي منَ التحريفِ والزيادةِ والنقصِ بأن جعلْنا معْجِزاً مبايناً لكلام البشر، بحيثُ لا يَخْفَىٰ تغييرُ نَظْمِهِ على أهلِ اللسان، أو نفيُ تَطَرُّقِ الخلل إليه في الدَّوام بضمانِ الحفظِ له كما نَفَى أن يُطْعَنَ فيه بأنه المنزَّلُ له. وقيلَ الضميرُ في لهُ للنبي ﷺ.

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في فِرَقِهِم، جمعُ شيعةٍ وهي الفِرقةُ المتَّفِقَةُ على طريقٍ ومذهبٍ مِنْ شَاعَه إذا تَبِعَه، وأصلُه الشِّياعُ وهو الحطبُ الصغارُ تُوقَدُ به الكبارُ، والمعنى نَبَّأْنَا رجالاً فيهم وجعلْناهم رُسُلاً فيما بينَهم.

(١١) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعلُ هؤلاءِ، وهو تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام. وما للحال لا يَدْخُل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه، وهذا على حكاية الحال الماضية.

(١٢) ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ نُدْخِلُه. ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسَّلْكُ إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيطِ والرمحِ في المطعونِ، والضميرُ للاستهزاء. وفيهِ دليل على أن الله تعالى يوجِدُ الباطلَ في قلوبِهم. وقيلَ لِلذِّكْرِ فإن الضميرَ الآخرَ في قوله:

(١٣) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ له وهو خالٍ من هذا الضمير، والمعنى مثلُ ذلك السلكِ نسلكُ الذِّكْرَ في قلوبِ المجرمينَ مكذَّباً غيرَ مؤمِنٍ به، أو بيانٌ للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيفٌ إذ لا يلزمُ مِنْ تعاقبِ الضمائر توافقُها في المرجوعِ إليه ولا يتعيَّنُ أن تكونَ الجملةُ حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونُها مفسِّرةً للمعنى الأولِ بل يقوِّيه. ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنةُ الله فيهم بأنْ خَذَلَهم وسلكَ الكفرَ في قلوبهم، أو بإهلاكِ مَنْ كذَّبَ الرسلَ منهم فيكون وعيداً لأهل مكةَ.

(١٤) ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحينَ. ﴿ بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدونَ إليها ويَرَوْنَ عجائبَها طولَ نهارِهم مستوضِحِينَ لما يَرَوْنَ، أو تصعدُ الملائكةُ وهم يشاهدونَهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من غُلُوِّهِم في العنادِ وتشكيكِهم في الحقّ. ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ سُدَّتْ عن الأبصار بالسِّحرِ من السَّكْر، ويدل عليه قراءةُ ابن كثير بالتخفيف[1]، أو حُيِّرَتْ منَ السُّكْرِ ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأَ سَكِرَتْ. ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ قد سَحَرَنَا محمدٌ بذلكَ كما قالوه عندَ ظهورِ غيرِهِ من الآيات. وفي كلمتي الحصرِ والإضرابِ دلالةٌ على البتّ بأنَّ ما يَرَوْنَهُ لا حقيقةَ له بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ من السِّحْر.

(١٦) ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ اثني عشرَ مختلفةَ الهيئاتِ والخواصِّ على ما دلَّ عليه الرَّصْدُ والتجربةُ معَ بساطةِ السماء. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالأشكال والهيئات البهيةِ. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ المعتبرينَ المستدِلِّينَ بها على قدرةِ مُبْدِعِها وتوحيدِ صانِعِها.

وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ فلا يَقْدِرُ أن يصعَدَ إليها ويوسوسَ إلى أهلها ويتصرَّفَ في أمرها ويطَّلِعَ على أحوالها.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ بدلٌ مِنْ كلِّ شيطان. واستراقُ السمع اختلاسُه سِرًّا، شبَّه به خَطْفَتَهُم اليسيرةَ من قُطّانِ[2] السمواتِ لما بينَهم من المناسبةِ في الجوهرِ أو بالاستدلالِ من أوضاعِ الكواكبِ وحركاتِها. وعن ابن عباس[3] رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يُحْجَبُونَ عن السموات، فلما وُلِدَ عيسى عليه الصلاة والسلام مُنِعُوا منْ ثلاثِ سمواتٍ، فلما وُلِدَ محمدٌ ﷺ مُنِعُوا مِنْ كلِّها بالشُّهُبِ. ولا يَقْدَحُ فيه تَكَوُّنُها قبلَ المولدِ لجواز أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ. وقيلَ الاستثناءُ مُنْقَطِعٌ أي ولكنْ مَنِ استرقَ السمعَ. ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ فتبِعَه ولَحِقَهُ. ﴿شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرٌ للمُبْصِرين. والشِّهابُ شعلةُ نار ساطعةٌ، وقد يُطْلَقُ للكوكبِ والسِّنانِ لما فيهما من البريق.

(١٩) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ بسطْناها. ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابتَ. ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال. ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ مقدَّرٌ بمقدار مُعَيَّنٍ تقتضيه حِكْمَتُه، أو مستحسنٌ مناسبٌ من قولهم كلامٌ موزونٌ، أو ما يُوْزَنُ ويُقَدَّرُ، أو له وَزْنٌ في أبوابِ النعمةِ والمنفعةِ.

(٢٠) ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعِم والملابس. وقرىء معائِشَ بالهمزةِ على التشبيهِ بشمائلَ. ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على معايشَ أو على محلِّ لكم. ويريدُ به العِيالَ والخدَمَ

---

(١) قراءة ابن كثير بتخفيف الكاف والبناء للمفعول «سُكِرَتْ».

(٢) قطّان جمعٌ مفردها قاطن وهو المقيم.

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٢) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٨٩) عنه.

والمماليكَ وسائرَ ما يظنون أنهم يَرزقونَهم ظناً كاذِباً، فإنَّ اللهَ يرزقُهم وإياهم. وفذلكَةُ الآية: الاستدلالُ بِجَعْلِ الأرضِ ممدودةً بمقدارٍ وشكلٍ مُعَيَّنَيْنِ مختلفةَ الأجزاءِ في الوضعِ مُحْدِثَةً فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً مع جوازِ أن لا تكونَ كذلكَ على كمال قدرتهِ وتناهي حكمتهِ والتفردِ في الألوهية والامتنانِ على العبادِ بما أنعم عليهم في ذلك لِيُوحِّدُوه ويعبدوه، ثم بَالَغَ في ذلكَ وقالَ:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(٢١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرونَ على إيجادِه وتكوينِه أضعافَ ما وُجِدَ منه. فضربَ الخزائنَ مثلاً لاقتدارِه، أو شَبَّه مقدوراتِه بالأشياء المخزونة التي لا يُحَوِجُ إخراجُها إلى كَلَفَةٍ واجتهاد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ من بقاع القُدرةِ. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ حدَّه الحكمةُ وتعلّقتْ به المشيئةُ، فإنَّ تخصيصَ بعضِها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتمِلاً على بعضِ الصفات والحالات لا بدَّ له من مُخَصِّصٍ حكيم.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ حواملَ، شبَّه الريحَ التي جاءت بخير من إنشاءِ سَحَاب ماطر بالحاملِ كما شبّه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقَّحاتٍ للشجر ونظيرُه الطوائحُ بمعنى المطيحاتِ في قوله:

ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَوَائِحُ

وقُرِىءَ وأرسلْنا الريحَ على تأويل الجِنْس. ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سُقْياً. ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ قادرينَ متمكّنينَ من إخراجه، نَفَى عنهم ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ، أو حافظينَ في الغُدْرانِ والعيونِ والآبار. وذلك أيضاً يدل على المدبّر الحكيم كما تدل حركةُ الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجْهٍ ينتفع به الناسُ، فإن طبيعةَ الماء تقتضي الغورَ فَوُقُوفُهُ دونَ حدٍّ لا بدَّ له من سببٍ مخصِّصٍ.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياةِ في بعض الأجسام القابلةِ لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها، وقد أَوَّلَ الحياةَ بما يعمُّ الحيوانَ والنباتَ. وتكريرُ الضمير للدلالة على الحصْرِ. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتَ الخلائقُ كلُّها.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ مَنِ استَقْدَمَ ولادةً وموتاً ومن استأْخَرَ، أو مَنْ خرج من أصلابِ الرجال ومن لم يخرجْ بعدُ، أو مَنْ تقدَّم في الإسلام والجهاد وسبقَ إلى الطاعة أو تأخَّر، لا يَخفَى علينا شيءٌ من أحوالِكُم، وهو بيانٌ لكمال عِلْمِه بعدَ الاحتجاج على كمالِ قدرته فإن ما يدلُّ على قدرته دليلٌ على عِلْمِهِ. وقيلَ رَغَّبَ رسولُ الله ﷺ في الصفِّ الأولِ فازدحَمُوا عليهِ

فنزلتْ[١]. وقيلَ إن امرأةً حسناءَ كانتْ تصلِّي خلفَ رسولِ الله ﷺ فتقدَّم بعضُ القوم لئلاً ينظرَ إليها وتأخَّر بعضٌ لِيُبْصِرَها فنزلتْ[٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالةَ للجزاء. وتوسيطُ الضميرِ للدلالة على أنهُ القادرُ والمتولي لحشرِهم لا غيرُ. وتصديرُ الجملةِ بإنّ لتحقيقِ الوعْدِ والتنبيهِ على أنَّ ما سبقَ من الدلالة على كمال قُدرته وعِلْمِهِ بتفاصيلِ الأشياء يدلُّ على صِحَّةِ الحكْمِ كما صرَّحَ به بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحكمةِ مُتْقِنٌ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وَسِعَ عِلْمُهُ كلَّ شيء[٣].

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس يُصَلْصِلُ أي يُصَوِّتُ إذا نُقِرَ. وقيلَ هو من صَلْصَلَ إذا أَنْتَنَ تضعيفُ صلَّ. ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ طين تغيَّر واسودَّ من طول مجاورةِ الماء، وهو صفةُ صلصالٍ

---

(١) لم أقف عليه.
وقد أخرج مسلم (١/٣٢٦ رقم ١٣٢/٤٤٠) عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «خيرُ صفوف الرِجَالِ أولُهَا، وشرُّهَا آخِرَهَا، وخيرُ صفوف النساء آخرها، وشرها أولُهَا».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٢٩٦ رقم ٣١٢٢) والنسائي (٢/١١٨ رقم ٨٧٠) وابن ماجه (١/٣٣٢ رقم ١٠٤٦) وابن حبان (ص٤٣٣ رقم ١٧٤٩ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/٣٥٣) وأحمد في المسند (١/٣٠٥) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/٢٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/٧٣) والطيالسي في المسند (ص٣٥٤ رقم ٢٧١٢) والطبراني في الكبير (١٢/١٧١ رقم ١٢٧٩١).
كلهم بأسانيد عن نوح بن قيس الحُدائي، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ـ به قال الترمذي «وروَى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس. وهذا أشبه أن يكونَ أصحَّ من حديثِ نوحٍ» هـ.
وقال المباركفوري في «التحفة» (٨/٥٥١) «لو صح حديث ابن عباس هذا لكان هو أولى الأقوال لكن الأشبه أنه قول أبيَ الجوزاء كما صرح به الترمذي» هـ.
وقال ابن كثير في تفسيره (٢/٥٦٩) «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة...».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.
قلت: ذكر ابن جرير الطبري تأويلين آخرين في الآية (٨/ج١٤/٢٦).
(الأول): المستقدمين من الأمم والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.
(الثاني): ـ المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه.
وأسند كلا التأويلين عن جماعة من السلف، ثم قال رحمه الله تعالى:
«وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك، ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ، ومن حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام على ما بعده....
وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء، والمستأخرين فيه لذلك ثم يكون الله عز وجل عم بالمعنى المراد منه جميع الخلق...» هـ.

(٣) وتقديم صفة الحكمة على العلم للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء (س٥/٧٣).

أي كائنٍ من حمإٍ. ﴿مَّسۡنُونٍ﴾ مصوَّرٍ من سَنَةِ الوجْه[١]. أو مصبوبٍ لِيَيْبَسَ ويُتَصَوَّرَ كالجواهرِ المذابة تُصَبُّ في القوالب، من السَّنِّ وهو الصبُّ كأنه أفرغَ الحمأَ فصَوَّرَ منها تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فَيَبِسَ حتى إذا نُقِرَ صَلْصَلَ، ثمَّ غيَّر ذلكَ طوراً بعد طَوْرٍ حتى سوَّاهُ ونفخَ فيه منْ روحه. أو منتنٍ من سننتُ الحجرَ على الحجرِ إذا حَكَكْتُه به، فإنَّ ما يسيل بينَهما يكونُ منتناً ويُسَمَّى السَّنينَ.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(٢٧) ﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ أبا الجنِّ، وقيلَ إبليسُ، ويجوزُ أن يُرَادَ به الجِنْسُ كما هو الظاهرُ من الإنسان، لأن تَشَعُّبَ الجِنسِ لما كانَ من شخص واحد خُلِقَ من مادةٍ واحدة كانَ الجنسُ بأسْرِهِ مخلوقاً منها. وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره: ﴿خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الإنسان. ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحرِّ الشديد النافذِ في المسامِّ، ولا يمتنعُ خَلْقُ الحياةِ في الأجرامِ البسيطة كما لا يمتنعُ خَلْقُهَا في الجواهر المجرَّدَةِ فَضْلاً عن الأجساد المؤلَّفة التي الغالبُ فيها الجزءُ الناريُّ، فإنها أَقْبَلُ لها من التي الغالبُ فيها الجزءُ الأرضيُّ. وقولُه: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبارِ الغالبِ كقوله: ﴿خلقكم من ترابٍ﴾. ومساقُ الآية كما هو للدلالة على كمال قدرةِ الله تعالى وبيانِ بَدْءِ خَلْقِ الثَّقَلَيْنِ، فهو للتنبيهِ على المقدمةِ الثانية التي يتوقفُ عليها إمكانُ الحشر، وهو قَبُولُ المواد للجَمْعِ والإحْيَاءِ.

(٢٨) ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكرْ وقتَ قوله[٢] ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ عدلْتُ خِلْقَتَه وهيَّأْته لنفخِ الروح فيه. ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ حتى جَرَى آثارُه في تجاويفِ أعضائِهِ فَحَيِيَ. وأصلُ النفخ إجراءُ الريح في تجويفِ جسمٍ آخرَ، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخارِ اللطيف المنْبَعِثِ من القلب وتفيض عليه الحيوانيةُ فيسري حاملاً لها في تجاويفِ الشرايينِ إلى أعماق البدن جعل تعلُّقَه بالبدن نفخاً. وإضافةُ الروحِ إلى نفسِه لما مرَّ في النساء[٣]. ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ فاسْقُطُوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ أَمْرٌ مِنْ وَقَعَ يَقَعُ.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ أُكِّدَ بتأكيدَيْنِ للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص. وقيلَ أُكِّدَ بالكُلِّ للإحاطة وبأجمعينَ للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعينَ دُفْعَةً، وفيه نظَرٌ إذْ لو كان الأمرُ كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

---

(١) من سنة الوجه أي صورته.

(٢) وتذكير الوقت لأنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث.. والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء إلى كماله اللائق به شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام (س٥/ ٧٤).

(٣) عند قوله تعالى: «ألقاها إلى مريم وروح منه» [النساء: «١٧١»].

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

(٣١) ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ إنْ جُعِلَ مُنْقَطِعاً اتَّصلَ بهِ قوله: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ولكنَّ إبليسَ أَبَىٰ، وإنْ جُعِلَ متَّصِلاً كان استئنافاً على أنهُ جوابُ سائلٍ قال هلاَّ سجدَ.

(٣٢) ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أيُّ غَرَضٍ لك في أنْ لا تكونَ. ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدمَ.

(٣٣) ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصحُّ مِنِّي وينافي حالي أن أسجدَ. ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسمانيٍّ كثيفٍ وأنا مَلَكٌ روحانيٌّ. ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ وهو أخسُّ العناصرِ، وخلقْتَني من نار وهي أشرفُها، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصلِ وقد سبق الجوابُ عنه في سورة الأعراف[1].

(٣٤) ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من السماء أو الجنةِ أو زُمَرِ الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ مطرودٌ من الخير والكرامة، فإنَّ مَنْ يُطْرَدُ يُرْجَمُ بالحجر أو شيطانٌ يُرْجَمُ بالشُّهُبِ، وهو وعيد يتضمَّن الجوابَ عن شُبْهَتِهِ.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ هذا الطردَ والإبعادَ. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه مُنْتَهى أمدِ اللعن، فإنه يناسب أيامَ التكليف، ومنه زمانُ الجزاء. وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] بمعنى آخرَ يَنسىٰ عندَه هذه. وقيل إنما حدَّ اللعنَ به لأنه أبعدُ غايةٍ يضربُها الناسُ، أو لأنه يعذبُ فيه بما ينسىٰ اللعنَ معه فيصيرُ كالزائل.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ فأخِّرْني، والفاء متعلقةٌ بمحذوف دلَّ عليه: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾[3] ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أراد أن يجدَ فُسْحَةً في الإغواءِ أو نجاةً من الموت، إذ لا موتَ بعدَ وقتِ البعث فأجابه إلى الأولِ دونَ الثاني.

(٣٧) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾.

(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ المسمَّى فيه أجلُكَ عند الله، أو انقراضُ الناسِ كلِّهم وهو النفخةُ الأُولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام الثلاثة يومَ القيامة. واختلافُ العبارات لاختلافِ الاعتباراتِ، فعبَّر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرَفْتَهُ، وثانياً بيوم البعث إذ به يحصلُ العلم بانقطاعِ التكليف واليأسِ عن التضليل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعِه في الكلامَيْنِ. ولا يلزم مِنْ ذلكَ أن لا يموتَ

---

(١) الأعراف: «١٢».

(٢) الأعراف: «٤٤».

(٣) الحجر: «٣٤».

فلعلَّه يموت أولَ اليوم ويُبْعَثُ مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبةُ وإن لم تكنْ بواسطة لم تدلَّ على منصِبِ إبليسَ لأن خطابَ الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسَم، وما مصدريةٌ، وجوابُه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنىٰ: أقسمُ بإغوائِك إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لهم المعاصيَ في الدنيا التي هيَ دارُ الغرور كقوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾. وفي انعقادِ القَسَم بأفعالِ الله تعالى خلافٌ. وقيلَ للسببيةِ. والمعتزلةُ أوَّلُوا الإغواءَ بالنسبة إلى الغَيِّ. أو التَّسَبُّبِ له بأمره إياه بالسجود لآدمَ عليه السلام، أو بالإضلال عن طريق الجنة، واعتذروا عن إمهالِ الله له ـ وهو سببٌ لزيادة غِيِّهِ وتسليطٌ له على إغواءِ بني آدمَ ـ بأنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ منه ومِمَّنْ تَبِعُه أنَّهم يموتون على الكفر ويصيرونَ إلى النار أُمْهِلَ أو لم يُمْهَلْ وأنَّ في إمهاله تعريضاً لِمَنْ خالفَه لاستحقاق مزيدِ الثواب. وضَعْفُ ذلكَ لا يَخْفَى على ذوي الألباب. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأَحْمِلَنَّهم أجمعينَ على الغوايةِ.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصْتَهم لطاعتك وطهَّرتَهُم مِنَ الشوائب فلا يعملُ فيهم كَيْدي. وقرأ ابن كثير وابنُ عامر وأبو عمرو بالكسر[١] في كلِّ القرآن أي الذين أخلصوا نفوسَهم لله تعالى.

(٤١) ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ حقٌّ عليَّ أن أراعِيَهُ. ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحرافَ عنه. والإشارةُ إلى ما تضمَّنه الاستثناءُ وهو تخليصُ المخلَصين من إغوائه، أوِ الإخلاصُ على معنى أنه طريقٌ عليَّ يؤدي إلى الوصول إليَّ مِنْ غيرِ اعوجاجٍ وضلال. وقرىء عَلِيٌّ مِنْ عُلُوِّ الشرف.

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ تصديقٌ لإبليسَ فيما استثْنَاه. وتغييرُ الوضعِ[٢] لتعظيم المخلِصينَ، ولأن المقصودَ بيانُ عِصْمَتِهم وانقطاعُ مخالبِ الشيطان عنهم، أو تكذيبٌ له فيما أُوهِمَ أنَّ له سلطاناً على مَنْ ليسَ بمخلِصٍ من عباده فإنَّ مُنْتَهَى تزيينهِ التحريضُ والتدليسُ كما قال ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[٣] وعلى هذا يكون الاستثناءُ منقطِعاً، وعلى الأولِ يدفعُ قولَ مَنْ شَرَط أن يكون المستثْنَى أقلَّ من الباقي لإفضائهِ إلى تناقضِ الاستثناءَيْنِ.

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعدُ الغاوينَ أو المتَّبِعينَ. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ للضمير. أو حالٌ،

---

(١) أي بكسر اللام في «المخلِصين».

(٢) قوله (وتغيير الوضع) أي تغيير وضع النظم، فإنه فيما سبق كان المستثنىٰ منه الناس والمستثنى المخلَصين، وههنا المستثنى منه العباد والمستثنى الغاوون. (حاشية الكازروني علىالبيضاوي ص١٧٠).

(٣) إبراهيم: «٢٢».

والعاملُ فيها الموعدُ إنْ جعلْتَهُ مصدراً على تقديرِ مضافٍ، ومعنَى الإضافةِ إن جَعَلْتَهُ اسمَ مكانٍ فإنهُ لا يعملُ.

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلونَ منها لكثرتهم، أو طبقاتٌ ينزلونَها بِحَسَبِ مراتِبِهِم في المتابعة وهي: جهنمُ ثمَّ لَظَى ثم الْحُطَمَةُ ثم السعيرُ ثم سقرٌ ثمَّ الجحيمُ ثمَّ الهاويةُ. ولعل تخصيصَ العَدَدِ لانحصار مجامعِ المهلِكاتِ في الركونِ إلى المحسوساتِ ومتابعةِ القوة الشَّهويةِ والغَضَبِيَّة، أو لأن أهلَها سبعُ فِرَقٍ. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتْبَاع. ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحِّدِيْنَ العصاة. والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركينَ والسابع للمنافقينَ. وقرأ أبو بكر جُزُؤٌ بالتثقيل. وقرىء جُزٌّ على حذفِ الهمزة وإلقاءِ حركَتِها على الزاي ثم الوقفِ عليه بالتشديد ثم إجراءِ الوصل مَجْرَى الوقفِ. ومنهم حالٌ منه، أو من المسْتَكِنِّ في الظَّرْفِ لا في مقسومٍ لأنَّ الصفةَ لا تعملُ فيما تقدَّم موصُوفَها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

(٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ مِنْ اتباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرها مُكَفَّرة. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعيْن، أو لكلٍّ عدّة منهما كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١] ثم قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[٢] وقوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[٣] الآية. وقرأ نافعٌ وحفص وأبو عمرو وهشامٌ «وعُيُون والعُيونُ» بضمِّ العين حيث وقعَ، والباقونَ بكسر العين.

(٤٦) ﴿ادْخُلُوهَا﴾ على إرادة القولِ. وقرىء بقطعِ الهمزةِ وكسرِ الخاء على أنه ماضٍ فلا يُكْسَرُ التنوينُ. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمينَ أو مُسَلَّماً عليكم. ﴿آمِنِينَ﴾ من الآفة والزوالَ.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما ألَّفَ بينَ قلوبهم، أو في الجنة بتطييبِ نفوسِهم. ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[٤]. أو من التحاسدِ على درجاتِ الجنة ومراتبِ القُرْبِ. ﴿إِخْوَانًا﴾ حالٌ من الضمير في جناتٍ أو فاعلِ ادْخُلُوها أو الضميرِ في آمنينَ أو الضميرِ المضافِ إليه، والعاملُ فيها معنىٰ الإضافة، وكذا قولُه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. ويجوز أن يكونا صفتينِ لإخواناً، أو حالٌ من ضميره لأنه بمعنى مُتَصَافِيْنَ، وأن يكون متقابلينَ حالاً من المستقرِّ في على سُرُرٍ.

---

(١) الرحمن: «٤٦».
(٢) الرحمن: «٦٢».
(٣) محمد: «١٥».
(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه وابن أبي شيبة والطبراني (فتح القدير ٣/ ١٣٦).

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بعد حال، أو حالٌ من الضمير في متقابلينَ. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمامَ النعمة بالخلود.

(٤٩) ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فَذْلَكَةُ ما سبق مِنَ الوعْدِ والوعيد وتقريرٌ له. وفي ذِكْرِ المغفرةِ دليل على أنه لم يُرِدْ بالمتقينَ مَنْ يتقي الذنوبَ بأسْرِها كبيرِها وصغيرِها، وفي توصيفِ ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيبِ ترجيحُ الوعدِ وتأكيدُه، وفي عطف.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَى نبيء عبادي تحقيقٌ لهما بما يُعتَبَرون به[١].

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفونَ، وذلك لأنهم دخلوا بغير إذنٍ وبغير وقتٍ. ولأنَّهم امتنعُوا من الأكْلِ. والْوَجَلُ اضْطرابُ النَّفْسِ لِتَوَقُّعِ ما تكرهُ.

(٥٣) ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ وقُرِىءَ لا تَأْجلْ مَن أوْجَلَه، ولا تُوَاجِلْ من وَاجَلَه بمعنى أوجَلَه. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوَجَلِ، فإن المبشَّر لا يُخَافُ منه. وقرأ حمزة نَبْشُرك بفتح النون والتخفيفِ مِنَ البِشْر. ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾[٢]. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغَ.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجُبٌ منْ أنْ يُولَدَ له مع مسِّ الكِبَرِ إيَّاهُ، أو إنكارٌ لأنْ يُبَشَّرَ به في مِثْلِ هذه الحالةِ، وكذا قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبةٍ تبشرون، أو فبأي شيء تبشرون فإن البشارةَ بما لا يُتَصَوَّرُ وقوعُه عادةً بشارةٌ بغير شيء. وقرأ ابن كثير بكسرِ النون مشددةً في كلِّ القرآنِ على إدغام نونِ الجمعِ في نونِ الوقاية وكَسْرِها[٣]، وقرأ نافعٌ بكسرها مخففةً على حذفِ نون الجمع استثقالاً لاجتماعِ الْمَثَلَيْنِ ودلالةً بإبقاءِ نونِ الوقاية وكسرِها على الياء[٤].

(٥٥) ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بما يكونُ لا محالةَ، أو باليقينِ الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقةٍ هي حقٌّ

---

(١) لم يتعرض لعنوان رسالة الملائكة لأنهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيم عليه السلام، بل أُرسِلوا إلى قوم لوطٍ عليه السلام (س٥/ ٨١).

(٢) الصافات: «١١٢».

(٣) أي «تُبَشِّرُونِّ».

(٤) أي «تُبَشِّرونِ».

وهو قول الله تعالى وأمْرُهُ. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ من الآيسينَ من ذلك فإنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلُقَ بشراً من غيرِ أبَوَيْنِ فكيف من شيخٍ فَانٍ وعجوزٍ عاقرٍ. وكان استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِ العادةِ دونَ القدرةِ، ولذلك:

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ المخطئونَ طريقَ المعرفةِ فلا يعرفونَ سَعَةَ رحمة الله تعالى وكمالَ عِلْمِه وَقُدْرتِه كما قال تعالى: ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[١]. وقرأ أبو عمرو والكسائي يَقْنِطُ بالكسر، وقرىء بالضمِّ، وماضيهما قَنَطَ بالفتح.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنُكم الذي أُرْسِلتُم لأجْلِه سوى البشارةِ، ولعلَّه علمَ أنَّ كمالَ المقصودِ ليسَ البشارةَ لأنَّهم كانوا عَدَداً والبشارةُ لا تحتاجُ إلى العَدَدِ، ولذلكَ اكتفى بالواحدِ في بشارة زكريا ومريمَ عليهما السلام، أو لأنهم بشَّروهُ في تضاعيفِ الحال لإزالة الوَجَلِ ولو كانتْ تمامَ المقصودِ لابتدؤُوا بها[٢].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(٥٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قومَ لوط[٣].

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناءً مِنْ قومٍ كان منقطِعاً إذِ القومُ مقيَّدٌ بالإجرامِ، وإنْ كان استثناءً منَ الضمير في مجرمينَ كان مُتَّصِلاً، والقومُ والإرسالُ شامِلَيْنِ للمجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنينَ به وكأن المعنَى: إنا أرسلنا إلى قوم أجرمَ كلُّهم إلا آلَ لوطٍ منهم لنُهلِكَ المجرمين ونُنَجِّي آلَ لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يُعَذَّبُ به القومُ. وهو استئنافٌ إذا اتصلَ الاستثناءُ ومتصلٌ بآلِ لوطٍ جارٍ مَجْرَى خبرٍ لكنْ إذا انقطعَ، وعلى هذا جازَ أن يكونَ قولُه:

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءً من آل لوط، أو من ضميرِهم، وعلى الأول لا يكونُ إلا مِنْ ضميرِهم لاختلافِ الْحَكَمَيْنِ اللهمَّ إلا أنْ يَجْعَلَ إنا لمنجوهم اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي لَمُنْجُوهُم مخففاً. ﴿قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقينَ مع الكَفَرةِ لِتَهْلِكَ معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم قَدَرْنا هنا وفي النمل بالتخفيف[٤]. وإنما عُلِّقَ[٥] ـ والتعليقُ من خواصِّ أفعالِ القلوبِ ـ لِتَضَمُّنِهِ معنى العِلْمِ. ويجوزُ

---

(١) يوسف: «٨٧».

(٢) وتوسيط «قال» بين قوله السابق وقوله «فما خطبكم...» للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه. ثم إن خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة ـ بعدما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك ـ لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر (س٥/ ٨٢).

(٣) ووصفهم بالإجرام وبطريق التنكير لذمهم والاستهانة بهم (س٥/ ٨٢).

(٤) النمل: «٥٧» «قَدَرْناها».

(٥) قوله (وإنما عُلِّق) أي فعل التقدير «قدَّرنا».

والتعليق هو: ترك العمل لفظاً دون معنًى لمانع... وارجع لبيان معنى التعليق في شرح ابن عقيل (١/ ٤٣٣) باب=

أن يكونَ قَدَّرْنَا أُجْرِيَ مَجْرى قُلنا لأن التقديرَ بمعنى القضاءِ قولٌ، وأصلُه جَعْلُ الشيءِ على مقدارِ غيرِه. وإسنادُهم إياه إلى أنفسِهم ـ وهو فعل الله سبحانه وتعالى ـ لِمَا لهم من القُرْبِ والاختصاصِ به.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[١].

(٦٢) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ تنكِرُكُم نفسي وتَنْفُرُ عنكم مخافةَ أن تطرقوني بشرٍّ.

(٦٣) ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناكَ بما تنكرُنا لأجلِهِ بل جئناكَ بما يَسُرُّكَ ويشفي لك من عدوِّك، وهو العذاب الذي توعَّدتَهم به فيمترونَ فيه[٢].

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابِهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرْناكَ به.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهبْ بهم في الليل. وقرأ الحجازيانِ[٣] بوصْلِ الهمزة من السُّرى وهما بمعنى، وقرىء فَسِرْ مِنَ السَّيْرِ. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال:

افتَحِـي البَـابَ وَانظُـري فـي النُّجُـومِ كَـمْ عَلَيْنَـا مِـنْ قِطْـعِ لَيْـلٍ بَهِيـمِ

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكن على أَثَرِهم تذودُهم وتسرعُ بهم وتَطَّلِعُ على حالهم[٤]. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظرَ ما وراءه فيرى من الهولِ ما لا يطيقُه، أو فيصيبُه ما أصابَهم، أو ولا ينصرفْ أحدُكم ولا يتخلفِ امرؤٌ لغرض فيصيبه العذاب. وقيل نُهُوا عن الالتفاتِ ليوطِّنُوا نفوسَهم على المهاجرة. ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيثُ أمَرَكُمُ اللهُ بالمضي إليه وهو الشامُ أو مِصْرُ، فَعُدِّيَ وامضُوا إلى حيثُ وتؤمرون إلى ضميرِه المحذوفِ على الاتساع[٥].

= ظن وأخواتها.

(١) قوله «المرسلون» حيث وضع المظهر موضع الضمير للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والتنجية (س٥/ ٨٣).

(٢) ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهما (س٥/ ٨٤).

(٣) الحجازيان هما: نافع وابن كثير.

(٤) ولعل إيثار الاتّباع على السَّوْق ـ مع أنه المقصود بالأمر ـ للمبالغة في ذلك، إذ السوْق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر (س٥/ ٨٤).

(٥) وإيثار المضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين (س٥/ ٨٤).

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي وأوحَيْنا إليه مَقْضِيّاً، ولذلك عُدِّيَ بإلى. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مبهم يُفسره: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّه النَّصْبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ للآمرِ وتعظيمٌ له. وقرىء بالكسر على الاستئنافِ، والمعنى: أنهم يُسْتَأْصَلُونَ عن آخرهم حتى لا يبقَى منهم أحد[1]. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصُّبحِ، وهو حالٌ من هؤلاء أو منَ الضمير في مقطوع، وجمْعُهُ للحملِ على المعنَى فإنَّ دابِرَ هؤلاء في معنًى مدبري هؤلاءِ.

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سَدومٍ. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضيافِ لوطٍ طمعاً فيهم.

(٦٨) ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحةِ ضيفي فإنَّ مَنْ أُسِيءَ إلى ضيفه فقدْ أُسِيءَ إليه.

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ركوبِ الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تُذِلُّوني بِسَبَبِهم من الخِزْيِ وهو الهوانُ، أو لا تُخْجِلُوني فيهم من الخَزَايةِ وهو الحياءُ.

(٧٠) ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أن تجيرَ منهم أحداً أو تمنعَ بيننا وبينَهم فإنَّهم كانوا يتعرضونَ لكلِّ أحد وكان لوطٌ يمنعهم عنه بِقَدَرِ وُسْعِهِ، أو عن ضيافةِ الناس وإنزالِهم.

(٧١) ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ يعني نساءَ القوم فإن نبيَّ كلِّ أمة بمنزلةِ أبيهم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَتْ في سورة هود[2]. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ قضاءَ الوَطَرِ، أو ما أقولُ لكم.

(٧٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياة المخاطَبِ، والمخاطَبُ في هذا القسم هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقيلَ لوطٌ عليه السلام قالتِ الملائكةُ له ذلك، والتقديرُ لعمركَ قسمي، وهو لغةٌ في العُمْرِ يختصُّ به القَسَمُ لإيثار الأخفِّ فيه لأنه كثيرُ الدَّوْرِ على ألسنَتِهم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ لفي غِوايتِهم أو شدةِ غِلْمَتِهم التي أزالتْ عقولَهم وتمييزهم بين خطئِهم والصوابِ الذي يُشَارُ بهِ إليهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرونَ فكيفَ يسمعون نُصْحَكَ. وقيلَ الضميرُ لقريشٍ، والجملة اعتراضٌ.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحةً هائلةً مهلكةً. وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقتَ شروقِ الشمس.

---

(١) وإيثار اسم الإشارة «هؤلاء» على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحكم. وإيراد صيغة المفعول «مقطوع» بدل صيغة المضارع لكونها أدخل في الدلالة على الوقوع. وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وتأخيره عن الجار والمجرور، وإبهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفىٰ (س٥/ ٨٥).

(٢) هود: «٧٨».

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ عاليَ المدينةِ أو عالي قُرَاهُم. ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت مُنْقَلِبَةً بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجّر أو طين عليه كتابٌ من السِّجل. وقد تقدَّم مزيدُ بيانٍ لهذه القصةِ في سورة هود.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرينَ المتفرّسينَ الذينَ يَتشَبَّثُونَ في نظرهم حتى يعرفُوا حقيقةَ الشيء بِسِمَتِهِ.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن المدينةَ أوِ القُرى. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابتٍ يسلُكه الناسُ ويرونَ آثارَها.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللهِ ورُسُلِهِ.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ همْ قومُ شعيبٍ كانوا يسكنونَ الغَيْضَةَ فبعثه الله إليهم فكذَّبوه فأُهلِكُوا بالظُّلَّةِ. والأيكةُ الشجرةُ المتكاثفةُ.

(٧٩) ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاكِ. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدومَ والأيكةَ. وقيل الأيكةُ ومَدْينُ فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذِكْرُ إحداهُما منبِّهاً على الأُخرى. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبِطَرِيْقٍ واضحٍ. والإمام اسمُ ما يُؤْتَمُّ به فَسُمِّيَ به الطريقُ ومَطْمَرُ البناءِ واللوحُ لأنَّها مما يُؤْتَمُّ به.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني ثمودَ كذَّبوا صالحاً، ومَنْ كذَّب واحداً من الرُّسُلِ فكأنما كذَّبَ الجميعَ. ويجوز أن يكونَ المراد بالمرسلينَ صالحاً ومَنْ معهُ من المؤمنينَ، والحِجْرُ وادٍ بينَ المدينةِ والشأم يسكنونَه.

(٨١) ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آياتِ الكتاب المُنْزَلِ على نبيِّهم، أو معجزاتِه كالناقةِ وسَقْيِهَا وشُرْبِها ودَرِّها، أو ما نُصِبَ لهم من الأدلة.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدامِ ونَقْبِ اللصوصِ وتخريبِ الأعداءِ لوثاقَتِها، أو مِنَ العذابِ لِفَرْطِ غَفْلَتِهِم أو حُسْبَانِهِم أنَّ الجبالَ تحميهم منه.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

(٨٤) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناءِ البيوتِ الوثيقةِ واستكثارِ الأموالِ والعُدَدِ.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ إلا خَلْقاً مُلْتَبِساً بالحقِّ لا يلائِمُ استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشرورِ، فلذلك اقتضتِ الحكمةُ إهلاكَ أمثالِ هؤلاءِ وإزاحةَ فسادهم منَ الأرض. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقمُ اللهُ لك فيها ممن كذَّبكَ. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تعجلْ بانتقامٍ منهم وعامِلْهُم معاملةَ الصَّفُوحِ الحليم. وقيل هو منسوخٌ بآية السيفِ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلقَهم وبيدِهِ أَمْرُكَ وأَمْرُهُم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالِكِ وحالِهِم فهو حَقِيقٌ بأن تَكِلَ ذلكَ إليه ليحكمَ بينكم، أو هوَ الذي خلقكم وعَلِمَ الأَصْلَحَ لكم، وقد علم أن الصفحَ اليومَ أصلحُ، وفي مصحفِ عثمانَ وأُبَيٍّ رضي الله عنهما هو الخالقُ، وهو يَصْلُحُ للقليل والكثير والخلاَّقُ يختص بالكثير.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ سبعَ آياتٍ وهي الفاتحة. وقيل سبعَ سُوَرٍ وهي الطُّوالُ وسابعتُها الأنفالُ والتوبةُ فإنهما في حُكْمِ سورةٍ ولذلك لم يُفْصَلْ بينَهما بالتسمية. وقيلَ التوبةُ وقيل يونسُ أو الحواميم السَّبع. وقيلَ سَبْعُ صحائفَ وهيَ الأسباعُ[١]. ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بيانٌ للسَّبع، والمثاني من التثنيةِ أو الثَّنَاءِ فإنَّ كلَّ ذلكَ مثْنَى تُكرَّرُ قراءتُه، أو ألفاظُه، أو قَصَصُهُ ومواعظُه، أو مَثْنِيٌّ عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مُثْنٍ على الله بما هو أهلُه من صفاته العُظْمى وأسمائِه الْحُسْنَى. ويجوزُ أَنْ يُرادُ بالمثاني القرآنُ أو كتبُ الله كلُّها فتكونُ مِنْ لِلتَّبْعِيضِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إنْ أُرِيْدَ بالسَّبْعِ الآياتِ أو السُّورِ فَمِنْ عطفِ الكُلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ. وإن أُرِيدَ بهِ الأسباعُ فَمِنْ عَطْفِ أحدِ الوصْفَيْنِ على الآخر.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تَطْمَحْ بِبَصَرِكَ طُمُوحَ راغبٍ. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنهُ مُسْتَحْقَرٌ بالإضافةِ إلى ما أُوتِيْتَهُ فإنه كمالٌ مطلوبٌ بالذات مُفْضٍ إلى دوام اللذاتِ. وفي حديثِ أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه «مَنْ أُوتِيَ القرآنَ فرأى أنَّ أحداً أُوتِيَ مِنَ الدنيا أفضلَ مما أُوتِيَ فقدْ صَغَّرَ عظيماً وعظَّمَ صغيراً»[٢]. ورُوي أنهُ عليه الصلاة والسلام وَافَى بِأَذْرِعَاتٍ سَبْعَ قوافلَ ليهودِ بني قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ فيها أنواعُ الْبَزِّ والطِّيبِ والجواهر وسائر الأمتعةِ، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا لَتَقَوَّيْنَا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: «لقد أُعْطِيتُم سَبْعَ آياتٍ هيَ خَيْرٌ مِنْ هذه القوافلِ السَّبْعِ»[٣]. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) أي سبعة أسباع القرآن. وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٦) والطبري «جامع البيان» للطبري (٨/ج١٤/ ٥٤ ـ ٥٥) والدر المنثور (٥/ ٩٥ ـ ٩٦) ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٩٣ ـ ٩٤ رقم ٢٤٣): «لم أجده عن أبي بكر. وأخرجه ابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٨٧) ـ في ترجمة حمزة النصيبي، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظنَّ أنَّ أحداً أغنى منه، فقد حقر عظيماً وعظم صغيراً» وحمزة اتهموه بالوضع.
وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبدالله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن، فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله ـ الحديث» ا هـ.
● قال ابن عدي عن حمزة هذا «وكل ما يرويه أو عامته مناكير موضوعة والبلاء منه ليس ممن يروي عنه، ولا ممن يروي هو عنهم» هـ.
والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٧) عن الحسين بن الفضل، قال: إن سبع قوافل وافت من بصري =

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضعْ لهم وارفُقْ بهم.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أُنْذِرُكم ببيانٍ وبرهانٍ أنَّ عذابَ اللهِ نازلٌ بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

(٩٠) ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثلَ العذابِ الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعولِ النذيرِ أُقِيمَ مُقامَه، والمقتسِمُونَ همُ الاثنا عشرَ الذينَ اقتسموا مداخلَ مكةَ أيامَ الموسِمِ لِيُنَفِّرُوا الناسَ عن الإيمان بالرسولِ ﷺ. فأهلكهم الله تعالى يومَ بَدْرٍ، أو الرهْطُ الذينَ اقتسموا أي تقاسَمُوا على أن يُبَيِّتُوا صالحاً عليه الصلاة والسلام. وقيل هو صفةُ مَصْدَرٍ محذوفٍ يدلُّ عليه: «ولقد آتيناكَ» فإنهُ بمعنَى أنزلْنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآنَ عِضِيْنَ حيثُ قالوا عِناداً: بعضُه حقٌّ موافِقٌ للتوراةِ والإنجيلِ وبعضُه باطلٌ مخالِفٌ لهما، أو قَسَّمُوهُ إلى شِعْرٍ وسِحْرٍ وكَهَانَةٍ وأساطيرِ الأولين، أو أهلُ الكتابِ آمنوا ببعضِ كُتُبِهم وكفَروا ببعضٍ على أنَّ القرآنَ ما يقرأ مِنْ كتبهم، فيكون ذلك تسليةً لرسولِ الله ﷺ، وقولُه: «لا تَمُدَنَّ عينيك» إلخ اعتراضاً مُمِدّاً لها.

(٩١) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاءَ جَمْعُ عِضَةٍ وأصلها عِضْوَةٍ من عَضَى الشاةَ إذا جعلَها أعضاءَ، وقيلَ فَعْلَةٌ مِنْ عَضَهْتَهُ إذا بَهَتَّهُ وفي الحديثِ: «لعنَ رسولُ الله ﷺ العاضِهةَ والمستعْضِهَةِ»[1]. وقيلَ أسْحاراً، وعن عِكرمةَ العِضَةُ السِّحْرُ. وإنما جُمِعَ جَمْعَ السَّلامةِ جَبْراً لما حُذِفَ منه. والموصولُ بِصِلَتِهِ صِفةٌ للمقْتَسِمينَ، أو مبتدأٌ خبرُه:

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ منَ التقسيمِ أو النَّسَبِ إلى السِّحرِ فنجازيْهِم عليه. وقيل هو عامٌّ في كلِّ ما فعلُوا من الكفر والمعاصي.

(٩٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجْهَرْ به مِنْ صَدَعَ بالْحُجَّةِ إذا تكلَّم بها جَهَاراً، أو فافْرُقْ به بينَ الحقِّ والباطلِ، وأصلُه الإبانةُ والتمييزُ. وما مصدريةٌ أو موصولةٌ، والراجِعُ محذوفٌ أي بما تُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفتْ إلى ما يقولون.

= وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد... فذكره.
وقال الواحدي: ويدل على صحة هذا قوله على أثرها «لا تمدنَّ عينيك» الآية.
● أذرعات: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وكسر الراء المهملة: موضع بالشام (الصحاح. مادة: ذرع).
● البز: الثياب والأمتعة.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة سلمة بن وهرام وأخرجه أبو يعلى. وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، قال ابن حجر وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من روايته عن ابن جريج عن عطاء (الكافي الشاف ص٩٤ رقم ٢٤٤)
والعاضهة والمستعضهة هما: الساحرة والمستسحرة.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ بقَمْعِهم وإهْلاكِهم. قيلَ كانوا خمسةً من أشراف قريش: الوليدُ بنُ المغيرة، والعاصُ بن وائلٍ، وعديُّ بنُ قيس، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والأسودُ بنُ المطَّلِب، يبالغونَ في إيذاءِ النبيِّ ﷺ والاستهزاءِ به فقال جبريلُ عليه السلام لرسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أنْ أَكْفِيَكَهُمْ. فَأَوْمَأَ إلى ساقِ الوليدِ فمرَّ بِنِبَالٍ فَتَعَلَّق بثوبه سَهْمٌ فلم ينعطِفْ تَعَظُّماً لأخْذِهِ فأصاب عِرْقاً في عَقِبِهِ فقطعَهُ فماتَ، وأومأَ إلى أخمصِ العاصِ فدخلتْ فيه شوكةٌ فانتفختْ رِجْلُه حتَّى صارتْ كالرَّحَى وماتَ، وأشارَ إلى أَنْفِ عديٍّ بنِ قيس فامتخطَ قيحاً فماتَ، وإلى الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ وهو قاعدٌ في أصلِ شجرةٍ فجعلَ ينطحُ برأسِه الشجرةَ ويضربُ وجْهَهُ بالشوكِ حتى مات، وإلى عَيْنَي الأسودِ بنِ المطَّلبِ فَعَمِيَ[1].

(٩٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمْرِهم في الدَّارَيْنِ.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشِّرْكِ والطعنِ في القرآنِ والاستهزاءِ بك.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافْزَعْ إلى اللهِ تعالَى فيما نَابَكَ بالتسبيحِ والتحميدِ يَكْفِكَ ويكشفِ الغمَّ عنك، أو فَنَزِّهْهُ عمَّا يقولون حامِداً له على أنْ هداكَ للحقِّ. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من المصلِّينَ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حَزَبَه أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصلاة[2].

(٩٩) ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموتُ فإنهُ متَيَقَّنٌ لَحَاقُهُ كلَّ حيٍّ مخلوقٍ، والمعنى فاعْبُدْه ما دُمْتَ حيّاً ولا تُخِلَّ بالعبادةِ لحظَةً[3]. عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحِجْرِ كان له من الأجر عَشْرُ حسنات بِعَدَدِ المهاجرينَ والأنصارِ والمستهزئينَ بمحمدٍ ﷺ»[4] واللهُ أعلم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٣١٦ ـ ٣١٨) من حديث ابن عباس بإسناد حسن.
وأخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/٤٦ ـ ٤٧) وقال الهيثمي: «فيه محمد بن عبدالحكيم النيسابوري، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
انظر «الكافي الشافِ» (ص٩٤ رقم ٢٤٥).

(٢) أخرجه ابن جرير بهذا اللفظ (١/٢٦٠) وأخرجه أحمد (٥/٣٨٨) وأبو داود (١٣١٩) بلفظ: كان إذا حزبه أمر صلى، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٥٣).
والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (٥/٤١٥) ثم أحاله إلى تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥) وقال هناك: إسناده ضعيف.
لكن الحديث فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، وهو مقبول ولكن لا متابع له، فالحديث ضعيف كما في تخريج الفتح السماوي (ص١٧٠).

(٣) وإسناد الإتيان إلى الموت للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه (س٥/٩٣).

(٤) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩ ـ ٢٤٠).

سُورَةُ النَّحلِ

ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النحلِ مكيةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخرِها وهيَ مائةٌ وثمانٍ وعشرونَ آية[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلونَ ما أوْعَدَهُمُ الرسولُ ﷺ من قيامِ الساعة، أو إهلاكِ اللهِ تعالى إيَّاهم كما فعلَ يومَ بدرٍ استهزاءً وتكذيباً، ويقولون إن صحَّ ما تقولُه فالأصنامُ تشفع لنا وتخلِّصُنا منه فنزلتْ. والمعنى أن الأمرَ الموعودَ به بمنزلة الآتي المتحقِّقِ مِنْ حيثُ إنه واجبُ الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعَه فإنه لا خيرَ لكم فيه ولا خلاصَ لكم منه[٢]. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرَّأَ وجَلَّ عن أنْ يكونَ له شريكٌ فيدفعَ ما أرادَ بهم[٣]. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتاء على وِفْقِ قوله: ﴿فلا تستعجلُوه﴾ والباقونَ بالياء على تلوينِ الخطابِ. أو على أن الخطابَ للمؤمنين أو لهم ولغيرهم، لما رُوِيَ أنه لما نزلتْ «أَتَى أمرُ الله» فوثبَ النبيُّ ﷺ ورفعَ الناسُ رؤوسَهم فنزلت «فلا تستعجلُوه»[٤].

---

(١) انظر «زاد المسير» فصل في نزولها ـ أي سورة النحل (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦). و«الدر المنثور» (٥/ ١٠٧).

(٢) عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانَه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب (س٥/ ٩٤).

(٣) وصيغة الاستقبال «يشركون» للدلالة على تجدد شركهم واستمراره.
والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم (س٥/ ٩٥).

(٤) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٢٨٤) عن ابن عباس وبدون إسناد. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس

(٢) ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ بالوحي أو القرآنِ فإنه يُحْيِي به القلوبَ الْمَيْتَةَ بالجهلِ، أو يقومُ في الدين مقامَ الروحِ في الجسد، وذِكْرُهُ عقيبَ ذلكَ إشارةٌ إلى الطريق الذي به عَلِمَ الرسولُ ﷺ ما تحقَّقَ موعدُهم بِهِ ودُنُوَّهُ وإزاحةٌ لاستبعادِهم اختصاصَه بالعلم به. وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرو يُنْزِلُ من أَنْزَلَ، وعن يعقوبَ مثلَه، وعنه تَنَزَّلُ بمعنَى تَتَنَزَّلُ. وقرأ أبـو بكر تُنَزَّلُ على المضارع المبني للمفعولِ من التنزيل. ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ بأمره أو مِنْ أجْلِهِ. ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أن يَتَّخِذَه رسولاً. ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾ بأنْ أنذِرُوا أي أعلِموا مَنْ نَذَرْتُ بكذا إذا عَلَّمْتُه. ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أنَّ الشأنَ لا إله إلا أنا فاتقونِ[١]، أو خَوِّفُوا أهلَ الكفرِ والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، وقولُه فاتقونِ رجوعٌ إلى مخاطَبَتِهم بما هو المقصودُ. وأنْ مفسِّرةٌ لأنَّ الرُّوحَ بمعنَى الوحْيِ الدالِّ على القول، أو مصدريةٌ في موضِعِ الجرِّ بدلاً مِنَ الرُّوحِ أو النَّصْبِ بنزعِ الخافضِ، أو مخففةٌ من الثقيلة. والآيةُ تدل على أنَّ نزولَ الوحي بواسطةِ الملائكةِ، وأن حاصِلَه التنبيهُ على التوحيدِ الذي هو مُنْتَهَى كمالِ القوةِ العلميةِ والأمرِ بالتقوى الذي هو أقْصَى كمالِ القوة العمليةِ، وأنَّ النبوةَ عطائيةٌ، والآياتُ التي بعدَها دليلٌ على وحدانيتهِ مِنْ حيثُ إنها تدلُّ على أنه تعالى هو الموجِدُ لأُصُولِ العالَم وفروعِهِ على وِفْقِ الحكمةِ والمصلحةِ، ولو كان له شريكٌ لَقَدَرَ على ذلكَ فيلزمُ التمانُعُ.

(٣) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أوجدَهما على مقدارٍ وشكلٍ وأوضاعٍ وصفاتٍ مختلفةٍ قدَّرها وخصَّصَها بحكمته. ﴿ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ منهما أو مما يفتقرُ في وجودِه أو بقائِه إليهما ومما لا يقدرُ على خَلْقِهما. وفيه دليلٌ على أنه تعالى ليسَ من قبيلِ الأَجْرَامِ.

(٤) ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جمادٍ لا حِسَّ بها ولا حِراكَ سيَّالةً لا تحفظُ الوضْعَ والشَّكْلَ. ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ مِنْطِيقٌ مجادِلٌ. ﴿ مُّبِينٌ ﴾ للحجَّة أو خصيمٌ مكافحٌ لخالِقِهِ قائلٌ: مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟. روي أن أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ أَتَى النبيَّ ﷺ بِعَظْمٍ رميمٍ وقال: يا محمدُ أَتَرَى اللهُ يُحْيِيْ هذا بعدَ ما قد رَمَّ؟. فنزلتْ[٢].

(٥) ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ ﴾ الإبلَ والبقرَ والغنمَ. وانتصابُها بِمُضْمَرٍ يفسِّره: ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ أو بالعطفِ على الإنسانِ، وخلقها لكم بَيَانُ ما خُلِقَتْ لأجْلِهِ وما بعدَه تفصيلٌ له. ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يُدْفَأُ به فَيَقِي البَرْدَ. ﴿ وَمَنَـٰفِعُ ﴾ نسلُها ودرُّها وظُهورُها. وإنما عبَّر عنها بالمنافعِ ليتناولَ عِوَضَها[٣]. ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما يُؤْكَلُ منها من اللحوم والشحوم والألبان. وتقديمُ الظرفِ للمحافظةِ على رؤوسِ الآي، أو لأنَّ الأكْلَ منها هو المعتادُ المعتمَدُ عليه في المعاشِ وأما الأكلُ مِنْ سائرِ الحيواناتِ المأكولةِ فَعَلَى سبيلِ التداوي أو التفكُّهِ.

= (فتح القدير ٣/ ١٥٠).

(١) وتصدير الجملة بـ«أنه» للإيذان بداية بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقرير له في الذهن (س٥/ ٩٦).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٨ ـ ٢٧٩). و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٨) و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨).

(٣) وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى (س٥/ ٩٧).

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينةٌ. ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونها مِنْ مراعيها إلى مَرَاحِها بالعشيِّ. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخرِجُونَها بالغَدَاةِ إلى المراعي فإنَّ الأَفْنِيَةَ تتزينُ بها في الوقْتَيْنِ ويُجَلُّ أهلُها في أعْيُنِ الناظرينَ إليها. وتقديمُ الإراحةِ لأنَّ الجَمَالَ فيها أَظْهَرُ فإنها تُقبِلُ ملأَى البطونِ حافلةَ الضروعِ، ثم تأوي إلى الحظائرِ حاضرةً لأَهْلِها. وقُرِىءَ حيناً على أنَّ تُريحون وتَسْرحون وصْفَانِ له بمعنَى تريحون فيه وتسْرحُون فيه.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَحْمَالَكُم. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي إن لم تكنِ الأنعامُ ولم تُخْلَقْ فَضْلاً أنْ تحملُوها على ظهوركم إليه. ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ إلا بِكُلْفَةٍ ومشقَّةٍ. وقرىء بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل المفتوحُ مصدرُ شُقَّ الأمرُ عليه وأصلُه الصَّدْعُ والمكسورُ بمعنى النِّصْفِ، كأنه ذهبَ نِصْفُ قُوَّتِهِ بالتعب. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمَكُم بِخَلْقِهَا لانتفاعِكُم وتيسيرِ الأمرِ عليكم[١].

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطفٌ على الأنعام. ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي لِتَرْكَبُوها وتَتَزَيَّنُوا بها زينةً، وقيلَ هيَ معطوفةٌ على محلِّ لتركبوها. وتغييرُ النظمِ لأنَّ الزينةَ بفعلِ الخالقِ والركوبَ ليس بفعلِه، ولأنَّ المقصودَ من خَلْقِها الركوبُ وأما التزيُّنُ بها فحاصلٌ بالعرضِ. وقُرِىءَ بغيرِ واوٍ، وعلى هذا يُحْتَمَلُ أن يكونَ عِلَّةً لتركَبُوها أو مصدراً في موضعِ الحالِ من أَحَدِ الضميريْنِ أي: متزينينَ أو مُتَزَيَّناً بها. واسْتُدِلَّ بهِ على حُرْمَةِ لحومِها، ولا دليلَ فيه، إذ لا يلزمُ من تعليل الفعل بما يُقْصَدُ منه غالباً أن لا يُقْصَدَ منه غيرُه أصلاً، ويدلُّ عليه أنَّ الآيَةَ مكيةٌ وعامةُ المفسِّرينَ والمحدِّثينَ على أن الحُمُرَ الأهليةَ حُرِّمَتْ عامَ خيبرَ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصَّل الحيواناتِ التي يُحْتَاجُ إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غيرَ ضروريٍّ أَجْمَلَ غيرَها، ويجوزُ أن يكونَ إخباراً بأن له منَ الخلائقِ ما لا عِلْمَ لنا به، وأنْ يُرادَ به ما خلقَ في الجنةِ والنارِ مما لم يخطرْ على قلبِ بَشَرٍ[٢].

(٩) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بيانُ مستقيمِ الطريقِ الموصل إلى الحق، أو إقامةُ السبيلِ وتعديلها رحمةً وفضلاً، أو عليهِ قَصْدُ السبيل يصلُ إليه مَنْ يَسْلُكُه لا محالةَ يقالُ سبيلٌ قَصْدٌ وقاصِدٌ أي مستقيمٌ، كأنهُ يقصدُ الوجْهَ الذي يقصدُهُ السالكُ لا يميلُ عنه. والمرادُ من السبيل الجِنْسُ ولذلك أضاف إليه القَصْدَ وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ حائدٌ عن القصد أو عن الله. وتغييرُ الأسلوبِ لأنه ليس بحقٍّ

---

(١) وتغيير النظم إلى الجملة الفعلية «تحمل...» الدالة على مجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم ـ بحسب المنشأ وبحسب المتعلق ـ وفي الشمول للأوقات والاطراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ ـ وخاصة بالإبل ـ وبحسب المتعلق بالضاربين في الأرض.. وأما سائر النعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الأنعام وعامة لكافة المخاطبين دائماً أو في عامة الأوقات (س٥/٩٨).

(٢) والعدول إلى صيغة الاستقبال في «ويخلق» للدلالة على الاستمرار أو لاستحضار الصورة (س٥/٩٨).

على الله تعالى أن يبيِّنَ طُرُقَ الضلالة، أو لأن المقصودَ بيانُ سبيلهِ وتقسيمُ السبيلِ إلى القصد والجائرِ إنما جاء بالعَرَضِ. وقُرِىءَ ومنكم جائرٌ أي عن القَصْدِ. ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ. ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتكُم أجمعينَ لهدَاكُم إلى قَصْدِ السبيل هدايةً مستلزمةً للاهتداء[1].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحابِ، أو مِنْ جانبِ السماء. ﴿مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونَهُ، ولكم صِلَةَ أَنْزَلَ أو خَبَرُ شراب ومِنْ تبعيضية متعلقة به، وتقديمُها يوهِمُ حَصْرَ المشروبِ فيهِ ولا بأسَ به لأنَّ مياهَ العيونِ والآبار منه لقوله: ﴿فسلكه ينابيعَ﴾[2] وقوله ﴿فأسكنَّاه في الأرض﴾[3] ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكونُ شجرٌ يعني الشجرَ الذي ترعاه المواشي. وقيل كلَّ ما نَبَتَ على الأرض شَجَرٌ قال:

يعلِفُهَــا اللَّحْــمَ إِذَا عَــزَّ الشَّجَــر والخَيْــلُ فــي إِطْعَــامِهَــا اللَّحْـم ضَــرَر

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تَرْعون، مِنْ سَامتِ الماشيةُ وأسامَها صاحِبُها، وأصلُه السَّوْمَةُ وهيَ العلامةُ لأنَّها تُؤثر بالرعي علاماتٍ.

(١١) ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنونِ على التفخيم. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وبعضُ كلِّها إذْ لم يَنبتْ في الأرضِ كلُّ ما يمكنُ من الثِّمار. ولعل تقديمَ ما يُسَامُ فيهِ على ما يُؤكَلُ منه لأنه سيصيرُ غِذاءً حيوانياً هوَ أشرفُ الأغذيةِ، ومن هذا تقديمُ الزرعِ، والتصريحُ بالأجناسِ الثلاثةِ وترتيبُها[4]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجودِ الصانعِ وحِكْمَتِهِ، فإنَّ مَنْ تأمَّلَ أنَّ الحبةَ تقعُ في الأرضِ وتصلُ إليها نداوةٌ تَنْفُذُ فيها، فَيَنْشَقُّ أعلاها ويخرجُ منه ساقُ

---

(١) قوله «على الله» حيث آثر حرف الاستعلاء «على» على أداة الانتهاء «إلى» لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه (س٥/ ١٠٠).

(٢) الزمر: «٢١».

(٣) المؤمنون: «١٨».

(٤) تقديم الزرع على ما عداه لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش.
وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه أدامٌ من وجه وفاكهة من وجه.
وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها.
وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.
وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر ـ مع اندراجها تحت قوله تعالى «ومن كل الثمرات» للإشعار بفضلها. وتقديم الشجر عليها ـ مع كونه غذاء للأنعام ـ لحصوله بغير صنع بشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإن مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر (س٥/ ١٠١).

الشجرة، وينشقُّ أسفلُها فيخرجُ منه عروقُها. ثم ينمو ويخرجُ منه الأوراقُ والأزهارُ والأكمامُ والثمارُ، ويشتمل كل منها على أجسامٍ مختلفةِ الأشكالِ والطباعِ مع اتحادِ الموادِّ ونسبةِ الطبائعِ السُّفْلِيَّةِ والتأثيراتِ الفلكيةِ إلى الكلِّ، عَلِمَ أنَّ ذلكَ ليسَ إلا بفعلِ فاعلٍ مختارٍ مقدَّسٍ عنْ منازعةِ الأضدادِ والأندادِ، ولعلَّ فَصْلَ الآيةِ بهِ لذلكَ.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ بأنْ هيَّأَها لمنافِعِكُم[1]. ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حالٌ من الجميعِ أي نَفَعَكُم بها حالَ كونِها مسخراتٍ لله تعالى خلَقَها ودبَّرَهَا كيفَ شاء، أو لِمَا خُلِقْنَ له بإيجادِهِ وتقديرِه، أو لحكمِهِ. وفيه إيذانٌ بالجوابِ عما عسَى أنْ يُقَالَ إنَّ المؤثِّرَ في تكوينِ النباتِ حركاتُ الكواكبِ وأوضاعُها، فإنَّ ذلكَ إنْ سَلِمَ فلا ريبَ في أنها أيضاً ممكنةُ الذاتِ والصفاتِ واقعةٌ على بعضِ الوجودِ المحتملةِ، فلا بدَّ لها مِنْ مُوجِدٍ مخصِّصٍ مختارٍ واجبِ الوجودِ دَفْعَاً للدَّوْرِ والتَّسَلْسُلِ. أو مصدرٌ ميميٌّ جُمِعَ لاختلافِ الأنواعِ. وقرأ حفصٌ والنجومُ مسخراتٌ على الابتداء والخبر فيكونُ تعميماً لِلْحُكْمِ بعدَ تخصيصِه، ورفعَ ابنُ عامرٍ الشمسَ والقمرَ أيضاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جَمَعَ الآيةَ وذكَرَ العقلَ لأنها تدلُّ أنواعاً مِنَ الدلالةِ ظاهرةً لذوي العقولِ السليمةِ غيرَ مَحُوجَةٍ إلى استيفاءِ فِكْرٍ كأحوالِ النباتِ.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على الليل، أي وسخَّرَ لكم ما خلقَ لكم فيها مِنْ حيوانٍ ونباتٍ. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أصنافه فإنها تتخالفُ باللون غالباً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ اختلافَها في الطِّباع والهيئاتِ والمناظرِ ليس إلا بصنعِ صانعٍ حكيمٍ.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ جعلَه بحيثُ تتمكَّنُونَ مِنَ الانتفاع به بالركوبِ والاصطيادِ والغَوْصِ. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمكُ، ووصفَه بالطراوةِ لأنه أرطبُ اللحوم يُسْرِعُ إليه الفسادُ فَيُسَارَعُ إلى أَكْلِهِ، ولإظهارِ قُدْرَتِهِ في خَلْقِهِ عَذْباً طرياً في ماءِ زُعَاقٍ. وتمسَّكَ بهِ مالكٌ والثوريُّ على أنَّ مَنْ حَلَفَ أنْ لا يأكلَ لحماً حنثَ بأكلِ السَّمَكِ، وأُجِيبَ عنه بأنَّ مَبْنَى الأيمانِ على العُرْفِ وهوَ لا يُفْهَمُ منه عندَ الإطلاقِ، ألا ترى أنَّ الله تعالى سمَّى الكافرَ دابةً ولا يحنثُ الحالِفُ على أن لا يركبَ دابةً بركوبهِ. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤِ والمَرْجَانِ أي تَلْبَسُها نساؤُكم، فَأُسْنِدَ إليهم لأنهنَّ مِنْ جُمْلَتِهِم ولأنهنَّ يتزيَّنَّ بها لأَجْلِهِم. ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ. ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواريَ فيه تشقُّه

---

(١) وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين. وإيثار صيغة الماضي «سخر» للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره. (س٥/ ١٠١).

بحيزومها، من المخر وهو شق الماء، وقيل صوت جري الفلك. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفونَ نعمَ الله تعالى فتقومونَ بحقِّها، ولعلَّ تخصيصَه بتعقيبِ الشكرِ لأنهُ أقوى في باب الإنعام مِنْ حيثُ إنه جعلَ المهالكَ سَبَباً للانتفاعِ وتحصيلِ المعاشِ.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً رواسيَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أنْ تميلَ بكم وتضطربَ، وذلك لأنَّ الأرضَ قبلَ أنْ تُخلَقَ فيها الجبالُ كانتْ كُرَةً خفيفةً بسيطةَ الطَّبْعِ، وكان مِنْ حقِّها أنْ تتحرَّكَ بالاستدارةِ كالأفلاك، أو أنْ تتحركَ بأدنى سببٍ للتحريكِ فلمَّا خُلِقَتِ الجبالُ على وجْهِهَا تفاوتَتْ جوانِبُهَا وتوجَّهتِ الجبالُ بِثِقْلِهَا نحوَ المركزِ فصارتْ كالأوتادِ التي تمنعُها عنِ الحركةِ. وقيلَ لما خلقَ اللهُ الأرضَ جَعَلَتْ تمورُ فقالتِ الملائكةُ: ما هيَ بمقرٍّ أحدٍ على ظَهْرِهَا فأصبحتْ وقدْ أُرْسِيَتْ بالجبالِ. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعلَ فيها أنهاراً، لأنَّ أَلْقَى فيه معناه[1]. ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصِدِكم، أو إلى معرفةِ الله سبحانه وتعالى.

(١٦) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معالمَ يَسْتَدَلُّ بها السابلةُ من جبلٍ وسَهْلٍ وريحٍ ونحوِ ذلكَ. ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحارِ، والمرادُ بالنجمِ الجِنْسُ ويدل عليه قراءةُ وبالنُّجُم بضمتينِ وضمَّةٍ وسكونٍ على الجمْعِ. وقيل الثُّرَيَّا والفرقدانِ وبناتُ نَعْشٍ والْجَدْيُ. ولعلَّ الضميرَ لقريشٍ لأنَّهم كانوا كثيري الأسفارِ للتجارة مشهورينَ بالاهتداء في مَسَايِرِهِمْ بالنجومِ. وإخراجُ الكلامِ عن سُنَنِ الخطابِ وتقديمُ النجمِ وإقحامُ الضميرِ للتخصيصِ كأنه قيل: وبالنجم خصوصَاً هؤلاءِ خصوصَاً يهتدونَ، فالاعتبارُ بذلكَ والشكرُ عليه ألزمُ لهمْ وأَوْجَبُ عليهم.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ إنكارٌ بعد إقامةِ الدلائل المتكاثرةِ على كمالِ قدرته وتناهي حكمتهِ والتفرُّدِ بخلْقِ ما عدَّدَ مِنْ مُبْدَعَاتِه لأنْ يساويَهُ ويستحق مشاركته ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شيءٍ مِنْ ذلكَ بلْ على إيجادِ شيءٍ ما، وكان حقُّ الكلامِ أفمنْ لا يخلُق كَمَنْ يخلُقُ، لكنه عَكَسَ تنبيهاً على أنهم بالإشراكِ بالله سبحانه وتعالى جعلُوهُ من جِنْسِ المخلوقاتِ العجَزةِ شبيهاً بها. والمرادُ بِمَنْ لا يخلُق كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَه وتعالَى مغلّباً فيهِ أولو العلمِ منهم، أو الأصنامِ وأَجْرَوْهَا مَجْرَى أولي العلمِ لأنَّهم سمُّوهَا آلهةً ومِنْ حقِّ الإلهِ أنْ يَعْلَمَ، أو للمشاكلةِ بينَه وبينَ مَنْ يخلُقُ، أو للمبالغةِ وكأنه قيلَ: إنَّ مَنْ يخلُق ليسَ كَمَنْ لا يخلقُ مِنْ أولي العلم فكيفَ بما لا عِلْمَ عندَه؟[2] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرِفوا فسادَ ذلكَ فإنّهُ لجلائِه كالحاصلِ للعقلِ الذي يحضرُ عندَه بأدْنَى تذكُّرٍ والتفاتٍ.

---

(١) أي أن ألقى فيه معنى الجعل.

(٢) والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها (س٥/ ١٠٤).

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ لا تَضبِطُوا عددَها فضلاً أنْ يطيقوا القيامَ بشكرِها، أَتْبَعَ ذلكَ تعدادَ النِّعمِ وإلزامَ الحُجَّةِ على تَفَرُّدِهِ باستحقاقِ العبادةِ تنبيهاً على أنَّ وَرَاءَ ما عدَّدَ نعماً لا تنحصرُ، وأنَّ حقَّ عبادتِهِ تعالى غيرُ مقدور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيثُ يتجاوزُ عن تقصيرٍ في أداءِ شكرِها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يقطعُها لتفريطِكُم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبةِ على كُفْرَانِهَا[١].

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ مِنْ عقائدِكم وأعمالِكم، وهو وعيدٌ وتزييفٌ للشِّركِ باعتبارِ العلمِ بعدَ تزييفِهِ باعتبارِ القدرة[٢].

(٢٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي والآلهةُ الذين تعبدونَهم مِنْ دونهِ. وقرأَ أبو بكر يَدْعُونَ بالياء، وقرأَ حفصٌ ثَلاثَتَها بالياء[٣]. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ لما نَفَى المشاركةَ بينَ مَنْ يخلقُ ومَنْ لا يخلقُ بَيَّنَ أنَّهم لا يخلُقُونَ شيئاً لِيَنْتُجَ أنَّهم لا يشاركونَه، ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بأنْ أثبَتَ لهم صفاتٍ تنافي الألوهيةَ فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأنهم ذواتٌ ممكنةٌ مفتقرةُ الوجودِ إلى التخليق، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ واجبَ الوجود[٤].

(٢١) ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ همْ أمواتٌ لا تعتريهِمُ الحياةُ، أو أمواتٌ حالاً أو مآلاً. ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بالذاتِ ليتناولَ كلَّ معبود، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ حياً بالذاتِ لا يَعْتَرِيْهِ المماتُ. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يَعْلَمُونَ وقتَ بَعْثِهم، أو بَعْثِ عَبَدَتِهِمْ فكيفَ يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ على عبادتِهم، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ عالماً بالغيوبِ مقدِّراً للثوابِ والعقابِ، وفيه تَنْبِيْهٌ على أنَّ البعثَ مِنْ توابعِ التكليفِ.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تكريرٌ للمدَّعى بعدَ إقامةِ الحُجَجِ. ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. بيانٌ لما اقتضَى إصرارَهم بعدَ وضوحِ الحقِّ وذلكَ عدمُ إيمانِهم بالآخرةِ، فإنَّ المؤمنَ بها يكونُ طالباً للدلائلِ متأمِّلاً فيما يسمعُ فينتفعُ به، والكافرُ بها يكونُ حالُه بالعكسِ، وإنكارُ قلوبِهم ما لا يُعْرَفُ إلاَّ بالبرهانِ اتِّبَاعاً للأَسْلافِ وَرُكُوناً إلى المألوفِ، فإنهُ ينافي النظرَ والاستكبارَ عن اتباعِ الرسولِ وتصديقِهِ والالتفاتِ إلى قولِه، والأولُ هوَ العُمْدَةُ في البابِ ولذلك رتَّبَ عليه ثبوتَ الآخَرِيْنَ.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ فيجازيهم، وهوَ في موضعِ الرفعِ

---

(١) تقديم وصف المغفرة على الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (س٥/ ١٠٥).

(٢) وتقديم السر على العلن لبيان تحقيق المساواة بين العِلمين كأن علمه تعالى بالسر أقدم فيه بالعلن، أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم منه بحالته الثانية (س٥/ ١٠٥).

(٣) ثلاثتها أي (تسرون وتعلنون وتدعون).

(٤) وبناء الفعل للمفعول «يُخلَقون» للإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله (س٥/ ١٠٦).

بِجَرَمَ لأنهُ مصدرٌ أو فِعْلٌ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلاً عن الذين اسْتَكْبَرُوا عَنْ توحيدِه أو اتباعِ الرسول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ القائلُ بعضُهم على التَّهَكُّمِ أو الوافدونَ عليهم أو المسلمونَ. ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما تَدَّعُونَ نُزُولَه، أوِ المنزَّلُ أساطيرُ الأولينَ، وإنما سَمَّوْهُ منزلاً على التهكم أو على الفَرَضِ أي على تقديرِ أنه مُنَزَّلٌ فهوَ أساطيرُ الأولينَ لا تحقيقَ فيهِ، والقائلونَ قيلَ همُ المقْتَسِمُون.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيْ قالوا ذلكَ إضلالاً للناسِ فحملُوا أوزارَ ضَلاَلِهِم كاملةً فإنَّ إضْلاَلَهُم نتيجةُ رُسُوخِهِم في الضِلال. ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وبعضَ أوزارِ ضلالِ مَنْ يُضِلُّونَهم وهو حِصَّةُ التَّسَبُّبِ. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ من المفعولِ أي يضِلُّونَ مَنْ لا يعلمُ أنَّهم ضُلاَّلٌ. وفائدتُها الدلالةُ على أنَّ جَهْلَهُم لا يُعْذِرُهُم، إذْ كانَ عليهم أنْ يبحثُوا وَيُمَيِّزُوا بينَ المحقِّ والمبْطِلِ. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بِئْسَ شيئاً يَزِرُونَهُ فِعْلُهم.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أيْ سَوَّوْا منصوباتٍ ليمكُروا بها رسلَ اللهِ عليهم الصلاة والسلام. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ فأتاها أَمْرُهُ مِنْ جهةِ العَمَدِ التي بَنَوْا عليها بأنْ ضُعْضِعَتْ. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وصارَ سببَ هلاكِهم. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحتسبونَ ولا يتوقَّعونَ، وهو على سبيلِ التمثيل. وقيلَ المرادُ بهِ نُمْرُوذُ بْنُ كنعانَ بَنَى الصَّرْحَ ببابلَ سُمْكُهُ خمسةُ آلافِ ذراعٍ ليترصَّدَ أَمْرَ السماءِ، فَأَهَبَّ اللهُ الريحَ فَخَرَّ عليه وعلى قومِه فَهَلَكُوا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهم أو يُعَذِّبُهم بالنارِ[1] كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافَ إلى نفسه استهزاءً، أو حكايةً لإضافَتِهم زيادةً في توبيخهم. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تُعَادُونَ المؤمنينَ في شَأْنِهم. وقرأ نافعٌ بكسرِ النونِ بمعنَى تُشَاقُّونَنِي فإنَّ مُشَاقَّةَ المؤمنينَ كمشاقةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي الأنبياءُ أو العلماءُ الذينَ كانوا يَدْعُونَهم إلى التوحيد فَيُشَاقُّونَهم ويتكبَّرونَ عليهم، أو الملائكةُ. ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ الذِلَّةُ والعذابُ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفائدةُ قولِهم إظهارُ الشَّمَاتَةِ بهم وزيادةُ الإهانة، وحكايتُه لأَنْ يكونَ لُطفاً وَوَعْظاً لِمَنْ سَمِعَه.

---

(١) وتقديم الظرف «يوم» للإخبار بأن جزاءهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخروياً فتبقىٰ النفس مترقبة إلى روده سائلة عنه.. (س٥/١٠٨).

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء، وقُرِئ بإدغام في التاءِ[١]. وموضعُ الموصولِ يحتملُ الأوْجُهَ الثلاثةَ[٢]. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأنْ عرَّضوها للعذابِ المُخْلِدِ. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ فسالَمُوا وأَخْبَتُوا حينَ عايَنُوا الموتَ. ﴿مَا كُنَّا﴾ قائلينَ ما كُنَّا. ﴿نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ كفرٍ وعُدْوانٍ، ويجوز أن يكونَ تفسيراً للسَّلَمِ على أنَّ المرادَ به القولُ الدالُّ على الاستسلام. ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي فتجيبُهُمُ الملائكة بلى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل قوله ﴿فألقوا السلم﴾ إلى آخرِ الآيةِ استئنافٌ ورجوعٌ إلى شرحِ حالِهم يومَ القيامة، وعلى هذا أَوَّلَ مَنْ لم يُجَوِّزِ الكذبَ يَوْمَئِذٍ ما كُنَّا نعملُ مِنْ سوءٍ بأنا لم نكنْ في زَعْمِنَا واعتقادِنا عاملينَ سُوءاً، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الرادُّ عليهم هوَ الله تعالَى أوْ أُولُو العلم.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ صِنفٍ بابَها المُعَدَّ له. وقيلَ أبوابُ جهنَّمَ أصنافُ عذابِها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنَّمُ[٣].

(٣٠) ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني المؤمنينَ. ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أيْ أَنْزَلَ خيراً، وفي نَصْبِه دليلٌ على أنهم لم يتلعثَمُوا في الجواب، وأطبقُوهُ على السؤالِ معترفينَ بالإنزالِ على خلافِ الكفرةِ. رُوِيَ أنَّ أحياءَ العربِ كانُوا يَبْعثُونَ أيامَ الموسمِ مَنْ يأتِيهم بِخَبَرِ النبيِّ ﷺ، فإذا جاءَ الوافِدُ المقْتَسِمِينَ قالوا له ما قالُوا وإذا جاءَ المؤمنينَ قالوا له ذلكَ[٤]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مكافأةٌ في الدنيا. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وَلَثوابُهم في الآخرةِ خيرٌ منها، وهو عِدَةٌ للذين اتقوا على قولهم، ويجوز أن يكون بما بعده حكايةً لقولهم بدلاً وتفسيراً لخيراً على أنه منتصبٌ بقالوا. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فَحُذِفَتْ لتقدُّم ذكرها، وقولُه:

(٣١) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع المشتهيات، وفي تقديم الظرف تنبيهٌ على أن الإنسان لا يجد جميعَ ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مثْلَ هذا الجزاءِ يجزيهم، وهو يؤيد الوجْهَ الأوَّل.

---

(١) أي إدغام التاء في التاء بقوله «تتوفاهم».

(٢) أي الجر على النعت للكافرين أو بدلاً منهم، أو النصب أو الرفع على الذم.
وفائدة الموصول تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره لحين الموت دون من آمن (س٥/١٠٩).

(٣) وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعلِّيته (س٥/١٠٩).

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥/١٧) بدون راوٍ ولا سند.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل فَرِحِينَ ببشارة الملائكة إيَّاهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لِتَوَجُّهِ نفوسِهم بالكلية إلى حضرة القدس. ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيقكم بَعْدُ مكروه. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تُبْعَثُونَ فإنها مُعَدَّةٌ لكم على أعمالكم. وقيل هذا التوفي وفاةُ الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفارَ المارَّ ذِكْرُهم. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل[1]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه. والحَيْقُ لا يُسْتَعْمَلُ إلا في الشرِّ.

(٣٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاءً أو منعاً للبِعْثَة والتكليف متمسكينَ بأنَّ ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدةُ فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجِّينَ بأنها لو كانت مستقبحةً لما شاء الله صُدُورَها عنهم ولشاء خِلافَه ملجئاً إليه، لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قُبْحَ أعمالهم، وفيما بعده تنبيهٌ على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرَّموا حِلَّهُ وردُّوا رُسُلَه. ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلا الإبلاغ الموضِّحُ للحق وهو لا يؤثر في هدي مَنْ شاء الله هُدَاهُ لكنه يؤدي إليه على سبيلِ التوسط، وما شاء الله وقوعَه إنما يجب وقوعُه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له[2]. ثم بين أن البِعْثة أَمْرٌ جَرَتْ به السُّنَّةُ الإلهية في الأُمم كلِّها سبباً لهدي من أراد اهتداءَه وزيادةً لضلال من أراد ضلاله، كالغِذَاء الصالح فإنه ينفع المزاجَ السويَّ ويقويه ويضرُّ المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

---

(١) وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأن إتيانَه لطف به عليه الصلاة والسلام (س/٥/ ١١١).

(٢) وإيراد كلمة «على» بقوله «على الرسل» للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم إيفاؤه (س/٥/ ١١٢).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يُرِدْ هداهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تَحقُّقَ الضلال وثباتَه بفعل الله تعالى وإرادته من حيثُ إنه قسيم مِنْ هدي الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمودَ وغيرهم لعلكم تعتبرون[1].

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعنيُّ بِمَنْ حقَّتْ عليه الضلالة. وقرأ غيرُ الكوفيينَ لا يُهْدَىٰ على البناء للمفعول، وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيدَ أنكروا البعث مقسِمينَ عليه زيادةً في البيت على فساده، ولقد رد الله عليهم أبلغَ ردٍّ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم. ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه بلى فإنّ يبعث موعدٌ من الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخُلْفِ في وعده، أو لأن البعث مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من مواجِبِ الحكمة التي جرتْ عادته بمراعـاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعَه، ثم إنه تعالى بَيَّنَ الأمرينِ فقال:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي يبعثهم ليبين لهم ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق[2] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له مِنْ حيثُ الحكمةُ، وهو المميِّزُ بَيْنَ الحق والباطل والمحقُّ والمبطلُ بالثواب والعقاب[3]، ثم قال:

---

(١) وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنه غني عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان.
وترتيب النظر على السير لما أنه بعده، وأن ملاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء (س٥/ ١١٣).

(٢) والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلّية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين (س٥/ ١١٤).

(٣) وخص الكافرين بإسناد العلم إليهم لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً (س٥/ ١١٤).

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانه. وتقريرُه أنَّ تكوينَ الله بمحض قدرته ومشيئته لا تَوَقُّفَ له على سَبْقِ الموادِّ والمدَدِ، وإلاَّ لَزِمَ التسلسلُ، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سَبْقِ مادةٍ ومثالٍ أمكن له تكوينها إعادةً بعده. ونَصَبَ ابنُ عامرٍ والكسائي ههنا وفي يٓس[١]، فيكون عطفاً على نقولَ أو جواباً للأمر.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابُه المهاجرون ظَلَمَهُم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكةَ بعدَ هجرة رسول الله ﷺ وهم بلالٌ وصهيبٌ وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي في حقه ولوجهه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مَبَاءَةً حسنةً وهي المدينة أو تَبْوِئَةً حسنةً. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمرَ رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له: خُذْ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضلُ[٢]. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضميرُ للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارَيْنِ لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحلُّه النصب أوِ الرفعُ على المدح. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إلى الله مفوِّضِيْنَ إليه الأمرَ كلَّه[٣].

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً، أي جرتِ السُّنَّةُ الإلهية بأن لا يُبْعَثَ للدعوة العامة إلا بشراً يُوْحَى إليه على ألسنة الملائكة، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة الأنعام[٤]، فإنْ شَكَكْتُم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبارِ لِيُعْلِمُوكُم. ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليلٌ على أنه تعالى لم يرسلِ امرأةً ولا مَلَكاً للدعوة العامة، وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[٥] معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يُبْعَثُوا إلى الأنبياء إلا مُتَمَثِّلِينَ بصورةِ الرجال، وَرُدَّ بما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريلَ صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

---

(١) أي بنصب «يكون» وفي سورة يٓس «٨٢» بينما قرأ الباقون «فيكونُ» بالرفع.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن جرير.

(٣) تقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام توكلهم (س٥/١١٦).

(٤) وهو قوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون» الأنعام «٩».

(٥) فاطر: «١».

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب، كأنه جواب قائل قال: بِمَ أُرسِلُوا؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً في الاستثناء مع رجالاً أي، وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربتُ إلا زيداً بالسوط، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بيوحي على المفعولية، أو الحال من القائم مُقَامَ فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراضٌ، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيتِ والإلزام. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن وإنما سُمِّيَ ذِكْرَاً لأنه موعظة وتنبيه. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكْرِ بِتَوَسُّط إنزاله إليك مما أُمِرُوا به ونُهُوا عنه، أو مما تشابه عليهم، والتبيينُ أعمُّ من أن ينصَّ بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

(٤٥) ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي المكَرَاتِ السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صَدَّ أصحابه عن الإيمان. ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خُسِفَ بقارونَ. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتةً من جانب السماء كما فُعِلَ بقوم لوطٍ.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي متقلّبينَ في مَسَايِرِهم ومَتَاجِرِهم. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1].

(٤٧) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ على مخافة بأنْ يُهْلِكَ قوماً قبلَهم فيتخوَّفوا فيأتيهم العذابُ وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا مِنْ تخوَّفْتُه إذا تَنَقَّصْتُه. رُوِيَ أن عمرَ رضي الله تعالى عنه قال على المِنْبَرِ: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هُذَيْلٍ فقالَ: هذه لغتنا التخوُّفُ التنقُّصُ، فقال هل تعرف العربُ ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخَـوَّفَ الـرَحْـلُ مِنْهَـا تَـامكـاً قَـرداً كمَـا تَخَـوَّفَ عُـود النَبْعَـةِ السَّفَـنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسيرَ كتابِكم ومعاني كلامِكم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٤٨) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ استفهامُ إنكارٍ أي قد رأوا أمثال هذه الصنائعِ فما بالُهم لم يتفكروا فيها لِيَظْهَرَ لهم كمالُ قدرته وقهره فيخافوا منه، وما موصولةٌ مُبْهَمَةٌ بيانُها: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي أَوَلم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال مُتَفَيِّئَةٌ. وقرأ حمزة والكسائي تَرَوْا بالتاء، وأبو عمرو تتفيّؤ بالتاء. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ عن أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كلِّ واحد منها، استعارةٌ من يمين

---

(١) إيراد الجملة الإسمية للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام (س٥/ ١١٧).

الإنسان وشِمَالِهِ، ولعلّ توحيدَ اليمين وجَمْعَ الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجَمْعِهِ في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله. والمرادُ من السجود الاستسلامُ سواءً كان بالطبع أو الاختيار، يُقَالُ سَجَدَتِ النخلةُ إذا مالت لكثرة الْحَمْلِ وسجدَ البعيرُ إذا طَأْطَأَ رأسَه لِيُرْكَبَ، وسُجَّداً حال من الظلال، وهم داخرون حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقادةً لما قُدِّرَ لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. والأَجْرامُ في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها، وجَمْعُ داخرون بالواو لأنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا مَنْ يعقل أو لأن الدخورَ من أوصاف العقلاء. وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفُلْكِ وهو جانبُه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذةً في الارتفاع والسطوع وشِماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعةً على الرُّبْعِ الشرقي من الأرض.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينقاد انقياداً يعمُّ الانقيادَ لإرادته وتأثيره طبعاً والانقيادَ لتكليفه وأَمْرِهِ طوعاً ليصح إسناده إلى عامَّةِ أهل السموات والأرض، وقولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لهما، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء[1]. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عَطفٌ على الْمُبَيِّنِ به عَطْفَ جبريلَ على الملائكةِ للتعظيم، أو عَطْفَ المجرَّداتِ على الجسمانياتِ، وبه احتج مَنْ قال إن الملائكة أرواح مجردة، أو بيانٌ لما في الأرض والملائكةُ تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، أو المراد بها ملائكتها من الْحَفَظَةِ وغيرِهم. وما لَمَّا اسْتُعْمِلَ للعقلاء ـ كما استعمل لغيرهم ـ كان استعمالُه حيثُ اجتمع القبيلانِ أَوْلَى من إطلاق مَنْ تغليباً للعقلاء. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2]. والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون، أو بيان له وتقرير لأن مَنْ خاف الله تعالى لم يستكبرْ عن عبادته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾[3] من الطاعة والتدبير،

---

(١) وتقديمه على الملائكة لقِلّته، ولئلا يقع فصل بين المبيَّن والمبيَّن.
وإفراد لفظ الدابة ـ مع أن المراد الجمع ـ لإفادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب (س٥/١١٨).

(٢) الأنعام: «٦١».

(٣) وإيراد «يُؤْمَرون» مبنياً للمفعول جرياً عن سنن الجلالة، وإيذاناً بعدم الحاجة للتصريح به لاستحالة استناده لغيره

وفيه دليل على أنَّ الملائكة مكلَّفون مُدَارُونَ بين الخوف والرجاء.

(٥١) ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أنَّ المعدود يدل عليه دلالةً على أن مَسَاقَ النهي إليه، أو إيماءٌ بأن الاثنينيةَ تنافي الألوهيةَ كما ذَكَرَ الواحدَ في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية[1]. ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ نَقَلَ من الغَيْبَةِ إلى التكلُّم مبالغةً في الترهيب وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإلهُ الواحد فإيايَ فارهبونِ لا غيرَ.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِبًا﴾ لازماً، لما تقرر من أنه الإله وحدَه والحقيق بأن يُرْهَبَ منه. وقيل واصباً من الوَصَبِ أي وله الدين ذا كُلْفَةٍ. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضارَّ سواهُ كما لا نافعَ غيرُه، كما قال تعالى:

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ وأيُّ شيء اتصل بكم من نعمة فهو مِنَ الله، وما شرطيةٌ أو موصولةٌ متضمنة معنَى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنَّ استقرارَ النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجُؤَارُ رفعُ الصوت في الدعاء والاستغاثة[2].

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ وهم كفاركم. ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره[3]، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإنْ كان خاصاً بالمشركين كان مِنْ للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون مِنْ للتبعيض على أنْ يعتبرَ بعضُهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[4].

= سبحانه (س٥/ ١١٩).

(١) وإظهار الفاعل «الله» وتخصيصه بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية، وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين.. (س٥/ ١١٩).

(٢) وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر، وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنىٰ ما ينطلق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام، والتعبيرُ عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة، وإيراد ما المُعْرِبة عن العموم ما لا يخفىٰ من الجزالة والفخامة. ولعل إيراد «إذا» دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب (س٥/ ١٢٠).

(٣) والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك والكفران (س٥/ ١٢٠).

(٤) لقمان: «٣٢».

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بِشِرْكِهِم كفرانَ النعمة أو إنكارَ كونِها مِنَ الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أَمْرُ تهديد[١]. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَغْلَظَ وعيدَه[٢]. وقرىء ﴿فَتُمَتَّعُوا﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد والفاءُ للجواب.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا عِلْمَ لها لأنها جماد فيكون الضمير لما، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالاتٍ مثلَ أنَّها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائدَ إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعولَ له محذوفٌ للعلم به. ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرُّبِ إليها، وهو وعيد لهم عليه[٣].

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خُزاعةُ وكِنانَةُ يقولون: الملائكة بناتُ الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له من قولهم، أو تَعَجُّبٌ منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفعُ بالابتداءِ والنصبُ بالعطفِ على البنات على أن الْجَعْلَ بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعدُ تجويزُه في المعطوف.

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ أُخبِرَ بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار أو دامَ النهارَ كلَّه. ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسودادُ الوجهِ كنايةٌ عن الاغتمام والتشوير[٤]. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ غيظاً مِنَ المرأة.

(٥٩) ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾. من سوء المبَشَّرِ به عُرْفاً[٥]. ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ مُحَدِّثاً نَفْسَه متفكِّراً في أن يتركَهُ. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه ويَئِدُهُ، وتذكير الضمير للفظ ما. وقرىء بالتأنيث فيهما. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلُّه عندهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفةُ السوء، وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإناث وَوَأْدِهِنَّ خشيةَ

---

(١) والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط (س٥/ ١٢٠).
(٢) ولم يذكر مفعول «تعلمون» للإشعار بأنه لا يوصف من شدته (س٥/ ١٢٠).
(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب «لتسألنّ...» ينبىء عن كمال الغضب وشدة الوعيد (س٥/ ١٢١).
(٤) التشوير هو الإشارة والتلويح، يقال: أشار إشارة وشوّر تشويراً أي لوّح.. (المصباح المنير «شور»).
(٥) والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء (س٥/ ١٢١).

الإملاق[١]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أَضْمَرَها من غير ذِكْرٍ لدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قطُّ بِشُؤْمِ ظُلْمِهِم. وعن ابن مسعود[٢] رضي الله تعالى عنه: كادَ الْجُعَلُ يَهْلِكُ في جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابنِ آدمَ، أو مِنْ دابَّةٍ ظالمة. وقيل لو أَهْلَكَ الآباءَ بكفرهم لم يكن الأبناءُ. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بل هلكوا أو عُذِّبوا حينئذٍ لا محالةَ، ولا يلزم من عموم الناس وإضافةِ الظلم إليهم أن يكونوا كلُّهم ظالمينَ حتى الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، لجواز أنْ يُضافَ إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم[٣].

(٦٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسل وَأَرَاذِلِ الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، وهو: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي عند الله، كقوله: ﴿ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده لَلْحُسْنَىٰ﴾[٤]. وقرىء الكُذُبُ جمع كَذُوبٍ صفة للألسنة. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ رَدٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِضِدِّهِ. ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدَّمونَ إلى النارِ مِنْ أَفْرَطْتُهُ في طلب الماء إذا قَدَّمْتُهُ. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه مِنَ الإفراط في المعاصي، وقرىء بالتشديد مفتوحاً من فَرَّطْتُه في طلب الماء، ومكسوراً من التفريط في الطاعات.

(٦٣) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا وعبَّر باليوم عن زمانها، أو فهو وَلِيُّهُم حين كان يُزَيِّنُ لهم، أو يومَ القيامة على أنه حكايةُ حالٍ ماضية أو آتية. ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين

---

(١) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (س٥/ ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ج١٤/ ١٢٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥٤ رقم ٧٤٧٨) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٤٠) نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه.

(٣) صيغة الاستفعال بقوله «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له.
وقولهُ «لا يستقدمون» تعرض لذكره ـ مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجي الأجل ـ مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سِلْك ما يمتنع (س٥/ ١٢٢).

(٤) فصلت: «٥٠».

الشيطانُ لِلْكَفَرَةِ المتقدمينَ أعمالَهم وهو وَلِيُّ هؤلاءِ اليومَ يغريهم ويُغْوِيهم، وأَنْ يُقَدَّرَ مضافٌ أيْ فهو وليُّ أمثالِهم، والولي القرين أوِ الناصرُ فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغِ الوجوه. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في القيامة.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ للناس. ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ مِنَ التوحيد والقَدَرِ وأحوال المعَادِ وأَحْكَامِ الأفعال. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فِعْلاَ الْمُنَزِّلِ بخلاف التبيين[١].

(٦٥) ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أنبت فيها أنواعَ النبات بعد يُبْسِهَا. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعَ تَدَبُّرٍ وإنصاف.

(٦٦) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ دلالةٌ يُعْبَرُ بها مِنَ الجهل إلى العلم. ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ استئناف لبيان الْعِبْرَةِ، وإنما ذَكَرَ الضمير ووحَّدَه ههنا لِلَّفْظِ وأَنَّثَهُ في سورة المؤمنين[٢] للمعنى، فإنَّ الأنعامَ اسمُ جَمْعٍ ولذلك عدَّه سيبويهُ في المفردات الْمَبْنِيَّةِ على أفعال كأخلاقٍ وأكياسٍ. ومَنْ قال إنه جَمْعُ نَعَمٍ جعلَ الضميرَ للبعض فإنَّ اللَّبَنَ لبعضها دون جميعها أو لواحده أو له على المعنى، فإن المراد به الجنسُ. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نَسْقِيكُم بالفتح هنا وفي المؤمنين. ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا ﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولِّدِ من الأجزاء اللطيفة التي في الفَرْثِ، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعضَ الانهضام في الكَرِشِ. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[٣]: أن البهيمة إذا اعْتَلَفَتْ وانطبخَ العلفُ في كَرِشِهَا كان أسفلُه فرثاً وأوسطُه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أنَّ أَوْسَطَهُ يكون مادة اللَّبَنِ وأعلاه مادةُ الدمِ الذي يغذي البدنَ، لأنهما لا يتكونان في الكَرِشِ بلِ الكبدُ يجذِبُ صُفَارَةَ الطعام المنهضِم في الكرش، ويبقي ثُفْلُهُ وهو الفَرْثُ ثُمَّ يمسكُها ريثما يهضمها هضماً ثانياً فيحدث أخلاطاً أربعةً معها مائية، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكِلْيَةِ والمرارةِ والطِّحالِ، ثُمَّ يُوَزِّعُ الباقي على الأعضاء بِحَسَبِهَا فَيُجْرِي إلى كلٍّ حَقَّهُ على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إنْ كانَ الحيوان أُنْثَى زاد أخلاطُها على قَدَرِ غذائِها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرَّحِم لأجل الجنينِ فإذا انفصل انصبَّ

---

(١) تقديم التبيين على الهدىٰ والرحمة لعله لتقدمه في الوجود.
وتخصيص الهدىٰ والرحمة بالمؤمنين لأنهم المغتنمون لآثاره (س٥/ ١٢٣).

(٢) المؤمنون: «٢١».

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٦٤).

ذلك الزائد أو بعضُه إلى الضُّروعِ، فَيَبْيَضُّ بمجاورة لحومها الغُدَدِيَّةِ البِيضِ فيصير لبناً، ومَنْ تَدَبَّرَ صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاطِ والألبان وإعداد مَقَارِّها ومجاريها والأسبابِ المولِّدة لها والقِوَى المتصرِّفةِ فيها كلَّ وقت على ما يليق به، اضطُرَّ إلى الإقرار بكمال حِكْمَتِهِ وتناهي رحمته. ومِنْ الأُوْلَى تبعيضيةٌ لأنَّ اللَّبَنَ بعضُ ما في بطونها والثانيةُ ابتدائيةٌ كقولك: سقيتُ مِنَ الحوض، لأن بينَ الفرث والدم المحلُّ الذي يبتدأُ منه الإسقاءُ وهي متعلِّقة بنسقيكم أو حالٌ من ﴿لَّبَنًا﴾ قُدِّمَ عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضعُ العِبْرَةِ. ﴿خَالِصًا﴾ صافياً لا يَسْتَصْحِبُ لونَ الدم ولا رائحةَ الفَرْثِ، أو مُصَفًّى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجِهِ. ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ سهلَ المرورِ في حَلْقِهِم، وقرىء سَيِّغاً بالتشديد والتخفيف.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أيْ ونسقيكم مِنْ ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقولُه: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئنافٌ لبيان الإسقاءِ أو بتتخذون، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبرٌ لمحذوفٍ صِفَتُهُ تتخذون، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه. وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأَوَّلَيْنِ لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الثمرات بمعنى الثَّمَرِ، والسَّكَرُ مصدرٌ سُمِّيَ به الخمرُ. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدِّبسِ والخلِّ، والآية إن كانت سابقةً على تحريم الخمرِ فَدَالَّةٌ على كراهتها وإلاَّ فجامعةٌ بينَ العتاب والمِنَّةِ. وقيل السَّكَرُ النبيذ وقيل الطَّعْمُ قال:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سُكْراً

أي تنقلتُ بأعراضِهم. وقيل ما يسدُّ الجوعَ مِنَ السَّكَرِ فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أَلْهَمَهَا وقذف في قلوبها. وقرىء إلى النَّحَلِ بفتحين. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ بأنِ اتخذي، ويجوز أن تكون أنْ مُفَسِّرةً لأنَّ في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضمير على المعنى فإن النحل مُذَكَّرٌ. ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ذُكِرَ بحرف التبعيض لأنها لا تَبْنَي في كل جبل وكلِّ شجر وكل ما يُعْرَشُ مِنْ كَرْمٍ أو سقف ولا في كل مكان منها. وإنما سُمِّيَ ما تَبْنِيْهِ لتتعسَّلَ فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحذقُ المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة، ولعلَّ ذِكْرَهُ للتنبيه على ذلك. وقرىء بِيُوتاً بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يَعرُشُون بضم الراء.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينَها مُرِّها وحُلْوِهَا. ﴿فَٱسْلُكِي﴾ ما أكَلْتِ. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيلُ فيها بقدرته النورَ المرَّ عسلاً من أجوافِك، أو فاسلكي الطُّرُقَ التي ألهمكِ في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك سُبُلَ ربِّكِ لا تتوعرُ عليكِ ولا تَلْتَبِسُ. ﴿ذُلُلًاۚ﴾ جَمْعُ ذَلولٍ وهي حال من السّبل، أي مُذَلّلَةً ذَلّلَهَا اللهُ تعالى وسَهَّلَهَا لكِ، أو من الضمير في اسلكي أي وأنتِ ذُلَلٌ منقادةٌ لما أُمِرْتِ به. ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ كأنه عَدَلَ به عن خطابِ النحل إلى خطاب الناس لأنه محلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. ﴿شَرَابٌ﴾ يعني العسلَ لأنه مما يُشْرَبُ. واحْتَجَّ به مَنْ زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطِرةَ فتستحيل في بطنها عسلاً ثم تقيءُ ادخاراً للشتاء، ومَنْ زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاءً طليّة[1] حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل. فَسَّرَ البطونَ بالأفواه. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسودُ بِحَسَبِ اختلاف سِنِّ النحل والفصلِ. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجونٌ إلا والعسلُ جُزْءٌ منه. مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادةَ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه العسلَ»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فَبَرَأَ فكأنما أُنْشِطَ من عِقَال[2]. وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَنْ تَدَبَّرَ اختصاصَ النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبُّر عَلِمَ قطعاً أنه لا بدَّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ بآجال مختلفة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ يعاد. ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أَخَسِّهِ يعني الْهَرَمَ الذي يشابه الطفوليةَ في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة، وقيل خمس وسبعون[3]. ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ ليصيرَ إلى حالةٍ شبيهة بحالة الطفولية في النِّسْيَانِ وسوءِ الفهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقاديرِ أعمارِكم. ﴿قَدِيرٌ﴾ يميت الشابَّ النشيط ويبقي الْهَرِمَ الفاني. وفيه تنبيه على أن تَفَاوُتَ آجال الناس ليس إلا بتقديرِ قادرٍ حكيم، رَكَّبَ أبنيتهم وعدَّل أمزجتهم على قَدَرٍ معلوم، ولو

---

(١) قوله (طلية) أي ذات بهجة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/١٣٩ رقم ٥٦٨٤) ومسلم (٤/١٧٣٦ ـ ١٧٣٧ رقم ٩١/٢٢١٧) والبغوي في شرح السنة (١٢/١٤٧ رقم ٣٢٣٢).
من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) وإيثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة (س٥/ ١٢٦).

كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغِ التفاوتُ هذا المبلغَ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(٧١) ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مَوَالٍ يتولَّوْنَ رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليكُ حالُهم على خلاف ذلك. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾ بمعطي رزقهم. ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم فإنما يَرُدّون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مُقَرِّرَةٌ لها، ويجوز أن تكون واقعةً موقِعَ الجواب كأنه قيل: فما الذين فُضِّلُوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فَيَسْتَوُوا في الرزق، على أنه ردٌّ وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعضَ مخلوقاته في الألوهية ولا يرضَوْن أن يشاركهم عبيدُهم فيما أنعم الله عليهم فيساووهم فيه. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يتخذون له شركاءَ، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحهم، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر تجحدون بالتاء لقوله: «خلقكم» و«فَضَّلَ بعضكم».

(٧٢) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلَكم. وقيلَ هوَ خَلْقُ حَوَّاءَ مِنْ آدمَ[١]. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وأولادُ أولادٍ أو بنات فإن الحافِدَ هو المسرعُ في الخدمة. والبناتُ يَخْدُمْنَ في البيوت أتمَّ خِدْمة، وقيل هم الأُخْتَانِ على البنات، وقيل الربائبُ، ويجوز أن يُرَادَ بها البنونَ أنفسُهم والعطفُ لِتَغَايُرِ الوصْفَيْنِ[٢]. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ من اللذائذ أو الحلالاتِ، ومِنْ للتبعيض فإنَّ المرزوقَ في الدنيا أُنْمُوذَجٌ منها. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيباتِ ما يحرمُ كالبحائرِ[٣] والسوائبِ[٤]. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نِعَمَهُ إلى الأصنام، أو حَرَّمُوا ما أحل الله لهم. وتقديمُ الصلة على الفعل إما للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغةً، أو للمحافظة على الفواصل[٥].

---

(١) ووضع الظاهر «لكم» موضع المضمر للإيذان بأن المراد أنه جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره. وتقديم المجرور «لكم» للتشويق للمؤخر والاهتمام بالمقدم. (س٥/١٢٨).

(٢) وتقديم المجرور باللام «لكم» على المجرور بمن «من أنفسكم» للإيذان من أول الأمر بعوْد منفعة الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقوية له (س٥/١٢٨).

(٣) البحائر جمع بحيرة وهي الناقة التي تشق أذنها إذا ولدت عشرة أبطن فلا تُركَب ولا يحمل عليها (المفردات مادة بحر).

(٤) السوائب جمع سائبة وهي التي تُسَيَّب في المرعىٰ فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن (المفردات مادة سيب).

(٥) والالتفات إلى الغيبة في «يؤمنون ويكفرون..» للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى =

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ من مطر ونبات، ورزقاً إن جعلتَه مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن يتملَّكوه أو لا استطاعةَ لهم أصلاً، وجَمْعُ الضمير فيه وتوحيدُه في «لا يملك» لأن ما مفردٌ في معنَى الآلهة، ويجوز أن يعودَ إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

(٧٤) ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تَقِيسُونَهُ عليه فإنَّ ضَرْبَ المثلِ تشبيهُ حالٍ بحال[١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ فسادَ ما تعولُون عليه من القياس ـ على أن عبادة عبيدِ الملِكِ أدْخَلُ في التعظيم من عبادتِهِ ـ وعِظَمَ جُرْمِكُم فيما تفعلون. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جَرَأْتُم عليه فهو عليم للنهي، أو أنه يعلم كُنْهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه فَدَعُوا رَأْيَكُم دون نَصِّه، ويجوز أن يُرَادَ فلا تضربوا لله الأمثالَ فإنه يعلم كيف تُضْرَبُ الأمثالُ وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يُضْرَبُ فضرب مثلاً لنفسه وَلِمَنْ عُبِدَ دونَه فقال:

(٧٥) ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾[٢] مثَّل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومَثَّلَ نفسه بالحرِّ المالكِ الذي رَزَقَهُ الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتجَّ بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بَيْنَ الأصنام التي هي أعجزُ المخلوقات وبَيْنَ الله الغنيِّ القادرِ على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييدُ العبدِ بالمملوكية للتمييز عن الحرِّ فإنه أيضاً عَبْدُ الله وبِسَلْبِ القُدْرَةِ للتمييز عن الْمُكَاتِبِ والمأذونِ، وجعْلُه قسيماً للمالكِ المتصرِّفِ يدلُّ على أن المملوكَ لا يَمْلك، والأظْهَرُ أنَّ مَنْ نكرةٌ موصوفة ليطابقَ عبداً، وجَمَعَ الضميرَ في يستوون لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرارُ والعبيد؟. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ كل الحمدِ له، لا يستحقه غيرُه فَضْلاً عن العبادة لأنه مولي النِّعَم كلِّها. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيضيفون نِعَمَهُ إلى غيرِه ويعبدونه لأجلها.

= غيرهم من السامعين، تعجيباً لهم مما فعلوه (س٥/ ١٢٨).

(١) والالتفات فيه إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي (س٥/ ١٢٨).

(٢) قوله تعالى «ومَنْ رزقناه» فيه التفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق.
وقوله «فهو ينفق» عبر بالجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجددي.
وقوله «سراً وجهراً» حيث قدم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه.
ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك لكنهم لا يعلمون بموجبه عناداً (س٥/ ١٣٠).

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(٧٦) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وُلِدَ أخرَسَ لا يَفْهَم ولا يُفْهِم. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عَيَّالٌ وثِقْلٌ على مَنْ يلي أمْرَهُ. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر. وقرىء يُوَجَّهُ على البناء للمفعول ويوجه بمعنى يتوجَّه كقوله أينما أُوَجِّهْ أَلْقَ سَعْدَاً، وتَوَجَّهَ بلفظ الماضي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بِنَجْحٍ وكفايةِ مُهِمٍّ. ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ ومَنْ هو فَهِمٌ مِنْطِيْقٌ ذو كفاية وَرُشْدٍ ينفع الناسَ بِحَثِّهِم على العدل الشامل لمجامعِ الفضائل. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجَّه إلى مطلب إلا ويبلُغه بأقربِ سَعْيٍ. وإنما قابل تلكَ الصفاتِ بهذين الوصفين لأنهما كمالُ ما يقابلهما[1]، وهذا تمثيل ثانٍ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينَه وبينَها أو للمؤمن والكافر.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يختص به علمه لا يَعْلَمه غيرُه، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدلَّ عليه محسوسٌ. وقيل يوم القيامة فإنَّ عِلْمَهُ غائبٌ عن أهل السموات والأرض. ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إلا كرجع الطَّرْفِ من أعلى الْحَدَقَةِ إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أَمْرُهَا أقربُ منه بأن يكونَ في زمانٍ نصفِ تلكَ الحركةِ بل في الآن الذي تبتدىءُ فيه، فإنه تعالى يُحْيِيْ الخلائقَ دُفْعَةً وما يُوْجَدُ دُفْعَةً كان في آنٍ، وأو للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تَرَاخَى، فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقربُ مبالغةً في استقرابه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيَقْدِرُ أن يُحْيِيَ الخلائقَ دفعةً كما قَدَرَ أنْ أحياهم متدرِّجاً. ثم دل على قدرته فقال:

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة[2] على أنه لغةٌ أو إتباع لما قبلها، وحمزة بكسرها وكسر الميم. والهاء مزيدة مثلها في إهراقٍ. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ جُهَّالاً مُسْتَصْحِبِيْنَ جهلَ الجمادية. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أداةً تتعلمون بها فَتُحِسُّونَ بمشاعركم جزئياتِ الأشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركاتٍ ومبايناتٍ بينها بتكرر الإحساس حتى تتحصلَ لكم العلومُ البديهية، وتتمكّنوا من تحصيل المعالمِ الكَسْبِيَّةِ بالنظر فيها[3]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أَنْعَمَ عليكم طَوْرَاً بعد طَوْرٍ فتشكروه.

---

(١) تغيير الأسلوب في قوله «ومن يأمر بالعدل...» عن سابقه وذلك لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين (س٥/ ١٣٠).

(٢) أي بكسر همزة «أمهاتكم».

(٣) وتقديم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر. وإفرادُه باعتبار كونه مصدراً في الأصل (س٥/ ١٣٢).

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مُذَلَّلاتٍ للطيران بما خَلَقَ لها من الأجنحة والأسباب المؤاتيةِ له. ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن ثِقَلَ جَسَدِها يقتضي سقوطَها ولا علاقةَ فوقَها ولا دَعامةَ تحتَها تُمْسِكُها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تسخيرِ الطيرِ للطيران بأنْ خَلَقَهَا خِلْقَةً يمكن معها الطيرانُ، وخَلَقَ الجوَّ بحيثُ يمكن الطيران فيه. وإمساكُها في الهواء على خلاف طَبْعِها. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

(٨٠) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضِعاً تسكُنون فيه وقتَ إقامتِكم كالبيوت الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الحجرِ والمدَرِ، فَعَلَ بمعنى مفعول. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القِبَابُ الْمُتَّخَذَةُ مِنَ الأَدَمِ. ويجوز أن يتناول المتخذةَ من الوبر والصُّوف والشَّعْرِ فإنها مِنْ حيثُ إنها نابتة على جلودها يصدقُ عليها أنها مِنْ جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً يَخِفُّ عليكم حملُها ونقلُها. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقتَ تَرْحَالِكُم. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضعُها أو ضربُها وقتَ الْحَضَرِ أو النزول. وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ[1] يومَ ظَعَنِكُم بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضائنةِ والوبرُ للإبلِ والشَّعْرُ لِلْمَعْزِ. وإضافتُها إلى ضمير الأنعام لأنها من جُمْلَتِهَا. ﴿أَثَاثًا﴾ ما يُلْبَسُ وَيُفْرَشُ. ﴿وَمَتَاعًا﴾ ما يُتَّجَرُ به. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى مدةٍ من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدةً، أو إلى حين مماتِكم، أو إلى أن تقضُوا منه أوطارَكم.

(٨١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرِها. ﴿ظِلَالًا﴾ تتقون بها حرَّ الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضِعَ تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، جَمْعُ كِنٍّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكُتَّانِ والقطن وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ خَصَّهُ بالذِّكْرِ اكتفاءً بأحد الضِّدَّيْنِ، أو لأنَّ وِقايةَ الحرِّ كانت أهمَّ عندَهم. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروعَ والجواشِنَ. والسِّربالُ يعمُّ كلَّ ما يُلْبَسُ. ﴿كَذَلِكَ﴾ كإتمام هذه النِّعَمِ التي تقدمتْ. ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لِحُكْمِهِ[2]. وقرىء تَسْلَمُونَ من السَّلامة أي تشكرون فتسلمونَ من العذاب، أو تنظرون فيها فتَسْلمون من الشركِ. وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٢) وإفراد النعمة: إما لأن المراد بها المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل (س٥/ ١٣٣).

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضُوا ولم يقبلوا منك[١]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فلا يضرُّكَ فإنما عليك البلاغُ وقد بلَّغتَ. وهذا من إقامة السبب مُقامَ المسبَّبِ.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي يعرفُ المشركونَ نعمةَ الله التي عدَّدَها عليهم وغيرَها حيثُ يعترفون بها وبأنها مِنَ اللهِ تعالى. ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غيرَ الْمُنْعِم بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمةُ اللهِ نُبُوَّةُ محمد ﷺ[٢] عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عِناداً، ومعنى «ثم» استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً. وذَكَرَ الأَكْثَر إما لأن بعضَهم لم يعرفِ الحقَّ لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر أو لم تقمْ عليه الْحُجَّةُ لأنه لم يبلغ حدَّ التكليف، وإما لأنه يقام مقامَ الكلِّ كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار إذ لا عُذْرَ لهم، وقيل في الرجوع إلى الدنيا. وثُمَّ لزيادة ما يحيقُ بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكُلِّيِّ على ما يَمُنُّونَ به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يُسْتَرْضَوْنَ، مِنَ العُتْبى وهي الرضا. وانتصاب «يومَ» بمحذوف، تقديره: اذْكُرْ أو خَوِّفْهم أو يحيقُ بهم ما يحيق، وكذا قوله:

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم التي ادَّعوها شركاءَ، أو الشياطينَ الذين شاركوهم في الكفر بالْحَمْلِ عليه. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو الْتماسٌ لأنْ يَشْطُرَ عذابَهم[٤]. ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقةً وإنما عبدوا أهواءَهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[٥]. ولا يمتنع إنطاقُ الله الأصنامَ به حينئذ، أو

---

(١) التفات إلى رسول الله ﷺ تسلية له وإعراضاً عنهم.

(٢) وهو الذي رجحه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/١٥٨).

(٣) النحل: «٧٥».

(٤) يَشْطُر عذابهم أي يوزع العذاب بينهم.

(٥) مريم: «٨٢».

في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياهُ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1].

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلامَ لِحُكْمِهِ بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحملِ على الكفر. ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ لِصَدِّهم. ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المُسْتَحَقِّ بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدينَ بِصَدِّهم.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني نبيَّهم، فإن نبيَّ كلِّ أمةٍ بُعِثَ منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ[2] ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أُمَّتِكَ. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئناف، أو حال بإضمار قد. ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بياناً بليغاً. ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالةِ إلى السُّنَّةِ أو القياس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع. وإنما حِرمانُ المحروم من تفريطه. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصةً.

(٩٠) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوسُّط في الأمور، اعتقاداً كالتوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك والقولِ بالكسْب المتوسِّطِ بين مَحْضِ الجبر والقَدَرِ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسطِ بينَ البِطَالَةِ والترهُّب، وخُلُقاً كالجُودِ المتوسِّطِ بينَ البخل والتبذير. ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إحسانِ الطاعات. وهو إما بحسَبِ الكميةِ كالتطوع بالنوافل، أو بحسَب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]. ﴿وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ للمبالغة. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة

---

(١) إبراهيم: «٢٢».

(٢) وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (س٥/ ١٣٥).

(٣) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان. أخرجه البخاري (١/ ١١٤ رقم ٥٠) ومسلم (١/ ٣٦ ـ ٣٧ رقم ٨) والبغوي في شرح السنة (١/ ٨ ـ ٩ رقم ٢).

القوة الشَّهَوِيَّةِ كالزنا فإنه أقبحُ أحوال الإنسان وأشنعُها. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطِيهِ في إثارة القوة الغَضَبِيَّةِ. ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبُّرِ عليهم، فإنها الشَّيْطَنَةُ التي هي مُقْتَضَىٰ القوةِ الوهميةِ، ولا يوجد من الإنسان شرٌّ إلا وهو مُنْدَرِجٌ في هذه الأقسام صادرٌ بِتَوَسُّطِ إحدى هذه القِوَى الثلاثِ. ولذلكَ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هيَ أَجْمَعُ آية في القرآن للخير والشر[1]. وصارت سببَ إسلام عثمانَ بنِ مظعونٍ رضي الله تعالى عنه[2]. ولو لم يكن في القرآن غيرُ هذه الآيةِ لصدقَ عليه أنه تِبْيَانٌ لكل شيء وهدىً ورحمةٌ للعالمين. ولعلَّ إيرادَها عقِبَ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والمَيْزِ بَيْنَ الخير والشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتَّعِظُون.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يعني البيعةَ لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[3]. وقيل كل أمر يجب الوفاء به، ولا يلائمه قولُه: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ وقيل النذورُ. وقيلَ الإيمانُ بالله ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي أيمانَ البيعةِ أو مطلقَ الأَيْمَانِ. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بِذِكْرِ الله تعالى، ومنه أُكِّدَ بقلب الواوِ همزةً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهِداً بتلك البيعةِ فإن الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفولِ به رقيبٌ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأَيْمَانِ والعهود.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلَتْهُ، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِنَقَضَتْ أي نقضت غزلها من بعد إبرامٍ وإحكام. ﴿أَنكَٰثًا﴾ طاقاتٍ نُكِثَ فَتْلُهَا جَمْعُ نَكْثٍ، وانتصابُه على الحال مِنْ غَزْلَهَا أو المفعولِ الثاني لِنَقَضَتْ فإنه بمعنى صيَّرتْ. والمراد به تشبيهُ الناقضِ بِمَنْ هذا شأنُهُ، وقيل هي رِيطَةُ بِنتُ سعدِ بن تَيْمٍ القرشيةِ[4] فإنها كانتْ خَرْقَاءَ تفعلُ ذلك. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ

---

(١) وهو جزء من أثر أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ٤٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٥٨ رقم ٢٣٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ١٦٣) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٠) نسبته إلى سعيد بن منصور، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٤٩) وفيه: عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح ـ والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، والطبراني، وأحمد عن ابن عباس (روح المعاني ١٤/ ٢١٩).

(٣) الفتح: «١٠».

(٤) ذكر البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ٣٩ ـ ٤٠) أن اسمها «رَيْطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم».
وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤٨٥).

دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ من الضمير في ولا تكونوا أو في الجارِّ الواقع مَوْقِعَ الخبرِ، أي لا تكونوا مُتَشَبِّهِينَ بامرأةٍ هذا شأنُها متخذي أيمانِكم مَفْسَدَةً وَدَخَلاً بينكم، وأصلُ الدَّخَلِ ما يَدْخُلُ الشيءَ ولم يكن منه. ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ لأنْ تكونَ جماعةٌ أَزْيَدُ عَدَداً وأوفرُ مالاً من جماعة، والمعنى: لا تَغْدُرُوا بقومٍ لِكَثْرَتِكُم وقِلَّتِهِمْ أو لكثرة منابذتِهم وقُوَّتِهِم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائِهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءَهم. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير لأن تكون أمةٌ لأن بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أَرْبَىٰ لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعةِ رسوله أم تَغْتَرُّونَ بكثرةِ قريشٍ وشوكتِهم وقِلَّةِ المؤمنين وضَعْفِهِمْ. وقيلَ الضميرُ للرياء، وقيل للأمرِ بالوفاء. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُتَّفِقَةً على الإسلام. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بالخذلانِ. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالُ تَبْكِيتٍ ومجازاةٍ.

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تصريحٌ بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغة في قُبْحِ الْمَنْهِيِّ. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي عن محجَّةِ الإسلام. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها. والمراد أقدامُهم، وإنما وحَّد ونكَّر للدلالة على أن زَلَلَ قَدَم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة؟! ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِصَدِّكم عن الوفاء أو صَدِّكُم غيرَكم عنه، فإنَّ مَنْ نَقَضَ البيعةَ وارتدَّ جعلَ ذلكَ سُنَّةً لغيرِه. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تستبدِلُوا عَهْدَ الله وبَيْعَةَ رسوله ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَرَضاً يسيراً، وهو ما كانت قريشٌ يَعِدُونَ لضعفاءِ المسلمين ويشترطونَ لهم على الارتدادِ. ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدونكم. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أَعْراض الدنيا. ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ويفنى. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمة. ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفدُ، وهو تعليلٌ للحكم السابق ودليلٌ على أن نعيمَ أهلِ الجنة باقٍ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاقِّ التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصمٌ بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاءِ أحسنَ من أعمالهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيَّنَهُ بالنوعين دَفْعَاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتدادَ بأعمال الكَفَرَةِ في استحقاقِ الثواب، وإنما المتوقَّعُ عليها تخفيفُ العذاب[١]. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عَيْشَاً طيباً فإنه إنْ كانَ موسِراً فظاهرٌ وإن كان معسِراً يطيبُ عيشُه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقُّعِ الأجْرِ العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كانَ معسِراً فظاهرٌ وإن كان موسِراً لم يَدَعْهُ الحِرْصُ وخَوْفُ الفواتِ أن يتهنأ بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة[٢].

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فاسأل اللهَ أنْ يعيذَك من وَسَاوِسَه لئلا يوسوسك في القراءة. والجمهورُ على أنه للاستحباب[٤]. وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكمَ المترتِّبَ على شرطٍ يتكرر بِتكرُّرِهِ قياساً. وتعقيبُه لِذِكْرِ العمل الصالح والوعدِ عليه إيذانٌ بأنَّ الاستعاذةَ عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أَقْرَأَنِيهِ جبريلُ عن القلمِ عنِ اللوحِ المحفوظ»[٥].

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تَسَلُّطٌ وِولاَيَةٌ. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامرَهُ ولا يَقْبَلُونَ وَسَاوِسَهُ إلا فيما يحتقرون على نُدُورٍ وغَفْلَةٍ، ولذلك أُمِرُوا بالاستعاذة، فَذِكْرُ السلطنةَ بعدَ الأمر بالاستعاذةِ لئلا يُتَوَهَّمُ منهُ أنَّ له سلطاناً[٦].

---

(١) وإيثار إيراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه في سلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (س٥/ ١٣٩).

(٢) والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول «مَنْ» لمراعاة جانب المعنى، كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ. وإيثار ذلك على العكس لأن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية، ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للإفراد.

(٣) المائدة: «٦».

(٤) قال ابن حجر في «جامع البيان» (٨/ ١٤/ ١٧٣) «وليس قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجمع أنَّ من قرأ القرآن، ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل قراءته أو بعدها، أنه لم يضيع فرضاً واجباً».
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٩٠) «والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها».

(٥) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦١) «رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخه أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود. ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي» هـ.

(٦) وفي التعرض لصفة الربوبية عِدَة كريمة بإعاذة المتوكلين (س٥/ ١٤٠).

إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ بالله أو بسبب الشيطان[١]. ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخةَ مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح فَلَعَلَّ ما يكون مصلحةً في وقتٍ يصيرُ مفسدةً بعدَه فينسخُه، وما لا يكون مصلحةً حينئذ يكون مصلحةً الآنَ فَيُثْبِتُهُ مكانَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الكَفَرَةُ. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ مُتَقَوِّلٌ على الله تأمر بشيء ثم يبدو لكَ فتنهى عنه وهو جوابُ إذا. والله أعلم بما ينزلُ اعتراضٌ لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيهِ على فساد سَنَدِهِم، ويجوز أن يكون حالاً[٢]. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمةَ الأحكامِ ولا يميزونَ الخطأَ من الصواب[٣].

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدُس وهو الطُّهْرُ كقولهم: حَاتَمُ الجودِ[٤]. وقرأ ابنُ كثير روحُ القُدْسِ بالتخفيف. وفي يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ تنبيهٌ على أنَّ إنزالَه مدرَّجاً على حَسَبِ المصالح بما يقتضي التبديلَ. ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلْتَبِساً بالحكمة[٥]. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِيُثَبِّتَ اللهُ الذينَ آمنوا على الإيمان بأنه كلامُه، وأنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدبَّروا ما فيه من رعايةِ الصلاحِ والحكمة رسخت عقائدُهم واطمأنتْ قلوبُهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، وهما معطوفانِ على محل لِيُثَبِّتَ أي تثبيتاً وهدايةً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضدادِ ذلك لغيرهم. وقرىء لِيُثْبِتَ بالتخفيف.

(١٠٣) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يَعْنُونَ جَبْرَاً الروميَّ غلامَ عامرِ بنِ الحضرمي. وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعانِ السيوفَ بمكةَ ويقرآنِ التوراةَ والإنجيلَ، وكانَ الرسول ﷺ يمر عليهما ويَسْمَعُ ما يقرآنهِ. وقيل عائشاً غلامَ حُوَيْطِبِ بن عبدِالْعُزَّى قد أسلم وكان صاحبَ كُتُبٍ. وقيل سلمانُ

(١) وتكرير الموصول «الذين» للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه (س٥/ ١٤٠).
(٢) وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأن ذلك كفوة ناشئة عن نزغات الشيطان وأنه وليهم (س٥/ ١٤١).
(٣) وإسناد هذا الحكم لأكثرهم لأن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عناداً (س٥/ ١٤١).
(٤) أي للمبالغة في ذلك الوصف كأنه طبع منه.
(٥) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه ـ ﷺ ـ ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (س٥/ ١٤١).

الفارسيُّ[١]. ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولَهم عن الاستقامة إليه، مأخوذٌ من لَحْدِ القبر. وقرأ حمزة والكسائي يَلْحَدُونَ بفتح الياء والحاء، لسان أعجمي غيرُ بيِّنٍ. ﴿وَهَٰذَا﴾ وهذا القرآن. ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مُسْتأنَفَتَانِ لإبطال طَعْنِهم، وتقريره يَحْتَمِلُ وجهين أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأملٍ، فكيف يكون ما تلقفه منه؟! وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يَتَلَقَّفْ منه اللفظَ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجزٌ باعتبار المعنَى فهو معجز مِنْ حيثُ اللفظُ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تَعَلُّمُهَا إلا بملازمة مُعَلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدةً متطاولَةً، فكيف تَعَلَّمَ جميعَ ذلكَ من غلامٍ سوقيٍّ سمعَ منه في بعض أوقاتِ مرورِه عليه كلماتٍ أعجميةً لعلهما لم يعرفا معناها؟! وطَعْنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكةِ دليلٌ على غاية عَجْزِهِم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يصدِّقون أنها من عند الله. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة. وقيل إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، هدَّدَهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماطَ شُبْهَتهم وردَّ طَعْنَهُمْ فيه، ثم قَلَبَ الأمرَ عليهم فقال:

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافونَ عِقَاباً يردعُهم عنه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذين كفروا، أو إلى قريش. ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافاتِ أعظمُ الكذِبِ، أوِ الذينَ عادتُهم الكذبُ لا يصرفهم عنه دِينٌ ولا مروءةٌ، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنتَ مفترٍ إنما يعلِّمه بَشَرٌ.

(١٠٦) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض، أو مِنْ أولئك، أو مِنْ الكاذبونَ. أو مبتدأ خبرُه محذوف دلَّ عليه قولُه: ﴿فعليهم غضب﴾. ويجوز أن ينتصبَ بالذمِّ، وأن تكون مَنْ شرطيةً محذوفةَ الجوابِ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الافتراءِ أو كلمةِ الكفر، استثناءٌ متصلٌ لأن الكفرَ لغةً يعمُّ القولَ والعقْدَ كالإيمان. ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ لم تتغيرْ عقيدتُه. وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده

(١) تحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد.
وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه ـ مع كونه أدخل في ظهور كذبهم ـ للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائناً من كان (س٥/ ١٤١).

وطابَ بهِ نَفْساً. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أَعْظَمَ مِنْ جُرْمِهِ. رُوِيَ أنَّ قريشاً أَكْرَهُوا عمَّاراً وأَبَوَيْهِ ياسِراً وسُمَيَّةَ على الارتدادِ، فَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بينَ بَعِيْرَيْنِ وَجِيْءَ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا وقالوا: إنكِ أسلمتِ مِن أجلِ الرجالِ فَقُتِلَتْ، وقتلوا ياسراً وهما أولُ قَتِيلَيْنِ في الإسلام، وأعطاهم عَمَّارٌ بلسانه ما أرادوا مُكْرَهَاً فقيل: يا رسول الله إنَّ عماراً كَفَرَ فقال: «كلاً إن عماراً مَلِيءٌ إيماناً مِنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ، واختلطَ الإيمانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فأتى عمارٌ: رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «مَا لَكَ؟ إنْ عادوا لكَ فَعُدْ لهم بما قُلْتَ»[1]. وهو دليل على جواز التكلُّم بالكفر عند الإكراهِ، وإنْ كان الأفضل أن يتجنَّبَ عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه، لما رُوِيَ أنَّ مسيلمةَ أخذَ رَجُلَيْنِ فقال لأَحَدِهِمَا: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنتَ أيضاً، فخلاَّه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أَصَمُّ، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتلَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له»[2].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثَرُوهَا عليها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثباتَ الإيمان ولا يعصمهم من الزَّيْغِ.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٩٦ رقم ٢٦٢): هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند» اهـ.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ١٨١ ـ ١٨٢) عن أبي مالك وقتادة مرسلاً بسند صحيح. أن الآية نزلت في عمار بن ياسر. وهذا مذهب جمهور المفسرين.
وانظر «الدر المنثور» (٥/ ١٧٢) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١٨١) والمستدرك للحاكم (٢/ ٣٥٧).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٩٦ رقم ٢٦٣) «وأخرج ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن ـ مرسلاً ـ أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال: لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه، وقال: إني أصم فأعاد عليه فقال مثله فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: ـ وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه، فقال: «أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة».
وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» عن معمر ـ مفصلاً ـ قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه.
وذكر الواحدي في «المغازي» أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم واسم الآخر: عبدالله بن وهب الأسلمي. قال: وكانا في السافة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار» هـ.

(١٠٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ﴾ فَأَبَتْ عن إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أَغْفَلَتْهُم الحالةُ الراهنة عن تَدَبُّرِ العواقب.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إذ ضيَّعوا أعمارهم وصرفُوها فيما أفْضَى بهم إلى العذاب المخلِد.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرْيَةٗ كَانَتْ ءَامِنَةٗ مُّطْمَئِنَّةٗ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٞ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي عُذِّبُوا كعمارٍ رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، وثم لِتَبَاعُدِ حالِ هؤلاء عن حال أولئك. وقرأ ابن عامر فَتَنُوا بالفتح، أي من بعد ما عذَّبُوا المؤمنينَ كالحضرميِّ أَكْرَهَ مولاهُ جَبْراً حتى ارتدَّ ثمَّ أسلم وهاجر. ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاقِّ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر[1]. ﴿لَغَفُورٞ﴾ لما فعلوا قبل. ﴿رَّحِيمٞ﴾ منعم عليهم مجازاةً على ما صنعوا بَعْدُ.

(١١١) ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٖ﴾ منصوب برحيم أو باذكُرْ. ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأنُ غيرِها فتقولُ نفسي نفسي. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءَ ما عَمِلَتْ[2]. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُنْقَصُونَ أُجُورَهم.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرْيَةٗ﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فَأَبْطَرَتْهُمُ النعمةُ فكفروا فأنزل الله بهم نقمته، أو لِمَكَّةَ. ﴿كَانَتْ ءَامِنَةٗ مُّطْمَئِنَّةٗ﴾ لا يُزْعِجُ أهلَها خوفٌ. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُها[3]. ﴿رَغَدٗا﴾ واسعاً. ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ بنعمه، جَمْعُ نِعْمَةٍ

---

(١) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعاً له (س٥/ ١٤٤).

(٢) وإيثار إظهار النفس «كل نفس» على الإضمار لزيادة التقرير، وللإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد (س٥/ ١٤٤).

(٣) وتغيير النظم عن صفتها الأولى «كانت آمنة..» لأن إتيان الرزق متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (س٥/ ١٤٥).

على تركِ الاعتدادِ بالتاء كَدِرْعٍ وأَدْرُعٍ، أو جَمْعُ نِعَمٍ كَبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ[١]. ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراكِ أثر الضرر، واللباسَ لما غَشِيَهُم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقةَ عليه بالنظر إلى المستعَارِ له كقول كُثَيِّرٍ:

عمرُ الرِّدَاءِ إذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكَاً غلقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ

فإنه استعار الرِّداءَ للمعروف لأنه يصون عِرْضَ صاحبه صَوْنَ الرداء لما يلقى عليه، وأضاف إليه الغَمْرَ الذي هو وَصْفُ المعروفِ والنَّوالِ لا وَصْفَ الرداء نظراً إلى المستعَارِ له، وقد يُنْظَر إلى المستعَارِ كقوله:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بنِ بَكْرِ

لِيَ الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمينِي ودُونَكَ فَاعْتَجِزْ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجِرْ نَظَراً إلى المستعار. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم[٢].

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكةَ عادَ إلى ذِكْرِهم بعد ما ذَكَرَ مِثْلَهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حالَ التباسِهم بالظلم والعذاب ما أصابهم مِنَ الْجَدَبِ الشديد، أو وقعة بدر.

(١١٤) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أَمَرَهُم بِأَكْلِ ما أحلَّ الله لهم وشُكْرِ ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدَّدَهم عليه بما ذَكَرَ من التمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم، صَدّاً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَمَّا أَمَرَهُم بتناولِ ما أحلَّ لهم عدَّدَ عليهم محرماتِه ليعلم أنَ ما عداها حلٌّ لهم، ثمَّ أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائِهم فقال:

---

(١) وأَنْعُم جمع قلة، وأوثر جمع القلة للتهويل، أي إذا كان كفران نعمة قليلة هذا جزاؤه، فكيف بكفران نعم كثيرة؟.

(٢) وتقديم الجوع على الخوف لكونه أنسب بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق وإيقاع الإذاقة للقرية للمبالغة.. وفي صيغة الصنعة إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم (س٥/ ١٤٥).

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾[1] الآية، ومقتضى سياقِ الكلام وتصدير الجملة بإنما حَصَرَ المحرماتِ في الأجناس الأربعة إلا ما ضَمَّ إليه دليل: كالسباع والحُمُرِ الأهلية. وانتصاب الكذب بلا تقولوا، وهذا حلال وهذا حرام بدل منه، أو متعلِّقٌ بِتَصِفُ على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تَصِفُه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعولُ لا تقولوا، والكذب مُنْتَصِبٌ بتصف وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لِوَصْفِ ألسنتكم الكذبَ أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، وَوَصْفُ ألسنتِهم الكذبَ مبالغةٌ في وصف كلامهم بالكذب كأنَّ حقيقةَ الكذب كانتْ مجهولةً وألسنتُهم تصفُها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عُدَّ مِنْ تصحيح الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمالَ وعينُها تصف السحر. وقُرِىءَ الكذبِ بالجر بدلاً من ما، والكذِبُ جَمْعُ كَذُوب أو كَذَّابٌ بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذمِّ أو بمعنى الكَلِم الكواذبِ. ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تعليل لا يتضمن الغرضَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لمّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نَفَىٰ عنهم الفلاحَ وبَيَّنَه بقوله:

(١١٧) ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾[2] ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرَّمنا. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعمَّ الجهلُ بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوءُ يعمُّ الافتراءَ على الله وغيرَه. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ من بعد ....

---

(١) الأنعام: «١٣٩».

(٢) الأنعام: «١٤٦».

التوبة[١]. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقةً في أشخاص كثيرة، كقوله:

لَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

وهو رئيسُ الموحِّدينَ وقدوةُ المحققِّينَ الذي جادل فِرَقَ المشركين وأبطل مذاهبهم الزائغةَ بالحججِ الدامغة، ولذلك عقب ذِكْرَهُ بتزييف مذاهبِ المشركين مِنَ الشرك والطعن في النبوةِ وتحريم ما أحلَّه، أو لأنه كان وحدَه مؤمناً وكان سائرُ الناس كفاراً. وقيل هي فِعْلَةٌ بمعنى مفعول كالرحلة والنُّخْبةِ، مِنْ أَمَّهُ إذا قصَدَهُ أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢] ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ذُكِرَ بلفظ القلَّةِ للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوة. ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله.

(١٢٢) ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حَبَّبَهُ إلى الناس حتى أن أرباب المِلَلِ يَتَوَلَّوْنَهُ ويُثْنُونَ عليه، ورَزَقَه أولاداً طيبةً وعُمْراً طويلاً في السَّعةِ والطاعة[٣]. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لِمَنْ أهل الجنة كما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٤].

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد. وثم إما لتعظيمه والتنبيه على أن أَجَلَّ ما أُوتِيَ إبراهيمُ اتباعُ الرسول عليه الصلاة والسلام مِلَّتَهُ، أو لتراخي أيامه[٥]. ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيرادِ الدلائل مرةً بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حَسَبِ فَهْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوةَ الموحِّدِيْنَ.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ تعظيمُ السَّبْتِ، أو التخلي فيه للعبادة. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود أَمَرَهُمْ موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يومَ الجمعة فَأَبَوْا وقالوا: نريد

---

(١) تكرير قوله تعالى «إن ربك» لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه (س٥/ ١٤٨).
(٢) البقرة: «١٢٤».
(٣) والالتفات إلى التكلم «وآتيناه» لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام (س٥/ ١٤٩).
(٤) الشعراء: «٨٣».
(٥) وإيراد «ثم» التي هي للتراخي في الرتبة للإيذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (س٥/ ١٥٠).

يوم السبت لأنه تعالى فرغَ فيه مِنْ خَلْقِ السموات والأرض، فألزمهم الله السبت وشدَّد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جُعِلَ وَبَالُ السَّبتِ وهو المسخُ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصَّيْدَ فيه تارةً وحرموه أخرى واحتالوا له الحيلَ، وذَكْرُهُم هنا لتهديد المشركين كَذِكْرِ القريةِ التي كفرتْ بِأَنْعُمِ الله[1]. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقُّه.

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٥) ﴿ ادْعُ ﴾ مَنْ بُعِثْتَ إليهم[2]. ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام. ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة الْمُحْكَمَةِ، وهو الدليل الموضِّحُ للحق المزيحُ للشبهة. ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأولى لدعوة خواصِّ الأمة الطالبينَ للحقائق والثانية لدعوة عَوَامِّهم. ﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ وجَادِلْ مُعَانِدِيْهِم. ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر، فإنَّ ذلك أنفعُ في تسكين لَهَبِهِم وتبيينِ شَغَبِهِم. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بلِ اللهُ أعلم بالضالِّينَ والمهتدين وهو المجازي لهم[3].

(١٢٦) ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ لمّا أمره بالدعوة وبَيَّنَ له طُرُقَهَا أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع مَنْ يناصِبُهم، فإن الدعوة لا تنفكُّ عنه منْ حيثُ إنها تتضمنُ رَفْضَ العادات وتركَ الشهوات والقَدْحَ في دين الأسلافِ والحكمَ عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مُثِّلَ به فقال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بسبعينَ

---

(١) بناء الفعل «جُعل» للمفعول للجري على سنن الكبرياء وللإيذان بعدم الحاجة للتصريح بالفاعل.
وعبر عن ذلك بالجعل موصولاً بكلمة «على» وعبر عنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي إلى العذاب، وبكونه معللاً باختلافهم في شأنه قبل الوقوع إيثاراً له على ما أمر الله تعالى به واختياراً للعكس (س٥/ ١٥٠).

(٢) وحذف المفعول للتعميم.

(٣) تقديم الضالين لأن سياق الكلام فيهم.
وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لأنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات.
وتكرير «هو أعلم» للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب (س٥/ ١٥١).

مكانَك»[١]، فنزلت، فكفَّرَ عن يمينه. وفيه دليل على أن للمقتصّ أنْ يماثلَ الجاني وليس له أنْ يجاوزَه. وحثٌّ على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجْهِ الآكَدِ بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي الصبر. ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمنتقمين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

(١٢٧) ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فُعِلَ بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضَيْقٍ صدرٍ مِنْ مَكْرِهم. وقرأ ابن كثير في ضِيْقٍ بالكسر هنا وفي النمل[٢] وهما لغتان كالقولِ والقيلِ، ويجوز أن يكون الضيق تخفيفَ ضَيِّقَ.

(١٢٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ المعاصي. ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يُحَاسِبْه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإنْ ماتَ في يومٍ تلاها أو ليلةٍ كان له من الأجر كالذي ماتَ وأحسنَ الوصيةَ»[٣].



(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (٢/٣٢٦ رقم ١٧٩٥) في سياق أطول عن أبي هريرة وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/١١٩) وقال «رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف» هـ.

● وأخرج الترمذي (٥/٢٩٩ رقم ٣١٢٩) عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم. قال: فلما كان يوم فتح مكة، فأنزل الله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» [النحل: ١٢٦].

فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ «كُفُّوا عن القوم إلاّ أربعة». وهو حديث حسن.

(٢) النمل: «٧٠».

(٣) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩).

سورة الإسراء

ترتيبها ١٧ — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

سورةُ بني إسرائيلَ مكيةٌ،

وقيلَ إلا قولَه تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾[1] إلى آخر ثمانِ آياتٍ، وهي مائة وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ سبحانَ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه يُسْتَعْمَلُ عَلَماً له فَيُقْطَعُ عن الإضافة وَيُمْنَعُ عنِ الصَّرْفِ قال:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَني فَخْرُهُ سبحانَ مِنْ علقمةَ الفاخرِ

وانتصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهاره، وتصديرُ الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذُكِرَ بعدُ. وأَسْرَى وَسَرَى بمعنى. وليلاً نُصِبَ على الظرفِ، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مُدَّةِ الإسراء. ولذلك قرىء من الليل، أي بعضُه كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾[2]. ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بِعَيْنِهِ لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بَيْنَا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عندَ البيت بينَ النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبُراقِ»[3]. أو من الحرمِ، وسمَّاه المسجدَ الحرامَ لأنه كلُّه مسجدٌ أو لأنه محيط به أو ليطابِقَ

---

(١) الآية: «٧٣».

(٢) الإسراء: «٧٩».

(٣) أخرجه البخاري (٦/٣٠٢ رقم ٣٢٠٧) و(٧/٢٠١ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١/١٥٠ رقم ٢٦٤). من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

المبدأُ الْمُنْتَهَى، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيتِ أمِّ هانيءٍ بعد صلاة العشاء فَأُسْرِيَ به ورجَع من ليلته، وقصَّ القصةَ عليها وقال: «مُثِّلَ لي الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فصليتُ بهم» ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ الحرام وأخبر به قريشاً، فتعجَّبوا منه استحالةً، وارتدَّ ناسٌ ممن آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدقَ، فقالوا: أَتُصَدِّقُهُ على ذلك، قال: إني لأُصَدِّقُهُ على أَبْعَدَ من ذلك فَسُمِّيَ الصِّدِّيقُ. واسْتَنْعَتَهُ طائفةٌ سافروا إلى بيت المقدس فَجُلِّيَ له فَطَفِقَ ينظر إليه وينعتُه لهم، فقالوا: أما النعتُ فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عِيْرِنا، فأخبَرَهم بعددِ جمالها وأحوالها وقال: «تَقْدُمُ يومَ كذا مع طلوعِ الشمس يقدمُها جَمَلٌ أَوْرَقُ» فخرجوا يشتدون إلى الثنيةِ فصادفوا العِيْرَ كما أَخْبَر، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحرٌ مبين[1]. وكان ذلك قَبْلَ الهجرة

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٧ رقم ٢٧١) «ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.
ثم رأيته من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم في الإكليل والبيهقي عنه. لكن لم يسق لفظه.
وقد رواه النسائي (في التفسير رقم: ٣٠٥) ـ باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس».
ـ قلت: رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عبدالأعلى وهو ثقة أخرج له مسلم كما في «رجال صحيح مسلم» (رقم: ١٤٧٧). وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٣٧٤) مطولاً، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠ رقم ٣٩٣/ ٢٧٢٠) وابن جرير في «تهذيب الآثار» مسند عبدالله بن عباس (١/ ٤٠٨ رقم ١٧) كلهم من حديث ثابت عن هلال بن خباب ـ به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٦ ـ ٦٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن هلال بن خباب، قال يحيى القطان: إنه تغير قبل موته، وقال: يحيى بن معين: لم يتغير ولم يختلط، ثقة مأمون، ورواه أبو يعلى...» هـ.
وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ١٦ ـ ١٧) عن المسند وقال «وهو إسناد صحيح» ـ وأورده ابن سعد ـ في الطبقات (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥) من طريق أبي مرة مولى عقيل، عنهما نحوه ـ وأبو يعلى ـ كما في «المجمع» (٩/ ٤١ ـ ٤٢) مختصراً على تسمية أبي بكر الصديق ـ والطبراني (في الكبير (٢٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤ رقم ١٠٥٩) من طريق عكرمة عنها نحوه. وأخرجه مختصراً على تسمية أبي بكر وهو متروك كما في «المجمع» (٩/ ٤٢) ـ من حديث أم هانيء مطولاً» هـ.
ـ قلت: وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ج١٥/ ٢) من حديث أم هانيء لكنه من طريق أبي صالح مولاها عنها مختصراً.
وورد ذكر تسمية (الصديق) من حديث عائشة عن الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢ ـ ٦٣) وعنه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦١) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٠) بسند صحيح عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن مرسلاً.
ـ قلت: ومن الملاحظ أن ابن حجر رحمه الله اقتصر في تخريج هذا الحديث على المصادر المذكورة، مع أن ما فيه مخرج في «الصحيحين» وغيرها.
فأخرج البخاري (٧/ ١٩٦ رقم ٣٨٨٦) و(٨/ ٣٩١ رقم ٤٧١٠) ومسلم (١/ ١٥٦ رقم ٢٧٦/ ١٧٠) من حديث جابر بن عبدالله أن رسولَ الله ﷺ قال «لما كذبتني قريشٌ، قمتُ في الحِجْر فجلا الله لي بيت المقدس. فطفقتُ أخبِرُهم عن آياتِهِ وأنا انظر إليه». =

بِسَنَةٍ[١]. واختُلِفَ في أنه كان في المنام أو في اليقظَةِ بروحه أو بجسدِه، والأكثرُ على أنه أُسْرِيَ بجسدِه إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلى السموات حتى انتهى إلى سِدْرَةِ المنتَهَى، ولذلك تعجَّبَ قريشٌ واستحالوه، والاستحالةُ مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قُرْصِ الشمس ضِعْفُ ما بينَ طرفي كُرَةِ الأرض مائةً ونيفاً وستينَ مرةً، ثم إن طرفَها الأسفلَ يصل موضِعَ طرفِها الأعلى في أقلَّ من ثانية، وقد بُرْهِنَ في الكلام أن الأجسام متساوية في قَبول الأعْراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثلَ هذه الحركةِ السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مَهْبِطُ الوحي وَمُتَعَبَّدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لَدُنْ موسى عليه الصلاة والسلام. ومحفوف بالأنهار والأشجار. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كَذَهَابِهِ في بُرْهَةٍ من الليل مسيرةَ شهرٍ ومشاهدته بيتَ المقدس وَتَمَثُّلِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام له ووقوفِهِ على مقاماتِهم. وصَرْفُ الكلامَ من الغيبةِ إلى التكلُّم لتعظيم تلك البركاتِ والآياتِ. وقُرِىءَ لِيُرِيَهُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﷺ. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك[٢].

(٢) ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أنِ افعلْ كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على لأَنْ لا يتخذوا. ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربّاً تَكِلُونَ إليهِ أمورَكم غيري.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ على الاختصاصِ أو النداء إن قُرِىءَ أن لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً، أو على أنه أحدُ مفعولَيْ لا تتخذوا ومِنْ دوني حالٌ من وكيلاً فيكون كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾[٣]. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدلٌ من وَاوِ تتخذوا، وذِرِّيَّةَ بكسرِ الذال. وفيه تذكيرٌ بإنْعَام الله تعالى عليهم في إنجاءِ آبائهم من الغرقِ بِحَمْلِهِم مع نوح عليه السلام في السفينة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحاً عليه السلام. ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماءٌ بأن إنجاءَه ومَنْ معه كان ببركة شُكْرِه، وحثٌّ للذريةِ على الاقتداءِ به. وقيلَ الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج مسلم (١/ ١٥٦ رقم ٢٧٨/ ١٧٢) من حديث أبي هريرة بنحو ما تقدم عندها وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣ ـ ٢٦) تحت عنوان: ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء.

(١) قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود فإن في ذلك اختلافاً كثيراً يزيد على عشرة أقوال. . .» الفتح (٧/ ٢٠٣).

(٢) لم يذكر ههنا العروج بالنبي ﷺ إلى السماء ـ كما ذكر في سورة النجم ـ وذلك تقريباً للإسراء إلى قلوب السامعين (س/٥/ ١٥٥).

(٣) آل عمران: «٨٠».

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

(٤) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مَقْضِيّاً مَبْتُوتاً. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة. ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوف. أو قضينا، على إجراء القضاءِ المبتوتِ مجرى القَسَم. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفةُ أحكامِ التوراة وقتلُ شعياءَ وقيل أرمياءَ، وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقَصْدُ قتلِ عيسى عليهم السلام. ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبرنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لَتَظْلِمُنَّ الناسَ.

(٥) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وعْدُ عقاب أولاهما. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ بُخْتُنَصَّر عاملٌ لهراسفَ على بابلَ وجنوده. وقيل جالوتُ الجزريُّ. وقيل سنْحاريبُ من أهل نينوى. ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. ﴿فَجَاسُوا۟﴾ فترددوا لطلبكم. وقرىء بالحاء المهملة، وهما أخوان. ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وَسَبَوْا صِغارَهم وحرَّقوا التوراةَ وخربوا المسجدَ. والمعتزلةُ لما مَنَعُوا تسليطَ اللهِ الكافرَ على ذلك أَوَّلُوا البعثَ بالتخلية وعدمِ المنع. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد عقابهم لابدَّ أنْ يُفْعَلَ.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الدولةَ والغلبةَ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بُعِثُوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلوب بِهْمِنَ بنِ اسفنديارٍ لما وَرِثَ الملِكُ من جدِّهِ كثناسفِ بنِ لَهْراسفِ شفقةً عليهم، فردَّ أَسْرَاهُم إلى الشام ومَلَّكَ دانيالَ عليهم فاستولوا على مَنْ كان فيها من أتباعِ بُخْتُنَصَّرِ، أو بأن سلَّط الله داودَ عليه الصلاة والسلام على جالوتَ فقتله. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم. والنفير مَنْ يَنْفُرُ معَ الرجلِ من قومه، وقيل جَمْعُ نَفَرٍ وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ثوابَه لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فإنَّ وبالَه عليها، وإنما ذَكَرَها باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثاهم ليسوؤوا وجوهَكم أي يجعلوها باديةَ آثارِ المساءةِ فيها، فحُذِف لدلالة ذِكْرِهِ أولاً عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر لِيَسُوءَ على التوحيد، والضميرُ فيه للوعد أو لِلْبَعْثِ أو لله، ويُعَضِّدُه قراءةُ الكسائي بالنون[1]. وقرىء لنَسُوأَن بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، ولَنَسُوأَن بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا، واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمحذوف هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ لِيُهْلِكوا. ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مُدَّةَ عُلُوِّهِم. ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفُرْسَ مرةً أخرى فغزاهم مِلِكُ بابلَ من ملوك الطوائف اسمه

---

(١) قراءة الكسائي «لِنَسُوءَ».

جودرز، وقيل حردوسُ، قيل دخلَ صاحبُ الجيش مذبحَ قرابينِهم فوجدَ فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقبَلْ مِنَّا فقال: ما صَدَقُوني فقَتَل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأِ الدمُ، ثم قال إن لم تَصْدُقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنه دمُ يَحْيَى فقال لمثل هذا ينتقم ربُّكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذنِ الله تعالى قبل أن لا أبقيَ أحداً منهم فهدأ.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبةً أخرى. ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم. وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصدِ قَتْلِهِ، فعادَ الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قُرَيْظَةَ وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ مَحْبَساً لا يقدرون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما يُبْسَطُ الحصيرُ[1].

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويَبْشُرُ بالتخفيف.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على أن لهم أجراً كبيراً، والمعنى أنه يبشر المؤمنينَ ببشارتين ثوابِهم وعقابِ أعدائِهم، أو على يبشِّر بإضمار يُخْبِرُ[2].

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو اللهَ تعالى عند غضبه بالشرِّ على نفسه وأهله وماله، أو يدعوه بما يَحْسَبُهُ خيراً وهو شر. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدمُ عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سُرَّتِهِ ذهب لينهضَ فسقطَ[3]. روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودةَ بنتِ زمعةَ، فرحمته لأنينِهِ فَأَرْخَتْ كتافَه فهربَ، فدعا عليها بقطعِ اليدِ ثم ندمَ، فقال عليه السلام: «اللهم إنما أنا بَشَرٌ فمن دعوتُ عليه فاجعل دعائي رحمةً له» فنزلتْ[4]. ويجوز أن يريدَ بالإنسان الكافرَ وبالدعاء استعجالَه بالعذاب استهزاءً

---

(١) وإنما عُدِل عن أن يقال: وجعلنا جهنم لكم، تسجيلاً علىٰ بالعوْد وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعلة الحكم (س٥/١٥٨).

(٢) وتخصيص الآخرة بالذكر «لا يؤمنون بالآخرة» من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالإيمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل «أعتدنا لهم عذاباً أليماً» (س٥/١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٤٨/١٥) وفي سنده بشر بن عمارة وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ١٠٠).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٩٧ رقم ٢٧٣) «لم أجده من هذه الجهة وقرأ أخرجه الواقدي في المغازي ـ (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥) ـ من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت:

كقوول النضرِ بنِ الحارث: اللهم انصر خيرَ الحِزْبَيْنِ، اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك الآية. فَأُجِيبَ له فضربَ عنقُه صَبْراً يومَ بدرٍ.

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ تدلاَّنِ على القادر الحكيم بتعاقبهما على نَسَقٍ واحد بإمكان غيره. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي الآية التي هي الليلُ بالإشراق، والإضافةُ فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مُبَصَّرَةً للناس من أبصره فَبَصُرَ، أو مُبْصِراً أهلَه كقولهم: أَجْبَنَ الرجلُ إذا كان أهله جبناءَ. وقيل الآيتان القمرُ والشمسُ، وتقدير الكلام وجعلنا نَيِّرَيْ الليلِ والنهار آيتينِ، أو جعلنا الليل والنهار ذَوَيْ آيتين. ومَحْوُ آيةِ الليل التي هي القمرُ جَعْلُها مظلمةً في نفسها مطموسةَ النور، أو نَقْصَ نورُها شيئاً فشيئاً إلى المَحَاقِ، وجَعْلُ آيةِ النهارِ التي هي الشمس مبصرةً جَعْلُها ذاتَ شعاع تُبَصَرُ الأشياءَ بضوئها[1]. ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسبابَ معاشِكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم[2]. ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافهما أو بحركاتهما. ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وجنس الحساب. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا. ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ بيناه بياناً غيرَ مُلْتَبِسٍ.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عملَه وما قُدِّرَ له كأنه طُيِّرَ إليه مِنْ عُشِّ الغيب وَوَكْرِ القَدَرِ، لمَّا كانوا يتيمّنون ويتشاءمون بِسُنُوحِ الطائر وبروحه اسْتُعِيْرَ لما هو سببُ الخير والشر مِنْ قدرِ الله تعالى وعملِ العبد. ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ لزومَ الطَّوقِ في عُنُقِهِ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صحيفة عمله أو نَفْسِهِ المنتقشةِ بآثار أعماله، فإنَّ الأعمال الاختيارية تُحْدِثُ في النفس أحوالاً ولذلك يفيدُ تكريرُها لها مَلَكَاتٍ، ونَصْبُهُ بأنه مفعول، أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر، ويعضِّدُه قراءةُ يعقوبَ ويَخْرُجُ مِنَ خرجَ ويخرج، وقرىء ويُخْرِجُ أي الله عز وجل. ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ لكشف الغطاء. وهما صفتان للكتاب، أو يلقاه صفةٌ ومنشوراً حال من مفعوله. وقرأ ابن عامر يُلَقَّاهُ على البناء للمفعول من لَقَّيْتُه كذا.

= فلهوتُ مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه. فقلت والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا أحمد بن صالح. حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا» اهـ.

(١) وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة (س٥/ ١٥٩).

(٢) وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية (س٥/ ١٦٠).

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦﴾

(١٤) ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ على إرادة القول. ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي كفى نفسُك، والباء مزيدةٌ، وحسيباً تمييز، وعلى صِلَتُه. لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم وضريبِ القداحِ بمعنى ضاربُها مِنْ حَسَبَ عليه كذا، أو بمعنى الكافي فَوُضِعَ موضعَ الشهيد، لأنه يكفي المدعي ما أهمَّه. وتذكيرُه على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال، أو على تأويل النفس بالشخص.

(١٥) ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ لا يُنجي اهتداؤُه غيرَه ولا يُرْدي ضلالُه سواهُ. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ ولا تحمل نفس حاملةٌ وزراً وِزْرَ نفسٍ أخرى، بل إنما تحملُ وِزْرَها. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ يُبَيِّنُ الحُجَجَ ويُمَهِّدُ الشرائع فيلزمُهم الحجَّةَ، وفيه دليل على أن لا وجوبَ قبلَ الشرع.

(١٦) ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتُنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائِنا السابق، أو دَنَا وقْتُه المقدَّرُ كقولهم: إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضُه شدةً. ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ متنعّميها بالطاعة على لسان رسولٍ بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبلَه وما بعدَه، فإن الفِسْقَ هو الخروجُ عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة. وقيل أَمَرْنَاهُم بالفسق لقوله: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ كقولك أَمَرْتُهُ فقراً فإنه لا يُفْهَمُ منه إلا الأمرُ بالقراءة، على أن الأمرَ مجازٌ مِنَ الْحَمْلِ عليه أو التسببِ له، بأنْ صَبَّ عليهم من النِّعَمِ ما أَبْطَرَهُم وأفضَى بهم إلى الفسوق. ويحتمل أن لا يكون له مفعول مَنْوِيٌّ كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كَثَّرنا، يقال: أمرتُ الشيءَ وآمرتُه فَأَمِرَ إذا كثَّرتُه، وفي الحديث «خيرُ المال سُكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[1]، أي كثيرةُ النَّتَاجِ، وهو أيضاً مجازٌ من معنى الطلبِ، ويؤيده قراءة يعقوبَ آمَرْنَا وروايةُ أَمَّرْنا عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أَمُرَ ـ بالضم ـ أمارةً أي جعلناهم أُمَرَاءَ. وتخصيصُ المترفين لأن غيرَهم يتبعُهم، ولأنهم أسرعُ إلى الحماقة وأقدرُ

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٦٨) والطبراني في الكبير (٧/٩١ رقم ٦٤٧٠ و٦٤٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ١٢٥٠ و١٢٥١) من حديث سويد بن هبيرة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٥٨): وقال «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات».
وانظر كلام ابن حجر عليه في الإصابة (٢/١٠١) وابن عبدالبر في الاستيعاب (٢/١١٥) وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/٤٩٤ ـ ٤٩٥)، فقد أعلوه بالإرسال. والله أعلم.
● السُكة: الطريقة المصطفة من النخل.
● المأبورة: ما أبر من النخل. [النهاية: (١/١٤)].
● مأمورة: كثيرة النتاج [النهاية: (١/٦٥)].
ومعنى الحديث: خير المال نتاج أو زرع.

على الفجور. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بِحُلُولِهِ، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيانٌ لِكَم وتمييز له. ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كَعَادٍ وثمودَ. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطِنَها وظواهِرَها فيعاقب عليها. وتقديم الخبير لتقدم مُتَعلَّقِه[1].

(١٨) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قَيَّد المعجَّل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كلُّ مُتَمَنٍّ ما يتمناه ولا كلُّ واجِدٍ جميعَ ما يهواه، ولِيُعْلَمَ أن الأمرَ بالمشيئة والهمَّ فضلٌ. ولمن نريد بدلٌ من له بدلَ البعضِ. وقرىء ما يَشَاءُ، والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة، وقيل لِمَنْ فيكونُ مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمينَ ويغزونَ معهم ولم يكن غَرَضُهم إلا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقَّها من السَّعْي، وهو الإتيان بما أُمِرَ به والانتهاءُ عما نُهِيَ عنه لا التقرُّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شِرْكَ معه ولا تكذيبَ فإنه العمدةُ[2]. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ من الله تعالى، أي مقبولاً عنده مُثَاباً عليه، فإنَّ شكرَ اللهِ الثوابُ على الطاعة.

(٢٠) ﴿كُلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين بدلٌ من المضاف إليه. ﴿نُّمِدُّ﴾ بالعطاء مرةً بعد أخرى ونجعل آنِفَهُ مدداً لسالفه. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من كلاً. ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ من مُعْطَاهُ، متعلِّق بِنُمِدُّ. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تَفَضُّلاً[3].

(٢١) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصابُ كيف بِفَضَّلْنا على الحال. ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودَرَكَاتِها.

---

(١) أو لعمومه فإنه يتعلق بغير المبصرات.
(٢) وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذُكِر في حيز الصلة (س٥/ ١٦٤).
(٣) وإظهار «عطاء ربك» إظهاراً لمزيد الاعتناء بشأنه، وإشعاراً بعليته للحكم (س٥/ ١٦٥).

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

(٢٢) ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته، أو لكل أحد. ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ فتصيرَ من قولهم شحذ الشفرةَ حتى قَعَدَتْ كأنها حربةٌ، أو فتَعْجز من قولهم قَعَدَ عن الشيء إذا عَجَزَ عنه. ﴿مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلانَ من الله تعالى، ومفهومه أن الموحِّدَ يكون ممدوحاً منصوراً.

(٢٣) ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأَمَرَ أَمْرَاً مقطوعاً به. ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظَمَة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون أنْ مفسرة ولا ناهيةٌ. ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ وبأن تحسنوا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السببُ الظاهر للوجود والتعيُّش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدَّمُ عليه. ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ «إما» هي إنْ الشرطية زِيْدَتْ عليها ما تأكيداً، ولذلك صحَّ لحوقُ النون المؤكِّدةِ للفعل. وأحدُهما فاعلَ يبلغنَّ، وبدلٌ على قراءة حمزة والكسائي مِنْ أَلِفِ يَبْلُغَانِّ الراجعِ إلى الوالدين، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يَجُزْ أن يكون تأكيداً للألف. ومعنى عندك أن يكونا في كَنَفِكَ وكفالتك[1]. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ فلا تضجرْ مما يُسْتَقْذَرُ منهما وتَسْتَثْقِلْ مِنْ مَؤُنَتِهِما. وهو صوت يدل على تَضَجُّرٍ، وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجَّر، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، وتنوينُه في قراءة نافع وحفص للتنكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف[2]، وقرىء به منوناً، وبالضم للاتباع كَمُنْذُ منوناً وغيرَ مُنَوَّنٍ. والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى، وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيرَ والقِطْميرَ، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفةَ من قتل أبيه وهو في صفِّ المشركين[3]. نهى عما يؤذيهما بعدَ الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ ولا تزجُرْهما عمّا لا يعجبك بإغلاظ، وقيل النَّهْيُ والنَّهْرُ والنَّهْمُ أخواتٌ. ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنَّهْرِ. ﴿قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ جميلاً لا شراسةَ فيه.

(٢٤) ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ تَذَلَّلْ لهما وتواضَعْ فيهما، جَعَلَ لِلذُّلِ جناحاً كما جعلَ لبيدُ في

---

(١) تقديم الظرف «عندك» على المفعول للتشويق إلى وروده فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان. وتأخير الفاعل «أحدُهما» عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه.
وتوحيد ضمير الخطاب في «عندك» وفيما بعده ـ مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. . (س٥/١٦٦).

(٢) أي «أُفَّ».

(٣) قال ابن حجر: لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين، فإنه استُشهد بأُحُدٍ مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة بن الجراح (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٥).

قوله:

وَغَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كشفت وَقرّةٍ إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

لِلشَّمَالِ يداً أو لِلْقَرَّةِ زماماً، وأَمَرَهُ بخفضِه مبالغةً أو أراد جناحَه كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيفَ حَاتَمٌ إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحَك الذليل. وقرىء الذِّلُّ بالكسر وهو الانقياد، والنَّعْتُ منه ذَلولٌ. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ مِنْ فَرْطِ رحمتك عليهما لافتقارهما إلى مَنْ كان أفقرَ خَلْقِ الله تعالى إليهما بالأمسِ. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وادع الله تعالى أن يرحَمَهُما برحمته الباقية، ولا تَكْتَفِ برحمتك الفانية وإن كانا كافرَيْنِ لأن مِنَ الرحمة أن يهديَهَما: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ رحمةً مثلَ رحمتهما عليَّ وتربيتَهما وإرشادَهما لي في صغري وفاءً بِوَعْدِكَ للراحمين. روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبويَّ بلغا من الكِبَرِ أني أَلِي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتُهما حقَّهما، قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبَّان بقاءَك وأنتَ تفعل ذلك وتريد موتَهما»[٢].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البرِّ إليهما واعتقادِ ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديدٌ على أن يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً. ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ ما فَرَطَ منهم عندَ حَرَجِ الصدر من أذيةٍ أو تقصير، وفيه تشديدٌ عظيم، ويجوز أن يكونَ عاماً لكلِّ تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لِوُرُودِه على أَثَرِه.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرِّ عليهم. وقال أبو حنيفة: حقُّهم إذا كانوا محارِمَ فقراءَ أن ينفقَ عليهم. وقيل المراد بذي القربى أقاربُ الرسول ﷺ. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بِصَرْفِ المال فيما لا ينبغي، وإنفاقُه على وَجْهِ الإسراف. وأصل التبذير التفريقُ. وعن النبي ﷺ أنه قال لسعدٍ وهو يتوضأ: «ما هذا السَّرَفُ؟» قال: أَوَ في الوضوء سَرَفٌ قال: «نعم وإن كنتَ على نَهْرٍ جارٍ»[٣].

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالَهم في الشَّرارة فإنَّ التضييعَ والإتلاف شرٌّ، أو

---

(١) الحجر: «٨٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٩٨ رقم ٢٨٠): «لم أجده».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) وابن ماجة (٤٢٥). قال ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٧).

أصدقاءَهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسرافِ والصَّرْفِ في المعاصي. روي أنهم كانوا ينحرون الإبلَ ويتياسَرُون عليها ويُبَذِّرُون أموالَهم في السُّمْعَةِ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القُرُبَاتِ. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ مبالِغاً في الكفر به فينبغي أن لا يُطَاعَ[1].

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ وإن أعرضتَ عن ذي القربى والمسكينِ وابن السبيل حياءً من الردِّ، ويجوز أنْ يرادَ بالإعراض عنهم أن لا ينفعَهم على سبيل الكناية. ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لانتظار رزقٍ من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه، أو منتظرينَ له. وقيل معناه لِفَقْدِ رزقٍ من ربِّك ترجوه أن يَفْتَحَ لك، فَوَضَعَ الابتغاءَ موضعَه لأنه مُسَبَّبٌ عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاءَ رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور مِنْ يَسِرَ الأمرُ مثل سَعِدَ الرَّجُلُ ونَحِسَ، وقيل القول الميسور الدعاءُ لهم بالميسور وهو اليسرُ مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر، نهى عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكَرَمُ. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوءِ التدبير. ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادِماً أو منقطِعاً بك لا شيءَ عندك مِنْ حَسَرَهُ السَّفَرُ إذا بلغ منه. وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالسٌ أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تَسْتَكْسِيْكَ دِرعاً، فقال ﷺ: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ فعُد إلينا» فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصَه وأعطاه وقعد عُرْياناً، وأذَّنَ بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله ذلك[2]. ثم سَلاَّه بقوله:

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُوَسِّعُه ويضيِّقُه بمشيئته التابعة للحكمة البالغةِ فليس ما يرهقُك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم سِرَّهم وعَلَنَهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يُرَادَ أن البَسْطَ والقبضَ من أمر الله تعالى العالم بالسرائر

---

(١) تخصيص التبذير بالذكر للإيذان بأنه من الكفران المقابل للشكر.
والتعرض لوصف الربوبية «لربه» للإشعار بكمال عتوه، فإن كفران نعمة الرب ـ مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ـ غايةُ الكفران ونهاية الضلال والطغيان (س٥/ ١٦٨).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٩) لكن أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٤ بنحوه، وهو ضعيف أيضاً لأن في سنده سليمان بن سفيان الجهني وهو ضعيف (التقريب ١/ ٣٢٥) وأورد الواحدي أيضاً عن جابر بن عبدالله ص٢٩٥ وبدون إسناد.

والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى يبسط تارةً ويقبضُ أخرى فاستنوا بِسُنَّتِهِ ولا تقبضوا كلَّ القبضِ ولا تبسطوا كلَّ البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ مخافةَ الفاقة. وقَتْلُهم أولادَهم هو وَأْدُهم بناتِهم مخافةَ الفقرِ فنهاهم عنه وضَمِنَ لهم أرزاقَهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النَّوع. والخطأ الإثمُ يقال خطِىءَ خطأً كَأَثِمَ إِثماً. وقرأ ابن عامر خَطَأً وهو اسمٌ مِنْ أخطأ يُضَادُّ الصوابَ، وقيل: لغةٌ فيه كَمِثْلٍ ومَثَلٍ وحِذْرٍ وحَذَرٍ، وقرأ ابن كثير خِطَاءً بالمد والكسر وهو إما لغةٌ فيه أو مصدرُ خَاطَأَ، وهو وإن لم يُسْمَعْ لكنه جاءَ تَخَاطَأ في قوله:

تَخَاطَأَهُ القَنَّاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ وخُرْطُومَهُ فِي مَنْقَعِ المَاءِ رَاسِبِ

وهو مبني عليه، وقرىء خَطاءً بالفتح والمد، وخَطًا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً[١].

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فِعْلَةً ظاهرةَ القُبْح زائدتَه. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقُه، وهو الغصْبُ على الأبْضَاعِ المؤدي إلى قطع الأنساب وهَيْجِ الفتن[٢].

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، وزِنا بعد إحصان، وقتلُ مؤمنٍ معصومٍ عَمْداً. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غيرَ مستوجبٍ للقتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ للذي يلي أمْرَه بعدَ وفاته وهو الوارِثُ. ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تَسَلُّطاً بالمؤاخذةِ بمقتضى القتلِ على مَنْ عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى «مظلوماً» يدل على أن القتل عمدٌ عدوانٌ فإن الخطأَ لا يُسَمَّى ظلماً. ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي القاتل. ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بأنْ يَقْتُلَ مَنْ لا يستحقُّ قَتْلَهُ، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولِيِ بِالْمُثْلَةِ. أو قتلِ غيرَ القاتل، ويؤيد الأولَ قراءةُ أُبَيٍّ فلا تسرفوا. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) قوله «نرزقهم وإياكم» حيث قدم ضمير الأولاد على المخاطبين ـ بخلاف قوله تعالى في سورة الأنعام الآية «١٥١»: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» حيث أخر ضمير الأولاد ـ وذلك للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل «من إملاق» وههنا الإملاق المتوقع، ولذلك قيل «خشية إملاق» فكأنه قيل: نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم (س٥/ ١٦٩).

(٢) والنهي عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته.
وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة باعتبار أنه قتل للأولاد لأنه تضييع للأنساب (س٥/ ١٧٠).

فلا تسرفْ على خطابِ أحدِهما. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عِلَّةُ النهي على الاستئناف، والضميرُ إما للمقتول فإنه منصورٌ في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليِّه فإن الله تعالى نَصَرَهُ حيثُ أوجب القِصَاصَ له وأمر الوُلاَةَ بمعونته، وإما للذي يقتله الوليُّ إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزيرِ والوِزْرِ على المسرِفِ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرُّفِ الذي دلَّ عليه الاستثناء. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوباً يطلب من المُعَاهِد أن لا يُضَيِّعَه ويفي به، أو مسؤولاً عنه يُسألُ الناكِثَ ويعاتبُ عليه لِمَ نَكَثْتَ، أو يُسأل العهدَ تبكيتاً للناكثِ كما يقالُ للموءودةِ بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتِ، فيكون تخييلاً. ويجوز أن يرادَ أن صاحبَ العهد كان مسؤولاً[1].

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السويِّ، وهو رومي عُرِّبَ ولا يَقْدَحُ ذلكَ في عربيَّةِ القرآن، لأن العجميَّ إذا استَعْمَلَتْه العربُ وأَجْرَتْه مجرى كلامِهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوِها صارَ عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسرِ القاف هنا وفي الشعراءِ[2]. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبةً، تفعيل مِنْ آلَ إذا رجَعَ.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع. وقرىء ولا تَقُفْ مِنْ قَافَ أَثَرَهُ إذا قَفَاه، ومنه القافةُ. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلَّقْ به عِلْمُك تقليداً أو رَجْماً بالغيب، واحتجَّ بهِ مَنْ منعَ اتباعَ الظن، وجوابُه أن المرادَ بالعِلْم هو الاعتقاد الراجح المستفادُ مِنْ سَنَدٍ، سواءٌ كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغٌ وشائع، وقيل إنه مخصوص بالعقائد، وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَفَا مؤمناً بما ليس فيه حَبَسَهُ الله في رَدْغَةِ الخبال حتى يأتيَ بالمخرَجِ»[3]. وقول

---

(١) قوله «إن العهد» حيث أظهر العهد في مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه، أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (س٥/ ١٧١).

(٢) الشعراء: «١٨٢».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٩٩ رقم ٢٩١): لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً، وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب ـ (٤/ ٤٠٧) ـ من قول حسان بن عطية ـ ثقة فقيه (التقريب: ١/ ١٦٢) ـ فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد ـ في المسند (٣/ ٤٤١) والطبراني من رواية معاذ بن أنس رفعه «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمناً أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج».

الكميتِ[١] :

وَلاَ أَرْمِــي البَــرِيء بِغَيْــرِ ذَنْــبٍ ولاَ أَقْفُــو الحَــواصِــنَ إنْ قفينـــا

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كلُّ هذه الأعضاءِ، فأجْراها مَجْرَى العُقَلاءِ لما كانتْ مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على صاحبِها، هذا وإن أولاءِ وإن غلبَ في العقلاءِ لكنه مِنْ حيثُ إنه اسمُ جَمْعٍ لِذَا وهو يعمُّ القبيلينِ جاء لغيرهم كقوله:

وَالعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَامِ

﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ في ثَلاثَتِها ضميرُ كلُّ أيْ كان كلُّ واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فَعَلَ به صاحبُه، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدرٍ لا تَقْفُ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل مسؤولاً مُسْنَدٌ إلى عَنْهُ كقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٢] والمعنى يسأل صاحبَه عنه، وهو خطأ لأن الفاعلَ وما يقوم مقامَه لا يتقدم. وفيه دليل على أن العبد مُؤَاخَذٌ بِعَزْمِهِ على المعصية. وقرىء والفَوَادَ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالِهَا بالفتح.

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أي ذا مَرَحٍ وهو الاختيال. وقُرِىءَ مَرِحاً وهو باعتبار الحكم أبلغُ

= وهو عند أبي داود ـ (٤/ ٢٣ رقم ٣٥٩٧) ـ من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج وهو يخرج مما قال».
وأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/ ٢٧) ـ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج» هـ.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.
● الردغة: ـ بفتح الراء وسكون الدال: طين ووحل كثير.
● والخبال: ـ بالموحدة الفساد: ويكون في الأفعال والأبدان والعقول.
قال ابن كثير ردغة الخبال: جاء تفسيره في الحديث.
أنها عصارة أهل النار. [النهاية مادة: خبل وردغ (٢/ ٨، ٢١٥)].

(١) هو الكميت بن زيد ـ وهو كوفي شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها ومن شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية المقارعين العالمين بالمثالب.
يقال: ـ ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت، فمن صحَّح الكميت نسبه صحَّ، ومن طعنَ فيه وهَن.
وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وله في أهل البيت القصائد المشهورة ولد الكميت سنة (٦٠هـ) ومات سنة (١٢٦هـ) في خلافة مروان بن محمد.
[«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» لعبدالقادر بن عمر البغدادي. (١/ ١٤٤ ـ ١٤٧)].

(٢) الفاتحة: «٧».

وإن كان المصدر آكدُ مِنْ صريح النَّعْتِ. ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تَجْعَلَ فيها خَرْقاً بشدةِ وطأتِك. ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهو تهكُّمٌ بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيالَ حماقة مجرَّدةٌ لا تعود بِجَدْوَى ليس في التذلُّلِ.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبةُ في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني المنهي عنه، فإنَّ المذكوراتِ مأموراتٌ ومَنَاهٍ. وقرأ الحجازيانِ والبصريان[2] سَيِّئَةً، على أنها خبرُ كان، والاسمُ ضميرُ كلّ، وذلك إشارة إلى ما نهي عنه خاصة، وعلى هذا قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدلٌ من سَيِّئُهُ أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سَيِّئاً، وقد قرىء به، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكِنِّ في كان أو في الظرف على أنه صفة سَيِّئُهُ. والمراد به المبغوض المقابل للمَرْضي، لا ما يقابل المرادَ لقيام القاطع، على أن الحوادثَ كلَّها واقعةٌ بإرادته تعالى[3].

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيدَ مبدأُ الأمر ومنتهاه، فإنَّ مَنْ لا قَصْدَ له بَطَلَ عمله ومن قصد بفعله أو تركِهِ غيرَه ضاعَ سَعْيُه، وأنه رأسُ الحكمة وملاكُها، ورتَّبَ عليه أولاً ما هو عائدُه الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجته في العُقْبَىٰ فقال تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك[4]. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَداً من رحمة الله تعالى.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خطابٌ لمن قالوا الملائكةُ بناتُ الله، والهمزة للإنكار، والمعنى: أَفَخَصَّكم ربُّكم بأفضلِ الأولادِ وهم البنونَ. ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ بناتٍ لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولُكم وعادتُكم. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسِكم عليه حيثُ تجعلون له ما تَكْرَهُون، ثم بِجَعْلِ الملائكةِ الذين هم مِنْ أشرفِ خَلْقِ الله أدونَهم.

---

(١) الإسراء: «٢٢».

(٢) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان أبو عمرو ويعقوب.

(٣) ووصف ذلك بمطلق الكراهة ـ مع أن البعض من الكبائر ـ للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عنه. (س٥/ ١٧٢).

(٤) وإيراد الإلقاء مبنياً للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك (س٥/ ١٧٣).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كَرَّرْنَا هذا المعنى بوجوهٍ من التقرير. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في مواضعَ منه، ويجوز أن يُرَادَ بهذا القرآن إبطالُ إضافةِ البنات إليه على تقدير: ولقد صرفنا هذا القولَ في هذا المعنى أو أوقعنا التصريفَ فيه. وقرىء صَرَفْنَا بالتخفيف. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتذكروا. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان[1] لِيَذْكُرُوا من الذِّكْرِ الذي هو بمعنى التذكُّرِ[2]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقِلَّةِ طُمَأْنينةٍ إليه.

(٤٢) ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعدَه على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأُوْلَى مما أمر الرسول ﷺ أن يخاطب به المشركين والثانيةَ مما نَزَّهَ به نفسَه عن مَقَالَتِهِم. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جوابٌ عن قولهم وجزاءٌ لِلَوْ، والمعنى: لَطَلبوا إلى مَنْ هو مالِكُ المُلْكِ سبيلاً بالمعازَةِ كما يفعل الملوكُ بعضُهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لِعِلْمهم بقدرته وعجزِهم كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[3].

(٤٣) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ينزه تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعِداً غايةَ البعدِ عما يقولون، فإنه في أعلى مراتبِ الوجود وهو كونُه واجبَ الوجود والبقاء لذاته، واتخاذُ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجبِ لذاته. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيها المشركون لإخلالِكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهم تَسْبِيْحُهم، ويجوز أنْ يُحْمَلَ التسبيحُ على المشترك بينَ اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يُتَصَوَّرُ منه وعليهما عندَ مَنْ جَوَّزَ إطلاقَ اللفظ على معنييه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر يُسَبِّحُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلْكم بالعقوبة على غفلتكم وشِرْكِكُم. ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

---

(١) الفرقان: «٥٠».

(٢) والالتفات في «ليذكروا» إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكىٰ للسامعين هنّاتهم. (س٥/ ١٧٤).

(٣) الإسراء: «٥٧».

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فَهْمِ ما تقرؤه عليهم. ﴿مَّسْتُورًا﴾ ذا سِترٍ كقوله تعالى: ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[١] وقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ، أو مستوراً عن الحسِّ، أو بحجاب آخرَ لا يَفْهَمُونَ ولا يَفْهَمُون أنهم لا يَفْهَمُونَ[٢]. نَفَىٰ عنهم أنْ يَفْهَمُوا ما أُنْزِلَ عليهم من الآيات بعدَ ما نَفَى عنهم التفقُّهَ للدلالاتِ المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرَّح به بقوله:

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تُكِنُّها وتَحُوْلُ دونَها عن إدراك الحق وقَبوله. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي مَنَعْنَاهُم أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن استماعه. ولمّا كان القرآن معجزاً من حيثُ اللفظُ والمعنى أثبتَ لِمُنْكِرِيْهِ ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ واحداً غيرَ مشفوع به آلهتَهم، مصدرٌ وقَعَ موقِعَ الحال، وأصله تُحَدُّ وحدَه بمعنى واحداً وحدَه. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هَرَباً من استماع التوحيد ونُفْرَةً أو توليةً، ويجوز أن يكون جَمْعُ نافرٍ كقاعد وقعودٍ.

(٤٧) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بسببه ولأجْلِهِ مِنَ الْهُزْءِ بك وبالقرآن. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لأَعْلَمُ، وكذا: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي نحن أعلم بِغَرَضِهِم من الاستماع حين هم مستمعونَ إليك مضمِرونَ له وحين هم ذَوُو نَجْوى يتناجَوْنَ به، ونَجْوَى مصدر ويحتمل أن يكون جمع نَجِيٍّ. ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مقدرٌ بِاذْكُرْ. أو بدلٌ مِنْ إذْ هُمْ نَجْوَى، على وضع الظالمون موضعَ الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم. والمسحورُ هو الذي سُحِرَ فزالَ عقلُه، وقيل الذي له سِحْرٌ وهو الرِّئَةُ أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مِثْلُكُم.

(٤٨) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مَثَّلُوكَ بالشاعر والساحرِ والكاهنِ والمجنون. ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن مُوَجَّهٍ فيتهافتون ويخبُطون كالمتحيِّرِ في أَمْرِهِ لا يدري ما يَصْنَعُ، أو إلى الرشاد.

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ حُطاماً. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضةِ الحي ويبوسةِ الرميم من المباعدة والمنافاة. والعاملُ في «إذا» ما دل عليه مبعوثون، لا نفسُه لأن ما بعدَ أن لا يَعملُ فيما قبلَها. وخَلْقاً مصدر أو حال.

---

(١) مريم: «٦١».

(٢) قوله «الذين لا يؤمنون بالآخرة» حيث خص بالذكر كفرَهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها من أعظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (س٥/ ١٧٥).

۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿۞ قُلْ﴾ جواباً لهم. ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي مما يكبرُ عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعدَ شيء منها، فإنَّ قُدْرَتَهُ تعالى لا تقصرُ عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعْراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتَةً وقد كانت غضَّةً موصوفة بالحياة قبلُ؟ والشيءُ أَقْبَلُ لما عُهِدَ فيه مما لم يُعْهَدْ. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً وما هو أبعدُ منه مِنَ الحياة. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نَحْوَكَ تعجُّباً واستهزاءً. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كل ما هو آتٍ قريبٌ، وانتصابُه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، وأن يكون اسم عسى أو خبره والاسم مضمَر.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يومَ يبعثكم فتنبعثُون، استعارَ لهما الدعاءَ والاستجابةَ للتنبيه على سرعتهما وتَيَسُّرِ أمْرِهما وأن المقصودَ منهما الإحضارُ للمحاسبةِ والجزاء. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم، أي حامدين اللهَ تعالى على كمالِ قدرته كما قيل إنهم ينفضُون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أو منقادين لِبَعْثِهِ انقيادَ الحامدين عليه. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدةَ لَبْثِكُم في القبور كالذي مرَّ على قرية، أو مُدَّةَ حياتِكم لما تَرَوْنَ من الهول.

(٥٣) ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ يعني المؤمنين. ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة التي هيَ أحسن ولا يخاشِنُوا المشركين. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يُهَيِّجُ بينهم المراءَ والشرَّ، فلعلَّ المخاشَنَةَ بهم تُفْضِي إلى العِنَاد وازدياد الفساد. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العداوة.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراضٌ أي قولوا لهم هذه الكلمةَ ونحوَها ولا تصرِّحُوا بأنهم مِنْ أهلِ النار، فإنهُ يُهَيِّجُهم على الشرِّ معَ أن ختامَ أَمْرِهم غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أَمْرُهُم تَقْسِرُهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مُبَشِّراً ونذيراً فَدَارِهِم وَمُرْ أصحابَكَ بالاحتمال منهم. ورُوِيَ أن المشركين أفرطوا في إيذائِهم فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ فنزلت[1]، وقيل شَتَمَ عمرَ رضي الله تعالى عنه رَجُلٌ منهم فَهَمَّ به فأمرهُ اللهُ بالعفو[2].

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ من قول الكلبي وبدون إسناد.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ ولم ينسبه لأحد.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو ردٌّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيمُ أبي طالبٍ نبياً وأن يكون العراةُ الْجُوَّعُ أصحابَه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية، لا بكثرةِ الأموال والأتباع حتى داودَ عليه الصلاة والسلام فإن شَرَفَهُ بما أُوحِيَ إليه من الكتاب لا بما أُوتِيَهِ مِنَ الْمُلْكِ. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء وأُمَّتُهُ خيرُ الأمم المدلول عليه بما كُتِبَ في الزبور من أن الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون. وتنكيرُه ههنا وتعريفُه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾[1] لأنه في الأصل فَعُولٌ للمفعول كالْحَلُوب، أو المصدر كالقَبُولِ، ويؤيده قراءةُ حمزة بالضمِّ، وهو كالعبَّاس أوِ الفضلِ، أو لأن المرادَ وآتينا داودَ بعضَ الزُّبُرِ، أو بعضاً من الزَّبُورِ فيه ذِكْرُ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٥٦) ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهة. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة والمسيح وعُزَيْرٌ. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقَحْطِ. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويلَ ذلكَ منكم إلى غيرِكم.

(٥٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهةُ يبتغون إلى الله القرابةَ بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل مِنْ وَاوِ يبتغون، أي يبتغي مَنْ هو أقربُ منهم إلى الله الوسيلةَ، فكيفَ بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم الهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأنْ يحذَرَهُ كلُّ أحدٍ حتَّى الرسلُ والملائكةُ[2].

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالموت والاستئصال. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ ما صَرَفَنَا عن إرسال الآيات التي اقترحَها قريشٌ. ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ إلا تكذيبَ الأولين الذين هم أمثالُهم في الطبع كَعَادٍ وثمودَ، وأنها لو أرسلت لَكَذَّبوا بها

---

(١) الأنبياء: «١٠٥».

(٢) وهو تعليل لقوله «ويخافون عذابه». وتخصيصه بالتعليل لأن المقام مقام التحذير من العذاب، وأن بينهم وبين العذاب بوناً بعيداً (س٥/ ١٧٩).

تكذيبَ أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سُنَّتُنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم مَنْ يؤمن أو يَلِدُ مَنْ يؤمنُ. ثم ذَكَرَ بعضَ الأمم المهلَكةِ بتكذيب الآيات المقترحة فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة ذات إبصار أو بصائر، أو جاعلتهم ذوي بصائر. وقرىء بالفتح. ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عَقْرِهَا[1]. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ﴾ أي بالآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصِلِ فإن لم يخافوا نزلَ، أو بغير المقترَحَة كالمعجزات وآيات القرآن إلاَّ تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنَّ أَمْرَ مَنْ بُعِثْتَ إليهم مؤخَّرٌ إلى يوم القيامة. والباء مزيدةٌ أو في موقعِ الحال، والمفعول محذوف.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ فَهُمْ في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم مِنْ أَحَاطَ بهم العدوُّ، فهي بشارة بِوَقْعَةِ بدر. والتعبير بلفظ الماضي لِتَحقُّقِ وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ ليلةَ المعراج، وتعلَّق به مَنْ قال إنه كان في المنام، ومَنْ قال إنه كان في اليقظة فسَّر الرؤيا بالرؤية. أو عامَ الحديبيةِ حين رأى أنه دخل مكةَ، وفيه أن الآية مكية إلا أنْ يُقَالَ رآها بمكةَ وحكاها حينئذ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ﴾[2] ولما روي أنه لما ورد ماءه قال: «لكأني أنظر إلى مصارع القوم، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» فتسامعت به قريش واستسخروا منه[3]. وقيل رأىٰ قوماً من بني أمية يَرْقُونَ مِنْبَرَهُ وَيَنْزُونَ عليه نَزْوَ القِرَدَةِ فقال: «هذا حظُّهم من الدنيا يُعْطَوْنَهُ بإسلامهم»[4]، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ عطف على الرؤيا وهي

---

(١) ولعل تخصيص ثمود بالذكر لأن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم، أو لأنها من جهة أنها حيوان أُخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى: «قل كونوا حجارة أو حديداً» الآية: «٥٠» (س/٥/ ١٨١).

(٢) الأنفال: «٤٣».

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٣ رقم ٧٦/ ٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك.

(٤) القول بأن المراد بالشجرة الملعونة هم بنو أمية فهو ضعيف جداً وجمهور المفسرين على خلافه، انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨).

وما ورد من أحاديث في ذلك إنما هو ضعيف جداً، حيث أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد (١٥/ ١١٢) بنحو ما أورده البيضاوي، قال ابن كثير فيه: وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية (ابن كثير ٣/ ٤٨).. وأخرج الحاكم (٤/ ٤٨٠) بنحوه أيضاً وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف، وقد أعلّه ابن الجوزي في العلل (٢/ ٢١٣) وقال الجورقاني حديث باطل (الأباطيل ١/ ٢٥٣).

شجرة الزقوم، لمّا سمع المشركون ذِكْرَها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرقُ الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجرُ، ولم يعلموا أن مَنْ قدَر أن يحميَ وَبَرَ السَّمَنْدَل من أن تأكلَه النار وأحشاءَ النعامةِ من أذى الجمر وقِطَع الحديد المحمَّاةِ الْحُمُرَ التي تبتلعها قَدَرَ أن يخلق في النار شجرةً لا تحرقُها. ولَعْنُها في القرآن لَعْنُ طَاعميها وُصِفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعدُ مكانٍ من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعامٌ ملعون لما كان ضاراً، وقد أُوِّلَتْ بالشيطان وأبي جهل والْحَكَمِ بنِ أبي العاصي. وقُرِأَتْ بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي والشجرةُ الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ إلا عُتُوّاً متجاوزَ الحدِّ.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقتَه من طين فَنُصِبَ بِنَزْعِ الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقتَه وهو طين، أو منه أي أأسجدُ له وأصلُه طينٌ. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماءٌ بعلةِ الإنكار.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صِفَتُه والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتَهُ عليَّ بأمري بالسجود له لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ[1]؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، واللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم، وجوابهُ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستأصلنَّهم بالإغواءِ إلا قليلاً لا أقدرُ أنْ أقاوِمَ شكيمتَهم، مِنْ احتنكَ الجرادُ الأرضَ إذا جرَّد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الْحَنَكِ. وإنما عَلِم أن ذلك يَتَسَهَّلُ له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[2] مع التقرير، أو تَفَرُّساً مِنْ خَلْقِه ذا وَهْمٍ وشهوةٍ وغضب.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ امضِ لما قصدتَه، وهو طردٌ وتخلية بينَه وبين ما سَوَّلَتْ له نفسُه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلَّبَ المخاطبَ على الغائبِ، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الألتفات. ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مكملاً من قولهم: فِرْ لصاحبِك عِرْضَه، وانتصابُ جزاءً على المصدر بإضمار فعلِه أو بما في جزاؤكم من معنى تُجَازون، أو حال موطئة لقوله «موفوراً».

---

(١) توسيط «قال» بين كلامي إبليس اللعين للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره (س٥/ ١٨٣).

(٢) البقرة: «٣٠».

(٦٤) ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ ﴾ واستخفف. ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم ﴾ أن تستفِزَّه، والفزُّ الخفيف. ﴿ بِصَوۡتِكَ ﴾ بدعائِك إلى الفساد. ﴿ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم ﴾ وصِحْ عليهم، مِنَ الْجَلَبَةِ وهي الصِّياحُ. ﴿ بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راكب وراجلٍ، والخيل: الخيَّالةُ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»[١] والرَّجْلُ اسمُ جَمْعٍ للراجل كالصَّحْبِ والرَّكْبِ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لِتَسَلُّطِهِ على مَنْ يغويه بمغوارِ صوتٍ على قوم فاستفزَّهم من أماكنهم وأَجْلَبَ عليهم بجنده حتى استأْصَلَهم. وقرأ حفص وَرَجِلِكَ بالكسر، وغيرُه بالضمِّ وهما لغتان كَنَدِسٍ ونَدُسٍ[٢] ومعناه وجَمْعُكَ الرَّجُلَ، وقرىء ورِجَالِك ورُجَالِك[٣]. ﴿ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ ﴾ بحملِهم على كسبها وجَمْعِها من الحرام والتصرفِ فيها على ما لا ينبغي. ﴿ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ بالحثِّ على التوصل إلى الولد بالسَّبَبِ المحرَّمِ، والإشراك فيه بتسميته عبدِالعُزَّى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحِرَفِ الذميمة والأفعال القبيحة. ﴿ وَعِدۡهُمۡۚ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكالِ على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة. والغرورُ تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب[٤].

إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ يعني المخلَصين، وتعظيمُ الإضافة والتقييدُ في قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[٥] يخصِّصُهم. ﴿ لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ ﴾ أي على إغوائهم قدرةٌ. ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

(٦٦) ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي﴾ هو الذي يُجْرِي. ﴿لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ الربح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ حيثُ هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسَهَّلَ عليكم ما تعسَّر مِنْ أسبابه.

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ خوفَ الغرق. ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾ ذهب عن خواطركم كلُّ مَنْ تَدْعُونَهُ في حوادثكم. ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَه فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواهُ فلا تدعون لكشفِه إلا إياه، أو ضلَّ كلُّ مَنْ تعبدونه عن إغاثتِكم إلا اللهُ. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ﴾ من الغرق. ﴿ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ عن التوحيد. وقيل

---

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٧٠) من سورة يوسف.
(٢) الندس: الفهِمُ وقد ندس كفرح.
(٣) اللفظ مكرر، ولعله ورَجَّالَتك.
(٤) والالتفات إلى الغيبة بقوله «وما يعدهم...» لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الإشعار بعلّية سيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (س٥/ ١٨٤).
(٥) الحجر: «٤٠».

اتسعتم في كفران النعمة كقول ذي الرُّمَّةِ:

عَطَـاء فَتًـى تَمَكَّـنَ فِـي المَعَـالـي ... فـأَعْـرَضَ فِـي المَكَـارِمِ وَاسْتَطَـالاَ

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتعليل للإعراض.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتُم فَأَمِنْتُم فحملَكُم ذلكَ على الإعراض، فإن مَنْ قَدرَ أنْ يهلِكَكُم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البرِّ بالخسف وغيره. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أنْ يَقْلِبَهُ الله وأنتم عليه، أو يقلبه بِسَبَبِكُم فَبِكُم حالٌ أو صلةٌ لِيَخْسِفَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعدَه. وفي ذِكْرِ الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحلَ كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهاتِ في قدرته سواءٌ لا مَعقِلَ يُؤَمِّنُ فيه من أسباب الهلاك. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تَحْصُبُ أي ترمي بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا رادَّ لفضله.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر[1]. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوهُ. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشيءٍ إلا قصفَتْهُ أي كَسَرَتْهُ. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وعن يعقوبَ بالتاء، على إسناده إلى ضمير الريح. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراكِكُم أو كُفرانِكُم نعمةَ الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ مطالباً يَتْبَعُنَا بانتصارٍ أو صَرْفٍ.

(٧٠) ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بحسنِ الصورة والمزاج الأعدلِ واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخطِّ والتهدِّي، أو أسبابِ المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكُّنِ من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسُّفْلِيةِ إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غيرِ ذلك مما يقفُ الْحَصْرُ دونَ إحصائه. ومن ذلك ما ذَكَرَهُ ابن عباس: وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده[2]. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابِ والسُّفُن، مَنْ حَمَلْتُهُ حملاً إذا جعلت له ما يركبه، أو حملناهم فيهما حتى لم تُخْسَفْ بهم الأرضُ ولم يُغْرِقْهُم الماءُ. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذاتِ مما يحصل بفعلهم وبغيرِ فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بِالْغَلَبَةِ والاستيلاءِ أو بالشرفِ والكرامة، والمستثنى جِنْسُ الملائكة عليهم الصلاة

---

(١) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (س٥/ ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق (فتح القدير ٣/ ٢٤٥).

والسلام أو الخواصُ منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدمُ تفضيل بعضِ أفراده، والمسألةُ موضعُ نَظَرٍ، وقد أُوِّلَ الكثيرُ بالكلِّ وفيه تَعَسُّفٌ.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟﴾ نُصِبَ بإضمارِ اذكُرْ، أو ظرف لما دلَّ عليه ولا يظلمون. وقرىء يَدْعُو ويُدْعى ويُدْعَو على قَلْبِ الألفِ واواً في لغة مَنْ يقول أَفْعَو في أَفْعَى، أو على أن الواو علامةُ الجمع كما في قوله ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[١] أو ضميره وكلُّ بدل منه والنون محذوفة لِقِلَّةِ المبالاة بها فإنها ليست إلا علامةُ الرفع، وهو قد يُقَدَّرُ كما في يُدْعىٰ. ﴿كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ﴾ بمن ائتَمُّوا به من نبي أو مُقَدَّمٍ في الدين أو كتابٍ أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدَّموها فيقال يا صاحبَ كتابِ كذا، أي تنقطعُ عُلَقَةُ الأنساب وتبقى نِسْبَةُ الأعمال. وقيل بالقِوَى الحاملةِ لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جَمْعُ أمٍّ كَخُفٍّ وخِفَافٍ[٢]، والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرفِ الْحَسَنِ والحسينِ رضي الله عنهما وأن لا يُفْتَضَحَ أولادُ الزنا. ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ من المدعوينَ. ﴿كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي كتابُ عملِه. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ ابتهاجاً وتبجُّحاً بما يَرَوْنَ فيه. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا يُنْقَصُونَ من أجورهم أدنى شيء[٣]، وجَمَعَ اسمَ الإشارة والضميرَ لأن مَنْ أُوتِيَ في معنى الجمعِ، وتعليقُ القراءة بإيتاء الكتابِ باليمين يدل على أن مَنْ أُوتِيَ كتابَه بشماله إذا اطَّلع ما فيه غَشِيَهم من الخجل والْحَيْرَةِ ما يَحْبِسُ ألسنَتَهُم عن القراءة، ولذلك لم يَذْكُرْهُم مع أن قوله:

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أيضاً مُشْعِرٌ بذلك فإن الأعمى لا يقرأُ الكتاب، والمعنى ومَن كان في هذه الدنيا أعمى القلبِ لا يبصر رُشْدَهُ كان في الآخرة أعمى لا يرى طريقَ النجاة. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدانِ الآلة والمهلةِ. وقيل لأن الاهتداءَ بعدُ لا ينفعُه. والأعمى مُسْتَعَارٌ مِنْ فاقدِ الحاسَّةِ. وقيل الثاني للتفضيل مِنْ عَمِيَ بقلبه كالأجهلِ والأَبْلَهِ ولذلك لم يُمِلْهُ أبو عمرو ويعقوب، فإن أَفْعَلَ التفضيل تمامُه بِمَنْ فكانت أَلِفُه في حكم المتوسِّطةِ كما في أعمالكم بخلاف النعت، فإن أَلِفَهُ واقعةٌ في الطَّرَفِ لفظاً وحُكْماً فكانت مُعَرَّضَة للإمالة من حيثُ إنها تصيرُ ياء في التثنية، وقد أمالهما حمزةُ والكسائي وأبو بكر، وقرأ وَرْشٌ بَيْنَ بَيْنَ فيهما.

---

(١) الأنبياء: «٣».

(٢) أورد هذا القول الزمخشري في الكشاف وقال إنه من بدع التفاسير (الكشاف ٢/٣٦٩) ويقصد بإظهار شرف الحسن والحسين أن نسبتهما إلى أمهما أفضل لأنها بنت رسول الله ﷺ.

(٣) الفتيل هو القشرة التي في شقِّ النواة، وهو مَثَل في القلة والحقارة.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيفٍ، قالوا لا نَدْخُلُ في أَمْرِكَ حتى تُعْطِيَنَا خِصَالاً نفتخر بها على العرب: لا نُعَشَّرُ ولا نُحْشَرُ ولا نَجْبي في صلاتنا[١]، وكلُّ رِبَاً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنَّا، وأن تُمَتِّعَنَا باللاتِ سنةً وأن تُحَرِّمَ وادينَا كما حرَّمْتَ مكةَ، فإن قالتِ العرب لم فعلتَ ذلكَ فقلْ إن الله أمرني[٢]. وقيل في قريش قالوا لا نُمَكِّنُكَ من استلامِ الحَجَرِ حتى تُلِمَّ بآلهتنا وتَمَسَّهَا بيدك[٣]. وإنْ هيَ المخففةُ واللام هي الفارقةُ، والمعنى: أنَّ الشأنَ قاربُوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزالِ. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الأحكام ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ غيرَ ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولو اتبعتَ مُرَادَهُم لاتَّخَذُوكَ بافتتانِكَ ولياً لهم بريئاً مِنْ ولايتي.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تَثْبِيتُنَا إيَّاكَ. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لقاربْتَ أن تميلَ إلى اتِّبَاعِ مُرَادِهِم، والمعنى أنك كنتَ على صَدَدِ الركونِ إليهم لقوةِ خِدَعِهِم وشِدَّةِ احتيالِهِم لكِنْ أَدْرَكَتْكَ عِصْمَتُنَا فَمُنِعْتَ أن تَقْرَبَ من الركون فضلاً أن تَرْكَنَ إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوة الدواعي. إليها، ودليل على أن العصمةَ بتوفيق الله وحِفْظِهِ.

(٧٥) ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ أي لو قاربتَ لأذَقْنَاكَ. ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة ضِعْفُ ما نعذِّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرَك لأنَّ خطأَ الخطيرِ أخطرُ. وكان أصلُ الكلام عذاباً ضِعْفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في المماتِ بمعنى مُضَاعَفاً، ثم حذفَ الموصوفَ وأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مقامَهُ، ثمَّ أضيفتْ كما يضاف موصوفُها. وقيلَ: الضِّعْفُ مِنْ أسماء العذاب. وقيل المراد بِضِعْفِ الحياة عذابُ الآخرة وضِعْفُ المماتِ عذابُ القبر: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذابَ عنك.

---

(١) معنى قولهم: لا نُعشَّر ولا نُحشَر ولا نجبي في صلاتنا. أي لا ندفع العُشْر، ولا نحشر مع غيرنا ـ يريدون أن يكون لهم مجلساً خاصاً ـ ولا نجبي أي لا نقوم قيام الراكع ـ والله أعلم ـ.

(٢) نقل المناوي عن الولي العراقي قوله: لم أقف عليه، وذكر أن الثعلبي قد أخرجه عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٧٧٨) لكن أورد الواحدي في أسباب النزول (ص٢٩٧) من قول عطاء عن ابن عباس ولم يذكر له سنداً، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) بمعناه من طريق العوفي عن ابن عباس وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن المسيب بسند ضعيف. لكنْ أورد السيوطي في لباب النقول (الإسراء: «٧٣») أنه أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: خرج أمية وأبو جهل ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، تعال تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه فرقّ لهم. فأنزل الله «وإن كادوا. . .» قال السيوطي: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد، وله شاهد.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ وإن كاد أهلُ مكةَ. ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونَكَ بِمُعَادَاتِهِم. ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكةَ. ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ ولو خرجتَ لا يَبْقُونَ بعدَ خُرُوجِكَ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً، وقد كانَ كذلك فإنهم أُهْلِكُوا بِبَدْرٍ بعدَ هجرتهِ بِسَنَةٍ. وقيل الآية: نزلتْ في اليهود حسدُوا مقامَ النبيِّ بالمدينة فقالوا: الشام مقامُ الأنبياء فإن كنت نبياً فالحقْ بها حتى نؤمنَ بك، فوقعَ ذلك في قلبه فخرج مرحلةً فنزلتْ، فرجع. ثم قُتِلَ منْهم بنو قريظةَ وأُجْلِيَ بنو النضير بقليل[1]. وقرىء لا يَلبَثُوا منصوباً بإذا على أنه معطوف على جملة قوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ لا على خبر كادَ فإن إذا لا تعملُ إذا كان مُعْتَمَدُ ما بعدَها على ما قَبْلَهَا. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص خلافَك وهو لغةٌ فيه قال الشاعر:

عفت الدِّيَار خَلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بسط الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيراً

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدر أي سَنَّ الله ذلك سُنَّةً، وهو أن يهلكَ كلَّ أمَّةٍ لله أَخرَجُوا رسولَهم من بينِ أَظْهُرِهم، فالسُّنَّةُ لله وإضافتُها إلى الرسل لأنها مِنْ أَجْلِهِم، ويدل عليه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً.

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها ويدلُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل لِدُلُوكِ الشمس حين زالت فصلى بي الظهر»[2]. وقيل لغروبها، وأصلُ التركيب للانتقال، ومنه الدَّلْكُ فإنَّ الدَّالِكَ لا تستقرُّ يدُه، وكذا كلُّ ما تركَّبَ من الدال واللام: كدَلَجَ ودَلَح ودَلَع ودَلَف ودَلَةَ. وقيل الدلوك مِنَ الدَّلْكِ لأنَّ الناظِرَ إليها يَدْلُكُ عينيه ليدفعَ شُعَاعَهَا، واللام للتأنيث مِثْلُها في: لثلاثٍ خَلَوْنَ. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى ظُلْمَتِه وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وصلاة الصبح، سميت

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٥٤) من حديث عبدالرحمٰن بن غَنْمٍ وفي سنده أحمد بن عبدالجبار العطاردي مجمع على ضعفه. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٠). وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن عساكر.

(٢) أخرجه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٢/ ١٩٤ رقم ٢٣٤٤) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٣٧) وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص١٠١ رقم ٢٩٩) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري.
ـ قلت: رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي بكر بن حزم وأبي مسعود كما عند ابن مردويه. وأصل حديث أبي مسعود في الصحيحين وغيرهما بدون تفسير الوقت. انظر البخاري (٢/ ٣ رقم ٥٢١) ومسلم (١/ ٤٢٥ رقم ١٦٦/ ١٦٧/ ٦١٠) وورد تفسير الأوقات عند أبي داود (١/ ٢٧٨ رقم ٣٩٤) وقال أبو داود «روى هذا الحديث عن الزهري معمر ومالك وابن عيينة وشعيب وغيرهم ولم يذكروا الوقت الذي صلى فيه ولم يفسروه...» اهـ.
وأصله في الصحيحين من حديث أنس. وفي صحيح مسلم من حديث بريدة، انظر البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٦/ ٢٣٥٩).
وحديث بريدة: مسلم (١/ ٤٢٨ رقم ١٧٦/ ٦١٣).

قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً. واستُدل به على وجوب القراءة فيها، ولا دليلَ فيه لجواز أن يكون التجوُّزُ لكونها مندوبةً فيها، نَعَمْ لو فُسِّرَ بالقراءة في صلاة الفجر دلَّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار، أو شواهِدُ القُدرةِ مِنْ تَبَدُّلِ الظُّلْمَةِ بالضياء والنوم الذي هو أخو الموتِ بالانتباهِ، أو كثيرٌ من المصلِّينَ، أو مَنْ حقُّه أن يشهدَه الجمُّ الغفير. والآية جامعة للصلوات الخمس إن فُسِّرَ الدُّلوكُ بالزوال، ولصلواتِ الليل وحدَها إنْ فُسِّرَ بالغروب. وقيل المراد بالصلاة صلاةُ المغرب وقولُه «لدلوك الشمس إلى غسق الليل» بيان لمبدأ الوقتِ ومُنْتَهَاهُ، واستُدِلَّ به على أن الوقتَ يمتد إلى غروب الشفق[1].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

(٧٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ وبعض الليل فاترك الهجودَ للصلاة[2]، والضميرُ للقرآن. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً يحمده القائم فيه وكل مَنْ عَرَفَهُ، وهو مُطْلَقٌ في كل مكان يتضمَّن كرامةً، والمشهور أنه مقامُ الشفاعة لما رَوَى أبو هريرةَ رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هوَ المقامُ الذي أَشْفَعُ فيه لأُمَّتِي»[3] ولإشعاره بأن الناسَ يَحْمَدُونَهُ لقيامه فيه وما ذاك إلا مقامُ الشفاعة. وانتصابُه على الظرفِ بإضمار فعله أي فيقيمُك مقاماً أو بتضمين يبعثُك معناه، أو الحال بمعنى أن يبعثَك ذا مقام.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ أي في القبر. ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ادخالاً مُرْضِياً. ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ أي منه عندَ البعث. ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً مُلْقَىً بالكرامة، وقيل المرادُ إدخال المدينةِ والإخراجُ مِنْ مكةَ، وقيل إدخاله مكةَ ظاهراً عليها وإخراجُه منها آمِناً من المشركين، وقيل إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالماً،

---

(١) والإظهار في مقام الإضمار بقوله «إن قرآن الفجر...» لبيان مزيد الاهتمام به (س٥/١٨٩).

(٢) التهجد هو الاستيقاظ من النوم للصلاة (روح المعاني ١٥/١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٣٠٣ رقم ٣١٣٧) وأحمد في المسند (٢/٤٤١، ٥٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٤٨٤ رقم ١١٧٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٤٥ ـ ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٤٨٤) من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

ـ قلت في سنده: داود بن يزيد الأودي الكوفي: ضعيف. انظر الجرح والتعديل (٣/٤٢٧) والتقريب (١/٢٣٥).

ولكن للحديث شواهد انظر في «الدر المنثور» (٥/٣٢٤ ـ ٣٢٥) فبها حسن إن شاء الله.

● وفي الباب عن أنس عند البخاري (١٣/٤٢٢ رقم ٧٤٤٠).

● وعن ابن عمر عند البخاري (٣/٣٣٨ رقم ١٤٧٥).

وقيل إدخاله فيما حملَه مِنْ أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقَّه، وقيل إدخاله في كل ما يلابِسُه من مكان أو أَمْرٍ وإخراجُه منه. وقرىء مَدْخَلَ ومَخْرَجَ بالفتح على معنى أدخلني فأدخلَ دخولاً وأخرجني فأخرجَ خروجاً. ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ حُجَّةً تنصرني على مَنْ خالفني أو مَلِكاً ينصرُ الإسلامَ على الكفر، فاستجابَ له بقوله: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[١] ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[٢] ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٣].

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإسلام ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ وذهب وهلك الشِّركُ، مِنْ زَهَقَ روحُه إذا خرجَ. ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ مُضْمَحِلاً غيرَ ثابتٍ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يومَ الفتح وفيها ثلثُمائةٍ وستونَ صنماً، فجعلَ ينكتُ بِمِخْصَرَتِهِ في عينِ كلِّ واحدٍ منها فيقولُ جاء الحق وزَهَقَ الباطلُ فَيَنْكَبُّ لوجْهه، حتى أَلْقَى جميعَها وبقي صنمُ خُزَاعةَ فوقَ الكعبة وكان مِنْ صُفْرٍ فقال: «يا عليُّ ارمِ به» فصعدَ فَرَمَى به فكسَرهُ[٤].

(٨٢) ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسِهم كالدواء الشافي للمرضى، ومِنْ للبيان فإنَّ كلَّه كذلك. وقيل إنه للتبعيض والمعنى أن منه ما يَشْفِي من المرض كالفاتحة وآياتِ الشفاء. وقرأ البصريان نُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم وكفرهم به[٥].

(٨٣) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصحة والسَّعَةِ ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذِكْرِ الله. ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ لَوَى عِطْفَه وبَعُدَ بِنَفْسِهِ عنه كأنه مُسْتَغْنٍ مُسْتَبِد بِأَمْرِهِ، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبِرِيْن. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذَكْوَانَ هنا وفي فُصِّلَتْ[٦] وناءَ، على القلبِ أو على أنه بمعنى نَهَضَ. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ من مرض أو فَقْرٍ[٧]. ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ شديدَ اليأس مِنْ رَوْحِ الله.

---

(١) المائدة: «٥٦».

(٢) الصف: «٩».

(٣) النور: «٥٥».

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٤٠٠ رقم ٤٧٢٠) ومسلم (٣/ ١٤٠٨ رقم ٨٧/ ١٧٨١) والترمذي (٥/ ٣٠٣ رقم ٣١٣٨) والنسائي في التفسير (١/ ٦٦٥ رقم ٣١٧) والطبراني في الصغير (١/ ٧٧ ـ ٧٨) عنه.
● وأخرج البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٧١ ـ ٧٢) عن ابن عباس، قال «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم قال: فأخذ قضيبه فجعل يهوي به على صنمٍ صنمٍ وهو يهوي حتى مَرَّ عليها كلها» وإسناده ضعيف.

(٥) وإسناد الزيادة للقرآن ـ مع كونهم هم المزدادون بسوء صنيعهم ـ باعتبار كون القرآن سبباً في ذلك (س٥/ ١٩١).

(٦) فصلت: «٥١».

(٧) وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل كلٌّ أحد يعملُ على طريقته التي تشاكِلُ حالَه في الْهُدَى والضلالة، أو جَوْهَرَ رُوحِهِ وأحوالَه التابعةَ لمزاج بَدَنِهِ. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدُّ طريقاً وأَبْيَنُ مِنْهَجاً، وقد فُسِّرَتِ الشَّاكِلَةُ بالطبيعة والعادةِ والدِّينِ.

(٨٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدنُ الإنسان ويدبِّره. ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ من الإبداعياتِ الكائنة بِكُنْ من غيرِ مادةٍ وتُولُّدٍ مِنْ أَصْلٍ كأعضاءِ جسدِهِ، أو وُجِدَ بِأَمْرِهِ وحَدَثَ بتكوينه على أن السؤالَ عن قِدَمه وحدوثه. وقيل مما استأثر اللهُ بِعِلْمِهِ، لما رُوِيَ أنَّ اليهود قالوا لقريش سَلُوهُ عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوح، فإنْ أجابَ عنها أو سكتَ فليسَ بنبيٍّ، وإنْ أجابَ عن بعضٍ وسكتَ عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فَبَيَّنَ لهمُ القِصَّتَيْنِ وأَبْهَمَ أَمْرَ الرُّوحِ وهو مُبْهَمٌ في التوراة[1]. وقيل الروحُ جبريلُ، وقيل خَلْقٌ أعظمُ مِنَ الْمَلَكِ، وقيل القرآنُ، ومِنْ أَمْرِ رَبِّي معناه مِنْ وحْيِهِ. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسُّطِ حواسِّكم، فإنَّ اكتسابَ العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل مَنْ فَقَدَ حِسّاً فَقَدْ فَقَدَ عِلْماً. ولعلَّ أَكْثَرَ الأشياءِ لا يدركه الحِسُّ ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفةُ ذاته إلا بِعَوَارِضَ تُمَيِّزُهُ عمَّا يَلْتَبِسُ به، فلذلك اقتصرَ على هذا الجوابِ كما اقتصرَ موسى في جواب «وما ربُّ العالمين؟» بِذِكْرِ بعضِ صفاته. رُوِيَ: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: أنحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: «بل نحن وأنتم»، فقالوا: ما أعجبَ شَأْنَكَ! ساعةً تقولُ «ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً»[2]، وساعةً تقول هذا، فنزلتْ[3]: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

= كذلك (س٥/ ١٩١).

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٠٢ رقم ٣٠٦): «لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة ـ (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٩) ـ عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في «الدلائل» ـ (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) ـ من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن ثلاث: فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا القصة بطولها» اهـ.

●وأخرج البخاري (١/ ٢٢٣ رقم ١٢٥) ومسلم (٤/ ٢١٥٢ رقم ٣٢/ ٢٧٩٤) عن ابن مسعود قال بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خِرَب المدينة ـ وهو يتوكأ على عسيب معه ـ فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سلوه عن الروح. وقال بعضُهم لا تسألوهُ لا يجيءُ فيه بشيء تكرهونَه. فقال بعضُهم لنسألَنَّهُ، فقام رجلٌ منهم فقال يا أبا القاسمِ، ما الروحُ؟ فسكتَ. فقلت: إنَّهُ يُوحىٰ إليه، فقمتُ فلما انجلى عنه فقال: «يسألونكَ عن الروح. قُل الروحُ من أمرِ رَبِّي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» [الإسراء: ٨٥].

قال الأعمشُ: هكذا في قراءتِنا.

(٢) البقرة: «٢٦٩».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٠٢ رقم ٣٠٧): (ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راوٍ. وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة. لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: =

شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[١]. وما قالوه لِسُوءِ فَهْمِهِم، لأنَّ الحكمةُ الإنسانيةَ أنْ يعلمَ مِنَ الخيرِ والحقِّ ما تَسَعُهُ القوةُ البشرية بل ما ينتظم به معاشُه ومعادُه، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهايةَ لها قليلٌ يُنَالُ به خيرُ الدارين وهو بالإضافة إليه كثيرٌ.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم ولنذهبن جوابُه النائبُ مناب جزاء الشرط، والمعنىٰ إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور[٢] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَنْ يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنها إن نَالَتْكَ فلعلها تستردُّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غيرَ مذهوبٍ به، فيكون امتناناً بإبقائه بعدَ الْمِنَّةِ في تنزيله. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حِفْظِهِ.

(٨٨) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في البلاغة وحُسْنِ النَّظْمِ وكمال المعنى[٣]. ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وفيهم العربُ العَرْبَاءُ وأربابُ البيان وأهل التحقيق[٤]، وهو جواب قَسَمٍ محذوف دلَّ عليه اللامُ الموطِّئَةُ، ولولا هيَ لكانَ جوابُ الشرط بلا جَزْمٍ لكونِ الشرط ماضياً كقول زهير:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَلِيــلٌ يَــوْمَ مَسْــأَلَــةٍ   يقُــولُ لاَ غَــائِــبٌ مَــالِــي وَلاَ حَــرَمُ

= لما نزلت هذه الآية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى: «لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر» هـ.
قلت: وأخرج أحمد في المسند (١/ ٢٥٥) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٥) من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.
كما أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٧) عن عطاء بن يسار بإسناد ضعيف. لأن شيخ ابن إسحاق لم يسم.

(١) لقمان: «٢٧».
(٢) عبر عنه بالموصول «بالذي...» تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيز الصلة ابتداء وإعلاماً بحاله من أول الأمر وأنه ليس من قبيل كلام المخلوق (س٥/ ١٩٣).
(٣) وتخصيص الثقلين من الإنس والجن بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة (س٥/ ١٩٣).
(٤) وإيثار الإظهار «بمثله» على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكورِ احترازاً عن أن يتوهم أنّ له مثلاً معيناً، وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثْلٍ ما. (س٥/ ١٩٣).

﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكةَ لأن إتيانَهم بمثلِهِ لا يخرجُه عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائطَ في إتيانه، ويجوز أن تكون الآيةُ تقريراً لقوله: ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كرَّرنا بوجوهٍ مُخْتَلِفَةٍ زيادةً في التقرير ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى كالمَثَلِ في غرابته ووقوعه مَوْقِعَها في الأنْفُسِ. ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يَجُزْ: ضَرَبْتُ إلاَّ زيداً لأنه مُتَأَوَّلٌ بالنفي.

(٩٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً بعدَ ما لزمتْهمُ الحجَّةُ ببيانِ إعجازِ القرآن وانضمامِ غيرِه منَ المعجزات إليه. وقرأ الكوفيونَ ويعقوبُ تَفْجُرَ بالتخفيف. والأرضُ أرضُ مكةَ، والينبوعُ عَيْنٌ لا يَنْضُبُ ماؤُها، يَفْعُول مِنْ نَبَعَ الماءُ كَيُعْبُوبٍ مِنَ عبَّ الماءُ إذا زَخَرَ.

(٩١) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أو يكونَ لك بستانٌ يشتمل على ذلك.

(٩٢) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ يَعْنُونَ قولَه تعالى: ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[١] وهو كَقِطَعٍ لفظاً ومعنى. وقد سكَّنه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في الرُّوم[٢]، وابن عامر إلا في هذه السورةِ، وأبو بكر ونافع في غيرِهما وحفصٌ فيما عدا الطُّور[٣]، وهو إما مُخَفَّفٌ من المفتوح كَسِدْرَةٍ وسِدَرٍ، أو فِعْل بمعنى مفعول كالطِّحْن. ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ كفيلاً بما تدَّعيه أي شاهداً على صحته ضامِناً لدركه، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشِر. وهو حال من الله، وحال الملائكة محذوفةٌ لدلالتها عليها كما حذف الخبر في قوله:

فإني وقَيَّار بها لغريبُ

أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

(٩٣) ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ من ذهب، وقد قرىء به، وأصله الزينة. ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ في

---

(١) سبأ: «٩».

(٢) الروم: «٤٨».

(٣) الطور: «٤٤».

معارجها. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وحدَه. ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ وكان فيه تصديقُك. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجُّباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتيَ أو يتحكَّمَ عليه أو يشارِكَه أحدٌ في القدرة. وقرأ ابن كثير وابن عامر: قال سبحان ربي، أي قال الرسول. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس. ﴿رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومَهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حالَ قومهم، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكَّموا على الله حتى يتخيَّروها، على هذا هو الجواب المجْمَلُ وأما التفصيلُ فقد ذُكِرَ في آيات أُخَرَ كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾[1] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾[2].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي وما منعهم الإيمانُ بعد نزول الوحي وظهور الحق. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ إلا قولَهم هذا[3]، والمعنى أنه لم يبقَ لهم شُبْهَةٌ تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآنِ إلا أنكارَهم أن يُرْسِلَ الله بشراً.

(٩٥) ﴿قُل﴾ جواباً لشبهتهم. ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم. ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لِتُمَكُّنهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعامَّتُهم عُمَاةٌ عن إدراكِ الْمَلَكِ والتلقفِ منه، فإنَّ ذلك مشروطٌ بنوعٍ من التناسب والتجانس. ومَلَكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به، وكذلك بشراً، والأول أَوْفَقُ.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزةَ على وُفْقِ دعواي، أو على أني بلَّغتُ ما أُرْسِلْتُ به إليكم وأنكم عاندتُم[4]. وشهيداً نُصِبَ على الحال، أو التمييز. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالهم الباطنةَ منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ للكفار.

(٩٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يهدونه[5]. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) الأنعام: «٧».

(٢) الحجر: «١٤».

(٣) وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجردُ قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق.
وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر ـ مع أن لهم موانع شتىٰ ـ لأنه معظمها، أو لأنه هو المانع بحسب الحال (س٥/ ١٩٥).

(٤) قوله «بيني وبينكم» ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانة للمباينة (س٥/ ١٩٦).

(٥) قوله «فلن تجد لهم» حيث أوثر ضمير الجماعة اعتباراً لمعنى من غِبَّ ما أوثر في مقابله الإفراد نظراً إلى لفظها =

﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحَبُونَ عليها أو يمشون بها. روي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أَمْشَاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيهم على وجوههم»[1] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم ولا يسمعون ما يلذُّ مسامعَهم ولا ينطقون بما يُقْبَلُ منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعِبَر وتصامُّوا عن استماع الحقِّ وأَبَوْا أن ينطقوا بالصِّدْقِ، ويجوز أن يحشروا بعدَ الحساب مِنَ الموقفِ إلى النار مَؤُوفي[2] القِوَى والحواسِّ. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سَكَنَ لهبُها بأن أَكَلَتْ جلودَهم ولحومَهم. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقُّداً بأنْ تُبَدَّلَ جلودَهم ولحومَهم فتعود ملتهبةً مستعِرةً، كأنهم لما كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء، وإليه أشار بقوله:

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدَّم من عذابهم.

(٩٩) ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أولم يعلموا. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشدَّ خَلْقاً منهن ولا الإعادةُ أصعبُ عليه من الإبداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائنَ رزقه وسائرَ نعمه. وأنتم مرفوع بفعل يفسِّره ما بعدَه، كقول حاتم: لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتْني، وفائدةُ هذا الحذف والتفسيرِ: المبالغةُ مع الإيجاز، والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ لَبَخِلْتُم مخافةَ النَّفَادِ بالإنفاق، إذ لا أحدَ إلا ويختار النفعَ لنفسه، ولو آثرَ غيرَه بشيء فإنما يؤثره لِعِوَضٍ يفوقُه، فهو إذن بخيلٌ بالإضافة إلى جُودِ الله تعالى وكَرَمِه هذا وإنَّ البخلاءَ أغلبُ فيهم. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأنَّ بناءَ أَمْرِهِ على الحاجة والضنَّةِ بما يحتاج إليه وملاحظة العِوَضِ فيما يبذُله.

= تلويحاً بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّال (س٥/١٩٦).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣) والترمذي (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وإسحاق والبزار ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٢ رقم ٣٠٨) ـ من حديث أبي هريرة. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البزار: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلاَّ بهذا الإسناد. ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفيع عن أنس مثله.
وأصله في الصحيحين ـ البخاري (١١/ ٣٧٧ رقم ٦٥٢٣) ومسلم (٤/ ٢١٦١ رقم ٢٨٠٦/٥٤) ـ عن أنس أن رجلاً قال: «يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) قوله مؤوفي: أي أصابتهم آفة القوىٰ والحواس ففقدوها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ﴾ هي العصا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وانفجارُ الماء مِنَ الحَجَرِ وانفلاقُ البحر ونَتْقُ الطُّور على بني إسرائيل، وقيل: الطوفانُ والسِّنُونَ ونقصُ الثمرات مكانَ الثلاثةِ الأخيرة. وعن صفوانَ[١] أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلُوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تسحَروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان ليقتلَه، ولا تقذِفُوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرُّوا منَ الزَّحْفِ، وعليكم خاصَّةَ اليهود أنْ لا تَعْدُوا في السبت» فَقَبَّلَ اليهوديُّ يدَه ورِجْلَه[٢]. فعلى هذا المراد بالآيات الأحكامُ العامةُ لِلْمِلَلِ الثابتة في كلِّ الشرائع، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تدل على حال مَنْ يتعاطى مُتَعَلَّقَهَا في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصَّةَ اليهود أن لا تَعْدُوا، حُكْمٌ مُسْتَأْنَفٌ زائد على الجواب، ولذلك غيَّرَ فيه سياقَ الكلام. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فقلنا له سَلْهم مِنْ فرعونَ ليُرسلَهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءةُ رسولِ الله ﷺ فَسَأَلَ على لفظ المضي بغير همزٍ وهو لغةُ قريش وإذ متعلِّق بقلنا أو سأل على هذه القراءةِ، أو فاسأَلْ يا محمد بني إسرائيلَ عما جَرَى بين موسى وفرعونَ إذ جاءَهم، أو عن الآيات لِيَظْهَرَ للمشركين صدقُكَ أو لتتسلَّى نفسُك أو لِتَعْلَم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأَصَرُّوا على العناد والمكابرة كَمَنْ قبلَهم، أو ليزداد يقينُك لأنَّ تظاهرَ الأدلة يوجِبُ قوةَ اليقين وطمأنينةَ القلب وعلى هذا كان إذْ نَصْباً بآتينا أو بإضمارٍ يخبروك على أنه جواب الأمرِ أو بإضمار اذْكُرْ على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سُحِرْتَ فتخبَّطَ عقلُك.

(١٠٢) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ. وقرأ الكسائي بالضمِّ على إخباره عن نفسه. ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند، وانتصابه على الحال[٣]. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشرِّ من قولهم: ما ثَبَرَكَ عن هذا؟ أي ما صَرَفَكَ، أو هالكاً. قَارَعَ ظنَّه بِظَنِّهِ وشتَّانَ ما بينَ الظَّنَّيْنِ، فإنَّ ظنَّ فرعونَ كَذِبٌ بَحْتٌ وظنَّ

---

(١) صفوان بن عسال: هو صفوان بن عسال المرادي، نزل الكوفة وروي عنه ابن مسعود مع جلالته. (١/٢٦٦ رقم ٢٨٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٧٧ رقم ٢٧٣٣) و(٥/٣٠٥ رقم ٣١٤٤) والنسائي (٤/١٩٢ ـ تحفة الأشراف) وابن ماجة (٢/١٢٢١ رقم ٣٧٠٥) والحاكم (١/٩).
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح لا يعرف له علة. وقال الذهبي: صحيح لا نعرف له علة ومع ذلك فقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف النسائي والترمذي وابن ماجة.

(٣) والتعرض لربوبيته تعالى للسموات والأرض للإيذان بأنه لا يقدر على إيتاء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقُهما ومدبرهما (س٥/١٩٨). =

موسى يحومُ حولَ اليقين مِنْ تظاهُرِ أماراتهِ. وقرىء وإن أَخَالُكَ يا فرعونُ لمثبوراً على إنْ المخففة واللام هي الفارِقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ. ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أن يستخف موسى وقومَه وينفيهم[1]. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مِصْرَ أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مَكْرَهُ فاستفزَزْناه وقومَه بالإغراق.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعونَ أو إغراقه. ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الكَرَّةُ أو الحياةُ أو الساعةُ أو الدار الآخرة، يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مُخْتَلِطِينَ إياكم وإياهم ثم نَحْكُم بينكُم ونُمَيِّزُ سُعَدَاءَكُم من أشقيائكم، واللفيفُ الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى.

(١٠٥) ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا مُلْتَبِساً بالحق المقتضِي لإنزاله، وما نَزَل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرَّصَدِ من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفيَ اعتراءِ البُطْلانِ له أَوَّلَ الأمْرِ وآخرَه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب، فلا عليك إلا التبشيرُ والإنذارُ.

(١٠٦) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقاً مُنَجَّماً. وقيلَ فرَّقْنا فيه الحقَّ من الباطل فحذف الجارَّ كما في قوله: ويوماً شهدناه. وقرىء بالتشديد لكثرة نُجومِه فإنه نزلَ في تضاعيفِ عشرينَ سنة. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على مَهْلٍ وتُؤَدَةٍ، فإنه أَيْسَرُ للحفظ وأعونُ في الفهْم. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

(١٠٧) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيدُه كمالاً وامتناعَكم عنه لا يورثه نَقْصاً، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَنْ هو خيرٌ منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقةَ وعرفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوة وتمكنوا من الْمَيْزِ بينَ المحقِّ والْمُبْطِلِ، أو رأوا نعتَك وصِفَةَ ما أُنْزِلَ إليكَ في تلك الكتبِ، ويجوز أن يكونَ تعليلاً لِقُلْ على سبيل التسلية كأنه قيل: تَسَلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترثْ بإيمانهم وإعراضِهم. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ

(١) أصل الاستفزاز الإزعاج، وقد كنىٰ به عن إخراجهم (روح المعاني ١٥/١٨٦).

عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لإنجازِ وَعْدِهِ في تلك الكتبِ ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزالِ القرآن عليه.

وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن خَلْفِ الموعِد. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعدُه كائناً لا محالة.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كَرَّرَهُ لاختلاف الحال والسبب، فإن الأَوَّلَ للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حالَ كونهم باكينَ من خشية الله، وذَكَرَ الذَّقْنَ لأنه أَوَّلَ ما يَلْقَى الأرضَ من وجه الساجد[1]، واللام فيه لاختصاص الْخُرُوْرِ به. ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماعُ القرآن ﴿خُشُوعًا ۩﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله.

(١١٠) ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ نزلتْ حين سمعَ المشركونَ رسولَ الله يقول: ياالله يا رحمانُ، فقالوا إنه ينهانا أن نعبدَ إِلَهَيْنِ وهو يدعو إلهاً آخرَ[2]، أو قالت اليهود: إنك لَتُقِلُّ ذِكْرَ الرَّحمنِ وقد أكثره اللهُ في التوراة[3]. والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظينِ بأنهما يُطلقَان على ذاتٍ واحدة وإن اختلف اعتبارُ إطلاقهما، والتوحيدُ إنما هو للذات الذي هو المعبودُ المطلَقُ وعلى الثاني أنهما سِيَّانِ في حُسنِ الإطلاق والإفضاءِ إلى المقصود وهو أَجْوَدُ لقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أوّلُهما استغناء عنه، وأو للتخيير، والتنوين في أياً عوض عن المضاف إليه، وما صلةٌ لتأكيد ما في أياً من الإبهام، والضميرُ في فله للمسمىٰ لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن، فَوُضِعَ موضعَه فله الأسماءُ الحسنى للمبالغة والدَّلالةِ على ما هو الدليل عليه وكونُها حُسْنَى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك حتى تُسْمِعَ المشركين، فإنَّ ذلك يحملُهم على السبِّ واللَّغْوِ فيها. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تُسْمِعَ مَنْ خَلْفَكَ من المؤمنين. ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافَتَةِ. ﴿سَبِيلًا﴾ وَسَطاً فإن الاقتصادَ في جميع الأمور محبوب. رُوِيَ أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُخْفِتُ ويقول: أُناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمرُ رضي الله عنه كان يَجْهَرُ ويقول أَطردُ الشيطان وأوقظُ الوَسْنانَ، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمرَ أن يخفِضَ

(١) أو للدلالة على إكمال التذلل.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٨٢) عن ابن عباس بسند ضعيف.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٨) نسبته لابن مردويه.
(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٠٣) عن الضحاك بدون إسناد.

قليلاً[١]. وقيل معناه لا تجهر بصلاتِك كلِّها ولا تخافِتْ بها بأَسْرِها وابتغِ بينَ ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهرِ ليلاً[٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ في الأُلوهيَّةِ. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ وَلِيٌّ يواليه مِنْ أجلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعَها بموالاته. نفىٰ عنه أنْ يكونَ له ما يشاركه من جِنْسه ومن غيرِ جنسه اختياراً واضطراراً وما يعاونه ويقوِّيه، ورتَّبَ الحمدَ عليه للدلالة على أنه الذي يستحقُّ جِنْسَ الحمدِ لأنهُ الكاملُ الذاتِ المنفرِدُ بالإيجاد المنعِمُ على الإطلاق وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نِعْمةً أو مُنْعَمٌ عليه، ولذلك عَطَفَ عليه قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ وفيه تنبيه على أن العبدَ وإن بَالَغَ في التنزيه والتمجيد واجتهدَ في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترفَ بالقصور عن حقِّه في ذلك.

رُوِيَ أنه ﷺ كان إذا أفصحَ الغلامُ من بني عبدِالمطلب علَّمه هذه الآيةَ[٣]، وعنه عليه السلام «من قرأ سورةَ بني إسرائيلَ فَرَقَّ قلبُه عند ذكرِ الوالدين، كان له قِنْطَارٌ في الجنة»[٤] والقنطار ألفُ أُوقِيَّةٍ ومائتا أوقية. والله أعلم بالصواب وإليه المرجِعُ والمآبُ.

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٨٦) عن محمد بن سيرين بسند صحيح.
وأصله عند أبي داود (٢/ ٨١ ـ ٨٢ رقم ١٣٢٩) والترمذي (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٠ رقم ٤٤٧) والحاكم (١/ ٣١٠) عن أبي قتادة.
قال الترمذي: هذا حديث غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.
وصححه الألباني والله أعلم.

(٢) قوله «وابتغ بين ذلك سبيلاً» أي وسطاً، وعبر عنه بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب (س٥/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٤٢٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٥٦ رقم ١٠٣٢٨) عن عمرو بن شعيب.
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ٣٣٤ رقم ٧٩٧٦) عن عبدالكريم أبي أمية.
قلت: في الطرق الثلاثة (عبدالكريم أبي أمية) وهو ضعيف.

(٤) حديث موضوع، رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٩١).

سُورَةُ الكَهْفِ

ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

سورة الكهفِ مكيةٌ[1]

وقيلَ إلا قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآيةَ[2]، وهي مائةٌ وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ، رتب استحقاقَ الحمد على إنزاله تنبيهاً على

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٠٢): «روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه. إلاّ أنه قد رويَ عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨].

ـ وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: «صعيداً جرزاً» [الكهف: ٨]، مدني. وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان مدنية وباقيها مكي» هـ.

ـ وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٤): «أخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة.

ـ وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة» هـ.

ـ وقال ابن حبيب الماوردي في «النُكت والعيون» (٣/ ٢٨٣) «سورة الكهف مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلاّ آية منها وهي قوله تعالى «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]» هـ.

وصحح ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٦١) بأن سورة الكهف مكية.

(٢) الكهف: «٢٨».

أنه أعظمُ نعْمائِه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمالُ العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاحُ المعاش والمعاد[(١)] . ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ شيئاً من العِوَج باختلالٍ في اللفظ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ من الدعوة إلى جنَاب الحق. وهو في المعاني كالعَوَج في الأعيان.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراطَ فيه ولا تفريطَ، أو قيِّما بمصالح العباد فيكونُ وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها. وانتصابُه بمضمَرٍ تقديره جعلَه قيماً، أو على الحال من الضميرِ في له، أو من الكتاب على أن الواوَ في «ولم يجعل» للحال دون العطفِ، إذ لو كان للعطف لكان المعطوفُ فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. وقرىء قِيَماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر الذينَ كفروا عذاباً شديداً، فحُذف المفعولُ الأول اكتفاءً بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المَسوقِ إليه. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده. وقرأ أبو بكر بإسكان الدال ـ كإسكان الباء من سبْع مع الإشمام ليدل على أصله ـ وكسر النونِ لالتقاء الساكنين وكسرِ الهاء للإتْباع[(٢)] . ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة[(٣)] .

(٣) ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاع.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذارَ متعلِّقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذَرَ به استغناءً بتقدُّم ذكره[(٤)] .

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مُفْرِط وتوهم كاذب أو تقليدٍ لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأبَ والابن بمعنى المؤثِر والأثرِ. أو بالله، إذ لو علموه لما جوَّزوا نسبةَ الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ﴾ الذين تقوَّلوه بمعنى التبني. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمَت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريكِ وإيهامِ احتياجه تعالى إلى ولد يُعينه ويخلُفه إلى غير ذلك من الزيغ، وكلمةً نصبٌ على التمييز. وقرىء بالرفع على الفاعلية، والأولُ أبلغُ وأدلُّ على المقصود. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ صفةٌ لها، تفيد استعظامَ اجترائهم على إخراجها من أفواهم، والخارج بالذات هو الهواء الحاملُ لها. وقيل صفةُ محذوفٍ هو المخصوصُ بالذم لأن كِبَرَها هنا بمعنى بئس. وقرىء كبْرت بالسكون مع الإشمام. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

---

(١) قوله «الحمد لله الذي. .» في وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد وإيذان بعظم شأن التنزيل.
وقوله «عبده» في التعبير عنه بالعبد مضافاً إلىٰ ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه إلى أعلى معارج العبادة، وتشريف له، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمُرْسِل لا كما زعمت النصارىٰ في حق عيسىٰ عليه السلام.
وتأخير المفعول الصريح «الكتابَ» عن الجار والمجرور ـ مع أن حقه التقديم ـ وذلك ليتصل به قوله تعالى «ولم يجعل له عوجاً» (س٥/ ٢٠٢).

(٢) قراءة أبي بكر «لَدْنِهِ».

(٣) وإجراء الموصول «الذين» على موصوفه المذكور «يعملون الصالحات» لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.
وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية (س٥/ ٢٠٣).

(٤) وإيثار صيغة الماضي في «قالوا» للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم (س٥/ ٢٠٣).

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلُها. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ إذا ولَّوا عن الإيمان، شبَّههُ لما يداخله من الوجْد على تولِّيهم بمن فارقَتْهُ أعِزَّتُه فهو يتحسرُ على آثارهم ويبخعُ نفسَه وجْداً عليهم. وقُرِئَ باخعُ نفسِك، على الإضافة. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآنِ. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسِفاً عليهم، والأَسَفُ فَرْطُ الحزنِ والغضب. وقرىء أنْ بالفتحِ على لأَن، فلا يجوز إعمال باخعٌ إلا إذا جُعِلَ حكايةَ حالٍ ماضية.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو مَنْ زهِد فيه ولم يغترَّ به وقنِعَ منه بما يزجي به أيامَه وصَرَفَهُ على ما ينبغي. وفيه تسكينٌ لرسول الله ﷺ[١].

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تزهيدٌ فيه، والجرُز الأرضُ التي قطع نباتُها. مأخوذ من الجَرْزِ وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعله كصعيدٍ أملسَ لا نباتَ فيه.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدةً مديدة. ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ وقصتَهم ـ بالإضافةِ إلى خلقِ ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفائتة للحصر على طبائعَ متباعدةٍ وهيئاتٍ متخالفةٍ تُعجبُ الناظرين من مادة واحدة ثم ردُّها إليها ـ ليس بعجيب، مع أنه من آيات الله كالنزْرِ الحقير. والكهفُ: الغار الواسع في الجبل. والرقيمُ: اسم الجبلِ أو الوادي الذي فيه كهفُهم، أو اسمُ قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصَّلْتِ[٢].

وَلَيْسَ بِهَا إلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِراً … وَصَيْدُهُمُو وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُجَّدُ[٣]

---

(١) وإيراد صيغة التفضيل «أحسنُ» ـ مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن ـ للإشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين (س٥/ ٢٠٥).

(٢) واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عون الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.
وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء ـ ٣٢٩ ـ وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرُج قد أظلّ زمانه وكان يؤمِّل أن يكون ذلك النبيّ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.
لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً، في التاسعة، وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون.
[«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣)].

(٣) من الطويل.

أو لوحٌ رصاصيٌّ أو حجري رُقِمتْ فيه أسماؤُهم وجعل على باب الكهف. وقيل أصحاب الرقيم قومٌ آخرونَ كانوا ثلاثةً خرجوا يرتادون لأهلهم، فأخذتْهم السماء فأَوَوْا إلى الكهف فانحطت صخرة وسدت بابَهُ. فقال أحدهم اذكروا أيُّكم عمل حسنةً لعل اللهَ يرحمنا ببركته. فقال أحدهم: استعملتُ أُجَرَاءَ ذات يوم فجاء رجل وسطَ النهار وعمل في بقيته مثلَ عملهم فأعطيتُه مثلَ أجرهم، فغضب أحدهم وترك أجرَهُ فوضعتُه في جانبِ البيت، ثم مرّ بي بقر فاشتريت به فصيلةً فبلغتْ ما شاء الله، فرجع إليَّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إنه لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتُها إليه جميعاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك لوجهك فافرُجْ عنا، فانصدعَ الجبلُ حتى رأوا الضوءَ. وقال آخر: كان فيَّ فضل وأصابت الناسَ شدَّةٌ، فجاءتْني امرأةٌ فطلبت مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسِك، فأبتْ وعادت ثم رجعت ثلاثاً، ثم ذكرتْ لزوجها فقال أجيبي له وأغيثي عيالَكِ، فأتتْ وسلَّمتْ إليَّ نفسَها، فلما تكشفتُها وهممتُ بها ارْتَعَدَتْ، فقلت: مالكِ؟! قالت أخاف الله، فقلت لها: خِفْتِهِ في الشدة ولم أخفْهُ في الرخاء فتركتها وأعطيتها مُلْتَمَسَها، اللهم إن كنتُ فعلتُه لوجهك فافرج عنا، فانصدع حتى تعارفوا. وقال الثالث كان لي أبوانِ هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي، فحبسني ذاتَ يوم غيثٌ فلم أبْرَحْ حتى أمسيت، فأتيت أهلي وأخذت مَحْلَبي فحلبتُ فيه ومضيت إليهما، فوجدتُهما نائمينِ فشقَّ علي أن أوقظَهُما، فتوقعت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظَهُما الصبحُ فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلتُه لوجهك فافرُج عنا. ففرَّج الله عنهم فخرجوا. وقد رفع ذلك نعمانُ بنُ بشير[١].

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يعني فتيةً من أشراف الروم أرادهم دَقيانوسُ على الشرك فأبَوا وهربوا إلى الكهف، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ توجِبُ لنا المغفرةَ والرزقَ والأمن من العدو. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار. ﴿رَشَدًا﴾ نصيرُ بسببه راشدينَ مهتدينَ، أوِ اجْعَلْ أمرَنا كلَّه رَشَداً كقولك: رأيت منك أَسَداً. وأصلُ التهيئة إحداثُ هيئةِ الشيءِ[٢].

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماعَ، بمعنى أَنَمْنَاهُم إنامةً لا تُنَبِّهُهُم فيها الأصواتُ، فحذف المفعول كما حذف في قولهم: بَنَىٰ على امرأته[٣]. ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) والقصة في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري (٤/ ٤٠٨ رقم ٢٢١٥) ومسلم (٤/ ٢٠٩٩ ـ ٢١٠١ رقم ٢٧٤٣).

(٢) وتقديم المجرورين «لنا، من أمرنا» على المفعول الصريح «رشداً» لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله...
وتقديم «لنا» على «من أمرنا» للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم (س٥/ ٢٠٦).

(٣) وتخصيص الآذان بالذكر ـ مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم ـ لما أنها المحتاج إلى

ظرفانِ لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذواتِ عَدَدٍ، ووصْفُ السنينَ به يحتمل التكثيرَ والتقليلَ، فإن مدة لُبْثِهم كبعض يوم عنده.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمُنا تعلُّقاً حالياً مطابِقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لُبثهم. ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ ضَبَطَ أمدَ الزمانِ لُبْثهم. وما في أيٌّ من معنى الاستفهام عَلَّقَ عنه لنعلم، فهو مبتدأ وأحصى خبرُه. وهو فعل ماض وأمداً مفعول له ولما لبثوا حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدةٌ وما موصولة وأمداً تمييز، وقيل أحصى اسم تفضيلٍ من الإحصاء بحذف الزوائدِ كقولهم: هو أحصَىٰ للمال وأفلسُ من ابنِ المُذَلَّقِ، وأمداً نصب بفعل دل عليه أحصى كقوله:

وَأَضْرَبُ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبَّان، جمع فَتيّ كصبيٍّ وصِبْيَةٍ. ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بالتثبيت[1].

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجراءةِ على إظهار الحقِ والرد على دَقيانوسَ الجبارِ. ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بُعْدٍ عن الحق مُفْرطٍ في الظلم[2].

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيان. ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنَى إنكار. ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم. ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدينَ لا يُؤْخَذُ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليلَ عليه من الديانات مردودٌ وأن التقليد فيه غيرُ

= الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالباً لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق (س٥/ ٢٠٦).

(١) والالتفات إلى الغيبة «إنهم فتية...» للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم، ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكىٰ عنهم (س٥/ ٢١٠).

(٢) قالوا «لن ندعو من دونه إلهاً» ولم يقولوا رباً، وذلك للتنصيص على رد المخالفين حيثُ كانوا يسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية، وللإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية (س٥/ ٢١٠).

جائز. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريكِ إليه.

(١٦) ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطابُ بعضِهم لبعض. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القومَ ومعبوديهم إلا اللهَ، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنامَ كسائر المشركينَ. ويجوز أن تكون ما مصدريةً على تقدير وإذ اعتزلتموهم وعبادتَهم إلا عبادةَ الله، وأن تكونَ نافيةً على أنه إخبار من الله تعالى عن الفِتْيةِ بالتوحيد معترِضٌ بين إذ وجوابِه لتحقيق اعتزالهم. ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يبسُطِ الرزق لكم ويوسِّعْ عليكم. ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارَيْنِ. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزْمُهم بذلك لنُصوعِ يقينِهم وقوةِ وثوقهم بفضل الله تعالى. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ مَرْفِقاً بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدرٌ جاء شاذاً كالمرجِع والمحيض فإن قياسه الفتحُ[1].

(١٧) ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ لو رأيتهم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعُها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهفَ كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زَوَرَها عنهم. وأصله تتزاورُ فأُدغِمَتِ التاءُ في الزاي، وقرأ الكوفيونَ بحذفها[2]، وابن عامر ويعقوبُ تَزْوَرُّ كتَحْمَرُّ، وقرىء تَزْوارُّ كتحمارُّ وكلها من الزَّوَرِ بمعنى الميلِ. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتُها: الجهةُ ذاتُ اسم اليمين. ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم وتصرِمُ عنهم. ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني يمينَ الكهف وشمالَه لقوله: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي وهم في مُتَّسَعٍ من الكهف، يعني في وسطِه بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء ولا يؤذيهم كربُ الغار ولا حرُّ الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلةِ بناتِ نعشٍ، وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرقُ رأسِ السرطان ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارَها مدارَهُ تطلُع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغربَ، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسرِ فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلِّلُ عفونتَهُ ويعدِّلُ هواءَهُ ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويُبْلِي ثيابَهُم. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي شأنُهم وإيواؤهم إلى كهفٍ شأنُه كذلك، أو إخبارُك قصتَهم، أو ازورارُ الشمس عنهم وقرضُها طالعةً وغاربةً من آيات الله. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بالتوفيق. ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الثناءُ عليهم أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها مَنْ وفقه الله للتأمل فيها والاستبصارِ بها. ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يخذلْه. ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ من يليه ويرشِدُه.

(١٨) ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلُّبهم. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كيلا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم على طول الزمان. وقرىء ويُقَلِّبهم بالياء والضميرُ لله تعالى، وتَقَلُّبَهُم على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبُهم أي وترى تقلُّبهم. ﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مرُّوا به فتبعَهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أُحب أحباءَ الله فناموا وأنا . . . .

---

(١) لأن المصادر من فَعَل يَفْعِل تكون بفتح العين، فمصدر رجع مرجَع لكنه شذ عن القياس.

(٢) قراءة الكوفيين «تَزَاوَرُ» خفيفة الزاي.

أحرسُكم[١]. أو كلبُ راعٍ مرُّوا به فتبعهم وتبعه الكلب[٢]، ويؤيده قراءةُ مَنْ قرأ: وكالبُهم أي وصاحبُ كلبِهم. ﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أعمل اسمَ الفاعل. ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ بفِنَاء الكهف، وقيل الوصيد الباب، وقيل العتبَةُ. ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فنظرت إليهم، وقرىء لوُ اطلعت بضم الواو. ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ لهربْتَ منهم، وفراراً يحتمل المصدرَ لأنه نوعٌ من التولية والعِلَّةِ والحال. ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ خوفاً يملأ صدرَك بما ألبسهم الله من الهيبةِ، أو لعِظَم أجرامِهم وانفتاح عيونهم، وقيل لوحشةِ مكانهم[٣]. وعن معاوية رضيَ الله عنه أنه غزا الرومَ فمرَّ بالكهف فقال: لو كَشفتَ لنا عن هؤلاءِ فنظرنا إليهم، فقال له ابنُ عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه مَنْ هو خير منك فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ فلم يسمع وبعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريحٌ فأحرقتهم[٤]. وقرأ الحجازيانِ لَمُلِّئْتَ بالتشديد للمبالغة، وابن عامر والكسائيُّ ويعقوب رُعُباً بالتثقيل.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ وكما أنمناهم آيةً بعثناهم آيةً على كمال قدرتنا. ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ليسأل بعضُهم بعضاً فيتعرّفُوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمرَ البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم[٥]. ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ بناءً على غالب ظنِّهم لأن النائم لا يحصي مدةَ نومه، ولذلك أحالوا العلمَ إلى الله تعالى. ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قولَ بعضِهم وهذا إنكار الآخرينَ عليهم. وقيل إنهم دخلوا الكهفَ غدوةً وانتبهوا ظهيرةً وظنوا أنهم في يومِهم أو اليوم الذي بعدَه قالوا ذلكَ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا، ثُمَّ لما علموا أن الأمر مُلْتَبِسٌ لا طريقَ لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهمْ وقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ والورِقُ الفضةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبة. وقرأ أبو بكر وأبو عمرٍو وحمزةُ وروحٌ عن يعقوبَ

---

(١) وهذا قول كعب الأحبار (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٢) روي ذلك عن ابن عباس (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٣) لعل تأخير ذكر الرعب عن ذكر التولية للإيذان باستقلال كل منهما في الترتب على الاطلاع إذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد (س٥/ ٢١٣).

(٤) قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلىٰ بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح (الكافي الشاف ص١٠٣ رقم ٣١٣).

(٥) وجَعْل التساؤل غاية للبعث المعلَّل ـ فيما سبق ـ بالاختبار لأنه من أحكامه المترتبة عليه. والاقتصارُ على ذكر التساؤل لاستتباعه لسائر آثاره (س٥/ ٢١٣).

بالتخفيف[١]، وقرىء بالتثقيلِ وإدغام القاف في الكاف[٢]، وبالتخفيف مكسورَ الواو مدغماً وغيرَ مدغَم، وردَّ المدغم لالتقاء الساكنين على غير حدِّه[٣]. وحملُهم له دليلٌ على أن التزوُّدَ رأيُ المتوكلينَ، والمدينةُ طَرَسوسُ. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيُّ أهلِها. ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلُّ وأطيبُ أو أكثر وأرخصُ. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلفِ اللُّطفَ في المعاملة حتى لا يُغْبَنَ، أو في التخفي حتى لا يُعْرَفَ. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلنَّ ما يؤدي إلى الشعور.

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطَّلِعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدَّر في أيُّها. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيِّروكم إليها كَرْهاً من العوْدِ بمعنى الصيرورةِ. وقيل كانوا أولاً على دينهم فآمنوا[٤]. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ إن دخلتم في مِلَّتِهم.

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنَمْنَاهُم وبعثناهم لتزداد بصيرتُهم أطْلَعْنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوٓا﴾ ليعلمَ الذينَ أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعثُ. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباهَهُمْ كحال مَنْ يموتُ ثم يُبْعَثُ. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وأن القيامة لا ريبَ في إمكانها، فإنَّ مَنْ توفَّى نفوسَهم وأمسكها ثلاثمائةِ سنينَ حافظاً أبدانَها عن التحللِ والتفتتِ ثم أرسلَها إليها قَدِر أن يتوفَّى نفوسَ جميعِ الناس ممسكاً إياها إلى أن يَحشُرَ أبدانهم فيردَّها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لأعثرنا، أي أعثرنا عليهم حينَ يتنازعون[٥]. ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمرَ دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواحُ مجردةً وبعضهم يقول يبعثانِ معاً ليرتفعَ الخلافُ ويتبينَ أنهما يبعثانِ معاً، أو أمرَ الفتيةِ حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم ماتوا وقال آخرونَ ناموا نومَهم أولَ مرة، أو قالتْ طائفة نبني عليهم بنياناً يسكنه الناسُ ويتخذونه قُربةً، وقال آخرون لنتخذنَّ عليهم مسجداً يُصَلَّى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقوله «ربهم أعلم بهم» اعتراضٌ إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازِعين للردِّ إلى الله بعد

---

(١) أي بإسكان الراء «بِوَرْقِكُم».

(٢) أي «بِوَرِقكُّم».

(٣) أجيب على الرد بأنه واقع في كلام العرب، لكن على شذوذ (روح المعاني ١٥/ ٢٣٠).

(٤) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة.
وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إلى الرجم (س٥/ ٢١٤).

(٥) وقدم عليه الغاية «ليعلموا..» إظهار لكمال العناية بذكرها (س٥/ ٢١٥).

ما تذكروا أمرَهم وتناقلُوا الكلامَ في أنسابِهم وأحوالهم فلم يتحققْ لهم ذلك. حُكِيَ أن المبعوثَ لما دخل السوقَ وأخرجَ الدراهمَ وكان عليها اسمُ دَقيانوسَ اتهموه بأنه وجدَ كنزاً فذهبوا به إلى الملِكِ ـ وكان نصرانياً موحِّداً ـ فقصَّ عليه القصصَ، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فرُّوا بدينهم من دقيانوس فلعلَّهم هؤلاءِ، فانطلق الملك وأهلُ المدينة من مؤمنٍ وكافر وأبصروهم وكلَّموهم، ثم قالتِ الفتيةُ للملِك نستودعك اللهَ ونعيذك به من شرِّ الجن والإنس، ثم رَجَعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخلَ أولاً لئلا يفزَعوا، فدخل فعَمِي عليهم المدخلُ فبنَوا ثَمَّ مسجداً.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يَرْبَعُهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود، وقيل هو قول السيِّد من نصارى نجرانَ وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العاقبُ منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ يرمون رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطَّلَعَ لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رَجَمَ بالظنِّ إذا ظنَّ، وإنما لم يُذْكَر بالسين اكتفاءً بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريلَ عليهما الصلاة والسلام، وإيماءِ الله تعالى إليه: بأنْ أتبعه قولَه ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأَتْبَع الأوَّلَيْن قولَه رجماً بالغيب، وبأَنْ أَثْبَتَ العلمَ بهم لطائفةٍ بعد ما حصرَ أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابعٍ في نحو هذا المحلِّ دليلُ العدم مع أن الأصل يَنفيه، ثم ردّ الأولَيْن بأن أتبعهما قولَه «رجماً بالغيب» ليتعينَ الثالثُ، وبأنْ أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفةً للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة لتأكيد لُصُوقِ الصفة بالموصوف والدَّلالةِ على أن اتصافَه بها أمرٌ ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعةٌ وثامنهم كلبُهم[1]، وأسماؤهم: يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوشُ أصحابُ يساره وكان يستشيرُهم، والسابعُ الراعي الذي وافقهم، واسمُ كلبهم قطميرُ واسم مدينتهم أفسوسُ[2]. وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٨٣): «... وفي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم، فإن غالب ذلك ملتقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى «فلا تمارِ فيهم إلاّ مراءً ظاهراً» أي سهلاً هيناً فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة» هـ.

ـ وقال ابن حجر في «الفتح» (٦/٥٠٥): «... وفي النطق بها ـ أي بأسمائهم ـ اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء» هـ.

(٢) قال ابن حجر في هذه الأسماء: في النطق بها اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء (فتح الباري ٦/٥٠٥).

والقليلُ منهم. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ فلا تجادلْ في شأن الفتية إلاَّ جدالاً ظاهراً غيرَ متعمَّق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والردِّ عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسألْ أحداً منهم عن قِصَّتِهم سؤالَ مسترشِدٍ فإنَّ فيما أوحي إليك لمندوحةً من غيره مع أنه لا علم لهم بها، ولا سؤالَ متعنِّتٍ تريد تفضيحَ المسؤول وتزييفَ ما عنده فإنه مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

(٢٤) ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نهيُ تأديبٍ من الله تعالى لنبيه حين قالتِ اليهود لقريش: سَلُوه عن الروحِ وأصحابِ الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غداً أخبرْكم» ولم يستثنِ[1] فأبطأ عليه الوحيُ بضعةَ عشرَ يوماً حتى شَقَّ عليه وكذبه قريش[2]. والاستثناءُ من النهي أي ولا تقولنَّ لأجلِ شيء تعزم عليه إني فاعلُه فيما يُستقبَلُ إلا بأن يشاء الله، أي إلا ملتبِساً بمشيئتِه قائلاً إن شاء الله أو إلا وقتَ أن يشاءَ الله أن تقولَه بمعنى أن يأذنَ لك فيه، ولا يجوز تعليقُه بفاعل لأن استثناءَ اقترانِ المشيئة بالفعل غيرُ سديد واستثناءَ اعتراضِها دونَه لا يناسب النهيَ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ مشيئةَ ربِّك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله[3]. ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نِسْيَانٌ لذلك ثم تذكرتَهُ. وعن ابن عباس: ولو بعدَ سَنَةٍ ما لم يَحْنَثْ[4]، ولذلكَ جوَّز تأخيرَ الاستثناء عنه. وعامة

---

(١) أي لم يقل: إن شاء الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٦) وأخرج ابن جرير (١٥/ ١٩١) نحوه عن ابن عباس، وفي سنده رجل من آهل مصر، أي لم يُسمَّ، وأورده الواحدي بقوله: قال المفسرون (أسباب النزول ص٣٠٠).
وقد سبق بيان سبب نزول الآية «٨٥» الإسراء. «ويسألونك عن الروح» وفيها أن قريشاً طلبت من اليهود إعطاءهم شيئاً يسألون محمداً ـ عليه السلام ـ عنه فقالوا: سلوه عن الروح وهو صحيح، لكن سؤاله جملةً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين لعله لم يثبت والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه بنحوه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٦٨ ح١١٠٦٩) والحاكم (٤/ ٣٠٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٧/ ٥٣).
ومعنى قول ابن عباس: أن للحالف أن يستثني ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه إن شاء الله وذكر ذلك ـ ولو بعد سنة ـ فالسنّةُ له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنة الاستثناء حتىٰ ولو كان بعد الحنث (تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨) وقال القرطبي: هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم فلا يكون إلا متصلاً.

الفقهاء على خلافِهِ[١] لأنه لو صحَّ ذلك لم يتقرزْ إقرارٌ ولا طلاق ولا عَتاقٌ ولم يُعْلَمْ صدقٌ ولا كذبٌ، وليس في الآية والخبرِ أن الاستثناءَ المتدارَكَ به من القول السابق بل هو من مقدَّر مدلولٍ به عليه، ويجوز أن يكونَ المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناءَ مبالغةً في الحثِّ عليه، أو اذكر ربك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أَمَرَكَ به ليبعثك على التداركِ، أو اذكُرهُ إذا اعتراكَ النِّسيانُ ليذكِّرك المَنسيَّ. ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ يدلني. ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رَشَداً وأظهرَ دلالةً على أني نبيٌّ من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظمَ من ذلك كقصصِ الأنبياء المتباعدةِ عنه أيامُهم، والإخبارِ بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبَلةِ إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسيِّ.

(٢٥) ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ يعني لُبْثَهم فيه أحياءً مضروباً على آذانهم، وهو بيانٌ لما أُجملَ قبلُ. وقيلَ إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لُبْثِهم كما اختلفوا في عِدَّتهم، فقال بعضهم ثلاثمائة، وقال بعضهم ثلثمائة وتسعُ سنينَ. وقرأ حمزةُ والكسائي ثلاثمائةِ سنينَ بالإضافة على وضع الجمع موضِعَ الواحد، ويحسّنه ههنا أن علامة الجمع فيه جَبْرٌ لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع، ومن لم يُضِفْ أبدلَ السنين من ثلثمائة.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ له ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلهما، فلا خَلْقَ يخفى عليه علماً. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ﴾ ذُكِر بصيغةِ التعجب للدلالةِ على أن أمره في الإدراكِ خارجٌ عما عليه إدراكُ السامعين والمبصِرينَ، إذ لا يحجُبه شيءٌ ولا يتفاوت دونه لطيفٌ وكثيف وصغير وكبير وخفيٌّ وجليٌّ، والهاء تعود إلى الله. ومحله الرفعُ على الفاعلية والباءُ مزيدة عند سيبويه، وكان أصله أبصرَ أي صار ذا بصر ثم نُقِلَ إلى صيغة الأمر بمعنَى الإنشاء فبرز الضمير لعدم لَياقِ الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾[٢]. والنصبُ على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعْدِية ومتعديةٌ إن كانت للصيرورةِ. ﴿مَا لَهُم﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ مَنْ يتولى أمورَهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزمِ على نهي كل أحد عن الإشراك. ثم لما دل اشتمالُ القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيثُ إنها من المغيَّباتِ بالإضافة إلى رسول الله على أنه وحي معجزٌ أَمَرَه أن يداومَ درسَه ويلازم أصحابَه فقال:

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ من القرآن، ولا تَسمعْ لقولهم «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيرُه. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُلْتَجأً تعدل عليه إن هممتَ به.

---

(١) وهو الراجح والصواب انظر «الروضة الندية» بتحقيق محمد صبحي حسن حلاق (٢/٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) الفرقان: «٥٨».

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٨) ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبسها وثبِّتْها. ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في مجامعِ أوقاتِهم، أو في طرفي النهارِ. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَةِ، وفيه أن غدوةً عَلَمٌ في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا يجاوزهم نظرُكَ إلى غيرِهم، وتعديتُه بعن لتضمينه معنى نَبَا. وقرىء ولا تُعْدِ عَيْنَيْكَ ولا تُعَدِّ من أعْداهُ وعَدّاهُ. والمرادُ نهيُ الرسول ﷺ أن يزدريَ بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثاثةِ زِيِّهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورةِ ومن المستكِنِّ في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ من جعلنا قَلْبَهُ غافلاً. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأميةَ بنِ خلف في دعائك إلى طردِ الفقراء عن مجلسِك لصناديدِ قريش. وفيه تنبيهٌ على أن الداعيَ له إلى هذا الاستدعاءِ غفلةُ قلبِه عن المعقولات وانهماكُه في المحسوسات، حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثْلَه في الغباوة. والمعتزلةُ لما غاظَهم إسنادُ الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مِثْل أَجْبنْتَهُ إذا وجدتَه كذلك أو نسبتَهُ إليه، أو مِنْ أغفل إبلَه إذا تركَها بغيرِ سِمَةٍ أي لم نَسِمْه بذكرنا كقلوبِ الذين كتبنا في قلوبهم الإيمانَ، واحتجُوا على أن المرادَ ليس ظاهرَ ما ذُكِرَ أولاً بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وجوابُه ما مر غيرَ مرةٍ. وقرىء أغفلَنا بإسناد الفعل إلى القلبِ على معنى حَسِبَنا قلبُه غافلينَ عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرسٌ فُرُط أي متقدِّمٌ للخيل، ومنه الفَرَطُ.

(٢٩) ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الحقُ ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبرَ مبتدأ محذوفٍ ومن ربكم حالاً. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لا أبالي بإيمان مَنْ آمن ولا كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وهو لا يقتضي استقلالَ العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئتُهُ ليست بمشيئته. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فسُطاطُها شبَّهَ به ما يحيط بهم من النار، وقيل السُّرادقُ الحجرةُ التي تكون حول الفسُطاط، وقيل سرادقها دخانُها، وقيل حائطٌ من نار[1] ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش. ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كَدُرْدِيّ الزيت وهو على طريقة قوله: فأُعتِبُوا بالصيلم. ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ لِيُشْرَبَ من فَرْطِ حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهْل أو الضميرِ في الكاف. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المهلُ. ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ. ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأً، وأصل الارتفاقِ نَصْب المِرْفَقِ تحت الخدِّ، وهو لمقابلة قوله ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

---

(١) والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (س٥/ ٢٢٠).

(٢) الكهف: «٣١».

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ خبرُ إنّ الأولى هي الثانية بما في حيِّزها، والراجع محذوف تقديره مَنْ أحسنَ عملاً منهم أو مُستغْنًى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنًى عنه في قولك: نعم الرجل زيدٌ، أو واقع موقعَه الظاهرَ فإن من أحسن عملاً لا يحسُن إطلاقُه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات[1].

(٣١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، وعلى الأول استئنافٌ لبيان الأجر أو خبر ثانٍ. ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ مِنْ الأولى للابتداء والثانية للبيان صفةٌ لأساور، وتنكيرُه لتعظيم حُسْنِها من الإحاطة به، وهو جمع أَسْوِرَةٍ أو إسوار في جمع سِوارٍ. ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ لأن الخضرة أحسنُ الألوان وأكثرُها طراوةً. ﴿مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ نمارق من الديباج وما غلُظ منه جَمَعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذ الأعينُ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ على السُّرُر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ متكأ.

(٣٢) ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ حالَ رجلين مقدَّرين. أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيلَ كافرٍ اسمُه قطروسُ ومؤمنٍ اسمُه يهوذا، وَرِثَا من أبيهما ثمانيةَ آلافِ دينار فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضِياعاً وعَقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآلَ أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل المُمَثَّلُ بهما أخوانِ من بني مخزوم كافرٌ وهو الأسودُ بنُ عبدالأشد ومؤمن وهو أبو سلمةَ عبدُالله زوجُ أمِّ سلمةَ قبل رسول الله ﷺ. ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين. ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ من كروم، والجمْلَةُ بتمامِها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ للرجلين. ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ وجعلنا النخلَ محيطةً بهما مؤزَّراً بها كرومُهُما، يقال حفَّه القوم إذا أطافوا به وحَفَفْتُه بهم إذا جعلتُهم حافِّينَ حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطَهما. ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصلَ العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

(٣٣) ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها، وإفرادُ الضمير لإفراد كلتا. وقرىءَ كلُّ الجنتين آتىٰ أُكُلَه. ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ﴾ ولم تنقُص من أُكُلها. ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ يُعهَد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤُهما. وعن يعقوبَ وفَجَرْنَا بالتخفيف[2].

---

(١) ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافي مآلَيْ الفريقين (س٥/ ٢٢٠).

(٢) لعل تأخير ذكْر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأُكُل ـ مع أن الترتيب الخارجي على العكس ـ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأُكُل وتفجير النهرَ في تكميل محاسن الجنتين، ولو عكس لفُهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها =

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين، من ثَمَرَ مالُه إذا كثَّره. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما، وكذلك في قوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[1] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يراجعه في الكلام، مِنْ حار إذا رجعَ. ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ حَشَماً وأعواناً. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفِرون معه.

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. وإفرادُ الجنة لأن المراد هو جنته وما مُتِّع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنةَ له غيرَها ولا حظَّ له في الجنة التي وُعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ ضارٌّ لها بِعُجْبِه وكُفْرِه ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أن تفنَى. ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنةُ. ﴿أَبَدٗا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

(٣٦) ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ كائنةً. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمتَ. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ من جنته. وقرأ الحجازيان والشاميُّ[2]: منهما أي من الجنتين. ﴿مُنقَلَبٗا﴾ مرجِعاً وعاقبةً لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أَقْسَم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

(٣٧) ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ لأنه أصلُ مادتك أو مادةُ أصلِك. ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ ثم عَدَلَك وكمَّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغَ الرجال. جعل كُفْرَهُ بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأه الشكُّ في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكارَ على خَلْقِه إياه من التراب فإن من قدر على بَدْءِ خلقه منه قدرَ أن يعيده منه.

(٣٨) ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أصله لكنْ أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة إلى النون فتلاقتِ النونانِ فكان الإدغامُ. وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة، أو لإجراءِ الوصل مُجرى الوقف، وقد قرىء لكنْ أنا على الأصل. وهو ضمير الشأن، وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبرُ أنا أو ضمير الله، واللهُ بدلُه، وربي خبرُه، والجملة خبرُ أنا، والاستدراك

= مترتب على بعض، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة. وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي (س٥/ ٢٢١).

(١) الكهف: «٤٢».

(٢) الشامي هو ابن عامر.

من أكَفَرْتَ كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به. وقد قرىء لكنَّ هو الله ربي، ولكنْ أنا لا إلٰهَ إلا هو ربي.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

(٣٩) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ وهلاَّ قلتَ عند دخولها[1]. ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن، على أن ما موصولةٌ. أو أيَّ شيء شاء الله كان، على أنها شرطيةٌ، والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادَها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقلتَ لا قوةَ إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبير أمرها بمعونته وإقداره. وعن النبي ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، لم يضُرَّه»[2]. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأولى. وقرىء أقلُّ بالرفع على أنه خبرُ أنا، والجملةُ مفعولٌ ثانٍ لِتَرَني، وفي قوله ﴿وَوَلَدًا﴾ دليلٌ لمن فسَّر النفرَ بالأولاد.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني، وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنَّتِكَ لكفرك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مراميَ جمع حُسْبَانةٍ وهي الصواعقُ، وقيل هو مصدر بمعنى الحساب، والمراد به التقديرُ بتخريبها أو عذابُ حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساءَ يُزْلَقُ عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، مصدرٌ وُصِف به كالزَّلَقِ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ للماء الغائر ترددا في ردِّه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وأُهلك أموالُه حسبما توقعه صاحبُه وأنذرَه منه، وهو مأخوذٌ من أحاطَ به العدوُّ فإنه إذا أحاط به غَلَبَهُ وإذا غلبه أهلكه، ونظيرُه أتىٰ عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لِبَطْنٍ تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها. وهو متعلِّق بيقلِّبُ لأن تقليبَ الكفين كنايةٌ عن الندم فكأنه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً

(١) وتقديم الظرف «إذ» على المخصَّص عليه «دخَلْتَ...» للإيذان بتحتم القول في وقت الدخول من غير تريّث (س ٥/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/ ٩٠ رقم ٤٣٧٠) تعليقاً عن أبي بكر الهذلي، عن ثمامة بن أنس عن أنس.
ـ وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٢٠٧) متصلاً.
وأبو بكر الهذلي متروك، وحجاج بن نصير ضعيف.
وقد ضعف الألباني الحديث في «ضعيف الجامع» (٥/ ١٩٨) وتخريج «العلم» (رقم: ٢٤٤).

على ما أنفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشُها على الأرض وسقطت الكرومُ فوقَها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على يقلِّبُ أو حالٌ من ضميره. ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه أُتيَ من قِبَلِ شِرْكِهِ فتمنَّى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتملَ أن يكون توبةً من الشرك وندماً على ما سبق منه.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يَقْدِرُونَ على نصره بدفع الإهلاك أو رَدِّ الْمُهْلَكِ أو الإتيانِ بمثله. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحدَه. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلكَ الحالِ. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ النصرةُ له وحدَه لا يقدر عليها غيرُه تقديراً لقوله ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أو يَنْصُر فيها أولياءَه المؤمنين على الكَفَرَةِ كما نصر ـ فيما فعل بالكافر ـ أخاه المؤمن، ويعضُدُه قولُه: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه. وقرأ حمزةُ والكسائي بالكسر[1] ومعناه السلطانُ والملْكُ أي هنالك السلطانُ له لا يُغْلَبُ ولا يُمْنَعُ منه، أو لا يُعْبَدُ غيرُه كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾ كان عن اضطرارٍ وجَزَعٍ مما دهاهُ. وقيل هنالك إشارةٌ إلى الآخرة. وقرأ أبو عمرو والكسائي الحقُّ بالرفع صفة للولاية، وقرىء بالنصب على المصدر المؤكِّد، وقرأ عاصم وحمزةُ عُقْباً بالسكون، وقرىء عُقْبىٰ وكلها بمعنى العاقبة.

(٤٥) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياةَ الدنيا في زهرتها وسرعةِ زوالها أو صفتها الغريبة. ﴿كَمَآءٍ﴾ هي كماء، ويجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً لاضربْ على أنه بمعنَى صيِّرْ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وخالط بعضُه بعضاً من كثرته وتكاثُفِهِ، أو نجعَ في النبات حتى رويَ ورفَّ. وعلى هذا كان حقُّه فاختلط بنباتِ الأرض، لكنه لما كان كل من المختلطَيْنِ موصوفاً بصفةِ صاحبِه عُكِسَ للمبالغة في كثرته. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرِّقه. وقرىءَ تُذْرِيه مِنْ أَذْرَى. والمشبَّه به ليس الماءُ ولا حالُه بلِ الكيفيةُ المنتزَعَةُ من الجملة، وهي حال النباتِ المنبَتِ بالماء يكون أخضرَ وارفاً ثم هشيماً تطيِّره الرياحُ فيصيرُ كأنْ لم يكنْ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ. ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً.

---

(١) أي بكسر الواو من الولاية.

(٢) العنكبوت: [٦٥].

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسانُ في دنياه وتفنَى عنه عما قريب[١]. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وأعمالُ الخيرات التي تبقى له ثمرتُها أبدَ الآبادِ. ويندرجُ فيها ما فُسرت به من الصلوات الخمس وأعمالُ الحج وصيام رمضان، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والكلامُ الطيب. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمِّل بها في الدنيا[٢].

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ واذكر يومَ نقلعها ونسيِّرُها في الجو، أو نذهبُ بها فنجعلُها هباءً منبثاً. ويجوز عطفه على عند ربك، أي الباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند الله ويوم القيامة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمروٍ وابن عامر تُسَيَّر بالتاء والبناء للمفعول، وقرىء تَسِيرُ من سارتْ. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ بادية برزت من تحتِ الجبال ليس عليها ما يسترُها. وقرىءَ وتُرَىٰ على بناء المفعول. ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ وجمعناهم إلى الموقف، ومجيئُه ماضياً بعد نسيِّر وترى لِتحقُّقِ الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وُعِدَ لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ فلم نترك. ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال غادره وأغدَرَه إذا تركه، ومنه الغدرُ لتركِ الوفاء، والغديرُ لما غادرَه السيل. وقرىء بالياء.

(٤٨) ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شبَّه حالَهم بحالِ الجندِ المعروضينَ على السلطانِ لا ليعرفَهم بل ليأمرَ فيهم. ﴿صَفًّا﴾ مُصْطَفِّينَ لا يحجبُ أحدٌ أحداً. ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجهٍ يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسيِّر. ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عُراةً لا شيءَ معكم من المال والولدِ كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾[٣] أو أحياءً كخِلْقَتِكُم الأولى لقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجازِ الوعد بالبعثِ والنشور وأن الأنبياءَ كذَّبُوكم به، وبل للخروجِ من قصةٍ إلى أخرى.

(٤٩) ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ صحائفُ الأعمالِ في الأيمانِ والشمائلِ أو في الميزان، وقيل هو كنايةٌ عن

---

(١) تقديم المال على البنين ـ مع كونهم أعزَّ منه ـ لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممدّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه أمسّ من الحاجة إليهم، ولأنه أقدم منهم في الوجود، ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال فهو في ضيق حال ونكال.
وإفراد الزينة ـ مع أنها مسندة إلى الاثنين ـ لأنها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة (س٥/ ٢٢٥).

(٢) وتكرير كلمة «خير» للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيها (س٥/ ٢٢٦).

(٣) الأنعام: «٩٤».

وضع الحساب[١]. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ. ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ينادون هَلَكَتهم التي هلكُوها من بين الهَلَكَاتِ. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعجباً من شأنه. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هَنَةً صغيرة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إلا عدَّدَها وأحاط بها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصُّحُفِ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيَكتُبُ عليه ما لم يفعلْ أو يزيدُ في عقابِه الملائمِ لعمله.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كرره في مواضعَ لكونه مقدمةً للأمور المقصود بيانُها في تلك المحالِّ، وههنا لما شنَّع على المفتخرين واستقبحَ صنيعَهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليسَ، أو لمّا بيَّن حالَ المغرور بالدنيا والمعرِضِ عنها ـ وكان سببُ الاغترار بها حبَّ الشهوات وتسويلَ الشيطان ـ زهَّدَهُم أولاً في زخارفِ الدنيا بأنها عُرْضَةُ الزوال والأعمالُ الصالحةُ خيرٌ وأبقى من أَنْفَسِها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطانِ بتذكير ما بينَهم من العداوة القديمة. وهكذا مذهبُ كلِّ تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ بإضمار قد، أو استئنافٌ للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجدْ؟! فقيل كان من الجنِّ. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرج عن أمره بتركِ السجود، والفاءُ للسببِ، وفيه دليل على أن الملَكَ لا يعصي البتةَ وإنما عَصَى إبليسُ لأنه كان جنياً في أصله، والكلام المستقصَى فيه في سورة البقرة[٢]. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أَعَقِيبَ ما وُجِدَ منه تتخذونه، والهمزة للإنكارِ والتعجبِ. ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أولادَه أو أتباعه، وسمَّاهم ذريةً مجازاً. ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونَهم بدلَ طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى، إبليسُ وذريته.

(٥١) ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ نفيُ إحضارَ إبليسَ وذريته خلقَ السموات والأرض وإحضارَ بعضهم خلقَ بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك، كما صرّح به بقوله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياءَ من دون الله شركاءَ له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقيةِ والاشتراكَ فيه يستلزم الاشتراكَ فيها، فوضَعَ المضلِّينَ موضِعَ الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضادِ بهم. وقيل الضميرُ للمشركينَ، والمعنَى: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما خَصَصْتُهم بعلومٍ لا يعرفُها غيرُهم حتى لو آمنوا اتبَعَهم الناس كما يزعمونَ، فلا تلتفتْ إلى قولهم طَمَعاً في نُصْرَتِهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضدَ بالمضلِّينَ لديني، ويعضُده قراءةُ مَنْ قرأ وما كنتَ على خطابِ الرسول ﷺ. وقرىء متخذاً المضلينَ على الأصل، وعَضْداً بالتخفيفِ، وعُضُداً بالإتباعِ، وعَضَداً كَخَدَمٍ جَمْعُ عاضِدٍ من عضَّدَه إذا قوَّاه.

---

(١) وإيثار الإفراد في «الكتاب» للاكتفاء بالجنس (س٥/ ٢٢٧).

(٢) البقرة: «٣٤».

والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله (س٥/ ٢٢٧).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين. وقرأ حمزةُ بالنون. ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنَّهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافةُ الشركاء على زعمهم للتوبيخ، والمرادُ ما عُبِدَ من دونه، وقيل إبليسُ وذريّتُه. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادَوْهم للإغاثة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثُوهم[١]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الكفار وآلهتهم. ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركونَ فيه وهو النار، أو عداوةً هي في شدَّتِها هلاكٌ كقولِ عمرَ رضي الله عنه: لا يكنْ حبُّك كَلَفاً ولا بغضُك تَلَفاً[٢]، اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وَبِقَ يَوْبَقُ وبَقاً إذا هلكَ. وقيل البَيْنُ الوصلُ أي وجعلنا تواصُلَهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطُوها واقعونَ فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ يتأتىٰ منه الجدلُ. ﴿جَدَلًا﴾ خصومةً بالباطل. وانتصابُه على التمييز.

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلبُ أو انتظارُ أو تقديرُ أن تأتيهم سنةُ الأولينَ، وهيَ الاستئصالُ فَحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مَقَامَهُ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عذابُ الآخرة. ﴿قُبُلًا﴾ عياناً. وقرأ الكوفيونَ قُبُلاً بضمتينِ وهو لغةٌ فيه أو جمعُ قبيلٍ بمعنى أنواع، وقرىء بفتحتين وهو أيضاً لغةٌ يقال لقيتُه مقابَلةً وقُبُلاً وقِبَلاً وقَبَلاً وقبليّاً، وانتصابُه على الحال من الضمير أو العذاب.

(٥٦) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عن مقره ويُبطِلوه، من إدحاضِ القَدَم وهو إزلاقُها وذلك قولهم للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٤] ونحو ذلك. ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ يعني

---

(١) وفي إيراد عدم استجابة الشركاء مع علمهم بأنهم لم يستجيبوا لهم تهكم بهم، وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح (س٥/٢٢٩).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٩٤) بدون عزوه إلى عمر ولم أجد له مخرجاً فيما أعلم.
وذكره الميداني في «الأمثال» (٣/ ١٦٣ رقم ٣٥٢٨) ولم يعزه إلى عمر.

(٣) يسٓ: «١٥».

(٤) المؤمنون: «٢٤».

القرآن. ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ وإنذارَهم أو والذي أُنْذِرُوا به من العقاب. ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً. وقرىء هُزْأً بالسكون وهو ما يُسْتَهْزَأُ به على التقديرَيْن[1].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرْها ولم يتذكرْ بها. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكرْ في عاقبتهما. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليلٌ لإعراضهم ونسيانِهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، وتذكيرُ الضمير وإفرادُه للمعنى. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعُهم أن يستمعوهُ حقَّ استماعِه. ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهونَ ولا يسمعونَ وإذاً ـ كما عرفتَ جزاءٌ وجوابٌ للرسول ﷺ على تقدير قولِه مالي لا أدعُوهم، فإنَّ حرصَه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ الموصوفُ بالرحمة[2]. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريشٍ مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يومُ بَدْرٍ أو يومُ القيامة. ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ منجىً ولا ملْجأً، يقال وَأَلَ إذا نجا وَوَأَلَ إليه إذا لجأ إليه.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني قرى عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، وتلك مبتدأٌ خبرُه: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أو مفعولٌ مضمَرٌ مفسَّرٌ به، والقرى صفته، ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجعَ الضمائر. ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كقريشٍ بالتكذيب والمِراءِ وأنواعِ المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرونَ عنه ساعةً ولا يستقدمونَ، فلْيعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم. وقرأ أبو بكر لَمَهْلَكِهم بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادرِ يَفْعِلُ كالمرجعِ والمحيضِ.

---

(١) قراءة (هزْأً) بالسكون والهمز هي قراءة حمزة وهو من القراء السبعة، فالإشارة إليها بلفظ قرىء المنبىء بالضعف غير سليم، ومن عادة البيضاوي الإشارة للقراءات الشاذة بلفظ قرىء.

(٢) وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهىٰ من العذاب، وأما الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهىٰ. وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية، أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها (س٥/ ٢٣١).

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مقدَّرٌ باذكرْ. ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشعَ بنِ نونِ بنِ أفرائيمَ بنِ يوسفَ عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمُه ويتبعُه ولذلك سماه فتاهُ، وقيلَ لعبدِه. ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسيرُ فحذفَ الخبرَ لدلالةِ حاله ـ وهو السفرُ ـ وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ من حيثُ إنَّها تستدعي ذا غايةٍ عليه. ويجوز أن يكونَ أصلُه لا يبرحُ مسيري حتى أبلغَ، على أنَّ حتى أبلغَ هوَ الخبرُ، فحذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ[1] إليه مُقَامَهُ، فانقلبَ الضميرُ والفعل، وأن يكون لا أبرحُ هو بمعنى لا أزولُ عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبرَ. ومجمعُ البحريْنِ مُلْتَقَى بحريْ فارسَ والرومِ مما يلي المشرقَ وُعِدَ لقاءَ الخَضِرِ فيه، وقيل البحرانِ موسى وخضِرٌ عليهما الصلاة والسلام فإنَّ موسى كان بحرَ علمِ الظاهرِ والخضِرُ كان بحرَ علم الباطن. وقرىء مَجْمِعَ بكسر الميم على الشذوذ من يفعَلُ كالمشرِقِ والمطلِعِ[2]. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسيرُ زماناً طويلاً. والمعنى حتى يقعَ إما بلوغُ المجمَعِ أو مضيُّ الحُقُبِ، أو حتى أبلغَ إلا أن أمضِيَ زماناً أتيقنُ معه فواتَ المجمع. والحُقُبُ الدهرُ وقيل ثمانونَ سنةً وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطبَ الناسَ بعد هلاكِ القِبْطِ ودخولِه مِصْرَ خُطْبَةً بليغة فأُعجِبَ بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلمَ منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلمُ منك عبدُنا الخضرُ وهو بمجمعِ البحرين[3]، وكان الخضرُ في أيام أفريدونَ وكان على مقدمةِ ذي القرنين الأكبرِ وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأيُّ عبادك أقضَى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبعُ الهوى، قال فأيُّ عبادك أعلمُ؟ قال الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيبَ كلمة تدلُّه على هدى أو تردُّه عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلمُ مني فادلُلْني عليه، قال أعلمُ منكَ الخضِرُ، قال: أين أطلبه؟ قال على الساحل عندَ الصخرةِ، قال كيفَ لي به؟ قال تأخذُ حوتاً في مِكْتَلٍ فحيث فقَدَته فهو هناك، فقال لفتاهُ إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرْني، فذهبا يمشيانِ[4].

---

(١) فالمسير مضاف والياء مضاف إليه، وهي ياء المتكلم التي قام قوله «لا أبرح» مقامها لأنه بصيغة المتكلم، فقد حذف المضاف إذاً (مسير) وبقي ما قام المضاف إليه.
(٢) والمغرِب، والقياس الفتح مفعَل.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٥، ٧٤٧٨) وليس فيه بعد هلاك القبط ودخول مصر خطبة بليغة...
(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٧٧) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤١٩). وفي إسناده محمد بن حميد وهو ضعيف.

(٦١) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي مجمعَ البحريْنِ، وبينَهما ظرفٌ أُضِيفَ إليه على الاتساعِ أو بمعنى الوصْلِ. ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرفَ حالَه، ويوشعُ أن يذكرَ له ما رأى من حياته ووقوعِه في البحر. روي: أن موسى عليه السلام رقد فاضطربَ الحوتُ المشويُّ ووثبَ في البحر، معجزةٌ لموسى أو الخضِرِ، وقيل توضأ يوشعُ من عينِ الحياة فانتضحَ الماء عليه فعاشَ ووثبَ في الماء، وقيل نسياً تَفَقُّدَ أمرِه وما يكون منه أمارةً على الظَّفرِ بالمطلوب ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ فاتخذ الحوتُ طريقه في البحر مسْلَكاً، من قوله: ﴿ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[1]، وقيل أمسك الله جريةَ الماء على الحوتِ فصار كالطاقِ عليه. ونصبُه على المفعولِ الثاني، وفي البحر حالٌ منه أو من السبيلِ، ويجوز تعلُّقه باتّخذَ.

(٦٢) ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمعَ البحريْنِ. ﴿ قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ ما نتغذَّى به. ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ قيل لم ينصَبْ حتى جاوزَ الموعدَ، فلما جاوزَه وسارَ الليلةَ والغدَ إلى الظهرِ أُلقِيَ عليهِ الجوعُ والنَّصَبُ. وقيل لم يَعْيَ موسى في سفر غيرِه، ويؤيده التقييدُ باسم الإشارة.

(٦٣) ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ ﴾ أرأيتَ ما دهاني إذ أوينا. ﴿ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ يعني الصخرةَ التي رقد عندَها موسى، وقيل هي الصخرةُ التي دونَ نهرِ الزيت[2]. ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ فقدتُه أو نسيت ذِكْرَه بما رأيتُ منه. ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ أي وما أنساني ذكرَه إلا الشيطانُ، فإنَّ أنْ أذكُرَه بدلٌ من الضمير. وقرىء أن أذكُرَكَه، وهو اعتذار عن نِسيانه بِشُغْلِ الشيطان له بوساوسِه، والحالُ وإن كانت عجيبةً لا يُنْسَى مثلُها لكنه لما ضريَ بمشاهدة أمثالِهَا عند موسى وأَلِفَها قلَّ اهتمامُه بها، ولعله نسيَ ذلك لاستغراقِه في الاستبصار وانجذابِ شراشِره إلى جنابِ القُدُسِ بما عراهُ من مشاهدةِ الآياتِ الباهرة، وإنما نسبَه إلى الشيطان هضْماً لنفسه أو لأن عدمَ احتمال القوة للجانبينِ واشتغالَها بأحدِهما عن الآخر يُعَدُّ من نقصان[3]. ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسَّرَبِ أو اتخاذاً عجباً، والمفعول الثاني هو الظرفُ، وقيل هو مصدرُ فِعْلِه المضمر أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجُّباً من تلك الحالِ. وقيل الفعلُ لموسى أي اتخذَ موسى سبيلَ الحوت في البحر عجباً.

(٦٤) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ ﴾ أيْ أمرُ الحوت. ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ نطلبُ لأنه أمارةُ المطلوب. ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه. ﴿ قَصَصًا ﴾ يقصَّانِ قَصَصاً أي يتبعان آثارَهما اتباعاً، أو مقتصَّينْ حتى أتيا الصخرةَ.

(٦٥) ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ الجمهور على أنه الخضرُ عليه السلام واسمُه بليا بنُ مِلْكان[4]، وقيل اليسعُ، وقيل إلياسُ[5]. ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ هي الوحي والنبوةُ. ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ مما يختص بنا ولا يُعْلَمُ إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

---

(١) الرعد: «١٠».
(٢) وذكر الإواء إليها ـ مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين ـ لزيادة تعيين محل الحادثة (س٥/ ٢٣٣).
(٣) وإيثار «أن أذكره» على المصدر للمبالغة، فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه (س٥/ ٢٣٣).
(٤) انظر المعارف لابن قتيبة [ص٤٢ وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)].
(٥) التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف (س٥/ ٢٣٤).

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

(٦٦) ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ على شرط أن تعلِّمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ علماً ذا رَشَدٍ وهو إصابةُ الخير. وقرأ البصريانِ بفتحتينِ وهما لغتان كالبُخْل والبَخَلِ، وهو مفعول تعلِّمني ومفعول عُلِّمْتَ العائدُ المحذوفُ، وكلاهما منقولان من علمَ الذي له مفعولٌ واحد، ويجوز أن يكون رشداً علةً لأَتَّبِعُكَ أو مصدراً بإضمار فعلِه. ولا ينافي نُبُوَّتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلَّم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإنَّ الرسولَ ينبغي أن يكون أعلمَ ممن أُرسِلَ إليه فيما بُعِثَ به من أصول الدين وفروعِه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غايةَ التواضع والأدب، فاستجهلَ نفسه واستأذن أن يكون تابِعاً له، وسأل منه أن يرشدَه وينعِمَ عليه بتعليمِ بعض ما أنعمَ الله عليه.

(٦٧) ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ نفى عنه استطاعةَ الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلَّلَ ذلك واعتذرَ عنه بقوله:

(٦٨) ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبيٌّ على ما أتولى من أمورٍ ظواهرُها مناكيرُ وبواطنُها لم يُحِطْ بها خبرُك، وخبراً تمييز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تُخْبَرْهُ.

(٦٩) ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معكَ غيرَ منكِرٍ عليه. ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ عطفٌ على صابراً أي ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، أو على ستجدني. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمُّن، وخُلْفُه ناسياً لا يقدح في عصمته، أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خُلْفَ، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعةٌ بمشيئة الله تعالى.

(٧٠) ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ فلا تخالفْني بالسؤالِ عن شيء أنكرتَه منِّي ولم تعلمْ وجْهَ صِحَّته. ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ حتى أبتدئك ببيانِه، وقرأ نافعٌ وابن عامر فلا تَسْأَلَنِّي بالنون الثقيلة.

(٧١) ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ على الساحل يطلبان السفينةَ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أخذ الخضرُ فأساً فخرَقَ السفينةَ بأن قلعَ لوحين من ألواحِها. ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فإن خَرْقَها سببٌ لدخولِ الماء فيها المفضِي إلى غَرَقِ أهلها. وقرىء لتغرِّقَ بالتشديد للتكثير، وقرأ حمزةُ والكسائي ليغرَقَ أهلُها على إسناده إلى الأهلِ. ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أتيت أمراً عظيماً، مِنْ أَمِرَ الأمْرُ إذا عظُم.

(٧٢) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما ذكره قبل.

(٧٣) ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيتُه، يعني وصيتَه بأن لا يعترضَ عليه أو

بنسياني إياها، وهو اعتذارٌ بالنسيان أخرجه في معرِضِ النهي عن المؤاخذةِ مع قيامِ المانع لها. وقيل أراد بالنسيان التركَ أي لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أولَ مرةٍ. وقيل إنه من معاريضِ الكلام والمرادُ شيءٌ آخرُ نَسِيَهُ. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تُغْشِني عُسْراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي، فإن ذلك يُعْسِرُ علي متابعتك، وعسراً مفعول ثان لترهقْ فإنه يقال: رَهَقَه إذا غشِيه وأرهقه إياه. وقرىء عُسُراً بضمتين.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

(٧٤) ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل فَتَلَ عُنُقَهُ، وقيل ضربَ برأسه الحائطَ، وقيل أضجعه فذبحَه. والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتلَه من غير تروٍّ واستكشافِ حال، ولذلك: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرةً من الذنوب. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويسٌ عن يعقوبَ زاكيةً، والأول أبلغُ، وقال أبو عمرو الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ والزكِّيةُ التي أذنبتْ ثم غفرتْ، ولعلَّه اختار الأولَ، لذلك فإنها كانت صغيرةً ولم تبلغِ الحُلُمَ أو أنه لم يَرَهَا قد أذنبتْ ذنباً يقتضي قتلَها أو قتلت نفساً فَتُقَادَ بها، نبَّه به على أن القتلَ إنما يباحُ حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتفٍ. ولعل تغييرَ النظْم ـ بأن جعلَ خَرْقَهَا جزاءً واعتراضَ موسى عليه الصلاة والسلام مُسْتَأْنَفاً في الأولى، وفي الثانية قَتْلَهُ من جملة الشرطِ واعتراضَه جزاءً ـ لأن القتل أقبحُ والاعتراضَ عليه أدخلُ فكانَ جديراً بأنْ يُجْعَلَ عمدةَ الكلام، ولذلك فصّلَه بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً. وقرأ نافعٌ في رواية قالونَ وَوَرْشٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكر نُكُراً بضمتين.

(٧٥) ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه «لك» مكافحةً بالعتاب على رفضِ الوصية، ووسْماً بقلَّةِ الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكارُ، ولم يرْعَوِ بالتذكيرِ أولَ مرة حتى زاد في الاستنكار ثانيَ مرةٍ.

(٧٦) ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن سألتُ صُحْبَتَكَ. وعن يعقوبَ فلا تَصْحَبْني، أي فلا تجعلْني صاحِبَك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدتَ عذراً من قبلي لما خالفْتُك ثلاثَ مراتٍ[(١)]. وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبثَ مع صاحبه لأبصرَ أعجبَ الأعاجيبِ»[(٢)]. وقرأ نافع من لَدُني بتحريك النون والاكتفاءِ بها عن نون الدِّعامةِ كقوله: قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ

---

(١) الظاهر أن المخالفة بعد قتل الغلام تعدّ مرتين، أما الثالثة فبعد إقامة الجدار، وكأنه سهو من قلم القاضي رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٦ رقم ٣٩٨٤) والترمذي (٥/ ٤٦٣ رقم ٣٣٨٥) كلاهما من طريق عبدالله بن عباس، عن أبي بن كعب. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. قلت: إسناد صحيح.
وقد أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/٢٨٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) والحاكم (٢/ ٥٧٤) كلهم من حديث حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ١٨٥١ رقم ١٧٢) في سياق حديث طويل.

الخُبِيبَيْنِ قُدى. وأبو بكر لدْني بتحريك النون وإسكانِ الدال إسكانَ الضاد من عضد.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أنطاكيةَ، وقيل أبلةَ البصرةِ، وقيل باجروانَ أرمينيةَ. ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرىء يُضِيفُوهُما من أضافه يقال ضافَه إذا نزلَ به ضيفاً وأضافَه وضيَّفه أنزلَه، وأصلُ التركيبِ للميل يقال ضاف السهمَ عن الغرض إذا مال[١]. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يداني أن يسقطَ، فاستُعِيْرَتِ الإرادةُ للمشارفة كما استعيرَ لها الهمُّ والعزمُ قال:

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ ... ويَعْـدِلُ عَـنْ دِمَـاءِ بَنِـي عَقِيـلِ

وقال:

إنَّ دَهْـراً يَلُـمُّ شَمْلِـي بِجَمْـلٍ ... لَـزمَـانٌ يَهُـمُّ بِـالإِحْسَـانِ

وانقضّ انفعلَ من قضضتُه إذا كسرته، ومنه انقضاضُ الطير والكواكبِ لِهُوِيِّهِ، أو افْعَلَّ من النقضِ. وقرىء أن يُنْقَضَ، وأن يَنْقاص بالصاد المهملة من انقاصَتِ السنُّ إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بعمارته أو بعَمود عَمَدَه به، وقيل مسحه بيده فقام، وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ الْجُعْلِ لينتعشا به، أو تعريضاً بأنه فُضول لِما في لو من النفي، كأنه لَما رأى الحرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالكْ نفسَه. واتّخذ افتعل من تَخِذَ كاتّبع من تَبع وليس من الأخذ عند البصريين. وقرأ ابن كثير والبصريان لَتَخِذْتَ أي لأخذت، وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمه الباقون.

(٧٨) ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ الإشارةُ إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أو إلى الاعتراضِ الثالث أو الوقت، أي هذا الاعتراض سببُ فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافةُ الفراق إلى البين إضافةُ المصدر إلى الظرف على الاتّساع. وقد قرىء على الأصل[٢]. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

(٧٩) ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لمحاويجَ، وهو دليل على أن المسكين يُطلَق على من يملك شيئاً إذا لم يكْفِه. وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملِك، أو لِزَمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسةٌ زَمنىٰ وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ قُدَّامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جَلَندىٰ بنُ كَركَر وقيل مِنوارُ بنُ

(١) ولعل العدول إلى النظم الكريم عن أن يقول فاستطعماهم لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع (س٥/ ٢٣٧).

(٢) أي قرىء بالتنوين من غير إضافة «هذا فراقٌ بيني...».

جلندى الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حقُّ النظم أن يتأخر قولَه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيّب مسبَّبة عن خوف الغضب، وإنما قُدِّم للعناية أو لأن السبب لَما كان مجموعَ الأمرين: خوفِ الغضب ومسكنةِ المُلّاك رتَّبه على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقّبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم. وقرىء كلَّ سفينة صالحة، والمعنى عليها.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

(٨٠) ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يُغشِيَهما. ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه فيُلْحقَهما شراً، أو يَقرُنَ بإيمانهما طغيانَه وكفره فيجتمعَ في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يُعْدِيَهما بعلّته فيرتدا بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره. وإنما خشِي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نجْدة الحَروريَّ كتب إليه كيف قتله وقد نهىٰ النبي ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه إن كنتَ علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل[١]. وقرىء فخاف ربُّك، أي فكره كراهة مِنْ خاف سوءَ عاقبته، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ حكاية قول الله عز وجل.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أن يرزقهما بَدَلَه ولداً خيراً منه. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً على والديه. قيل وُلِدَت لهما جارية، فتزوجها نبي فوَلَدَت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبَدِّلَهما بالتشديد، وابنُ عامر ويعقوب وعاصم رُحْماً بالتخفيف[٢]. وانتصابُه على التمييز والعاملُ اسم التفضيل، وكذلك زكاةً.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمُهما أصرمُ وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً[٣]، والذمُّ على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[٤] لمن لا يؤدي زكاتهما وما تعلقَ بهما من الحقوق. وقيل من كُتب ....

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٤/٤٢٣، ٥/٤٢) وأصله عند مسلم (٣/١٤٤٥ ج١٣٨).

(٢) القراءة في «رحماً» فقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء، وقرأ الباقون بإسكان الحاء. انظر الكشف عن وجوه القراءات (٢/٧٢) والمبسوط لابن مهران ص٢٣٨...

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٣١٣ رقم ٣١٥٢) والحاكم في المستدرك (٢/٣٦٩) من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله «بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز» هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٤) التوبة: «٣٤».

العلم[١]. وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يَعرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله[٢].
﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أن سعيَه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء وكان سيّاحاً واسمه كاشح. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحُلُم وكمالَ الرأي[٣].
﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مرحومَين من ربك، ويجوز أن يكون علّةً أو مصدراً لأراد فإن إرادةَ الخير رحمة، وقيل متعلق بمحذوف تقديرُه فعلتُ ما فعلتُ رحمةً من ربك. ولعل إسنادَ الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشِرُ للتعييب، وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بَدَلَه، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مَدْخَلَ له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالثَ خير والثانيَ ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالْتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وما فعلتُ ما رأيتَه.
﴿عَنْ أَمْرِى﴾ عن رأيي وإنما فعلتُه بأمر الله عز وجل، ومبنىٰ ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمّلُ أهونِهما لدفع أعظمهما، وهو أصل مُمَهَّد غير أن الشرائعَ في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع، فَحَذَفَ التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يُعْجَب المرء بعلمه ولا يبادرَ إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفُه، وأن يداوم عـلى التعلم ويتذلل للمعلِّم ويراعيَ الأدب في المقابل، وأن ينبه المجرمَ على جرمه ويعفوَ عنه حتى يتحقق إصرارُه ثم يهاجرَ عنه.

(٨٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندرَ الروميَّ مَلِك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقِها وغربِها، وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنَه لُقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانَه. واختُلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه. والسائلون هم اليهودُ سألوه امتحاناً، أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين. والهاء لذي القرنين، وقيل لله.

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أَمْرَه من التصرف فيها كيف شاء، فحُذِفَ المفعول.
﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه. ﴿سَبَبًا﴾ وُصْلَةً توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

(٨٥) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي فأراد بلوغَ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بقطع الألـفِ مُخَفَّفَةً ....

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٩) عن ابن عباس وصححه، وقال الذهبي: صحيح.
(٢) أخرجه البزار عن أبي ذر مرفوعاً (كشف الأستار ٣/ ٥٧) وذكر الهيثمي أن فيه من لا يعرفه (المجمع ٧/ ٥٣).
وأخرجه ابن عدي في ترجمة أبين بن سفيان (١/ ٣٨٤) من طريقه عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً. وقال: وما يرويه عمن رواه منكر كله.
(٣) في إضافة الرب إلى ضمير موسىٰ عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة. (س٥/ ٢٣٩).

التاء[١].

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأٍ، مِنْ حَمِئَتِ البئر إذا صارت ذاتَ حمأةٍ[٢]. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر حامِيَةٍ أي حارة، ولا تنافيَ بينهما لجواز أن تكون العينُ جامعةً للوصفين، أو حميَة على أن ياءَها مقلوبةٌ عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مَطمح بصره غيرُ الماء، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقل كانت تغرُب. وقيل إن ابن عباس سمع معاويةَ يقرأ «حاميةٍ»، فقال: حمِئَة، فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة[٣] ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسُهم جلودَ الوحش وطعامُهم ما لَفَظَهُ البحر، وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوَهم إلى الإيمان كما حكى بقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل، ويؤيده الأول قوله:

(٨٧) ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي فاختار الدعوةَ وقال: أما من دعوتُه فظلم نفسَه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنَا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكراً لم يُعهد مثلُه.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو ما يقتضيه الإيمانُ. ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين. ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فَعْلتِه الحسنى. وقرأ حمزةُ والكسائيُ ويعقوبُ وحفصُ جزاءً منوناً، منصوباً على الحال، أي فله المثوبة الحسنى مجزياً بها أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يُجزىٰ بها جزاء، أو التمييز، وقرىء منصوباً غيرَ مُنوَّن على أن تنوينَه حُذِف لالتقاء الساكنين، ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ والحسنى بدلُه. ويجوز أن يكون أمّا وإمّا للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ، فالأولُ لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه. ونداءُ الله إياه إن كان نبياً فبوَحْي وإن كان غيرَه

---

(١) وقرأ الباقون «فاتَّبع» بهمزة الوصل وتشديد التاء، هنا والآية «٩٢»: «ثم اتَّبع سبباً».

(٢) وهي الطين الأسود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩/ج١٦/١١) وفي إسناده: سعيد بن مسلمة الأموي، وهو ضعيف.

● وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس أن القصة كانت مع عمرو بن العاص وفي إسناده سند وهو ضعيف.

● كما أخرج عن ابن عباس أيضاً أنه كان يقرأ (حامية) مثل معاوية، وفي إسناده: عبدالله أبو صالح كاتب الليث، وهو ضعيف.

● قلت: وانظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢).

فبإلهام أو على لسان نبي. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ بما نأمر به. ﴿يُسْرًا﴾ سهلاً ميسراً غيرَ شاق، وتقديره ذا يُسر. وقرىء بضمتين.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم أتبع طريقاً يوصِلُه إلى المشرق.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضعَ الذي تَطلُع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض. وقرىء بفتح اللام على إضمار مضافٍ، أي مكانَ مطلَع الشمس فإنه مصدر. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تُمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسرابَ بدل الأبنية.

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رِفْعَة المكان وبَسْطَة الملك، أو أَمْرُهُ فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل، أو صفةَ قوم أي على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعُدَد والأسباب. ﴿خُبْرًا﴾ علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علمُ اللطيف الخبير.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترِضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلا أرمينيةَ وأَذْرَبيجانَ، وقيل جبلان مُنيفانِ في أواخر الشمال في منقطع أرض التُرك من ورائهما يأجوجُ ومأجوجُ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر ويعقوبُ بين السُّدَّيْن بالضم، وهما لغتان، وقيل المضموم لِمَا خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناسُ لأنه في الأصل مصدر سُمِّي به حَدَثٌ يُحْدِثُه الناس، وقيل بالعكس. وبين ـ هنا ـ مفعول به، وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلةِ فِطْنتهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لا يُفْقِهُون أي لا يُفهِمُون السامع كلامَهم ولا يبينونه لتلعثُمهم فيه.

(٩٤) ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال مترجمُهُم، وفي مصحف ابن مسعود قال الذين من دونهم. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافثَ بنِ نوحٍ، وقيل يأجوجُ من الترك ومأجوج من الجبَل. وهما اسمان أعجميان بدليل منعِ الصرف، وقيل عربيان مِنْ أَجَّ الظليمُ إذا أسرع، وأصلُهما الهمز كما قرأ عاصم، ومنعُ صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يَخرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون

الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نُخرجه من أموالنا. وقرأ حمزةُ والكسائي خَرَاجاً، وكلاهما واحد كالنَّوْل والنَّوال. وقيل الخراج على الأرض والذمّةِ، والخرْج المصدر. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يَحْجُز دون خروجهم علينا. وقد ضمّه من ضم السُّدّين غيرَ حمزةَ والكسائيِّ.

قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مَكيناً من المال والمُلْك خيرٌ مما تَبْذُلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير مكّنني على الأصل. ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فَعَلَةٍ، أو بما أتقوى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السد مِنْ قولهم ثوب مُرَدَّم إذا كان رِقاعاً فوق رقاع[1].

(٩٦) ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطَعَه، والزُّبْرَة القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي ردّ الخَراج والاقتصارَ على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءةُ أبي بكر ردماً ائتوني بكسر التنوين موصولةَ الهمزة على معنى جيئوني بزُبُر الحديد. والباءُ محذوفةٌ حذفَها في أمرتُك الخيرَ، ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل[2]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضمتين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرىء بفتح الصاد وضم الدال، وكلها لغات من الصَّدْف وهو الميلُ لأن كلاًّ منهما منعزل عن الآخر، ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي قال للعَمَلَة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ جعل المنفوخ فيه[3]. ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء. ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قِطْراً أي نحاساً مذاباً أُفرغ عليه قطراً، فحَذَفَ الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملَيْن المتوجهَين نحوَ معمول واحد أولى، إذ لو كان قِطراً مفعول آتوني لأُضْمِر مفعول أفرغْ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر قال أْتوني موصولة الألف.

(٩٧) ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حدّه. وقرىء بقلب السين صاداً ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يَعْلُوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لثِخَنه وصلابته. وقيل حَفَرَ للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زبر الحديد بينهما الحطبُ والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار، فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق بعضُه ببعض وصار

---

(١) وتقديم «بينكم» على «بينهم» لإظهار كمال العناية بمصالحهم (س٥/ ٢٤٥).

(٢) ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء لزبر الحديد دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لأن الحاجة إليها أمسّ إذ هي الركن في بناء السد، ووجودها أعز. (س٥/ ٢٤٥).

(٣) وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين لأنه العمدة في ذلك (س٥/ ٢٤٦).

جبلاً صلداً. وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليبَ من حديد ونُحاس مذابٍ في تجاويفها.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

(٩٨) ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ هذا السدُّ أو الإقدارُ على تسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ على عباده. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوجَ ومأجوجَ، أو بقيام الساعة بأن شارف يومَ القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جَمَلٌ أَدَكُّ لمنبَسِطِ السَّنام. وقرأ الكوفيون دَكّاءَ بالمدّ، اي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة. وهذا آخرُ حكاية قول ذي القرنين.

(٩٩) ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوجَ ومأجوج حين يَخرجُون مما وراء السد يَمُوجون في بعضٍ مزدحمين في البلاد، أو يموج بعضُ الخلق في بعض فيصطربون ويختلطون، إنسُهم وجِنّهم حيارىٰ، ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء[1].

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم[2].

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنْظَر إليها فأُذْكَرُ بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكري وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصمَّ قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أُصمّت مسامِعُهم بالكلية.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظنوا، والاستفهامُ للإنكار. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخاذَهم الملائكةَ والمسيح ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعَهم أو لا أعذبهم به. فحُذف المفعول الثاني كما يُحذف الخبرُ للقرينة، أوسدّ «أن يتخذوا» مسدّ مفعوليه. وقرىء ﴿أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أفكافيهم في النجاة؟ وأنْ بما في حيزها مرتفِعٌ بأنه فاعلُ حَسْبُ، فإن النعت إذا اعتَمَدَ على الهمزة ساوى الفعلَ في العمل، أو خبرٌ له. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ما يقام للنزيل، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تُستَحقر دونه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز. وجُمِعَ لأنه من أسماء الفاعلين، أو لتنوع أعمالهم.

---

(١) لم يتعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار، ولئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى والآخرة (س٥/٢٤٧).

(٢) وتخصيص العرض بهم ـ مع أنها بمرأىٰ من أهل الجمع قاطبة ـ لأن ذلك لأجلهم خاصة (س٥/٢٤٧).

ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٤) ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضاع وبَطَل لكفرهم وعُجْبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم. ومحله الرفعُ على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال، أو الجرُّ على البدل، أو النصبُ على الذم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعُجْبِهم واعتقادِهم أنهم على الحق.

(١٠٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن، أو بدلائله المنصوبةِ على التوحيد والنبوة[١]. ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاءِ عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يُثابون عليها. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالُهم لانحباطها.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمْرُ ذلك، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيِّنة له، ويجوز أن يكونَ ذلك مبتدأً والجملةُ خبره والعائدُ محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بَدَلُه وجهنمُ خبره، أو جزاؤهم خبرُه، وجهنم عطفُ بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي بسبب ذلك.

(١٠٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعدِه. والفردوسُ أعلى درجات الجنة، وأصلُه البستانُ الذي يَجْمَع الكرم والنخل.

(١٠٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيبَ منها حتى تنازِعَهم إليه أنفسُهم، ويجوز أن يراد به تأكيدُ الخلود.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ ما يُكْتَب به، وهو اسمُ ما يُمدّ به الشيءُ كالحِبْر للدواة والسَّليط للسِّراج. ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ لنفد جنسُ البحر بأمره، لأن كل جسم متناهٍ. ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ فإنها غيرُ متناهية لا تنفَدُ كعلمه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادةً ومعونة، لأن مجموعَ المتناهين متناهٍ بل مجموعُ ما يَدخُل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد، والمتناهي ينفد قبل أن ينفد غيرُ المتناهي لا محالة. وقرىء ينفد بالياء، ومِدَداً بكسر الميم جمع مُدّة وهي ما يَستمدُّه الكاتب، ومِدَاداً. وسبب نزولها[٢] أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣] وتقرؤون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور (س٥/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه الواحدي بنحوه عن ابن عباس ولم يذكر سنده (أسباب النزول ص٣٠٧).

(٣) البقرة: «٢٦٩».

(٤) الإسراء: «٨٥».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنما تميزتُ عنكم بذلك. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يؤمل حسنَ لقائه أو يخاف سوءَ لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ بأن يُرائِيَه أو يطلب منه أجراً. روي أن جُندُبَ بنَ زهير قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العمل لله فإذا اطُّلعُ عليه سرّني، فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له[١] وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[٢]. والآية جامعة لخُلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ: «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يُصَلّون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يصلون عليه حتى يستيقظ»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ سورةَ الكهف من آخرها كانت له نوراً من قَرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٤].

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٩٩) عن ابن عباس بغير سند.
وأخرجه ابن منده وأبو نعيم في «الصحابة» وابن عساكر ـ كما في «فتح القدير» (٣/٣١٨) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس، فلا يريد به الله، فنزلت الآية. وهذا إسناد مظلم كله كذابون، فالحديث باطل.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بهذا، ومن هذا الوجه. أخرجه الثعلبي، وأبو قاسم الطلحي ـ وهو الأصبهاني: التذكرة (٤/١٢٧٧) ـ في الترغيب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥ رقم ٣٣٣).
ثم قال: وفي الباب عن محمود بن لبيد. ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء» أخرجه أحمد ـ في المسند (٥/٤٢٨) والدارقطني في غرائب مالك، والبيهقي في «الشعب» ـ (٥/٣٣٣ رقم ٦٨٣١) ـ من رواية عمرو بن أبي عمرو بن قتادة عنه. وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني ـ في الكبير (٧/٢٨٩ رقم ٧١٦٠) وابن مردويه. وفي إسناده ابن لهيعة ـ كما في «الكافي الشافِ» رقم (٣٣٣).
وقد تعاقبه يحيى بن أيوب المقابري عند الحاكم (٤/٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: يحيى صدوق فيه مقال. لكن الحديث يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥).
قلت: هو الإسناد الذي تقدم في رقم (٣٣٤) والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩) بلفظ «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها....».
وابن السني في «اليوم والليلة» رقم (٦٧٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٠٥ رقم ٣٣٤) وفي إسناده ابن لهيعة ـ ضعيف من قبل حفظه ـ وأخرجه الطبراني ـ في «الكبير» (٢٠/١٩٧ رقم ٤٤٣) ـ من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زبان بن قائدوهم ضعفاء. والخلاصة أن الحديث ضعيف. =

سورة مريم

ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

سورة مريم مكيةٌ، إلا آيةَ السجدة[1]، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعون آية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أمال أبو عمرٍو الهاءَ لأن أَلِفَاتِ أسماء التهجّي ياءات، وابنُ عامر وحمزةُ اليَاءَ، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافعُ بَيْن بَيْن، ونافع وابنُ كثير وعاصمٌ يُظهرون دالَ الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ ما قبلَه إن أُوِّلَ بالسورة أو بالقرآن فإنه مشتمل عليه، أو خبرُ محذوفٍ أي هذا المتْلوُّ ذكرُ رحمة ربك، أو مبتدأٌ حُذِف خبرُه أي فيما يتلىٰ عليك ذكْرُها. وقرىء ذَكَرَ رحمةَ على الماضي، وذَكِّرْ على الأمر. ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولُ الرحمة أو الذكر، على أن الرحمة فاعلُه على

---

(١) الآية: «٥٨».

(٢) سورة مريم مكية بالإجماع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة مريم بمكة.
[انظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٢ ـ ٧٣)].

الاتّساع كقولك: ذَكّرني جودُ زيد. ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيانٍ له.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيّان والإخفاءُ أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً، أو لئلا يُلام على طلب الولد في إبّان الكِبَر، أو لئلا يَطّلعَ عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضَعْف الهرم أخفىٰ صوتَه. واختُلف في سِنّه حينئذ، فقيل ستون، وقيل سبعون، وقيل خمس وسبعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل تسع وتسعون.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسيرٌ للنداء، والوَهَن الضعف. وتخصيصُ العَظْم لأنه دَعامة البدن وأصلُ بنائه ولأنه أصلبُ ما فيه، فإذا وهَن كان ما وراءه أوهنَ، وتوحيده لأن المراد به الجنسُ. وقرىء وَهُنَ ووَهِنَ بالضم والكسر، ونظيره كَمُل بالحركات الثلاث. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبَّه الشيبَ في بياضه وإنارته بشُواظ النار وانتشارِه، وفشُوَّه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مُخرجَ الاستعارة، وأسند الاشتعالَ إلى الرأس الذي هو مكانُ الشيب مبالغة، وجَعَلَه مميَّزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفىٰ باللام على الإضافة للدِلالة على أن علمَ المخاطَب بتعين المراد يُغني عن التقييد. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتُك استجبتَ لي، وهو توسلٌ بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيهٌ على أن المدعوَّ له وإن لم يكن معتاداً فإجابتُه معتادة، وأنه تعالى عوَّدَه بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يُخيِّب من أطمعه[1].

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ يعني بني عمِّه وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخاف أن لا يُحسِنوا خلافته على أُمته ويُبَدِّلوا عليهم دينهم. ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بعد موتي. وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء. وهو يتعلق بمحذوف، أو بمعنى الموالي أي خفت فِعْل الموالي من ورائي، أو الذين يلُون الأمر من ورائي. وقرىء خَفَّتْ الموالي من ورائي، أي قَلّوا وعجَزُوا عن إقامة الدين بعدي، أو خَفُّوا ودرجوا قُدّامي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بخفتُ. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ فإن مثله لا يُرجىٰ إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامرأتي لا نَصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صُلبي[2].

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صفتان له، وجَزَمَهُما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمرادُ وراثةُ الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال. وقيل يرثني الحُبُورَةَ فإنه كان حَبْراً، ويرثُ من آل يعقوب المُلْك، وهو يعقوبُ بنُ إسحاقَ عليهما الصلاة والسلام. وقيل يعقوب كان أخا زكريا، أو عمرانُ بنُ ماثانَ من نسل سليمانَ عليه السلام. وقرىء يرثني وَأرِثُ آلَ يعقوب على الحال من أحد الضميرين، وأوَ يْرِثُ بالتصغير لصغره، ووَارِثٌ مِنْ آل يعقوب على أنه فاعل يرثني وهذا

(١) والتعرض لوصف الربوبية مع إضافته لضميره عليه السلام لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع (س٥/ ٢٥٤).

(٢) قدم قوله «وكانت امرأتي عاقراً» على قوله «فهب لي..» لكون مدلوله أهم عنده.
وتأخير «ولياً» عن الجارّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٥/ ٢٥٤).

يسمى التجريد في علم البيان لأنه جُرِّد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه قولاً وعملاً[١].

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

(٧) ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ جواب لندائه ووعْدٌ بإجابة دعائه. وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسمَّ أحدٌ بيحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغريبة تنويه للمسمىٰ. وقيل سَمِياً شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[٢] لأن المتماثلين يتشاركان في الاسم، والأظهرُ أنه أعجميٌّ وإن كان عربياً فمنقول عن فِعْلٍ كيعيش ويعمل. وقيل سُمّي به لأنه حَيِيَ به رحِمُ أمه، أو لأن دينُ الله حَيِيَ بدعوته.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جَساوةً وقُحولاً في المفاصل[٣]، وأصله عُتُوٌّ كقعود فاستثقلوا تواليَ الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواوُ الأولى ياء، ثم قُلبت الثانية وأدغمت. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عِتِياً بالكسر، وإنما استَعْجَبَ الولدَ من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ اعترافاً بأن المؤثرَ فيه كمالُ قدرته وأن الوسائطَ عند التحقيق ملغاة[٤]، ولذلك:

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو المَلَك المبلِّغُ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بقال في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارةٌ إلى مبهم يفسره: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هيّن» أي الأمر كما قلتُ أو كما وَعَدتُ وهو على ذلك يهون عليّ، أو كما وعدت وهو عليّ هيِّنٌ لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب. ومفعولُ قال الثاني محذوفٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ معدوماً صرفاً، وفيه دليلٌ على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزةُ والكسائي وقد خلقناك.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ علامةً أعلم بها وقوع ما بشّرتني به. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

---

(١) وتوسيط «رب» بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه (س٥/ ٢٥٥).

(٢) مريم: «٦٥».

(٣) يقال: جسا الشيء يجسو إذا يبس وصلُب. وكذا قَحِل، يقال: قحِل الشيء قَحَلاً إذا يبس جلده على عظمه (المصباح المنير مادة جَسَوَ وقحل).

(٤) لعله عليه السلام ابتدأ ههنا بذكر حال امرأته، بينما في سورة آل عمران قدم ذكر نفسه «قال رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبَر وامرأتي عاقر..» ـ الآية «٤٠» ـ لأنه هنا قد ذَكَر حاله في تضاعيف دعائه. أما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته، لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب (س٥/ ٢٥٦).

﴿النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خرس ولا بَكَم، وإنما ذكر الليالِيَ هنا والأيامَ في آل عمران[1] للدلالة على أنه استمر عليه المنعُ من كلام الناس والتجردُ للذكر والشكر ثلاثةَ أيام ولياليَهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ من المصلىٰ أو من الغرفة. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ إليهم لقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾[2]. وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ صلّوا أونزهوا ربكم. ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبّح ويأمرَ قومه بأن يوافقوه. وأَنْ تَحتَمِل أن تكون مصدرية، وأن تكون مفسِّرة.

(١٢) ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمةَ وفهمَ التوراة، وقيل النبوةَ أحكم الله عقله في صباه واستنبأه.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ورحمةً منّا عليه، أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما. عطْفٌ على الحكم. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ وطهارة من الذنوب، أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه. أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

(١٤) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وباراً بهما. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ من الله. ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

(١٦) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في القرآن. ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ اعتزلتْ، بَدَلٌ من مريم بدلَ الاشتمال لأن الأحيان مشتمِلةٌ على ما فيها، أو بدلُ الكل لأن المراد بمريم قصتُها وبالظرف الأمرُ الواقعُ فيه وهما واحد، أو ظرفٌ لمضاف مقدر. وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شرقيَّ بيتِ المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قِبلة. ومكاناً ظرفٌ أو مفعول، لأن انتبذت متضمن معنى أتت.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ ستراً. ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل قعدت في مُشْرَفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها ـ وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا

---

(١) آل عمران «٤١»: «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً».
(٢) آل عمران: «٤١».

حاضت وتعود إليه إذا طهُرت ـ فبينما هي في مغتسَلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمردَ سويّ الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهييج شهوتها به فتنحدر نطفتها إلى رحمها[١].

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

(١٨) ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة. وجوابُ الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي فإني عائذة منك، أو فتتعظ بتعويذي، أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك؟

(١٩) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به[٢]. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرع[٣]، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرٍو والأكثرِ عن نافع ويعقوبَ بالياء[٤]. ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

(٢٠) ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشِرني رجلٌ بالحلال، فإن هذه الكناياتِ إنما تُطلقُ فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه خَبُثَ بها وفَجَرَ ونحو ذلك، ويعضُده عطْفُ قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فعول من البغي قُلِبت واوُه ياءً وأُدغمت ثم كُسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فعيل بمعنى فاعل ولم تلحقْه التاءُ لأنه للمبالغة، أو للنَّسَب كطالِق.

---

(١) وهذا القول الأخير لا يوافقه مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، وكذا ما بعده حينما استعاذت بالرحمٰن.. ولا يوجد ما يدل على أنه عليه السلام جاءها وهي تغتسل فاتخاذها للحجاب لا يعني للغسل فإنه كان من عادتها الخلوة للعبادة، يدل عليه قوله تعالى «كلما دخل عليها زكريا المحراب..».

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها، والإشعارِ بعلة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها (س٥/ ٢٦٠).

(٣) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٤١): «أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» [التحريم: ١٢] وقال «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا» [الأنبياء: ٩١]. والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً» ولا ينافي ذلك إسنادُ الله جلّ وعلا النفخَ المذكور لنفسه في قوله «فنفخنا» لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه بمشيئته جلّ وعلا ـ أسنده إلى نفسه ـ والله تعالى أعلم.
ـ وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط. بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل» هـ.

(٤) أي «لِيَهَبَ».

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ أي ونفعلُ ذلك لنجعلَه آيةً، أو لنبيِّن به قدرتَنا ولنجعله، وقيل عَطْفٌ على ليهَبَ على طريقة الالْتفات. ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاءُ الله في الأزل، أو قدِّر وسطر في اللوح، أو كان أمراً حقيقاً بأن يُقضىٰ ويُفعل لكونه آية ورحمة.

(٢٢) ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾ بأنْ نَفَخَ في دِرعها فدخلت النفخةُ في جوفها وكان مدةُ حملها سبعةَ أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعِش مولودٌ وضع لثمانية غيرُه، وقيل ساعةً كما حملته نبذته. وسِنُّها ثلاثَ عشرة سنة، وقيل عشر سنين[١]، وقد حاضت حيضتين. ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله: تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَرِيبَا. والجارّ والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار.

(٢٣) ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فألجأها المخاض، وهو في الأصل منقول من جاء، لكنه خُصّ به في الاستعمال كآتىٰ في أعطىٰ. وقرىء المِخَاضُ بالكسر، وهما مصدر مَخَضَت المرأةُ إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمدَ عليه عند الولادة، وهو ما بين العِزق والغُصن، وكانت نخلةً يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء. والتعريفُ إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثَمَّ غيرُها، وكانت كالمتعالَم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريَها من آياته ما يُسْكِن روعتها ويُطعمها الرطَب الذي هو خُرْسَةُ[٢] النَفَساء الموافقةُ لها. ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ استحياءً من الناس ومخافةَ لومهم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر مُتُّ من مات يموت. ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما من شأنه أن يُنسىٰ ولا يُطلب، ونظيرُه الذِّبْحُ لما يُذبح. وقرأ حمزةُ وحفصٌ بالفتح[٣]، وهو لغةٌ فيه أو مصدرٌ سمي به، وقرىء به وبالهمز[٤] وهو الحليب المخلوط بالماء يَنْسؤُه أهلُه لقلته. ﴿مَّنسِيًّا﴾ مَنسِيَّ الذكر بحيث لا يَخطر ببالهم. وقرىء بكسر الميم على الإتْباع.

---

(١) قال سيد قطب رحمهُ الله في «الظلال» (٤/٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧): «إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تُكسىٰ العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية... كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكوّن الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة... ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها...» هـ.

(٢) خُرسة النفساء أي طعامُها (المصباح المنير مادة خرس).

(٣) أي بفتح النون «نَسْياً» بينما قرأ الباقون بكسر النون.

(٤) القراءة بالهمز أي (نِسْئاً ونَسْأً) بفتح النون وكسرها.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يَقْبَلُ الولد، وقيل تحتها أسفلَ من مكانها. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي وحفصٌ وروْحٌ مِنْ تحتِها بالكسر والجر على أن في نادى ضميرَ أحدهما، وقيل الضمير في تحتها النخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جَدْولاً، هكذا روي مرفوعاً[1]. وقيل سرياً من السَّرْوَ[2] وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٥) ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وأميليه إليك والباءُ مزيدة للتأكيد، أو افعلي الهز والإمالة به، أو هُزي الثمرة بهزّه. والهزّ تحريك بجذب ودفع. ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ تتساقط فأدغمت التاءُ الثانية في السين، وحَذَفَها حمزةُ[3]، وقرأ يعقوب بالياء[4]، وحفص تُسَاقِطْ من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرىء تَتَساقطْ وتُسْقِطْ ويُسْقِطْ فالتاء للنخلة والياء للجذع. ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تمييز أو مفعول. روي أنها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ثمرَ وكان الوقت شتاءً، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخُوصاً ورُطباً. وتسليتُها بذلك لما فيه من المعجزات الدالةِ على براءة ساحتها، فإن مثلَها لا يُتصور أن يرتكب الفواحش، والمنبهةِ لمن رآها على أن من قدَر أن يُثمر النخلة اليابسةَ في الشتاء قدَر أن يُحْبِلها من غير فحل، وأنه ليس ببِدْعٍ من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام، ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

(٢٦) ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ أي من الرطب وماء السَّرِيّ، أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ وطيّبي نفسك وارفُضي عنها ما أحزنك، وقرىء وقِرِّي بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقُه من القَرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القَرِّ فإنّ دمعةَ السرور باردةٌ ودمعةَ الحزن حارةٌ ولذلك يقال قُرّةُ العين للمحبوب، وسُخنتُها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإنْ تريْ آدمياً. وقرىء تَرَئِنّ على لغة من يقول لَبَأْتُ[5] بالحج لتآخ بين الهمزة وحرف اللّين. ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ صمتاً، وقد قرىء به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتُكم بنَذْري، وإنما أكلم الملائكةَ وأُناجي ربي. وقيل أخبرتْهم بنذرها بالإشارة، وأَمَرَها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطعٌ في قَطْع الطاعن.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/٦٩) والحاكم (٢/٣٧٣) وعبدالرزاق وابن مردويه في تفسيرهما (الفتح السماوي ص٨١١) كلهم موقوفاً على البراء بن عازب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وأخرج نحوه مرفوعاً الطبراني في الكبير (١٢/٣٤٦ ح١٣٣٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٤٦) في ترجمة عكرمة. وفي سنده أيوب بن نهيك وهو ضعيف.

(٢) والسَّرْو سخاءٌ في مروءة (مختار الصحاح مادة سرا).

(٣) قراءة حمزة «تَسَاقَطْ» بالتاء خفيفة السين.

(٤) قراءة يعقوب «يَسَّاقَطْ» بالياء مشددة السين.

(٥) لَبَأْتُ بالحج أي لَبَّيْتُ مِنَ التلبية.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعةً إليهم بعد ما طهُرت من النفاس. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حاملةً إياه. ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكَراً، من فَرَىٰ الجلدَ[1].

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت من أعقاب مَنْ كان معه في طبقة الإخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألفُ سنة، وقيل هو رجل طالح أو صالح كان في زمانهم شبّهوها به تهكماً، أو لما رأوا قبلُ من صلاحها، أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأن ما جاءت به فَرِيّ، وتنبيه على أن الفواحشَ من أولاد الصالحين أفحشُ.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، أي كَلِّمُوه ليجيبَكم. ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نعهد صبياً في المهد كلمه عاقلٌ. وكان زائدةٌ، والظرفُ صلةُ مَنْ، وصبياً حالٌ من المستكنّ فيه، أو تامةٌ أو دائمة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2] أو بمعنى صار.

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أولُ المقامات، وللرد على من يزعُم ربوبيتَه. ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً معلِّماً للخير، والتعبيرُ بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقَّق وقوعُه كالواقع. وقيل أكمل الله عقلَه واستنبأه طفلاً. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ حيث كنت. ﴿وَأَوْصَٰنِى﴾ وأمرني. ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاةِ المال إن ملكتُه، أو تطهيرِ النفس عن الرذائل. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ وباراً بها، عطفٌ على مباركاً. وقرىء بالكسر، على أنه مصدرٌ وُصِف به، أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني بِراً، ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على الصلاة. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عند الله من فَرْط تكبره.

(٣٣) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو علىٰ يحيىٰ. والتعريفُ للعهد والأظهرُ أنه للجنس. والتعريضُ باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنسَ السلام على نفسه عرَّضَ بأنّ ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[3] فإنه تعريضٌ بأن العذاب على من كذّب وتولىٰ.

---

(١) وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب (س٥/ ٢٦٣).

(٢) النساء: «١٧».

(٣) طه: «٤٧».

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي الذي تقدم نعتُه هو عيسى بنُ مريم لا ما يَصِفه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونه على الوجه الأبلغ والطريقِ البرهانيِّ حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خبر محذوف أي هو قولُ الحق الذي لا ريب فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفةُ عيسى أو بدلٌ أو خبر ثانٍ ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصمٌ وابن عامر ويعقوبُ قولَ بالنصب على أنه مصدر مؤكد، وقرىء قالَ الحقِّ وهو بمعنى القول. ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهودُ ساحر وقالت النصارى ابنُ الله. وقرىء بالتاء على الخطاب.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ لله تعالى عما بَهَتُوه. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ لهم، فإن مَنْ إذا أراد شيئاً أوجده بِكُنْ كان منزَّهاً عن شَبَه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث. وقرأ ابن عامر فيكونَ بالنصب على الجواب.

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. وقرأ الحجازيانِ والبصْريان وأنّ بالفتح على: ولأنّ، وقيل إنه معطوف على الصلاة.

(٣٧) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ اليهود والنصارى. أو فِرقُ النصارى، نسطورية قالوا إنه ابن الله، ويعقوبيةٌ قالوا هو اللهُ هبط إلى الأرض ثم صَعِد إلى السماء، ومَلْكانية قالوا هو عبدالله ونبيه. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هَوْلُه وحسابُه وجزاؤه وهو يوم القيامة، أو من وقت الشهود، أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أنْ تشهد عليهم الملائكةُ والأنبياء وألسنتُهم وآرابُهم[2] وأرجلُهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمِّه.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجبٌ معناه أنّ أسمَاعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُتعجَّب منهما بعدَما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديدُ بما سيسمعون ويبصرون يومئذ، وقيل أَمْرٌ بأن يُسْمِعَهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يَحيق بهم فيه. والجارُّ والمجرور على الأول في موضع الرفع، وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَوْقَعَ الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بَيّن.

---

(١) آل عمران: «٥١».

(٢) آرابهم أي أعضاؤهم، فإن الإرْبَ يستعمل في الحاجة وفي العضو (المصباح المنير مادة أرب).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس، المسيءُ على إساءته والمحسنُ على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدلٌ من اليوم أو ظرفٌ للحسرة. ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ متعلقة بقوله «في ضلال مبين» وما بينهما اعتراضٌ. أو بأنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلْكٌ ولا مَلِك، أو نتوفَّى الأرضَ ومَنْ عليها بالإفناء والإهلاك تَوفّيَ الوارثِ لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُردون للجزاء.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صَدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسلِه. ﴿نَّبِيًّا﴾ استنبأه الله.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من إبراهيم، وما بينهما اعتراضٌ، أو متعلق بكان أو بصديقاً نبياً. ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ التاءُ معوَّضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا، وإنما تُذْكَر للاستعطاف ولذلك كرّرها. ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيَعْرِفَ حالَك ويسمعَ ذِكْرك ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جلب نفعٍ أو دفع ضُر. دعاه إلى الهدى وبيّن ضلاله واحتج عليه أبلغَ احتجاج وأرشقَه برفق وحُسن أدب، حيث لم يصرِّح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يَستخِف به العقلُ الصريح ويأبى الركونَ إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غايةُ التعظيم، ولا تَحِقُّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام، وهو الخالق الرازقُ المحيي المميتُ المعاقبُ المُثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يَفعلُ لغرض صحيح، والشيءُ لو كان حياً مميِّزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر ـ ولكن كان مُمْكِناً ـ لاستنكف العقلُ القويم عن عبادته وإن كان أشرفَ الخلق كالملائكة والنبيين، لِما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟! ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهدِيَه إلى الحق القويم والصراطِ المستقيم لمَا لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي، فقال:

(٤٣) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ولم يُسَمِّ أباه بالجهل المُفْرِط ولا نفسَه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرفَ بالطريق، ثم ثبّطه عما كان عليه بأنه ـ مع خُلوّه عن النفع ـ مستلزمٌ للضر، فإنه في الحقيقة عبادةُ الشيطان من حيث إنه الآمرُ به، فقال:

(٤٤) ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ولما استهجن ذلك بيّن وجهَ الضر فيه بأن الشيطان مستعصٍ على ربك المولي للنعم كلِّها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاصٍ حقيقٌ بأن تُستَردَّ منه النعم ويُنتقَمَ منه[1]، ولذلك عقبه بتخويفه سوءَ عاقبته وما يجرّ إليه فقال:

---

(١) قوله «إن الشيطان» حيث أظهر «الشيطان» في موضع الإضمار لزيادة التقرير. =

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ قريناً في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبرُ من العذاب كما أن رِضوان الله أكبرُ من الثواب. وذِكْرُ الخوف والمسّ وتنكيرُ العذاب إما للمجاملة، أو لخفاء العاقبة. ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جناياته لارتقاء همته في الربانية، أو لأنه مَلاكُها، أو لأنه من حيث إنه نتيجةُ معاداته لآدمَ وذريته مُنَبِّهٌ عليها[1].

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ قابَلَ استعطافه ولطفَه في الإرشاد بالفظاظة وغِلْظة العِناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبتي بيا بُنَيّ، وأخّره وقدّم الخبرَ على المبتدأ وصدّره بالهمزة لإنكار نفسِ الرغبة على ضربٍ من التعجب كأنها مما لا يَرْغَب عنها عاقل، ثم هدّده فقال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبةِ عنها. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني يعني الشتمَ والذم، أو بالحجارة حتى تموت أو تبعُد مني. ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ عطفٌ على ما دل عليه لأرجمنك أي فاحذرني واهجرني. ﴿مَلِيًّا﴾ زماناً طويلاً مِنَ المَلاوة، أو ملياً بالذهاب عني.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ ومقابَلةٌ للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بَعْدُ ما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقةَ الاستغفار للكافر استدعاءُ التوفيق لما يوجب مغفرته. وقد مر تقريره في سورة التوبة[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ بليغاً في البرّ والإلْطاف.

(٤٨) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني. ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ خائباً ضائعَ السعي مثلَكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى التواضعُ وهضمُ النفس، والتنبيهُ على أن الإجابة والإثابة تفضّلٌ غيرُ واجبتين، وأن مَلاكَ الأمرِ خاتمتُه وهو غيبٌ.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ مَنْ فارقهم مِنَ الكفرة. قيل إنه لما قصد الشامَ أتى أولاً حَرّان وتزوج بسارةَ، وولدت له إسحاقَ ووُلد منه يعقوبُ. ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء، أو لأنه أراد أن يَذْكُر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وكلاً منهما أو منهم.

= والتعرض لوصف الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه (س٥/ ٢٦٧).

(١) إظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب (س٥/ ٢٦٧).

(٢) التوبة: ﴿٨٠﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوةَ والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناسُ ويُثنون عليهم، استجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1]. والمرادُ باللسان ما يوجَدُ به، ولسانُ العرب لغتُهم. وإضافتُه إلى الصدق وتوصيفُهُ بالعلو للدلالة على أنهم أحِقاءُ بما يُثنون عليهم، وأن محامدهم لا تَخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدّل الملل.

(٥١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحّداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه. وقرأ الكوفيون بالفتح[2] على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدِّم رسولاً مع أنه أخلصُ وأعلى.

(٥٢) ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنىٰ من اليمين وهي التي تلي يمين موسى، أو من جانبه الميمون من اليمين بأن تمثل له الكلامُ من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريبَ تشريف، شبّهه بمن قرَّبه الملِكُ لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً، حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النَّجْوة وهو الارتفاع، لِما روي أنه رُفِع فوق السموات حتى سمع صريرَ القلم.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا، أو بعضِ رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضَدةَ أخيه ومؤازرته إجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[3] فإنه كان أسنَّ من موسى، وهو مفعول أو بدلٌ على تقدير أن تكون مِنْ للتبعيض ﴿هَارُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

(٥٤) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذَكَره بذلك لأنه المشهورُ به والموصوفُ بأشياءَ في هذا الباب لم تُعهد من غيره، وناهيك أنه وَعَدَ الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[4] فوفّى[5] ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيمَ كانوا على شريعته.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يُقْبِلَ الرجلُ على نفسه ومَنْ هو أقربُ الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[6]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

---

(١) الشعراء: «٨٤».
(٢) أي بفتح اللام «مُخْلَصاً».
(٣) طه: «٢٩».
(٤) الصافات: «١٠٢».
(٥) فَصَل ذِكْرَه عن ذِكْر أبيه وأخيه فأورده منفرداً لإبراز كمال الاعتناء بأمره (س٥/ ٢٧٠).
(٦) الشعراء: «٢١٤».

بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[١]. ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[٢]. وقيل أهْلُه أمتُه، فإن الأنبياء آباءُ الأمم. ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامة أقواله وأفعالِه.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ وهو سِبْطُ شيثٍ وجدّ أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أَخنوخُ، واشتقاقُ إدريسَ من الدرس يرده منعُ صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دَرْسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أولُ من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾.

(٥٧) ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرفَ النبوة والزلفىٰ عند الله، وقيل الجنةُ، وقيل السماءُ السادسة أو الرابعة.

(٥٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام. ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بأنواع النعم الدينيةِ والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول. ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون مِنْ فيه للتبعيض لأن المنعَم عليهم أعمُّ من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ أي ومن ذرية مَنْ حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريسَ فإن إبراهيم كان من ذرية سامِ بنِ نوح. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم أي ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ ومن جملة مَنْ هديناهم إلى الحق. ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ خبر لأولئك إن جعلتَ الموصولَ صفتَه، واستئنافٌ إن جعلته خبرَه لبيان خشيتهم من الله وإخباتِهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمالِ النفس والزلفىٰ من الله تعالى. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «اُتلوا القرآن وابكُوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[٣]. والبُكِيُّ جمع باكٍ كالسجود في جمع ساجد. وقرىء يُتلىٰ بالياء لأن التأنيث غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي بِكِيّاً بكسر الباء.

(٥٩) ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ فعقبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوْء، يقال خَلَفٌ صدقٌ ـ بالفتح ـ

---

(١) طه: «١٣٢».

(٢) التحريم: «٦».

(٣) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٢٤ رقم ١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣١) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٤٩ ـ ٥٠ رقم ١/ ٦٨٩) من حديث سعد بن أبي وقاص.
قال البوصيري في (مصباح الزجاجة) (١/ ٢٤٠ رقم ٤٧٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك...» هـ.
فالحديث ضعيف، وكذلك ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة.

وخلْفٌ سوءٌ ـ بالسكون ـ. ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مَنْ بنىٰ الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ شراً كقوله:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ وَمَـنْ يَغْـوِ لاَ يعْـدَمْ عَلَـى الغَـيِّ لاَئِمـاً

أو جزاءَ غيٍّ كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[1] أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو وادٍ في جهنم يستعيذ منه أوديتُها[2].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يدل على أن الآي في الكفرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمروٍ وأبو بكر ويعقوبُ على البناء للمفعول من أُدْخِلَ. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا يُنقَصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن ينتصب شيئاً على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابقَ لا يضرهم ولا يُنقص أجورَهم.

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الجنةَ بدلَ البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف. وعَدْن[3] عَلَمٌ لأنه المضاف إليه في العَلَم، أو عَلَمٌ للعَدْن بمعنى

---

(١) الفرقان: «٦٨».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٤) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٠ و٤٧١) وهنّاد في «الزهد» رقم (٢٧٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم (٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج٦/ ١٠٠) والطبراني في الكبير (٢٥٩/٩ رقم ٩١٠٦ ـ ٩١١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٦/٤) كلهم عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه. وليس عند أيهم قوله «تستعيذ منه أوديتها». وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. ومع ذلك قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

● وله شاهد من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «غي وأثام نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكر الله في كتابه «فسوف يلقون غياً» «ومن يَفعل ذلك يلقَ أثاماً».

ـ أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (رقم: ٣٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٠٠) والدولابي في «الكنى» (١/ ١٣) والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠٦ رقم ٧٧٣١) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٤).

ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣٨٩/١٠) وقال: «رواه الطبراني وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون» هـ.

والخلاصة أن حديث أبي أمامة ضعيف.

● ولأثر ابن مسعود شاهد من قول عائشة أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٢٦٢) والبراء بن عازب عند البيهقي في «البعث» وشفي بن ماتع عند المروزي في الصلاة (رقم: ٣٨).

والخلاصة أن تفسير الغي بواد في جهنم ثابت مرفوعاً وموقوفاً، نظراً إلى الشواهد.

(٣) ظاهر السياق أن عدن ـ على تلك القراءة ممنوعة من الصرف لنقلها من المصدر إلى العلمية، كسحَر لو قصد بها =

الإقامة كَبَرَّةَ، ولذلك صح وصْفُ ما أضيف إليه بقوله: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل هو مِنْ أتىٰ إليه إحساناً أي مفعولاً مُنْجَزاً.

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلام. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يَسْلَمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليمَ الملائكة عليهم، أو تسليمَ بعضهم على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

أو على أن معناه الدعاءُ بالسلامة وأهلُها أغنياءُ عنه، فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدتُه الإكرامُ. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغابة، وقيل المراد دوامُ الرزق ودُرورُه.

(٦٣) ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ نُبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مالُ مورِّثه، والوراثةُ أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تُعْقَبُ بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل بردّ ولا إسقاط. وقيل يُورَّثُ المتقون من الجنة المساكنَ التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادةً في كرامتهم. وعن يعقوب نُوَرِّثُ بالتشديد.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قول جبريلَ عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدرِ ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون وَدّعه ربُّه وقَلاه، ثم نزل ببيان ذلك[2]. والتنزُّل النزولُ على مَهْل لأنه مُطاوِع نزّل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما ننزل وقتاً غِبَّ وقتٍ إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته. وقرىء وما يَتَنَزَّلُ بالياء، والضميرُ للوحي. ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايينِ لا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

= سحرٌ بعينه معروف مُنِع، ومنه القراءة «إلاّ آل لوط نجيناهم بسحَر». هذا ما بدا لي، والله به أعلم.

(١) البيت من الطويل.
وهو توجيه لطيف جداً للآية المجيدة، وهذا من قبيل ما يعرف ـ في البلاغة ـ بالمدح بما يشبه الذم، كبيت النابغة الشهير، فإن فلول السيوف ليس عيباً لأنه دليل الشجاعة وخوض المعارك.
ـ والمعنى نفسه في قوله ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش... وقريش مشهورة بفصاحتها ورقة لغتها.

(٢) سبق تخريجه عند الآية «٢٤» من سورة الكهف و«٨٥» من سورة الإسراء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

﴿نَسِيًّا﴾ تاركاً لك، أي ما كان عدمُ النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكَفَرةُ وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقيل أولُ الآية حكايةُ قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما نَتنزلُ الجنة إلا بأمر الله ولطفه، وهو مالكُ الأمور كلِّها السالفةِ والمترقَّبةِ والحاضرة فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله. وقولُه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير من الله لقولهم، أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها. وقولُه:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

(٦٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه، وهو خبر محذوف أو بدلٌ من ربك ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب عليه، أي لمّا عرفت ربك لأنه لا ينبغي له أن ينساك، أو أعمال العمال فأَقْبِل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهُزء الكفر. وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورِد عليه من الشدائد والمشاق، كقولك للمحارب: اصطبر لقِرْنك. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مَثَلاً يستحق أن يُسمىٰ إلهاً، أو أحداً سُمِّي الله فإن المشركين وإن سمَّوا الصنمَ إلهاً لم يسمُّوه اللهَ قطُّ، وذلك لظهور أَحَديَّته تعالى، وتعالى ذاتِه عن المماثلة بحيث لم يقبل اللَّبْس والمكابرة، وهو تقرير للأمر أي إذا صح أنْ لا أحدَ مِثْلُه ولا يستحق العبادة غيرُه لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغالِ بعبادته والاصطبار على مشاقها.

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المرادُ به الجنسُ بأسره فإن المقولَ مقولٌ فيما بينهم وإن لم يقله كلُّهم، كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتلُ واحد منهم. أو بعضُهم المعهود وهم الكفرة أو أُبيُّ بنُ خلف[1] فإنه أخذ عظاماً بالية ففتّها وقال: يزعمُ محمد أننا نُبعث بعدما نموت. ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض أو من حال الموت. وتقديمُ الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لأن المنكَر كونُ ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دل عليه أُخرَج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، وهي ههنا مُخَلَصةٌ للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلَصت الهمزةُ واللام في يا ألله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وروي عن ابن ذَكْوانَ إذا ما مِتُّ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على يقول. وتوسيطُ همزة الإنكار بينه وبين العاطف ـ مع أن الأصل أن يتقدمهما ـ للدلالة على أن المنكَر بالذات هو المعطوف، وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه، فإنه لو تذكر وتأمل ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كان عَدَماً صِرفاً لم يقل ذلك، فإنّه أعجبُ من جمع

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٠١) عن الكلبي.
وانظر «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٣١).

المواد بعد التفريق وإيجادِ مِثْلِ ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وعاصم وقالونُ عن يعقوب يَذْكُرُ من الذِّكْر الذي يراد به التفكر، وقرىء يَتذكَّر على الأصل.

(٦٨) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف أو مفعول معه، لما روي أن الكفرةَ يُحشرون مع قُرَنائهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلٌّ مع شيطانه في سِلْسلة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرةُ مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ ليَرىٰ السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادّخروا لِمَعادهم عِدّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿جِثِيًّا﴾ على ركبهم لما يدهَمهم من هول المَطْلع، أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهلُ الموقف جاثون لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[١] على المعتاد في مواقف التقاول. وإن كان المرادُ بالإنسان الكفرةَ فلعلهم يُساقون جُثاةً من الموقف إلى شاطىء جهنمَ إهانةً بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص جِثِياً بكسر الجيم.

(٦٩) ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ مَن كان أعصى وأعتى منهم فنطرحُهم فيها، وفي ذكر الأشدِّ تنبيهٌ على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميِّز طوائفَهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يُدخِل كلاًّ طبقتَها التي تليق به. وأيُّهم مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبنىٰ كسائر الموصولات، لكنه أُعْرِب حملاً على كلّ وبعض للزوم الإضافة، وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوبَ المحل بننزعنّ، ولذلك قرىء منصوباً. ومرفوعٌ عند غيره إما بالابتداء على أنه استفهامي وخبرُه أشدّ والجملةُ محكية وتقديرُ الكلام: لننزعن من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد؛ أو معلَّقٌ عنها لننزعن لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعلم؛ أو مستأنَفَةٌ والفعل واقعٌ على «مِنْ كل شيعة» على زيادة مِنْ؛ أو على معنى لننزعن بعضَ كل شيعة، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيّع، وعلىٰ للبيان أو متعلق بأَفْعَل، وكذا الباء في قوله:

(٧٠) ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي لنحن أعلمُ بالذين هم أولى بالصَّلْي، أو صِلِيُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون، ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساءُ الشيَع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالِهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُ وحفصٌ صِلِيّاً بكسر الصاد.

(٧١) ﴿ وَإِن مِّنكُمْ﴾ وما منكم، التفات إلى الإنسان، ويؤيده أنه قرىء وإنْ منهم. ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلا واصلُها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ قال بعضهم لبعض: أليس قد وَعَدَنا ربُّنا أن نَرِد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة»[٢] وأما قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا

---

(١) الجاثية: «٢٨».

(٢) لم يثبت رفعه ولكنه مروي من قول خالد بن معدان وهو تابعي كبير، وقد رواه عنه عبدالله بن المبارك في الزهد

مُبۡعَدُونَ﴾[1] فالمراد عن عذابها. وقيل ورودُها الجوازُ على الصراط فإنه ممدود عليها. ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا﴾ كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به، بأن وعَدَ به وعداً لا يمكن خُلْفه. وقيل أقسم عليه.

ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فيساقون إلى الجنة. وقرأ الكسائي ويعقوب نُنْجي بالتخفيف، وقرىء ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجُثوُّ حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفَجَرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرةُ فيها منهاراً بهم على هيئاتهم.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ مرتَّلاتِ الألفاظ مبيناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ وواضحاتِ الإعجاز. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأجلهم أو معهم. ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ المؤمنين والكافرين. ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ موضعَ قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزل. ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ مجلساً ومجتمعاً. والمعنى أنهم لما سمعوا الآياتِ الواضحات وعجَزوا عن معارضتها والدخل عليها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلالِ بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمِهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

(٧٤) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ وكم مفعول أهلكنا، ومِنْ قرن بيانُه، وإنما سُمي أهلُ كل عصر قرناً ـ أي مقدّماً ـ مِنْ قَرْنِ الدابة وهو مقدمُها لأنه يتقدم مَنْ بعده، وهم أحسنُ صفةٌ لِكَمْ، وأثاثاً تمييز عن النسبة. وهو متاع البيت، وقيل هو لما جَدّ منه والخَرْثيُّ ما رَثَّ والرئيُ المَنْظَر فِعْلٌ مِنَ الرؤية لما يُرىٰ كالطِّحن والخِبْز. وقرأ نافع وابن عامر رِيّاً على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الرِّيّ الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر ريئاً على القلب، وقرىء رِيَاً بحذف الهمزة، وزِيّاً من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة. ثم بيّن أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام، وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

(٧٥) ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ فيَمُدّه ويُمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أَخرَجَه

= (ص١٢٢ رقم ٤٠٧) وأبو عبيدالقاسم بن سلام في الغريب (٤/٣٤٧ مادة أهل) وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٥٦١) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٢) في ترجمة خالد بن معدان.
وهذا الأثر صحيح السند (تخريج الكافي الشافِ ص٨١٨) ص٥٩٨ (١).

(١) الأنبياء: ﴿١٠١﴾.

على لفظ الأمر إيذاناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره[1] كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾[2] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[3] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المدّ. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا، أيْ قالوا أيُّ الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود، فإنه إما العذابُ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبُهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدّروه وعاد ما مُتِّعوا به خُذْلاناً ووبالاً عليهم، وهو جواب الشرط، والجملة محكية بعد حتى. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئةً وأنصاراً، قابل به أحسن ندياً من حيث إن حُسْن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانِهم وظهورِ شوكتهم واستظهارِهم.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول، كأنه لما بيّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعوّضه منه. وقيل عطفٌ على فليمدد، لأنه في معنى الخبر كأنه قيل مَنْ كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابِلَ له هداية. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقىٰ عائدتُها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدةً مما مُتِّع به الكفرة من النعم المخدَجَة[4] الفانية التي يفتخرون بها، سِيَّما ومآلُها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرةُ والعذابُ الدائم كما أشار إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ والخير ههنا إما لمجرد الزيادة، أو على طريقة قولهم الصيفُ أحرّ من الشتاء أي أبلغُ في حرّه منه في بَرده[5].

(٧٧) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل، كان لخبّاب عليه مالٌ فتقاضاه فقال له: لا حتى تكفر بمحمد، فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك[6]. ولما كانت الرؤيةُ أقوى سَنَدِ الإخبار

(١) وصفهم بالتمكّن «كان في...» لذمهم والإشعار بعلة الحكم (س٥/ ٢٧٧).
(٢) آل عمران: «١٧٨».
(٣) فاطر: «٣٧».
(٤) المخدَجة أي الناقصة.
(٥) وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها (س٥/ ٢٧٨).
(٦) أخرجه البخاري (٤/ ٣١٧ رقم ٢٠٩١) و(٤/ ٤٥٢ رقم ٢٢٧٥).

استُعمل أرأيتَ بمعنى الإخبار، والفاءُ أصلُها في التعقيب والمعنى: أَخبِرْ بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك. وقرأ حمزة والكسائي وُلْداً وهو جمع وَلَد كأسد في أُسْد، أو لغةٌ فيه كالعَرَب والعُرْب.

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أقَدْ بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عِلْم الغيب الذي توحّدُ به الواحد القهار، حتى ادعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألّىٰ عليه. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يُتَوصّلُ إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين. وقيل العهْد كلمة الشهادة والعمل الصالح، فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه[(١)].

(٧٩) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وتنبيه على أنه مخطىء فيما تصوره لنفسه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنُظهر له أنا كتبنا قوله، على طريقة قوله * إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ * أي تبيّن أني لم تلدني لئيمة. أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(٢)]. ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ ونُطوّل له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعفُه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلت عظمته، ولذلك أكده بالمصدر دلالةً على فرط غضبه عليه.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة. ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثَمَّ زائداً. وقيل فرداً رافضاً لهذا القول منفرداً عنه.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وُصلة إلى الله وشفعاءَ عنده.

(٨٢) ﴿كَلَّآ﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[(٣)]. أو سينكر الكفرةُ لسوء العاقبة أنهم عبدوها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(٤)] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يؤيد الأول إذا فُسِّر الضد بضد العزّ أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها. وتوحيدُه لوحدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «وهم يَدٌ على من سواهم»[(٥)]. وقرىء كَلًّا بالتنوين على قلب الألف نوناً في الوقف قَلْبَ

= و(٥/ ٧٧ رقم ٢٤٢٥) و(٨/ ٤٢٩ رقم ٤٧٣٢) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٣) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٤) و(٨/ ٤٣١ رقم ٤٧٣٥).
ومسلم (٤/ ٢١٥٣ رقم ٣٥، ٣٦/ ٢٧٩٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٣٤٢) والترمذي (٥/ ٣١٨ رقم ٣١٦٢) عن حديث خباب بن الأرت.

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيثار ما يدعيه (س٥/ ٢٧٩).
(٢) قٓ: «١٨».
(٣) البقرة: «١٦٦».
(٤) الأنعام: «٢٣».
(٥) وهو جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧٠ رقم ٤٥٣١) وابن ماجة (٢/ ٨٩٥ رقم ٢٦٨٥) وأحمد (٢/ ١٨٠،

ألف الإطلاق في قوله:

أَقِلِي اللَّوْمَ عَاذِلُ وَالعِتَابَنْ

أو على معنى كلَّ هذا الرأيُ كلاً، وكُلاً على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

(٨٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بأنْ سلَّطْناهُم عليهم أو قيضنا لهم قُرَناء. ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ تهزهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمِهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

(٨٤) ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم. ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ﴾ أيام آجالهم. ﴿ عَدًّا ﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ محصورة وأنفاس معدودة.

(٨٥) ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ نجمعهم. ﴿ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿ وَفْدًا ﴾ وافدين عليه كما يَفِد الوُفّاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

(٨٦) ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ كما تساق البهائم. ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ عِطاشاً فإن مَنْ يَرد الماء لا يرده إلا لعطش، أو كالدواب التي ترد الماء.

(٨٧) ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ الضميرُ فيها للعباد المدلولُ عليها بذكر القِسْمَين، وهو الناصب لليوم. ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ إلا من تحلىٰ بما يُسْتَعَدُّ به ويَستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى: ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[1] من قولهم: عَهِد الأمير إلى فلان بكذا إذا أَمَرَهُ به. ومحله الرفعُ على البدل من الضمير، أو النصبُ على تقدير مضاف أي إلا شفاعةَ من اتخذ، أو على الاستثناء. وقيل الضمير

= ٢١١، ٢١٥) كلهم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

● وأخرجه أبو داود (٤/ ٦٦٦ ـ ٦٦٩ رقم ٤٥٣٠) والنسائي (٨/ ١٩ ـ ٢٠ رقم ٤٧٣٤) وأحمد (١/ ١٢٢) وأبو يعلى (١/ ٢٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٩) كلهم من حديث علي رضي الله عنه.

● وحديث علي له طريق آخر أخرجه أحمد (١/ ١١٩) وابنه في زوائده (١/ ١٢٢) والنسائي (٨/ ٢٤ رقم ٤٧٤٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح. وانظر الإرواء (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ رقم ١٠٥٨).

(١) طه: «١٠٩».

للمجرمين، والمعنى: لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

(٨٨) ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ الضميرُ يَحتمل الوجهين، لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن يُنسب إليهم.

(٨٩) ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى. والإدُّ - بالفتح والكسر - العظيمُ المنكرُ، والإدّةُ الشدّة، وأدّني الأمرُ وآدَني أثقلني وعظمُ عليَّ.

(٩٠) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب يَنْفَطِرْن، والأول أبلغ لأن التفعُّل مُطاوعُ فَعَّلَ والانفعَالُ مطاوعُ فَعَلَ ولأن أصل التفعّل التكلف. ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ تَهُدّ هداً أو مهدودة أو لأنها تَهِدُّ أي تكسِر، وهو تقرير لكونه إدّاً، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تُصُوِّرت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتتت من شدتها، أو أن فظاعتها مُجْلِبة لغضب الله بحيث لولا حِلمه لخَرِب العالم وبدد قوائمه غضباً علىٰ مَنْ تفوه بها.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يَحتمل النصب على العلة لِتَكادُ أو لهدّاً على حذف اللام وإفضاء الفعل إليه، والجرَّ بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه، والرفعَ على أنه خبرُ محذوف تقديره الموجِبُ لذلك أن دعوْا، أو فاعلَ هدّاً أي هدها دعاء الولد للرحمن، وهو مِنْ دعا بمعنى سمّىٰ المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دَعَىٰ له ولداً، أو مِنْ دعا بمعنى نَسَبَ الذي مطاوِعُه ادّعىٰ إلىٰ فلان إذا انتسب إليه.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً له مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمةٌ ومُنْعَم عليه فلا يجانِسُ مَنْ هو مَبْدَأُ النعم كلها ومُولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذه ولداً؟! ثمّ صرح به في قوله:

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرىء آتٍ الرحمنَ على الأصل.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الأتباع والأنصار فلا يجانسُه شيء من ذلك ليتخذه ولداً ولا يناسبه ليشرك به.

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبُّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»[1]. والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دَجَا الإسلامُ، أو لأن الموعود في القيامة حين تُعْرَض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل[2].

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن يسَّرْناه معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أشداءَ الخصومة آخذين في كل لَدِيد، أي شقٍّ من المراء لِفَرط لَجَاجِهم فبشر به وأنذر.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويفٌ للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل تَشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ وقرىء تُسْمَعُ من أسمعتَ. والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء، ومنه ركز الرمحَ إذا غيَّب طرفَه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة مريم أُعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله»[3].



---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٣ رقم ٣٢٠٩) و(١٣/ ٤٦١ رقم ٧٤٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٠ رقم ١٥٧/ ٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها (س٥/ ٢٨٣).

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشاف» (رقم: ٣٦٠) ـ وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٩، ٢٤٠) وتقدم الكلام عليه في آخر آل عمران.

سُورَةُ طه

ترتيبها ٢٠ — آياتها ١٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾

سورة طه مكية[١] ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طه﴾ فَخَّمها قالون[٢] وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخّم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه، وأمالهما الباقون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجلُ على لغة عكٍّ[٣] ، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، والاستشهادُ بقوله:

---

(١) مكية كلها في قول الجميع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت طه بمكة، وأخرجه أيضاً ابن مردويه عن ابن الزبير.
[انظر «الدر المنثور» (٥/٥٤٨) و«زاد المسير» (٥/٢٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/١٦٣)].

(٢) هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد، و(قالون) لقب له. لقَّبه به (نافع) لجودة قراءته، كان قارىء المدينة المنورة. قال أبو محمد البغدادي: كان (قالون) أصم شديد الصمم، لا يسمع البوق، فإذا قرىء عليه القرآن سمعه. توفي بالمدينة المنورة سنة عشرين ومائتين في عهد الخليفة المأمون.

(٣) قال ابن جرير (٩/ج١٦/١٣٦ ـ ١٣٧): «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال: معناه يا رجل. لأنها كلمة معرفة في عكٍّ فيما بلغني وأن معناها فيهم: يا رجل، أنشدت لمتمم بن نويرة:

هتفتُ بطَـهَ في القتـالِ فلـم يُجِبْ ... فخِفْـتُ عليـه أن يكـونَ مـوائِـلا

إنَّ السفاهةَ طَاهَا في خَلائِقِكُمْ لاَ قَدَّسَ الله أَخْلاقَ المَلاَعِين

ضعيفٌ لجواز أن يكون قَسَمَاً كقوله حم لا ينصرون. وقرىء طَهْ على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه[1]، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، وأن أصله طَأْ فقلبت همزته هاء أوقت في يطأ أَلِفاً كقوله * لا هُناك المرتع * ثم بنىٰ عليه الأمرَ وضم إليه هاء السكت، وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طَأْها، والألفُ مبدلةٌ من الهمزة، والهاء كناية الأرض. لكن يَرُدُّ ذلك كتابتُهما على صورة الحرف، وكذا التفسير بِيَا رجلُ، أو اكتفىٰ بشطري الكلمتين وعَبّر عنهما باسمهما.

(٢) ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ خبر طه إن جعلته مبتدأ على أنه مؤوّل بالسورة أو القرآنِ، والقرآنُ فيه واقع موقع العائد وجوابِه إن جعلتَه مُقْسَماً به ومنادى له إن جعلتَه نداءً، واستئنافٌ إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدإ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرْط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقىٰ من رائضِ المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أُنزِل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أُنزل عليك لتشقى به[2].

(٣) ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ لكن تذكيراً، وانتصابُها على الاستثناء المنقطع. ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل لتشقى لاختلاف الجنسين، ولا مفعولاً له لأنزلنا فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإنذار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

(٤) ﴿ تَنزِيلًا ﴾ نصْبٌ بإضمار فعله أو بيخشى، أو على المدح، أو البدل من تذكرة إن جعل حالاً. وإن جُعِل مفعولاً له لفظاً أو معنًى فلا، لأن الشيء لا يُعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ مع ما بعده إلى قوله: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[3] تفخيم لشأن المنزَّل بفرط تعظيم المنزِّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهرُ عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام

---

(١) ورد ذلك عن علي وابن عباس، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب (فتح القدير ٣/ ٣٦٠) والبزار (كشف الأستار ٣/ ٥٨) والقاضي عياض في الشفاء (١/ ٤١).
وهو ضعيف بجميع طرقه كما في تخريج الفتح السماوي (ص٨٢٣).
وعليه فالأولى أن يكون «طه» مثل بقية الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٢) ما ورد أن الكفرة قالوا بأن القرآن أُنزل عليك لتشقىٰ به.. أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٢) بسنده عن الضحاك، وكذا أخرجه ابن جرير والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣١٢ ج٩٨٩) وفي سنده موسىٰ بن عبيدة وهو ضعيف (التقريب ٢/ ٢٨٦) وضعفه الهيثمي أيضاً (المجمع ٤/ ١٢٦).

(٣) طه: «٨».

والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

(٥) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[١].

(٦) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولمّا كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقّب ذلك بإحاطة علمه تعالى بِجَلِيات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

(٧) ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلمْ أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شَرْعَ الذِّكْر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكْر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بيّن أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

(٨) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ومَنْ في مِمّن خلق الأرض صلةٌ لتنزيلاً أو صفة له. والانتقالُ من التكلم إلى الغيبه للتفنن في الكلام، وتفخيمُ المنزَّل من وجهين: إسنادُ إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبتُه إلى المختص بصفات الجلال والإكرام، والتنبيهِ على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام مَنْ هذا شأنه. ويجوز أن يكون أنزلناه حكايةَ كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرىء الرحمنِ على الجر صفة لمَنْ خلق، فيكونُ «على العرش استوى» خبرُ محذوفٍ، وكذا إن رُفِعَ الرحمن على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً. والثرىٰ الطبقةُ الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها[٢]. والحسنى تأنيث الأحسن، وفَضْلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

(٩) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قفّىٰ تمهيدَ نبوته ﷺ بقصة موسى ليَأتمّ به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظرفٌ للحديث لأنه حَدَثٌ، أو مفعول لاذكُر. قيل إنه استأذن شعيباً[٣] عليهما الصلاة والسلامْ في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فلما وافىٰ وادي طوًى وفيه الطور وُلِد له ابن في

---

(١) وصفه تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى (س٦/ ٥).

(٢) الثرى هو التراب، وذكره ـ مع دخوله تحت ما في الأرض ـ لزيادة التقرير (س٦/ ٥).

(٣) قال سيد قطب في الظلال (٥/ ٢٦٨٧ رقم التعليقة: ١) «سبق أن قلت مرة في الظلال: إنَّ هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون.. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبقَ معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب ـ النبي ـ بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل.
يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره.. ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات» هـ.

ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيتُه إذ رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة «لأَهْلِهُ امْكُثوا» ههنا وفي القصص[1] بضم الهاء في الوصل، والباقون بكسرها. ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصارُ ما يؤنَس به. ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بشُعلة من النار، وقيل جمرة. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعنّ لهم. ولما كان حصولهما مترقَّباً بنىٰ الأمر فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس فإنه كان مُحققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه. ومعنى الاستعلاء في «على النار» أنّ أهلها مشرِفون عليها، أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مررت بزيد إنه لَصُوق بمكان يقرب منه.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء. ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فتَحه ابنُ كثير وأبو عمرو أيْ بأنّي، وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكريرُ الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: مَنْ المتكلم؟ قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمَرَه بذلك لأن الحِفْوَة تواضع وأدب، ولذلك طاف السلف حافين، وقيل لنجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ[2]، وقيل معناه فَرِّغْ قلبك من الأهل والمال. ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة، والمقدّس يحتمل المعنيين. ﴿طُوًى﴾ عطفُ بيانٍ للوادي، ونوّنه ابنُ عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كَثِنًى مِنَ الطيّ مصدرٌ لنودي أو المقدس، أي نودي نداءين أو قُدِّس مرتين.

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة وأنّا اخترناك. ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي. واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

(١٤) ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ بدلٌ ممّا يوحىٰ، دالّ على أنه مقصور علىٰ تقرير التوحيد

---

(١) القصص: «٢٩».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٠ ـ مع التحفة) وقال «هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد الأعرج هو ابن علي الأعرج، منكر الحديث».

ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٩) وصححه على شرط البخاري فتعقبه الذهبي بقوله: «بل ليس على شرط البخاري، وإنما غرّه أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي، أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكي الصادق» هـ.

الذي هو منتهى العلم والأمرِ بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتَها، وهو تذكر المعبود وشَغْل القلب واللسانِ بذكره. وقيل لذكري لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأنْ أَذْكُرَك بالثناء، أو لذكري خاصة لا تُرائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقاتِ ذكْري وهي مواقيت الصلاة، أو لذكر صلاتي، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول «أقم الصلاة لذكري»[1].

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة[2]. ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أُريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أَخبرتُ به، أو أكاد أظهرها مِنْ أخفاه إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح مِنْ خفاه إذا أظهره. ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفيها على المعنى الأخير.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ههنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خُليت بحالها لاختارها ولم يُعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ميلَ نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدَجة فقَصُر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ فتهلك بالانصداد بصده.

(١٧) ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يُريه فيها من العجائب. ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلةُ تلك. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقرىء عَصِيّ على لغة هذيل[3]. ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ اعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي. وقرىء أَهِشُّ وكلاهما مِنْ هشّ الخبزُ يَهِش إذا انكسر لهشاشته[4]، وقرىء بالسين من الهَسّ وهو زجر الغنم. أي

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٧٠ رقم ٥٩٧) ومسلم (١/ ٤٧٧ رقم ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٦٨٤).
والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٢٤١) من حديث أنس.
وكذلك أخرجه مسلم (١/ ٤٧١ رقم ٣٠٩/ ٦٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (س٦/ ٨).

(٣) نسب العصا إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه الصلاة والسلام (س٦/ ١٠).

(٤) وتعدية الفعل أهش بـ «على» لتضمين معنى الانحاء والإقبال (س٦/ ١٠).

أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات أخر، مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعَرَضَ الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستَظَلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[1] وَصَلَه بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها. وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يَذْكُر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة ـ مثل أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع وتصيران دلواً عند الاستقاء وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فرَكَزَها ـ علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾[2].

(٢٠) ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حيةً صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جانّاً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجانّ ولذلك قال «كأنها جان».

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها[3]. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فِعْلَة من السير تَجَوَّزَ بها للطريقة والهيئة. وانتصابها على نزع الخافض أو على أنّ أعاد منقول من عادهُ بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقتها، أو على تقدير فِعْلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

(٢٢) ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضُد، يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحيْ العسكر، استعارة من جناحي الطائر سُميا بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كنّى به عن البرص كما كنّيْ بالسوأة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ معجزة ثانية. وهي حال من ضمير تخرج كبيضاء، أو من ضميرها، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك.

---

(١) الرشاء هو الحبل (مختار الصحاح مادة رشا).

(٢) تكرير النداء لتأكيد التنبيه (س٦/ ١٠).

(٣) وفي عطف النهي «لا تخف» على الأمر «خذها» إشعارٌ بأن عدم النهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط (س٦/ ١١).

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمر أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها أو فعلنا ذلك لنريك، والكبرى صفة آياتنا أو مفعول نريك، ومن آياتنا حال منها.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين وادعُه إلى العبادة. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عصىٰ وتكبر.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ لمّا أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويُفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع. وفائدة «لي» إبهامُ المشروح والميسر أولاً، ثم رفْعُه بذكْر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة.

(٢٧) ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾.

(٢٨) ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ فإنما يَحْسُن التبليغ من البليغ، وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاهُ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونتفها، فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه[1]، ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني؟ قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزتَ عنه. واختلف في زوال العقدة بكمالها فمَنْ قال به تمسك بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2] ومن لم يقل احتج بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى

---

(١) وهو جزء من حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفاً عليه.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وأبو يعلى في المسند (٥/ ١٠ ـ ٢٩ رقم ٢٦١٨).
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٦ ـ ٦٦) وقال: رجاله رجال الصحيح غير أصبع بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.
ـ وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦١): «رواه النسائي في السنن الكبرى ـ التفسير رقم ٣٤٦ ـ وأخرجه أبو جعفر ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً» هـ.

(٢) طه: «٣٦».

لِسَانِي﴾[(١)] وقوله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[(٢)]. وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام، ولذلك نكّرها وجعل يفقهوا جواب الأمر. ومنْ لساني «يَحتمل أن يكون صفة عقدة، وأن يكون صلة احلل.

(٢٩) ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ يعينني على ما كلفتني به. واشتقاق الوزير إما من الوِزْر لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوَزَر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره، ومنه الموازرة. وقيل أصله أَزِير من الأَزْر بمعنى القوة، فَعيل بمعنى مُفَاعِل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولا اجْعَل: وزيراً وهارون، قُدِّم ثانيهما للعناية به، و«لي» صلة أو حال، أولي وزيراً وهارون عطفُ بيانٍ للوزير، أو وزيراً من أهلي ولي تبيين كقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[(٣)]، وأخي على الوجوه بدلٌ من هارون أو مبتدأ خبرُه:

(٣١) ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ على لفظ الأمر، وقرأهما ابنُ عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر[(٤)].

(٣٣) ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهيّج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا، وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

(٣٦) ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي مسؤلك، فِعْل بمعنى مفعول كالخُبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر[(٥)].

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو مَلَك ـ لا على وجه النبوة ـ كما أوحي إلى مريم. ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحىٰ ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به.

(٣٩) ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ بأن اقذفيه، أو أي اقذفيه لأن الوحي بمعنى القول. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[(٦)]، وكذلك الرمي كقوله: * غُلَامٌ

---

(١) القصص: «٣٤».

(٢) الزخرف: «٥٢».

(٣) الإخلاص: «٤».

(٤) قراءة ابن عامر «أُشْرِكْهُ» بضم الألف وسكون الكاف، وبفتح الألف وقطعها من اشدد أي «أَشْدِدْ».

(٥) وتصديره بالقَسَم لكمال الاعتناء به.

(٦) الحشر: «٢».

رَمَاهُ الله بِالحُسْنِ يَافِعاً * ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاءُ البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به وجَعْلُ البحر كأنه ذو تمييز مطيع أَمَرَهُ بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر. والأوْلى أن تُجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل، وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعَرَض. ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جوابُ فليلْقِه. وتكرير عدو للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقّع. قيل إنها جَعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ثم قبرته وألقته في اليم، وكان يَشْرَعُ منه إلى بستان فرعون نهرٌ فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم، فأمر به فأُخرِج فَفُتِح فإذا هو صبي أَصْبَحُ الناسِ وجهاً، فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، فلذلك أحبك فرعون. ويجوز أن يتعلق «منّي» بألقيتُ، أي أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب. وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأن الماء يسحلُه فالْتقط منه، لكن لا يبعد أن يُؤَوّل الساحل بجنب فوهة نهره. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ لتُربىٰ ويُحْسَنَ إليك، وأنا راعيك وراقبك. والعطفُ على علة مضمرة مثل ليُتعطّفَ عليك، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلّل مثل فعلتُ ذلك. وقرىء ولْتُصْنعَ بكسر اللام وسكونها والجَزْمُ على أنه أمْر، ولَتَصْنَعَ بالنصب وفتح التاء أي وليكن عملك على عين مني لئلا تخالِفَ به عن أمري.

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لألقيتُ أو لتصنع، أو بدل من إذ أوحينا على أن المراد بها وقت متسع. ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك لأنه كان لا يَقبل ثدي المراضع، فجاءت أخته مريمُ متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت «هل أدلكم»، فجاءت بأمه فقَبِل ثديها. ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1] ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقك، أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي. ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فِتَن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحُجُوز وبُدُور في حُجْزة وبِدْرة، فخلّصناك مرة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاّف والمشيِ راجلاً على حذر وفقد الزاد وأَجْرِ نفسه إلى غير ذلك أَوّلَهُ ولما سبق ذِكْره. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفىٰ الأجلَيْن. ومدين على ثمان مراحل من مصر. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قَدَّرْتُه لأَنْ أُكلمك وأَستنبئك غيرَ مستقدِم وقتُه المعين ولا مستأخِر، أو على مقدار من السنّ يوحىٰ فيه إلى الأنبياء. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ كرره عقيب ما هو غايةُ الحكاية للتنبيه على ذلك.

---

(١) القصص: «٧».

وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ واصطفيتك لمحبتي. مَثَّله فيما خوّله من الكرامة بمَنْ قربه الملك واستخلصه لنفسه[١].

(٤٢) ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصّرا. وقرىء تِنِيَا بكسر التاء. ﴿فِي ذِكۡرِي﴾ لا تنسياني حيثما تقلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليّ.

(٤٣) ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده، وهنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى، وقيل سمع بمَقْبله فاستقبله.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ مثل ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[٢] فإنه دعوة في صورة عَرْض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كَنِّيَاه، وكان له ثلاث كنًى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة[٣]. وقيل عِدَاه شباباً لا يهرم بعده ومُلكاً لا يزول إلا بالموت. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ متعلق باذهبا أو قولا أي: باشِرا الأمر على رجائكما وطمعِكُما أنه يثمر، ولا يخيب سعيكما فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزامُ الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقلّ من أن يتوهمه فيخشى.

(٤٥) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أن يَعْجَل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، مِنْ فَرَط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فَرِط يسبق الخيل. وقرىء يَفْرَط من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على المعاجلة بالعقاب، ويُفْرِطَ من الإفراط في الأذية. ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب[٤].

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول

---

(١) والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى «وفتنّاك» ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنىٰ الاصطناع (س٦/١٧).

(٢) النازعات: «١٨، ١٩».

(٣) لم أقف على ضبط هذه الكنية، غير أن المتبادر أن تكون بضم الميم وهي كنية إبليس ـ لعنه الله ـ وقد تكون بالكسر، بمعنى العقل أو الشدة والقوة والله سبحانه أعلم. وذو مرة بكسرها جبريل عليه السلام.

(٤) وإظهار كلمة «أن» مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الإعتناء بالأمر، والإشعار بتحقق الخوف من كلٍّ منهما (س٦/١٨).

وفعل، فأُحْدِث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما. ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تمّ الحفظُ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام. وتعقيبُ الإتيان بذلك[1] دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهمّ من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدريج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وَحّد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها، وكذلك قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾[2]، ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾[3]، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾[4]. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسل، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع ألْيق.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي بعد ما أتياه وقالا له ما أُمرا به، ولعله حُذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة. وإنما خاطب الاثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدلُّ عليه قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[5].

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُۥ﴾ صورتَه وشَكْله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرىء خَلَقَهُ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً. وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودِلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم

---

(١) أي بالأمر بإرسال بني إسرائيل معهم.
(٢) الأعراف: «١٠٥».
(٣) الشعراء: «١٥٤».
(٤) الشعراء: «٣٠».
(٥) الزخرف: «٥٢».

على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بُهت الذي كفر وأُفحم عن الدخل عليه فلم يرَ إلاَّ صَرْفَ الكلام عنه.

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

(٥١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

(٥٢) ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو، وإنما أنا عبد مِثْلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ. ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفَظَه العالِمُ وقيّده بالكَتْبَة، ويؤيده: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ والضلال أن تخطىء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات. ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها، وتخصيصُه أبعاضَها بالصور والخواص المختلفة بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها والقرونِ الخاليةِ مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمُه بهم وبأجزائهم وأحوالهم، فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى[(١)].

(٥٣) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفةٌ لربي، أو خبرٌ لمحذوف، أو منصوبٌ على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي الزخرف[(٢)] مَهْداً أي كالمهد تتمدونها وهو مصدر سمي به، والباقون مِهَاداً وهو اسمُ ما يُمَهّد كالفراش أو جمعُ مَهْدٍ، ولم يختلفوا في الذي في النبأ[(٣)]. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[(٤)] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾[(٥)] الآية. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ أو صفة لأزواجاً، وكذلك: ﴿شَتَّىٰ﴾ ويحتمل أن يكون صفة لنبات، فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جَمْعُ شتيت كمريض ومرضى، أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم، فلذلك قال:

---

(١) وإظهار «ربي» في موقع الإضمار للتلذذ بذكره، ولزيادة التقرير، والإشعار بعلة الحكم فإن الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان (س٦/ ٢١).
(٢) الزخرف: «١٠».
(٣) حيث قرؤوا جميعاً «مهاداً» في قوله: «ألم نجعل الأرض مِهَاداً» ـ النبأ «٦» ـ.
(٤) فاطر: «٢٧».
(٥) النمل: «٦٠».

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

(٥٤) ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ وهو حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي أخرجنا أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا، والمعنى مُعِدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح، جمع نُهْيَة[١].

(٥٥) ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء[٢]. ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

(٥٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ بصرناه إياها أو عرفناه صحتها[٣]. ﴿ كُلَّهَا ﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ موسى من فرط عناده. ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ الإيمان والطاعة لعتوه..

(٥٧) ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أرض مصر. ﴿ بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونَه محقاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملِكاً مثله من أرضه.

(٥٨) ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ مثلَ سحرك. ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ وعداً لقوله: ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان[٤]. وانتصابُ ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف، أو بأنه بدل من موعداً على تقدير مكان مضاف إليه، وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله:

(٥٩) ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمارِ مثل مكانُ موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة. وقرىء يومَ بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر. ومعنى سوى منتصِفاً يستوي مسافته إلينا وإليك، وهو في النعت كقولهم: قومٌ عَدِيٌّ في الشذوذ. وقرأ ابن عامر

---

(١) وتخصيص أولي النهىٰ لأنهم المنتفعون بها (س٦/ ٢٢).

(٢) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (س٦/ ٢٢).

(٣) وتصديرها بالقَسَم للعناية، وإسناد الإرادة إلى نون العظمة لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة (س٦/ ٢٢).

(٤) قدم فرعون ضميره على ضمير موسىٰ ووسط كلمة النفي «لا» بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف (س٦/ ٢٤).

وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم[١]. وقيل في يوم الزينة يوم عاشوراء[٢]، أو يوم النيروز[٣]، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأقطار. ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على اليوم أو الزينة. وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون، والياءِ على أن فيه ضمير اليوم أو ضمير فرعون على أن الخطاب لقومه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ما يُكادُ به، يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الموعد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياته سِحراً. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملكُ عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه، فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بأن موسى إنْ غَلَبَنا اتبعناه، أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارِضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه. وقولُه:

(٦٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ تفسير لأسروا النجوى، كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يَغْلِبا فيتبعُهما الناس. وهذان اسم إنْ على لغة بلحرث بن كعب فإنهم جعلوا الألف للتثنية وأعربوا المثنى تقديراً، وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها، وقيل إنَّ بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ، وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكَّد باللام لا يليق به الحذف. وقرأ أبو عمرو إنّ هذين وهو ظاهر، وابن كثير وحفص إنْ هذان على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافيةُ واللامُ بمعنى إلاّ. ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[٤]. وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٥]. وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

---

(١) أي بضم السين في «سوى» بينما قرأ الباقون بكسر السين.
(٢) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (٩/ج١٦/١٧٧) و«الدر المنثور» (٥/ ٥٨٤ _ ٥٨٥).
(٣) أول يوم من السنة.
(٤) غافر: «٢٦».
(٥) الشعراء: «١٧».

فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

(٦٤) ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ فأزمعوه واجعلوه مُجْمَعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو فَاجْمَعُوا ويعضده قوله ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾[1] والضمير في قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ مصطفين لأنه أَهْيَب في صدور الرائين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ فاز بالمطلوب مِنْ غَلَبَ وهو اعتراض.

(٦٥) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب. وأن بما بعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأَمْرُ إلقاؤك أو إلقاؤنا.

(٦٦) ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ مقابلةُ أدب بأدب وعدمُ مبالاة بسحرهم، وإسعافاً إلى ما أَوْهَموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يُبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغُه. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم وعصيهم، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلَّقاً ينصبها وجملةً تضاف إليها، لكنها خُصت بأن يكون المتعلَّق فِعْلَ المفاجأة والجملةُ ابتدائيةً، والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ورَوْحٌ تُخَيَّلُ بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصيّ وإبدالِ أنها تسعى منه بدل الاشتمال، وقرىء يُخَيِّلُ بالياء على إسناده إلى الله تعالى، وتَخَيَّلُ بمعنى تتخيل.

(٦٧) ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجِبِلة البشرية، أو مِنْ أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

(٦٨) ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ ما توهمتَ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكَّداً بالاستئناف، وحرفُ التحقيق وتكريرُ الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

(٦٩) ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أَبْهَمَهُ ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعِظَمِها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألْقِه. ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ تبتلعْه بقدرة الله تعالى، وأصله تتلقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتمل التأنيثَ والخطابَ على إسناد الفعل إلى المسبَّب. وقرأ ابن عامر برواية

(١) طه: «٦٠».

ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف، وحفصٌ بالجزم والتخفيفِ على أنه مِنْ لَقِفَتْه بمعنى تلقّفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوٓاْ﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍۖ﴾ وقرىء بالنصب، على أن ما كافّة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي سحر بمعنى ذي سحر، أو بتسمية الساحر سِحْراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: عِلْمُ فقه. وإنما وحّد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق، ولذلك قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس. وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول العجاج:

يَـوْمَ تَـرَى النُّفُـوسُ مَـا أَعَـدَّتْ فـي سَعْـيِ دُنْيَـا طَـالَمَـا قَـدْ مَـدَّتْ

كأنه قيل إنما صنعوا كيد سحري. ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ حيث كان وأين أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

(٧٠) ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أي فألقىٰ فتلقفتْ فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سُجّداً لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قدَّم هارون لكبر سنه، أو لِرُوِيّ الآية، أو لأن فرعون ربّىٰ موسى في صغره فلو اقتُصر على موسى أو قُدِّم ذِكْرُه لربما تُوُهِّم أن المراد فرعونُ وذِكْرُ هارون على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

(٧١) ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى واللامُ لتضمن الفعل معنى الاتّباع. وقرأ قنبل وحفص آمنتم له على الخبر، والباقون على الاستفهام. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾ في الإيمان له. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لَعَظِيمُكم في فنكم وأعلمكم به، أو لأستاذكم. ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومِنْ ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضوِ العضوَ، وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال أي لأقطعنها مختلفات. وقرىء لأُقطعنْ ولأُصلبنْ بالتخفيف. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شَبَّه تمكن المصلوب بالجذع بتمكُّن المظروف بالظرف، وهو أول مَنْ صَلَبَ. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ يريد نفسَه وموسى، لقوله ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ واللامُ مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، أراد به توضيع موسى والهزء به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم عقاباً.

(٧٢) ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك. ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لِمَا. ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات. ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ عطف على ما جاءنا، أو قَسَم[1]. ﴿فَٱقْضِ مَآ

---

(١) إيراده تعالى بعنوان فاطريته لهم للإشعار بعلة الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه وتعالى (س٦/ ٣٠).

﴿أَنتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا والآخرةُ خير وأبقى، فهو كالتعليل لما قبله والتمهيدِ لما بعده. وقرىء تُقْضَىٰ هذه الحياةُ الدنيا، كقولك: صِيم يومُ الجمعة.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

(٧٣) ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ من معارضة المعجزة[١]. روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً، فوجدوه تحرسه العصا، فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بَطَل سحره، فأبىٰ إلا أن يعارضوه. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ جزاءً، أو خير ثواباً وأبقىٰ عقاباً.

(٧٤) ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر[٢]. ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأَنْ يموت على كفره وعصيانه. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة مهنأة.

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ المنازل الرفيعة.

(٧٦) ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الدرجات. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ، والعاملُ فيها معنى الإشارة أو الاستقرارُ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من أدناس الكفار والمعاصي. والآياتُ الثلاث يُحْتَمَل أن تكون من كلام السحرة، وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى[٣].

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي من مصر[٤]. ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم، من قولهم ضرب له في ماله سهماً. أو فاتّخذ، مِنْ ضَرَبَ اللبن إذا عمله. ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يابساً، مصدر وُصِف به، يقال يَبِسَ يَبْساً ويَبَساً كسَقِم سُقْماً وسَقَماً، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة يَبَسٌ للتي جفّ لبنها. وقرىء يَبْساً، وهو إما مخفف منه أو وَصْفٌ على فعل كصعب أو جمعُ يابس كصَحْب وُصِفَ به الواحد مبالغة كقوله:

---

(١) تخصيص إكراههم على السحر بالذكر ـ مع اندراجه في خطاياهم ـ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكْرُ الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه (س٦/ ٣٠).

(٢) وتصديره بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونه (س٦/ ٣٠).

(٣) وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله «أينا أشد عذاباً وأبقى» (س٦/ ٣١).

(٤) والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباداً له تعالى لإظهار المرحمة، والاعتناء بأمرهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل (س٦/ ٣١).

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غُرزاً وَمَعِي جِيَاعاً

أو لتعدده معنًى فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمِناً من أن يدرككم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف. وقرأ حمزة لا تَخَفْ على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[1] أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق[2].

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

(٧٨) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فأُخبِر فرعون بذلك فقص أثرهم، والمعنى فأتبعهم فرعونُ نفسَه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل فأتبعهم بمعنى فاتّبعهم ويؤيده القراءة به. والباء للتعدية، وقيل الباء مزيدة والمعنى: فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعتَ قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرىء فغَشّاهم ما غشاهم أي غطاهم ما غطاهم، والفاعل هو الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورّطهم للهلاك.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم، وهو تهكم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3] أو أضلهم في البحر وما نجا.

(٨٠) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فُعِل بآبائهم. ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومَه. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة، وإنما عَدّ المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة[4]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ يعني في التيه.

(٨١) ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته. وقرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدتكم وما رزقتُكم على التاء، وقرىء وَوَعدتُكم وَوَعدناكم والأيمن بالجر على الجوار مثل: جُحرُ ضبٍّ خربٍ. ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسَّرَف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم، مِنْ حَلّ الدينُ إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ فقد تردى وهلك، وقيل وقع في الهاوية. وقرأ الكسائي يَحُلَّ ويَحْلُلْ بالضم، مِنْ حلَّ يَحُلّ إذا نزل.

---

(١) الأحزاب: «١٠».
(٢) وتقديم نفي الخوف المذكور للمسارعة إلىٰ إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدرَكون (س٦/ ٣٢).
(٣) غافر: «٢٩».
(٤) وسراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقه (س٦/ ٣٣).

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

(٨٣) ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤالٌ عن سبب العَجَلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدّم جواب الإنكار لأنه أهم.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي ما تقدمتُهم إلا بخطأ يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرُّفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك[١].

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم، وهم الذين خَلَّفَهُم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاءِ إلى عبادته. وقرىء وَأَضَلُّهُمْ أي أَشَدُّهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مُضِلاً. وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحَسَبوها بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العِدة ثم كان أمر العجل وأن هذا الخطاب كان له عند مَقْدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقَّب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته. والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل كان علْجاً[٢] من كرمان، وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم. ﴿أَسِفًا﴾ حزيناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقته لهم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما هو مَثَلٌ في الغباوة. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وعْدَكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به[٣]. وقيل هو مِنْ أخلفتُ وعده إذا وجدتُ الخُلْف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على الترديد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

---

(١) وزيادة «ربّ» لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر (س٦/ ٣٤).

(٢) عِلْجاً أي شديداً (المصباح المنير مادة علج).

(٣) أضاف المصدر إلى المفعول «موعدي» وكذا إضافته لموسىٰ عليه السلام وذلك لتقبيح حالهم (س٦/ ٣٥).

قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بأن ملكنا أَمْرَنا، إذ لو خلينا وأَمْرَنا ولم يسوِّل لنا السامري لما أخلفناه. وقرأ نافع وعاصم بِمَلْكنا بالفتح، وحمزةُ والكسائي بالضم، وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس، وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به، وقيل هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه. ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تَحِلّ بعدُ، أو لأنهم كانوا مستأمَنين وليس للمستأمَن أن يأخذ مال الحربي. ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي في النار. ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حَسِبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادَكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونَسْجُر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ورَوْح حَمَلْنا بالفتح والتخفيف.

(٨٨) ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت العجل. ﴿فَقَالُواْ﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه. ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أَنْ ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أفلا يعلمون. ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرىء يَرْجِعَ بالنصب، وفيه ضعف لأن أَنْ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين[1]. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم.

(٩٠) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري، كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ بالعجل. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا غير[2]. ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ في الثبات على الدين.

(٩١) ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العجل وعبادته. ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين. ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

---

(١) لكنهم حملوا الرؤية على أنها بمعنىٰ الإبصار لا العلم.. وأجاز الفراء وابن الأنباري وقوع أنْ الناصبة بعد أفعال اليقين (روح المعاني ١٦/ ٢٤٩).
وتعليق الإبصار بما ذكر ـ مع كونه أمراً عدمياً ـ للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم (س٦/ ٣٦).

(٢) والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق (س٦/ ٣٧).

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ أي قال له موسى حين رجع. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العجل.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأتي عَقِبي وتلحقني. ولا مزيدة كما في قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[1]. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه.

(٩٤) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم، والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لو قاتلتَ أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ حين قلتَ ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمداراة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

(٩٥) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك؟ أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه؟ وهو مصدر خَطَب الشيءَ إذا طلبه.

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمتُ بما لم تعلموه وفَطِنت لما لم تفطنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحانيّ محض لا يمس أثَرُه شيئاً إلا أحياه. أو رأيتُ ما لم تروه، وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ من تربة مَوْطِئه. والقبضة المرة من القبض، فأُطلق على المقبوض كضرب الأمير. وقرىء بالصاد، والأولُ للأخذ بجميع الكفّ والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخَضْم والقَضْم. والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام، ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ زينته وحسنته لي.

(٩٧) ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عقوبةً على ما فعلت. ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومَنْ مَسّكَ، فتتحامى الناس ويتحاموك وتكونَ طريداً وحيداً كالوحشي

(١) الأعراف: ١٢.

النافر. وقرىء لا مَسَاسِ كفَجَارِ وهو علم للمسة. ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ في الآخرة. ﴿ لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تُخْلِفَ الواعدَ إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعِد، ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خُلفاً. وقرىء بالنون على حكاية قولِ الله. ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ ظللت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً. وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة لَنُحْرِقَنَّهُ، أو بالمِبْرَد على أنه مبالغة في حَرَقَ إذا بَرَدَ بالمبرد ويعضده قراءة لَنَحْرُقَنَّه[1]. ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ ﴾ ثم لَنُذْرِيَنَّه رماداً أو مبروداً. وقرىء بضم السين. ﴿ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ فلا يصادَفُ منه شيء. والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهارُ غباوة المفتتنين به لمن له أدنى نظر.

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ﴾ المستحق لعبادتكم. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يُعْلَمَ، لا العجل الذي يَصَاغ ويُحْرَق وإنْ كان حياً في نفسه كان مَثَلاً في الغباوة. وقرىء وَسَّعَ، فيكونُ انتصاب عِلْماً على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

(٩٩) ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مِثْل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار، والتنكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصِيتاً عظيماً بين الناس.

(١٠٠) ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاةِ. وقيل عن الله. ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وذنوبه، سماها وزراً تشبيهاً في ثِقَلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحمل الذي يَفْدَح الحامل وينقض ظهره. أو إثماً عظيماً.

(١٠١) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ ﴾ في الوزر أو في حمله، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ. ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أي بئس لهم، ففيه ضمير مبهم يفسره حِمْلاً، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وِزْرُهم، واللام في لهم للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ۚ ﴾[2]. ولو جعلتَ ساء بمعنى أحزن والضميرَ الذي فيه للوزر أشكل أَمْرُ اللام ونَصْبُ حِملاً، ولم يُفِدْ مزيد معنى[3].

---

(١) يقال حَرَق الحديد حَرَقاً إذا برده بالمِبْرد وحكَّ بعضَه ببعض ومضارعُه يَحْرُق (مختار الصحاح «حرق»).

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) وإعادة «يوم القيامة» لزيادة التقرير وتهويل الأمر (س٦/ ٤١).

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الآمِر به تعظيماً له أو للنافخ، وقرىء بالياء المفتوحة على أن فيه ضميراً لله أو ضمير إسرافيل وإن لم يَجْرِ ذكره لأنه المشهور بذلك، وقرىء في الصُّوَر وهو جَمْعُ صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرىء ويُحشَرُ المجرمون ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون. وصُفِوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضُها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زُرق العين، ولذلك قالوا: صفة العدو أسودُ الكبد أصهبُ السبال. أزرقُ العين. أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزْراق[١].

(١٠٣) ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، والخَفْتُ خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِن﴾ ما ﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يَستقصرون مدة لبثهم فيها، لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات. أو في القبر لقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾[٢] إلى آخر الآيات.

(١٠٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعْدَلُهم رأياً أو عمَلاً. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول مَنْ يكون أشد تقالاً منهم.

(١٠٥) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها، وقد سَأل عنها رجلٌ من ثقيف[٣]. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة الجبال عليها كقوله تعالى ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾[٤]. ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ اعوجاجاً ولا نتوّاً إن تأملتَ فيها بالقياس الهندسي. وثلاثتها أحوال مترتبة، فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذَكَرَ العِوَج ـ بالكسر ـ وهو يُخَصُّ بالمعاني والأمْتَ وهو النتوء اليسير. وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً

---

(١) أو يحشرون زرق الأبدان، وذلك في غاية التشويه فإنه لا تزرقّ الأبدان إلا من مكابدة الشدائدِ وجفاف رطوبتها (روح المعاني ١٦/ ٢٦٠).

(٢) غافر: «٤٦».

(٣) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن الذي سأل هم قريش سألوه عليه السلام استهزاء (روح المعاني ١٦/ ٢٦١).

(٤) النحل: «٦١».

من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرافيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيُقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خفضت لمهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلهاإلى المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له، أو مِنْ أعمّ المفاعيل أي إلا من أذن في أن يُشفع له فإن الشفاعة تنفعه. فمن على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية. وأذِن يحتمل أن يكون من الإذْن ومن الأذَن[1]. ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمُهم بمعلوماته، وقيل بذاته، وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه.

(١١١) ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العناة وهم الأسارى في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم. ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة، ويؤيده: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعض الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان، أو جزاءَ ظلمٍ وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه. وقرىء فلا يَخَفْ على النهي.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على «كذلك نقصُّ» أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة[2]. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ مكررين آيات الوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم مَلَكَة. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتثبطهم عنها، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن.

---

(١) الأَذَن هو الاستماع.

(٢) قوله «أنزلناه» حيث أضمر ذكر القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان (س٦/ ٤٤).

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامُه كلامَهم كما لا تماثِلُ ذاتُه ذاتَهم. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يرجىٰ وعدُه ويخشى وعيده. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته، أو الثابت في ذاته وصفاته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سَلْ الله زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ولقد أَمَرْناه، يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهِد إليه إذا أمره، واللامُ جواب قسم محذوف. وإنما عَطفَ قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾[١] للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان. ﴿فَنَسِىَ﴾ العهد ولم يَعْنَ به حتى غفل عنه، أو ترك ما وُصّي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر، إذ لو كان ذا عزيمة وتصلّب لم يُزِلّه الشيطان ولم يستطع تغريره، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يُجرّب الأمور ويذوق شريَها وأَرِيَها[٢]. وعن النبي ﷺ «لو وزنتْ أحلام بني آدم بحِلْم آدم لرجح حِلْمُه، وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزماً»[٣]. وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده. ونَجِد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حالٌ من عزماً أو متعلق بِنَجِدْ.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ مقدر باذْكُر، أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار، وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قَيِّمٌ عليها، ومحافظةً على الفواصل. أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال، ويؤيده قوله:

---

(١) طه: «١١٣».

(٢) قوله شَريَها وأَرِيَها أي مُرَّها وحلوها، فإن معنىٰ «الأَرْي» العسل (مختار الصحاح مادة أري).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/٢٢١ ـ ٢٢٢). وسعيد بن منصور، وابن المنذر وابن عساكر ـ كما في «الدر المنثور» (٥/٦٠٣) ـ عن أبي أمامة موقوفاً.

قلت: في إسناد ابن جرير: سنيد بن داود. وهو ضعيف.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبَعُ والرِّيّ والكسوة والكِنُّ[1] مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها. والعاطفُ وإنْ ناب عن أنّ لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق، فلا يمتنع دخولُه على أنّ امتناع دخول إنّ عليه. وقرأ نافع وأبو بكر وإنَّك لا تظمأ بكسر الهمزة، والباقون بفتحها.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فانتهى إليه وسوستُه. ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الشجرة التي مَنْ أكل منها خَلَد ولم يمت أصلاً، فأضافها إلى الخُلْد أي الخلود لأنها سببُه بزعمه. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يزول ولا يضعف.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضَلَّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن الرُّشْد حيث اغتر بقول العدو. وقرىء فَغَوِيَ من غوى الفصيلُ إذا اتّخَم من اللبن. وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلّته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه وقرَّبه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِنْ أجبىٰ إلى كذا فاجتبيتُه مِثْل جَلَيْت على العروس فاجتليتُها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لمّا تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

(١٢٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أو لَهُ ولإبليس. ولما كانا أصلَيْ الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا[2]. ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

---

(١) الكِنُّ هي السُّتْرة.

(٢) قوله «فمن اتبع هُداي» حيث وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه (س٦/ ٤٧).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عن الهدىٰ الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقرىء ضَنْكَىٰ كسكرى. وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه تعالى قد يُضيّق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[١] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[٢] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾[٣] الآيات. وقيل هو الضريع[٤] والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف، وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أعمى البصر أو القلب، ويؤيد الأول:

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف منقلبة من الياء، وفرّق أبو عمرو بأن الأول رأسُ الآية ومحلُّ الوقف فهو جدير بالتغيير.

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلتَ، ثم فسره فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمىٰ والعذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من ضنْك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عَمَاهُ ليَرىٰ محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُسْنَدٌ إلى الله تعالى، أو الرسول، أو ما دل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي إهلاكُنا إياهم أو الجملة بمضمونها. والفعل على الأولين معلّق يجري مجرى أعلم، ويدل عليه القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

---

(١) البقرة: «٦١».
(٢) المائدة: «٦٦».
(٣) الأعراف: «٩٦».
(٤) نبت في الحجار يُقال له الشِبْرِق له شوك كبار، وقال الفيروز آبادي: لا تقربه دابة لخبثه، أعاذنا الله منه.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثل ما نزل بعاد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مَصْدرٌ وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفَرْط لزومه كقولهم: لَزَازُ خصم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة، أي ولولا العِدَةُ بتأخير العذاب وأجلٌ مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ـ وهو يوم القيامة أو يوم بدر ـ لكان العذاب لزاماً. والفَصْلُ للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1]، ويجوز عطفُه على المستكنّ في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

(١٣٠) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وَصَلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نزِّهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميّزك بالهدى معترفاً بأنه المولي للنعم كلها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار، أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ ومن ساعاته، جمع إِنًا بالكسر والقصر[2]، أو أَناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء. وإنما قدّم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل، فإن القلب فيه أجمع والنفسَ أَمْيَل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز[3]، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[4]. ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب إرادةَ الاختصاص، ومجيئُه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهْرَاهُمَا مِثْلِ ظُهُورِ التِرْسَيْنِ

أو أَمْرٌ بصلاة الظهر، فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبدايةُ النصف الآخر، وجمعُه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلق بسبِّح أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به تُرضي نفسَك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يُرْضِيك ربُّك.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي مَتَّعْنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه مَتَّعْنا، أو به على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل به أو من أزواجاً بتقدير مضاف ودونه، أو بالذمّ وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب ....

---

(١) وللمسارعة إلى بيان جواب لولا (س٦/٤٩).
(٢) تكتب بالقصر «إِنًى» وقيل إِنْيٌ وإِنْوٌ (مختار الصحاح مادة أني).
(٣) أحمز أي أمتن وأشد (مختار الصحاح مادة حَمُزَ).
(٤) المزمل: «٦».

بالفتح[١] وهو لغة كالجَهَرَة في الجَهْرة، أو جمعُ زاهر وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاءِ زيِّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ وما ادّخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيۡرٞ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع.

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾

(١٣٢) ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَمَرَهُ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمره بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ وداوم عليها. ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ وإياهم ففرّغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ لذوي التقوى. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهلَه ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية[٢].

(١٣٣) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ بآية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً. فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونبّههم أيضاً على وجه أبيَن من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية ـ مع أن الآتيَ بها أُميٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها ـ إعجازٌ بيّن، وفيه إشعار بأنه ـ كما يدل على نبوته ـ برهانٌ لِما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرىء الصُّحْفِ بالتخفيف، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم أو لم تأتهم بالتاء والباقون بالياء.

(١٣٤) ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة، والتذكير لأنها في معنى البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا. ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرىء بالبناء للمفعول فيهما.

---

(١) أي بفتح الهاء في «زَهْرة»، أي «زَهَرَة».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط ـ كما في «الدر المنثور» (٥/٦١٣) ـ وأبو نعيم في الحلية (٨/١٧٦) من حديث عبدالله بن سلام. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٦٧): رجاله ثقات.
قلت: محمد بن حمزة هو ابن يوسف بن عبدالله بن سلام. ففي الإسناد انقطاع.

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ منتظر لما يؤول أليه أمرُنا وأمركم. ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ وقرىء فتمتعوا. ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ المستقيم. وقرىء السَّواء أي الوسط الجيد، والسُّوآى، والسَّوْءِ أي الشر، والسُّوَيّ هو تصغيره. ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ من الضلالة. ومَنْ في الموضعين للاستفهام ومحلُّها الرفعُ بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولةً بخلاف الأولى لعدم العائد فتكونُ معطوفةً على محل الجملة الاستفهامية المعلّق عنها الفعلُ على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبيُّ ﷺ. وعنه ﷺ «من قرأ طه أُعطي يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين»[١].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع من حديث أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

ترتيبها ٢١ — آياتها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ الأنبياء مكية وآيُها مِائةٌ واثنتا عشْرَةَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى، أو ما عند الله لقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[١] وقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] أو لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ وإنما البعيدُ ما انقرض ومضىٰ. واللامُ صلة لاقترب، أو تأكيدٌ للإضافة، وأصله اقترب حسابُ الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم[٣]، وخُص الناسُ

(١) المعارج: «٧».

(٢) الحج: «٤٧».

(٣) وتقديم اللام في «للناس» على الفاعل «حسابُهم» للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم. =

بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكر فيه، وهما خبران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكنّ في معرضون.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن سِنَة الغفلة والجَهالة. ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفةٌ لذِكْر، أو صلة ليأتيهم[١]. ﴿مُّحْدَثٍ﴾ تنزيلُه ليُكرَّر على أسماعهم التنبيهُ كي يتعظوا. وقرىء بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفَرْط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو، وكذلك:

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهّي والذهول عن التفكر فيه، ويجوز أن يكون مِنْ واو يلعبون. وقرئت بالرفع على أنها خبر آخرُ للضمير. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث خَفِيَ تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلٌ من واو «وأسروا» للإيماء بأنهم ظالمون فيما أَسَرّوا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع، أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبرُه، وأصلُه وهؤلاء أسرّوا النجوى، فوُضعَ الموصول موضعَه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم، أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بأمره، في موضع النصب بدلاً من النجوى، أو مفعولاً لقول مقدر. كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سِحْرٌ فأنكروا حضوره، وإنما أسرّوا به تشاوراً في استنباط ما يَهْدِم أَمْرَه ويُظْهِر فساده للناس عامة.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أَسروا به، فهو آكَدُ من قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] ولذلك اختير ههنا[٣]، وليطابق قوله ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ في المبالغة. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ قالَ بالإخبارِ عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفىٰ عليه ما يُسرون ولا ما يُضمرون.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضرابٌ لهم عن قولهم هو سِحر إلى أنه تخاليطُ أحلام، ثم إلى أنه كلامٌ افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر، والظاهر أنّ «بل» الأولى لتمام حِكايةٍ والابتداءِ بأخرى. أو للإضرابِ عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاوُلهم في أمر القرآن، والثانيةُ والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيلَ خُيِّلت إليه وخُلِّطت عليه إلى كونه مفترياتٍ اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شِعْريّ يُخَيِّلُ إلى السَامع معانيَ لا حقيقةَ لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في دَرْج الفساد لأن كونه شِعْراً أبعدُ من كونه مفترًى لأنه مشحونٌ بالحقائق والحِكَم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو أبعدُ من كونه أحلاماً

= وفي إسناد الاقتراب ـ المنبىء عن التوجه نحوهم ـ إلى الحساب لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٦/ ٥٣).

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (س٦/ ٥٤).

(٢) الفرقان: «٦».

(٣) أي اختير لفظ القول بقوله «يعلم القول» على لفظ السر في الآية الأخرى لأن القول مشتمل على السرّ والجهر ولإثبات علمه تعالى بالسر والجهر على حد سواء ولا تفاوت بينهما (س٦/ ٥٥).

لأنه مشتمل على مغيّبات كثيرة طابقت الواقعَ، والمفترَىٰ لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نَيِّفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون، مِثْلُ اليد البيضاء والعصا وإبراءِ الأكْمَه وإحياء الموتى، وصحةُ التشبيه من حيثُ إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ باقتراح الآيات لمّا جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جئتهم بها وهم أعتىٰ منهم. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم، إذ لو أتىٰ به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كَمَنْ قبلهم.

(٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جوابٌ لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[١] فأمَرَهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة. والإحالةُ عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويَثِقون بقولهم، أو لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص نوحي بالنون.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ نفيٌ لما اعتقدوا أنها من خواص المَلَك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً مثلهم، وقيل جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢]. ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ وتقرير له، فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء[٣]. وتوحيدُ الجسد لإرادة الجنسِ، أو لأنه مصدر في الأصل، أو على حذف المضاف، أو تأويلِ الضمير بكل واحد، وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجِساد للزعفران، وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتدادِه.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومَنْ في إبقائه حكمة، كمَنْ سيؤمن هو أو أحدٌ من ذريته، ولذلك حُميت العربُ من عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صِيتكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٤]، أو موعظتكم، أو ما تطلبون به حُسْنَ الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

---

(١) الأنبياء: «٣».

(٢) الفرقان: «٧».

(٣) وفي إيثار لفظ «ما كانوا» على أن يقال وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضىٰ جِبلّتهم (س٦/ ٥٧).

(٤) الزخرف: «٤٤».

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردةٌ عن غضب عظيم، لأن القصم كَسْرٌ يُبين تلاؤمَ الأجزاء بخلاف الفصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها، وُصِفت بها لمّا أقيمت مُقامَه. ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم.

(١٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراكَ المشاهَد المحسوس، والضميرُ للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يَهربون مسرعين راكضين دوابَّهم، أو مُشَبَّهين بهم من فَرْط إسراعهم.

(١٣) ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاءً لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقائل مَلَكٌ أو مَنْ ثَمَّ من المؤمنين. ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من التنعم والتلذذ، والإتراف إبطارُ النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غداً عن أعمالكم، أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تُقْصَدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

(١٤) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لمّا رأَوا العذاب ولم يرَوا وجهَ النجاة لذلك لم ينفعهم. وقيل إن أهل حَضورَ من قرى اليمن بُعِث إليهم نبيّ فقتلوه، فسلط الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ فوضع السيف فيهم، فنادى منادٍ من السماء يا لَثَاراتِ الأنبياء، فندموا وقالوا ذلك.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوىٰ لأن المُوَلْوِلَ كأنه يدعو الويل ويقول: يا ويلُ تعالَ فهذا أوانُك، وكلٌّ من تلك ودعواهم يَحتمل الاسمية والخبرية. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ مثلَ الحصيد وهو النبت المحصود، ولذلك لم يجمع. ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين، مِنْ خَمَدت النارُ. وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثاني، كقولك: جعلتُه حلواً حامضاً، إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخُمود، أو صفة له، أو حال من ضميره.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وإنما خلقناها مشحونةً بضُروب البدائع تبصرةً للنظّار وتذكرة لِذوي الاعتبار وتسبباً لما ينتظِم به أمورُ العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعةُ الزوال.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ما يُتلهىٰ به ويُلعب. ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجرَّدات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقِها وتسوية الفُرُش وتزيينها. وقيل اللهوُ الولدُ بلغة اليمن، وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، ويدلّ على جواب الجواب المتقدم. وقيل إنْ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو وتنزيهٌ لذاته عن اللعب، أي بل من شأننا أن نُغَلِّب الحق ـ الذي من جملته الجِدُّ ـ على الباطل ـ الذي من عِداده اللهو[1] ـ. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيمحَقُه، وإنما استعار لذلك القَذْفَ ـ وهو الرميُ البعيدُ المستلزِم لصلابة المرمِيّ ـ والدَّمْغَ ـ الذي هو كسرُ الدماغ بحيث يُشَقُّ غشاؤه المؤدي إلى زُهوق الروح ـ تصويراً لإبطاله به ومبالغةً فيه. وقرىء فيَدْمَغَه بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ وَأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

ووَجْهٌ ـ مع بُعْدِه ـ الحملُ على المعنىٰ والعَطْفُ على الحق. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ هالِك، والزُّهوق ذهاب الرُّوح، وذِكْرُه لترشيح المجاز[2]. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال، وما مصدريةٌ أو موصولة أو موصوفة.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكةَ المنزّلين منه لكرامتهم عليه منزلةَ المقربين عند الملوك. وهو معطوف على مَنْ في السموات؛ وإفرادُهُ للتعظيم أو لأنه أعمّ منه من وجه، أو المرادُ به نوع من الملائكة مُتَعالٍ عن التبوُّء في السماء والأرض، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظّمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيَوْن منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحُسُور تنبيهاً على أن عبادتهم بِثِقَلها ودوامِها حقيقةٌ بأن يُستَحْسَر منها ولا يَسْتَحْسِرون.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في يسبحون؛ وهو استئناف، أو حال من ضميرِ قَبْلِه.

(٢١) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ بل اتخذوا، والهمزة لإنكارِ اتّخاذهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفةٌ لآلهة. أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتُها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ الموتىٰ، وهم وإن لم يصرحوا به لكن لَزِم ادّعاؤهم لها الإلٰهية، فإنّ من لوازمها الاقتدارَ على جميع الممكنات، والمرادُ به تجهيلُهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهِمُ لاختصاص الإنشار بهم.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غيرُ الله، وُصِفَ بإلاّ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلَها لما بعدها ودَلالتِه على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمرادُ ملازمتُه لكونها مطلقاً أو معه

---

(١) وتخصيص شأنِه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذِّكْر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد (س٦/ ٦٠).

(٢) وفي إذا الفجائية والجملةِ الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفىٰ (س٦/ ٦٠).

حملاً لها على غير، كما استثني بغير حَمْلاً عليها، ولا يجوز الرفع على البدل لأنه متفرّع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير مُوجَبٍ. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا، لِما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردتْ عليه القُدَرُ وإن تخالفَتْ فيه تعاوقت عنه. ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المحيطِ بجميع الأجسام الذي هو محلُّ التدابير ومنشأ التقادير[١]. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفردِهِ بالألوهية والسّلْطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مستعبَدون، والضمير للآلهة أو للعباد.

(٢٤) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرره استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمّاً لإنكارِ ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجَدوا آلهة يُنْشِرُون الموتى فاتخذوهم آلهة لِمَا وجدوا فيهم من خواصّ الألوهية؟ أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمرَ بإشراكهم فاتخذوهم متابعةً للأمر، ويعضُد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على فساده نقلاً. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القولُ بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحججُ على بطلانه عقلاً ونقلاً؟![٢] ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمرَ بالتوحيد والنهيَ عن الإشراك؟ والتوحيدُ لمّا لم يتوقف على صحته بعثةُ الرسل وإنزالُ الكتب صح الاستدلالُ فيه بالنقل. ومن معي: أمتُه، ومن قبلي الأممُ المتقدمة، وإضافة الذِّكْر إليهم لأنه عظتهم. وقرىء بالتنوين والإعمال[٣]، وبه وبِمِنْ الجارّة[٤] على أنَّ مَعَ اسمٌ هو ظرفٌ كقَبْلُ وبَعْدُ وشِبْهِهما، وبِعَدمِها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل. وقرىء الحقُّ بالرفع على أنه خبر محذوفٍ وُسِّطَ للتأكيد بين السبب والمسبّب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتّباع الرسول من أجل ذلك.

(٢٥) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنّ ذِكْرُ مَنْ قبلي من حيث إنه خبرٌ لاسم الإشارة مخصوصٌ بالموجود بين أظهُرهم وهو الكتب الثلاثة. وقرأ حفص وحمزةُ والكسائي نوحي إليه بالنون وكسرِ الحاء، والباقون بالياء وفتح الحاء.

---

(١) وإيراد لفظ الجلالة «الله» في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم؛ فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالىٰ عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة (س٦/ ٦٢).

(٢) وإضافة البرهان إليهم للتهكم بهم (س٦/ ٦٢).

(٣) أي «هذا ذكرٌ مَن معي وذِكرٌ مَنْ قبلي» كقوله تعالى «أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً».

(٤) أي هذا ذكرٌ مِنْ معي..

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا الملائكة بناتُ الله[١] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُكْرَمُونَ﴾ وفيه تنبيه على مَدْحَضِ القوم. وقرىء بالتشديد.

(٢٧) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقولَه كما هو دَيْدنُ العبيد المؤدَّبين، وأصله لا يَسبِق قولُهم قولَهُ فَنَسَبَ السَّبْق إليه وإليهم، وجعل القول محلَّه وأداتَه تنبيهاً على استهجان السبق المعرَّض به للقائلين على الله ما لم يَقُله، وأنيبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير. وقرىء لا يَسْبُقُونَهُ ـ بالضمّ ـ من سابَقْتُهُ فسبَقْتُه أَسْبقُه. ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدّموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيدِ لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يَضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أن يُشفَع له مهابةً منه. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون. وأصل الخشية خوفٌ مع تعظيم، ولذلك خُصَّ بها العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء، فإن عُدّي بِمنْ فمعنى الخوف فيه أَظْهَرُ وإن عُدِّي بعلىٰ فبالعكس.

(٢٩) ﴿۞ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريد به نفيَ البُنوة وإدعاءَ ذلك عن الملائكة وتهديدَ المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مَنْ ظلم بالإشراك وادعاءِ الربوبية.

(٣٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا. وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ذاتَ رتْق أو مرتوقتين، وهو الضمّ والالْتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقةً متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتنويع والتمييز، أو كانت السمواتُ واحدة ففُتِقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجُعلت باختلاف كيفياتها وأحوالِها طبقاتٍ أو أقاليمَ. وقيل كانتا بحيث لا فُرجة بينهما فَفُرِج. وقيل كانتا رتقاً لا تُمطر ولا تُنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بالسموات سماءَ الدنيا وجمعُها باعتبار الآفاق أو السمواتُ بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار. والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتقَ عارِضٌ مفتقر إلى مؤثِّر واجبِ ابتداء أو

---

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (س٦/ ٦٣).

بوَسْط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب. وإنما قال كانتا ولم يقل كُنَّ لأن المراد جماعةُ السموات وجماعة الأرض. وقرىء رَتَقاً بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرَّفْضِ بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1] وذلك لأنه من أعظم موادِّه، أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صيّرنا كل شيء حيٍّ بسبب من الماء لا يحيا دونَه. وقرىء حياً على أنه صفةُ كلّ، أو مفعول ثانٍ، والظرف لَغْوٌ والشيءُ مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ ثابتات، مِنْ رسا الشيءُ إذا ثبت. ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهةَ أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأنْ لا تميد فحذَفَ لا لأَمْن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ مسالِكَ واسعةً. وإنما قدَّم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو لِيُبْدِل منها سُبلاً فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسّعها للسابلة[2] مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

(٣٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته، أو الفسادِ والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراقِ السمع بالشُّهب. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمالِ قدرته وتناهي حكمتِه التي يُحَسُّ ببعضها ويُبْحَث عن بعضها في علمَيْ الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوينُ بدلٌ من المضاف إليه، والمراد بالفَلَك الجنسُ كقولهم: كساهم الأميرُ حُلّةً. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يُسرعون على سطح الفلَك إسراعَ السابح على سطح الماء، وهو خبرُ كلٌّ والجملةُ حال من الشمس والقمر، وجاز انفرادهما بها لعدم اللَّبْس، والضمير لهما، وإنما جُمع باعتبار المطالع، وجُعِل الضميرُ واوَ العقلاء لأن السباحة فِعْلُهم.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا نتربص به رَيْبَ المنون، وفي معناه قوله:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

والفاءُ لتعلق الشرط بما قبله، والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

---

(١) النور: «٤٥».
(٢) جماعة السائرين.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ ذائقةٌ مرارةَ مفارقتها جسدَها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ ونعاملكم معاملةَ المختبِر. ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةًۖ﴾ ابتلاءً، مَصْدرٌ من غير لفظه. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أيْ بِسُوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإنّ ذِكْر العدُوّ لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالتوحيد، أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمةً عليهم، أو بالقرآن. ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ منكِرون، فهم أحق أن يُهزأ بهم، وتكريرُ الضمير للتأكيد والتخصيصِ ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

(٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ كأنه خُلِق منه لِفَرط استعجاله وقلة ثباته، كقولك: خُلق زيد من الكرَم. جَعَلَ ما طُبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغةً في لزومه له، ولذلك قيل: إنه على القلب. ومِنْ عَجَلَتِه مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُ الوعيد. روي أنها نزلت في النضْر بن الحارث[١] حين استعجل العذاب. ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ نِقَماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهيُ عما جبلت عليه نفوسهم ليُقعدوها عن مرادها.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقتُ وَعْدِ العذاب أو القيامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

(٣٩) ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ محذوف الجواب، وحين مفعولُ يعلمُ، أي: لو يعلمون الوقتَ الذي يستعجلون منه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو حينَ تُحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا. ويجوز أن يُترك مفعول يعلم ويُضْمَرَ لحينَ فِعْلٌ، بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بُطلان ما هم عليه حين لا يكفون[٢]. وإنما وُضِع الظاهر فيه موضعَ الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك[٣].

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع» (١١/ ٢٨٩).

(٢) وإيثار صيغة المضارع في الشرط «لو يعلم» وإن كان المعنىٰ على المضي لإفادة استمرار عدم العلم (س٦/ ٦٧).

(٣) أي قال: «لو يعلم الذين كفروا» ولم يقل: لو يعلمون، فأظهر لفظ الذين كفروا وذلك ليدل على ما أوجب لهم =

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝٤٤﴾

(٤٠) ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ العِدَةُ أو النارُ أو الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، مصدرٌ أو حال. وقرىء بفتح الغين. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرىء الفعلان بالياء. والضميرُ للوعد أو الحين وكذا في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العِدَة والحينَ بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون للنار أو للبغتة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

(٤١) ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وَعْدٌ له بأن ما يفعلونه به يَحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا، يعني جزاءه[1].

(٤٢) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم. ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ الرحمن تنبيه على أنْ لا كالىء غيرُ رحمته العامة وأنّ اندفاعه بمُهْلته[2] ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يُخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسَه، حتى إذا كَلَؤوا منه عرفوا الكالىء وصلُحوا للسؤال عنه.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ بل ألَهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز مَنْعنا، أو مِنْ عذابٍ يكون من عندنا. والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المُعْرِض الغافل عن الشيء بعيد وعن المُعْتَقِد لنقيضه أبعد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئنافٌ بإبطال ما اعتقدوه، فإنّ مَنْ لا يقدر على نَصر نفسه ولا يصحبه نصر من الله فكيف ينصر غيره؟!.

(٤٤) ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراجُ والتمتع بما قُدِّر لهم من الأعمار. أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحَسِبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه، ولذلك عقّبه بما يدل على أنه أملٌ كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾

= ذلك وهو دخولهم النار.
وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر لكونهما أشهر الجوانب، ولأن الإحاطة بهما يستلزم الإحاطة بالكل (س٦/٦٨).

(١) وتقديم «بالذين سخروا..» على الفاعل الذي هو «ما كانوا به...» للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم (س٦/٦٨).

(٢) وتقديم الليل على النهار لأن الدواهي أكْثَرَ وقوعاً فيه وأشدّ وقعاً (س٦/٦٩).

أرض الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يُجريه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ رسولَ الله والمؤمنين[١].

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ بما أوحي إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تُسْمِعُ الصمَّ على خطاب النبي ﷺ، وقرىء بالياء على أن فيه ضميرَه[٢]. وإنما سماهم الصم ووَضَعَه موضع ضميرهم للدلالة على تصامّهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بيسمع أو بالدعاء. والتقييدُ به لأن الكلام في الإنذار، أو للمبالغة في تصامّهم وتجاسُرهم.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنىٰ شيء. وفيه مبالغات، ذِكْرُ المسّ، وما في النفحة من معنى القِلّة فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء، والبناءُ الدالُّ على المَرَّة. ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ من الذي يُنْذَرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ لدَعَوْا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العَدْل توزن بها صحائفُ الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيلٌ لإرصاد الحساب السوي والجزاءِ على حسب الأعمال بالعدل. وإفرادُ القسط لأنه مصدر وُصِفَ به للمبالغة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه، كقولك: جئت لخَمْسٍ خَلَوْن من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العملُ أو الظلم مقدار حبة. ورفع نافعٌ «مثقال» على كان التامّة. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وقرىء آتينا بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا أو من المؤاتاة فإنهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وأَثَبْنا من الثواب، وجئنا[٣]. والضميرُ للمثقال، وتأنيثه لإضافته إلى الحبة. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلنا.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتابَ الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الحَيرة والجهالة، وذكْراً يَتّعِظ به المتقون أو ذِكْرَ ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل الفرقان النصر، وقيل فلق البحر. وقرىء ضياءً بغير واو على أنه حال من الفرقان[٤].

---

(١) وفي تعريف «الغالبون» تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلَبَة المعروفون بها (س٦/ ٧٠).

(٢) أي ضمير النبي عليه السلام، أي «ولا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ».

(٣) أي قرىء «آتينا وأثبنا وجئنا».

(٤) وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝٤٩ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠ ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ صفة للمتقين، أو مدحٌ لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من الفاعلِ أو المفعول. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون. وفي تصديرِ الضمير وبناء الحكم عليه مبالغةٌ وتعريض[1].

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ يعني القرآن. ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثير خيرُه. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

(٥١) ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ الاهتداءَ لوجوه الصلاح، وإضافتُه[2] ليدل على أنه رُشْدُ مِثْلِه وأن له شأناً. وقرىء رَشَدَهُ وهو لغة. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ موسىٰ وهارون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغِه حيث قال: إني وجهت. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ عَلِمْنا أنه أهلٌ لما آتيناه، أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فِعْلَه سبحانه وتعالى باختيارٍ وحكمة، وأنه عالم بالجزئيات.

(٥٢) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ متعلق بآتينا أو برُشْدَه أو بمحذوف، أي اذْكُر من أوقات رشده وقتَ قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التِمثال صورةٌ لا روح فيها لا يضر ولا ينفع. واللامُ للاختصاص لا للتعدية، فإن تعديةَ العُكوف بعلىٰ، والمعنى أنتم فاعلون العكوفَ لها، ويجوز أن يؤول بعلى أو يُضمَّن العكوفُ معنى العبادة.

(٥٣) ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فقلّدناهم، وهو جواب عما لزم الاستفهامُ من السؤال عما اقتضى عبادتها وحَمَلَهم عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ منخرطين في سلك ضَلال لا يخفى علىٰ عاقل، لعدم استناد الفريقين إلى دليل. والتقليد إنْ جاز فإنما يجوز لمَنْ علم في الجملة أنه على حق.

(٥٥) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليلَه إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أَبِجِدٌّ تقولُه أم تلعب به[3].

---

(١) وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر ـ بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق ـ للإيذان بكونها معظم المخوِّفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون.
وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه (س٦/ ٧١).

(٢) أي وإضافة الرشد إلى إبراهيم عليه السلام.

(٣) وفي إيراد الشقّ الأخير «أم أنت من اللاعبين» بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم =

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه. وهُنّ للسموات والأرض أو للتماثيل، وهو أَدْخَل في تضليلهم وإلزام الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد مَنْ تحقق الشيء وحققه.

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقرىء بالباء، وهي الأصل والتاءُ بدل من الواو المبدلةِ منها، وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأجتهدن في كسرها، ولَفْظُ الكيد وما في التاء من التعجب لِصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟﴾ عنها. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدكم، ولعله قال ذلك سراً.

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قُطاعاً فُعال بمعنى مفعول كالحُطام، من الجذّ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة أو جمعُ جَذِيذ كخِفَاف وخَفيف، وقرىء بالفتح. وجِذَاذاً جمع جَذيذ وجُذذاً جمع جُذّة. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام كسَّر غيرَه واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتهارِه بعداوة آلهتهم فيُحاجُّهم بقوله: بل فعله كبيرهم فيَحُجُّهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يُرجَع إليه في حل العُقَد فيبكِّتهم بذلك، أو إلى الله أي يرجعون إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

(٥٩) ﴿قَالُوا۟﴾ حين رجَعوا. ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بِجُرأته على الآلهة الحقيقةِ بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها، أو بتوريط نفسه للهلاك.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعيبهم، فلعله فعلَه. ويَذْكُرُ ثاني مفعولي سَمِع، أو صفة لفتًى مصححةٌ لأَنْ يتعلق به السمع، وهو أبلغ في نسبة الذِّكْر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ خبرُ محذوفٍ أي هو إبراهيم، ويجوز أن يُرْفَع بالفعل لأن المراد به الاسم.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تَمَكُّنَ الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له.

(٦٢) ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ حين أحضروه[1].

= (س٦/ ٧٣).

(١) اقتُصِر على حكاية قولهم دون ذِكْر مجيئهم به للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنيّ عن البيان (س٦/ ٧٤).

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(٦٣) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أَسْنَد الفعل إليه تجوّزاً لأن غيظه لِمَا رأى من زيادة تعظيمهم له تسبَّب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوبٍ تعريضي كما لو قال لك من لا يُحسِنُ الخطّ فيما كتبتَه بخط رشيق: أأنتَ كتبتَ لهذا فقلتَ بل كتبتَه أنت، أو حكايةً لما يلزم من مذهبهم جوازُه، وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وما بينهما اعتراض. أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم[1]. وقولُه كبيرُهم هذا مبتدأ وخبر ولذلك وُقِفَ على فعله. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لإبراهيمَ ثلاثُ كَذِبات»[2] تسميةٌ للمعاريض كذِباً لِمَا شابهت صورتُها صورتَه.

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وراجعوا عقولهم. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ فقال بعضهم لبعض. ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا مَنْ ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين.

(٦٥) ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شَبَّه عوْدَهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه. وقرىء نُكِّسُوا بالتشديد، ونَكَسُوا أي نكسوا أنفسهم. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها، وهو على إرادة القول.

(٦٦) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر، فإنه ينافي الألوهية.

(٦٧) ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجّرٌ منه على إصرارهم بالباطل البيّن. وأُفّ صوت المتضجر، ومعناه قبحاً ونتناً، واللام لبيان المتأفَّفِ له[3]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبْحَ صنيعكم.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟﴾ أخذاً في المضارة لما عجَزوا عن المحاجّة. ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإن النار أهول ما يُعاقب به. ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً. والقائلُ فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خُسِفَ به الأرضُ، وقيل نمروذ.

(٦٩) ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذاتَ بردٍ وسلام، أي ابرُدي برداً غير ضار. وفيه مبالغات: جَعْلُ النار المسخرة لقدرته مأمورةً مطيعة، وإقامةُ كوني ذاتَ بردٍ مَقَامَ ابرُدي، ثم حُذف

---

(١) قوله (أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم) عطف على قوله أسند الفعل إليه تجوّزاً.

(٢) هو عند البخاري بلفظ «لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات. . .» برقم (٣٣٥٨، ٥٠٨٤).

(٣) وإظهار لفظ الجلالة «الله» لمزيد استصحاب ما فعلوا (س٦/٧٦).

المضاف وأقيم المضافُ إليه مُقامَه. وقيل نُصِبَ سلاماً بفعله أي وسَلِّمْنا سلاماً عليه. روي أنهم بَنَوا حظيرة بكوثى[١] وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً[٢] فرموا به فيها، فقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: فسَلْ ربك، فقال: حسبي من سؤالي عِلْمُه بحالي[٣]، فجعل الله تعالى ـ ببركة قوله ـ الحظيرةَ روضةً[٤] ولم يحترق منه إلا وَثَاقُه، فاطّلع عليه نمروذ من الصرح فقال إني مُقرِّبٌ إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٥]، وكان إذ ذاك ابنَ ستَّ عشرةَ سنة[٦]. وانقلابُ النار هواءً طيباً ليس ببِدْع غيرَ أنه هكذا على خلاف المعتاد، فهو إذن من معجزاته. وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها، كما ترى في السَّمَندل[٧] ويُشعِرُ به قولُه: «على إبراهيم».

وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكراً في إضراره. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أخسرَ من كل خاسر لمَا عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيمَ على الحق وموجِباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، وبركاتُه العامةُ أن أكثر الأنبياء بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعُهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين ولوطٌ عليه الصلاة والسلام بالمؤتَفِكة وبينهما مسيرة يوم وليلة[٨].

---

(١) بضم أوله، وبالثاء المثلثة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.

(٢) انظر البحر المحيط (٦/ ٣٢٨).

(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ «علمه بحالي غنى عن سؤالي» حكاية عن الخليل عليه السلام. وقال ابن تيمية: موضوع.

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٢٢٩ رقم ٤٥٦٤) عن ابن عباس قال «كان آخرَ قولِ إبراهيم حين أُلقيَ في النار» (حسبي اللهُ ونِعمَ الوكيل).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ٤٥) عن شعيب الجبائي.

(٧) السَّمَنْدَلُ: ـ طائر إذا انقطع نَسْلُهُ وهَرِمَ ألقى نفسه في الجَمْر فيعود إلى شبابه. قاله أبو سعيد. وقال غيره: هو دابَّة يدخل النار فلا تَحْرِقه [لسان العرب (٦/ ٣٧٦)].

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ٤٧) عن ابن إسحاق.
وذكر ابن جرير أقوالاً أخر، ثم قال مرجحاً أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام، «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مُقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يُقم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي =

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ عَطِيةً فهي حال منهما، أو وَلَدَ وَلَدٍ، أو زيادةً على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوب ولا بأس به للقرينة. ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة. ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح وحملناهم عليه فصاروا كاملين.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم. ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى الحق. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالُنا إياهم حتى صاروا مكمَّلين. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليحثّوهم عليها فيتمَّ كمالُهم بانضمام العمل إلى العلم، وأصله أن تفعل الخيرات ثم فِعْلاً الخيرات ثم فِعْل الخيرات، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل، وحذفت تاءُ الإقامة المعوَّضة من إحدى الألِفَين لقيام المضاف إليه مَقامها. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحّدين في العبادة، ولذلك قدّم الصلة.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمةً أو نبوةً أو فصلاً بين الخصوم. ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قرية سَدوم. ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني اللواطة. وصفها بصفة أهلها أو أسندها إليها على حذف المضاف وإقامتها مُقامه، ويدل عليه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنه كالتعليل له.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ في أهل رحمتنا أو جنتنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قَبْلِ المذكورين. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الطوفان أو أذى قومه. والكربُ الغم الشديد.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ مُطَاوعُ انتصر، أي جعلناه منتصراً[1]. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيبِ الحق والانهماك في الشر، ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

= بارك فيها للعالمين» هـ.

(١) قال أبو السعود: (وحمله على فانتصر يأباه ما ذُكِر من دعائه عليه السلام، فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر (س٦/٧٨).

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

(٧٨) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل في كَرْم تدلّت عناقيده. ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً[١]. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمَين والمتحاكمَين إليهما عالمِين[٢].

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ الضميرُ للحُكومة أو للفتوى. وقرىء فَأَفهمناها. روي أن داودَ حكم بالغنم لصاحب الحرْث، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشْرةَ سنةً: غَيْرُ هذا أَرْفَقُ بهما، فأَمَر بدفع الغنم إلى أهل الحرْث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحَرْثِ[٣] إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادّان. ولعلهما قالا اجتهاداً. والأول نظيرُ قول أبي حنيفة في العبد الجاني، والثاني مثلُ قول الشافعي بِغُرْم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أَبَقَ، وحكمه في شرعنا: عند الشافعي وجوبُ ضمان المُتْلَف بالليل إِذْ المعتاد ضَبْطُ الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي ﷺ لمّا دخلت ناقةُ البراء حائطاً وأفسدته فقال: «على أهل الأموال حِفْظُها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظُها بالليل»[٤]، وعند أبي حنيفة لا ضمانَ إلاّ أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ: «جَرْحُ العَجْماء جُبَارٌ»[٥]. ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يُقْدَح فيه. وقيل على أنّ كلَّ مجتهد مصيب، وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: «ففهمناها»، ولولا النقْلُ لاحتمل توافُقُهما، على أن قوله ففهّمناها لإظهار ما تُفُضِّل عليه في صغره. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ يُقدِّسن الله معه إما بلسان الحال، أو بصوت يتمثل له، أو بخَلْق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يَسِرْن معه، مِنَ السباحة، وهو حال أو استئنافٌ لبيان وجه التسخير. ومع متعلقة بسخرنا أو يسبحن. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على الجبال أو مفعول معه. وقرىء بالرفع على الابتداء أو العطفِ على الضمير على ضَعْفٍ. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لأمثاله، فليس بِبِدْع منّا وإن كان عجباً عندكم.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمَلَ الدرْع، وهو في الأصل اللباس قال:

البَسْ لكُلِّ حالَةٍ لَبُوسَها إمَّا نعيمَها وإمَّا بُوسَها

---

(١) النفش رعي الماشية في الليل وأصله الانتشار والتفرق (روح المعاني ١٧/ ٧٤).

(٢) وجملة «كنا لحكمهم...» جملة معترضة مقرِّرة للحكم ومفيدة لمزيد الاعتناء بشأنه (س٦/ ٧٨).

(٣) أي وأمر برفع الحرْثِ...

(٤) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الأقضية (ج٢٧) وأبو داود (٣٥٦٩) وابن ماجة (٢٣٣٢).
وهو حديث صحيح. أما الحديث الآتي «جرح العجماء جبار» فهو عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبني على الخاص ويُرد إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء كما أفاده الخطابي في معالم السنن على هامش سنن أبي داود.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٩٩، ٢٣٥٥، ٦٩١٢) ومسلم، كتاب الحدود، باب جرح العجماء (ج٤٥)، وجُبار: هدَر.

قيل كانت صفائحَ فحَلَّقها وسرَدها. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بعَلّم أو صفة لِلَبوس. ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بَدَلَ الاشتمال بإعادة الجارّ. والضميرُ لداود عليه الصلاة والسلام أو للبوس، وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، وفي قراءة أبي بكر ورُوَيْس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلك، أَمْرٌ أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ وسخرنا له، ولعل اللامَ فيه دونَ الأولِ لأنّ الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أَمْرٌ يَظْهر في الجبال والطيرِ مع داود وبالإضافة إليه. ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ شديدةَ الهبوب من حيث إنها تُبْعِدُ بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] وكانت رُخاءً في نفسها طيِّبةً. وقيل كانت رُخاءً تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بمشيئته، حالٌ ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رَواحاً بعدما سارت به منه بُكْرة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريه على ما تقتضيه الحكمة.

(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار ويُخرجون نفائسها. ومِنْ عطفٌ على الريح، أو مبتدأ خبرُه ما قبلَه، وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال أُخَرَ كبناء المدن والقصور. واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾[2]. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أن يَزيغوا عن أمره، أو يُفْسِدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم.

(٨٣) ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ بأني مسني الضر. وقرىء بالكسر[3] على إضمار القول أو تضمينِ النداء معناه. والضَّرُّ بالفتح[4] شائع في كل ضرر، وبالضم خاصٌّ بما في النفس كمرضٍ وهُزال. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وَصَفَ ربه بغاية الرحمة بعدما ذَكَرَ نفسَه بما يوجبها واكتفىٰ بذلك عن عرض المطلوب لُطفاً في السؤال. وكان رومياً من ولد عيصَ بنِ إسحاقَ استنبأه الله وكثَّر أهلَه وماله، فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهابِ أمواله والمرضِ في بدنه ثمانيَ عشرة سنةً أو ثلاثَ عشْرة سنة أو سبعاً وسبعةَ أشهر وسبعَ ساعات. روي أن امرأته ـ مَاخِيرَ بنتَ ميشا بنِ يوسفَ أو رحمةَ بنتَ إفرائيمَ بنِ يوسف ـ قالت له يوماً: لو دعوتَ الله؟ فقال: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

---

(١) سبأ: «١٢».
(٢) سبأ: «١٣».
(٣) أي بكسر الهمزة «إنّي».
(٤) أي بفتح الضاد.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأَنْ وُلِد له ضِعْفُ ما كان، أو أُحْيِيَ ولدُه ووُلِدَ له منهم نوافلُ[١]. ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ رحمة على أيوب وتَذكِرةً لغيره من العابدين ليصبِروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا للعابدين فإنا نَذْكُرهم بالإحسان ولا ننساهم.

(٨٥) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ يعني إلْياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى، أو تكفل أُمّته، أو له ضِعْفُ عمل أنبياء زمانه وثوابِهم، والكِفْلُ يجيء بمعنى النصيب والكَفَالَةِ والضِّعْفْ. ﴿كُلٌّ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف وشدائد النُوَب.

(٨٦) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ يعني النبوة أو نعمةَ الآخرة. ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

(٨٧) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ وصاحبَ الحوت يونُس بنَ متّىٰ ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومه لمّا بَرِم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يُؤْمَرَ، وقيل: وَعَدَهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يَعْرِفْ الحال فظَنَّ أنه كَذَبَهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة، أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لِخَوفهم لُحوقَ العذاب عندها. وقرىء مُغْضَباً. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نُضيّق عليه، أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القَدَر، ويعضده أنه قرىء مثقّلاً[٢]، أو لن نُعْمِل فيه قدرتنا، وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرةٌ شيطانية سبقت إلى وهمه فسمّيت ظناً للمبالغة. وقرىء بالياء[٣]، وقرأ يعقوب على البناء للمفعول، وقرىء به مثقلاً[٤]. ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يُعجِزك شيء. ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة، وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[٥].

---

(١) يقال لولد الولد نافلة (المصباح المنير مادة نفل).

(٢) أي قرىء «نُقَدِّرَ» بضم النون وفتح القاف وكسر الدال مشددة.

(٣) أي «يَقْدِرَ» بفتح الياء وكسر الدال المخففة.

(٤) قراءة يعقوب «يُقْدَرَ» وقرىء «يُقَدَّرَ».

(٥) أخرجه الترمذي (٥/٥٢٩ رقم ٣٥٠٥) والحاكم (١/٥٠٥) و(٢/٣٨٢) و(٢/٥٨٣)، قال الحاكم صحيح الإسناد.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٨) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ﴾ بأنْ قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل ثلاثة أيام. والغَمُّ غمُّ الالتقام، وقيل غمُّ الخطيئة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غُموم دعَوا الله فيها بالإخلاص. وفي الإمام نُجِي ولذلك أخفى الجماعةُ النونَ الثانية فإنها تُخفىٰ مع حروف الفم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله نُنَجّي فحُذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تَظَاهرون، وهي وإن كانت فاءً فحَذْفُها أَوْقَعُ من حذف حرف المضارعة التي لمعنًى، ولا يَقْدَحُ فيه اختلافُ حركتيْ النونين فإنّ الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثْلين مع تعذر الإدغام، وامتناعُ الحذف في تتجافىٰ لخوف اللَّبس[1]. وقيل هو ماض مجهولٌ أُسْنِد إلى ضمير المصدر وسُكِّن آخرُه تخفيفاً، ورُدّ بأنه لا يُسند إلى المصدر والمفعول مذكورٌ والماضي لا يُسَكَّنُ آخرُه.

(٨٩) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي به.

(٩٠) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عُقْرِها، أو لزكريا بتحسين خلقها وكانت حَرِدة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير[2]. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ ذوي رغَب ورهَب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ مُخبتين أو دائبين الوجلَ. والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

= . ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في تخريج الكلم الطيب رقم (١٢٢).
ـ من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «دعوة ذي النون إذ دعا هو في بطن الحوت أن «لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» ـ رفعه ـ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له.
ـ وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٥٦٠) وأحمد (١/ ١٧٠) وأبو يعلى (٢/ ١١٠) بهذا الإسناد وسياق أحمد وأبي يعلى طويل، فيه قصة.
ـ وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٦٥) من طريق مطلب بن عبدالله بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ «من دعا بدعاء يونس استجيب له».
وله شاهد: أخرجه الحاكم (١/ ٥٠٥) من طريق محمد بن المهاجر عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده. بلفظ «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه، فقيل له بلى، فقال: دعاء ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) لبس المضارع بالماضي لو حذفت إحدى التاءين.

(٢) وتعدية فعل المسارعة بـ «في» دون إلى للإيذان بكونهم داخلين في الخيرات غير خارجين عنها.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

(٩١) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام، يعني مريم[١]. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي في عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحدَه، أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي قصتهما أو حالهما، ولذلك وَحَّد قولَه: ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام مِلَّتكم التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتّباع. وقرىء أُمَّتكم بالنصب على البدل، وأمةٌ بالرفع على الخبر، وقرئتا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لا غير.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ صَرَفَهُ إلى الغَيبة اِلْتفاتاً لينعِيَ على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قِطَعاً موزّعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم[٢].

(٩٤) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ فلا تضييع. ﴿لِسَعْيِهِ﴾ استُعير لمَنْع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه، ونَفْيُ الجنس للمبالغة[٣]. ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ لسعيه. ﴿كَاتِبُونَ﴾ مُثْبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجهٍ ما.

(٩٥) ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ وممتنعٌ على أهلها غيرُ متصوَّر منهم. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وحِرْمٌ بكسر الحاء وإسكان الراء، وقرىء حَرِمٌ[٤]. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ حكمنا بإهلاكها، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ رجوعَهم إلى التوبة أو الحياة، ولا صِلَةٌ. أو عدمُ رجوعهم للجزاء، وهو مبتدأ خبرُه حرام أو فاعلٌ له سادّ مسد خبره أو دليل عليه، وتقديرُه: توبتهم أو حياتُهم أو عدمُ بعثهم. أو لأنهم لا يرجعون ولا ينيبون، وحرام خبرُ محذوفٍ أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية

---

(١) والتعبير عنها بالموصول «التي» لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه في حقها (س٦/ ٨٣).

(٢) وإيراد اسم الفاعل «راجعون» للدلالة على الثبات والتحقق (س٦/ ٨٤).

(٣) وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به (س٦/ ٨٤).

(٤) قوله وقرىء «حرم» أي بفتح الحاء وسكون الراء، وبفتح الحاء وكسر الراء والتنوين، وبكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ، وبضم الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ أيضاً، وبفتح الحاء والراء والميم على المضيّ أيضاً، وبضم الحاء وكسر الراء المشددة وفتح الميم على البناء للمفعول.

المتقدمة، ويؤيده القراءة بالكسر[١]. وقيل حرام عَزْمٌ وموجَب عليهم أنهم لا يرجعون.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

(٩٦) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ متعلق بحرام، أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بلا يرجعون أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدمُ الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتِها. وهو فتحُ سد يأجوجَ ومأجوج، وهي «حتى» التي يُحكىٰ الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ فُتِّحت بالتشديد. ﴿ وَهُم ﴾ يعني يأجوج ومأجوج، أو الناسَ كلَّهم. ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٖ ﴾ نَشَزٍ من الأرض، وقرىء جَدَثٍ وهو القبر. ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يُسرعون، مِنْ نَسَلان الذئب. وقرىء بضم السين.

(٩٧) ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ وهو القيامة. ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى ﴿ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾[٢] فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبْصَار. ﴿ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ مقدر بالقول، واقع موقع الحال من الموصول. ﴿ قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ لم نعلم أنه حق. ﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنُّذُر.

(٩٨) ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يَحتمل الأوثان وإبليسَ وأعوانَه، لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عَبَدَتهم، لما روي[٣] أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآيَةَ على المشركين قال له ابن الزِّبَعْرىٰ: قد خَصَمْتُك وربِّ الكعبة، أليس اليهودُ عبدوا عُزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مُلَيح

---

(١) أي بكسر الهمزة «إنهم».

(٢) الروم: «٣٦».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/١٥٣ رقم ١٢٧٣٩) من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي رزين عن ابن عباس.
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٦٩) وقال: فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة.
ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/٩٧) من طريق سعيد بن جبير. والحاكم (٢/٣٨٥) من طريق عكرمة. كلاهما عنه مختصراً وفيه «فقال المشركون» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
● وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١١١ ـ ١١٢: «تنبيهان: (أحدهما): اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم، وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال: في هذه القصة لابن الزبعرىٰ.
«ما أجهلك بلغة قومك. فإني قلت: وما تعبدون. وهي لما لا يعقل ولم أقل ومن تعبدون» هـ. وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند.
(الثاني): ـ قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرىٰ غير لازم. لأنَّ الخطاب مخصوص بقريش وما تعبدون من الأصنام. ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل» هـ.
وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأمل. فإنه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله.

عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[1] الآية وعلى هذا يعمُّ الخطابُ ويكونُ مَا مؤولاً بمَنْ أو بما يعمُّه، ويدل عليه ما روي أن ابن الزِّبَعْرَىٰ قال: هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل مَنْ عُبِد من دون الله فقال ﷺ: «بل لكل من عُبِد من دون الله». ويكونُ قوله إن الذين بياناً للتجوّز أو للتخصيص، فأُخِّر عن الخطاب. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يُرمىٰ به إليها وتهيج به، مِنْ حَصَبَهُ يحْصُبه إذا رماه بالحصباء. وقرىء بسكون الصاد وَصْفاً بالمصدر. ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استئنافٌ أو بدل من حصَبُ جهنم، واللامُ معوَّضةٌ من علىٰ للاختصاص والدلالةِ على أن ورودهم لأجلها.

لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأن المؤاخِذَ بالعذاب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لهم عنها.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنينٌ وتنفس شديد، وهو من إضافة فِعْلِ البعض إلى الكل للتغلّب إنْ أُريد بـ ما تعبدون الأصنام. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل لا يسمعون ما يَسُرُّهم.

(١٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي الخَصلةُ الحسنى، وهي السعادةُ أو التوفيق بالطاعة أو البشرىٰ بالجنة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم يُرْفَعُون إلى أعلى عليين. روي[2] أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو بدل من مبعدون أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها. والحسيس صوتٌ يُحَسُّ به. ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم. وتقديمُ الظرف للاختصاص والاهتمام به.

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ النفخةُ الأخيرة لقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى

---

(١) الأنبياء: «١٠١».

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٩٨٦) من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سُمَّار علي.
وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف، وابن عم النعمان بن بشير مجهول، فالأثر ضعيف.
وأخرج ابن جرير (١٠/ج١٧/٩٦) من طريق محمد بن حاطب عن علي وليس فيه إلا «عثمان منهم» وإسناده صحيح.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، أو الانصرافُ إلى النار، أو حين يُطْبَقُ على النار، أو يُذْبَح الموت. ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تستقبلهم مهنئين لهم. ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ يومُ ثوابكم، وهو مقدر بالقول. ﴿ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ مقدر باذْكُر، أو ظرفٌ لِلاَ يحزُنُهُمُ أو تتلقاهم، أو حالٌ مقدَّرة من العائد المحذوف مِنْ توعدون. والمرادُ بالطيّ ضدُّ النشر، أو المَحْوُ من قولك اطْوِ عنّي هذا الحديث، وذلك لأنها نُشِرَتْ مَظَلَّةً لبني آدم فإذا انتقلوا قُوِّضت عنهم. وقرىء بالياء والبناء للمفعول[2]. ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ طيّاً كطيّ الطومار لأجل الكتابة أو لِما يُكتب أو كُتب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع[3]، أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل السّجِلّ مَلَكٌ يطوي كُتُب الأعمال إذا رفعت إليه، أو كاتبٌ كان لرسول الله ﷺ. وقرىء السِّجْل كالدَّلْو، والسُّجُلّ كالعُتُلّ، وهما لغتان فيه. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مِثْلَ بَدْئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبدِّدة. والمقصودُ بيانُ صحة الإعادة بالقياس على الإبداء، لشُمول الإمكان الذاتي المُصَحِّح للمقدورية، وتناولِ القدرة القديمة لهما على السواء. وما كافَّةٌ أو مصدريةٌ، وأولَ مفعولٌ لبدأنا أو لفعل يفسره: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ أو موصولةٌ والكافُ متعلقة بمحذوف يفسره نعيده، أي نعيد مثل الذي بدأنا وأولَ خَلْقٍ ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعْدًا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لنُعيدُه، أو منتصِبٌ به لأنه عِدَةٌ بالإعادة. ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي علينا إنجازُه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك لا محالةَ.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المرادُ بالزبور جنسُ الكتب المنزلة وبالذكر اللوحُ المحفوظ. ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة، أو الأرض المقدسة. ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين، أو الذين كانوا يُسْتَضْعفون مشارقَ الأرض ومغاربَها، أو أمة محمد ﷺ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ لَكِفايةً أو لَسَبَبَ بُلوغِ إلى البُغية. ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ همُّهم العبادةُ دون العادة.

(١٠٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ ما بُعثتَ به سببٌ لإسعادهم وموجِبٌ لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونُه رحمةً للكفار أَمْنُهُمْ به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

---

(١) النمل: «٨٧».

(٢) أي «يُطْوَىٰ».

(٣) أي جمع الكتاب «للكُتُب».

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إلهٌ واحد، وذلك لأن المقصود الأصليَّ من بعثه مقصورٌ على التوحيد، فالأولى لقصر الحكم على الشيء والثانيةُ على العكس. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدَّق بالحجة، وقد عرفتَ أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

(١٠٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أَعْلمتُكم ما أُمِرْتُ به، أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ مُسْتَوِين في الإعلام به، أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذاناً على سواء. وقيل أعلمتكم أني على سواء أي عَدْلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النير. ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر، لكنه كائن لا محالة.

(١١٠) ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما تُجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحَن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخيرَ جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم أو امتحانٌ لينظرَ كيف تعملون. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

(١١٢) ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ اقْضِ بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم. وقرأ حفص قال على حكاية قول رسول الله ﷺ، وقرىء ربُّ بالضم، ورَبِّي أَحْكَمُ على بناء التفضيل، وأَحْكِمْ مِنَ الإِحْكَام. ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوبُ منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكةَ تكونُ لهم وأن راية الإسلام تَخفُق أياماً ثم تَسْكُن وأن المُوعَدَ به لو كان حقاً لنزل بهم، فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فَخَيَّب أمانيَّهم ونصر رسوله ﷺ. وقرىء بالياء وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسَبَه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كلُّ نبي ذُكِرَ اسمُهُ في القرآن»[1] والله تعالى أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
انظر (الكافي الشاف) (ص١١٢ رقم ١٤).

سُورَةُ الحَجِّ

آياتها ٧٨ — ترتيبها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

سورة الحج مكيةٌ

إلا ستَ آيات مِنْ «هذان خصمان» إلى «صراط الحميد»[1] وآيُها ثمانٍ وسبعون آية

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/٤٠١ ـ ٤٠٢).

«روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها. غير آيتين نزلتا بالمدينة:

قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول...) إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ ـ ٥٧] وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة:

(هذان خصمان) واللتان بعدها [الحج: ٢٠ ـ ٢٢] وقال أبو سليمان الدمشقي: أولها مدني إلى قوله تعالى: (وبشر المحسنين) [الحج: ٣٨] وسائرها مكي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: (هذان خصمان) إلى قوله تعالى (الحميد) [الحج: ٢٠ ـ ٢٥] وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكياً ومدنياً وحضرياً وسفرياً وحربياً وسلمياً وليلياً ونهارياً وناسخاً ومنسوخاً.

فأما المكي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها.

وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين.

وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات.

وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع.

وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة.

وأما الحضري، قال رأس العشرين [منها] نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ تحريكُها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريكُ الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافةً معنويةً بتقدير في، أو إضافةَ المصدر إلى الظرف على إجرائه مُجرى المفعول به. وقيل هي زلزلة تكون قُبيل طلوعِ الشمس من مغربها، وإضافتُها إلى الساعة لأنها من أشراطها. ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ هائل. علل أَمْرَهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يُؤَمِّنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيُبقُوا على أنفسهم ويتّقوها بملازمة التقوى.

(٢) ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ تصويرٌ لِهَوْلها، والضميرُ للزلزلة، ويومَ منصوب بتذهل. وقرىء تُذْهَلُ وتُذْهِلُ مجهولاً ومعروفاً أي تُذهِلُها الزلزلةُ. والذهول الذهابُ عن الأمر بدهشة. والمقصودُ الدلالة على أن هولها بحيث إذا دَهِشَت التي أَلْقمت الرضيعَ ثديَها نزعتْه من فيه وذهِلت عنه. وما موصولة أو مصدرية. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى. ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فأرهقهم هولُه بحيث طيّر عقولَهم وأذهب تمييزهم. وقرىء تُرَىٰ من أَرَيْتُك قائماً أو رُؤيت قائماً بنصب الناس ورفعه على أنه نائبُ منابَ الفاعل. وتأنيثُه على تأويل الجماعة، وإفرادُه بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثرُ السَّكَر إنما يراه كل أحد على غيره. وقرأ حمزة والكسائي سَكْرَىٰ كعطشى، إجراءً للسَّكَر مُجرىٰ العلل.

(٣) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ نزلت في النضر بن الحارث[1]، وكان جَدِلاً يقول: الملائكةُ بناتُ الله والقرآنُ أساطير الأولين ولا بعْثَ بعد الموت، وهي تعمّه وأضرابَه. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة أو في عامةِ أحواله. ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ متجرّدٍ للفساد، وأصله العُرْيُ.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ على الشيطان. ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ تبعه، والضمير للشأن. ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ خبر لمَنْ أو جواب له، والمعنى كتب عليه إضلالُ مَنْ يتولاه لأنه جُبل عليه. وقرىء بالفتح[2] على تقدير فشأنُه أنه يُضله لا على العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام، وقرىء بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمارِ القول أو تضمينِ الكَتْبِ معناه. ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ من إمكانه وكونِه مقدوراً. وقرىء من البَعَثِ بالتحريك كالجَلَب. ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يُزيح رَيْبكم فإنا خلقناكم. ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذيةِ التي يتكون منها المنيّ. ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ مَنيٍّ، مِنَ النّطْف وهو الصبّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/٨).

(٢) أي بفتح الهمزة في «أنه» في الموضعين.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، وهي في الأصل قَدْرُ ما يُمْضَغ. ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مُسَوّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيب وغيرِ مُسوّاة، أو تامةٍ وساقطة، أو مصوَّرةٍ وغيرِ مصورة. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قُدرَتَنا وحكمتنا، وأن ما قَبِلَ التغيرَ والفساد والتكوّن مرة قَبلها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدَر على ذلك ثانياً. وحُذف المفعول إيماءً إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذِّكر. ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أنْ نقره. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوضع، وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربعُ سنين. وقرىء ونُقِرَّ بالنصب، وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عطفاً على نبيِّنَ، كأنّ خَلْقَهم مُدَرَّجاً لغرضين: تبيينِ القدرة، وتَقْريرِهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف. وقرئا[1] بالياء رفعاً ونصباً، ويُقِرّ بالياء، ونَقُرُّ من قررت الماء إذا صببتُه. وطفلاً حالٌ أجريت على تأويل كلِّ واحد، أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ كمالَكم في القوة والعقل، جمع شِدة كالأَنْعُم جمع نعمة، كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشُد أو قبله. وقرىء يَتَوَفّىٰ أي يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف. وقرىء بسكون الميم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عَمِله ويُنكِر ما عرفه. والآية استدلال ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة، مِنْ هَمَدت النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت. وقرىء وربأت أي ارتفعت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَنٍ رائق. وهذه دِلالةٌ ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونِها مشاهَدَة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويلِه على أحوال متضادة وإحياءِ الأرض بعد موتها، وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأنه يَقْدِر على إحيائها، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة[2]. ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قُدرته لذاته الذي نِسْبَتُه إلى الكل على سواء. فلما دلت المشاهدةُ على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتدارُه على إحياء كلِّها.

(٧) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه[3] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى

---

(١) قوله: (وقرئا) عائدة على الفعلين نقرّ، ونخرجكم..

(٢) وتخصيص إحياء الموتى بالذكر ـ مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها ـ للتصريح بما فيه النزاع والدفعِ في نحور الكافرين، وتقديمه لإبراز الاعتناء به (س٦/ ٩٥).

(٣) وإيثار صيغة الفاعل في «آتية» للدلالة على تحقيق إتيانها وتقرره البتَّة لاقتضاء الحكمة إياه (س٦/ ٩٥).

ٱلْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخُلْف.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ على أنه لا سند له عن استدلالٍ أو وحي، أو الأول في المقلِّدين وهذا في المقلَّدين، والمراد بالعلم العلمُ الفطريُّ ليصح عطفُ الهدىٰ والكتاب عليه.

(٩) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ متكبراً، وثَنْيُ العِطْف كنايةٌ عن التكبر كَلَيِّ الجِيد، أو مُعْرِضاً عن الحق استخفافاً به. وقرىء بفتح العين أي مانِعٌ تَعَطُّفَهُ. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علّة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، على أنّ إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروجٌ من الهدىٰ إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ على الالتفات، أو إرادةِ القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزيُ والتعذيبُ بسبب ما اقترفتَه من الكفر والمعاصي[١]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مُجَازٍ لهم على أعمالهم. والمبالغةُ لكثرة العبيد.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ من الدين لا ثَبَاتَ له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظَفَرٍ قَرّ وإلا فَرّ. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ روي أنها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينة، فكان أحدُهم إذا صح بَدَنُه ونُتِجت فرسه مُهراً سَرِيّاً وولدت امرأتُه غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أَصَبْتُ منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أَصَبْتُ إلا شراً وانقلب[٢]. وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائبُ فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أَقِلْني فقال: «إن الإسلام لا يُقَالُ» فنزلت[٣]. ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا

---

(١) وإسناده إلى يده لأن الاكتساب عادة يكون بالأيدي (س٦/ ٩٧).

(٢) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرج معناه البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) وابن أبي شيبة، والإسماعيلي وابن أبي حاتم ـ كما في فتح الباري (٨/ ٤٤٣) ـ وابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ.

(٣) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرجه ابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) و«فتح الباري» (٨/ ٤٤٣) عنه وإسناده ضعيف.
قلت: وأخرج البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) في تفسير هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال: «ومن الناس من يعبد الله على حرف» قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونُتِجتَ =

﴿وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد. وقرىء خاسراً بالنصب على الحال، والرفع على الفاعلية. ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصاً على خسرانه أو على أنه خبرُ محذوفٍ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إذ لا خُسرانَ مثلُه.

يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ يَعْبُد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن المقصد، مستعارٌ مِنْ ضلال مَنْ أبعد في التيه ضالاً.

(١٣) ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذابَ في الآخرة. ﴿أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ الذي يُتوقع بعبادته وهو الشفاعةُ والتوسل بها إلى الله تعالى. واللامُ معلّقة ليدعو من حيث إنه بمعنى يزعم، والزعم قول مع اعتقاد، أو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراءً له مُجرى يقول. أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضرارَه به، أو مستأنفةٌ على أَنّ يدعو تكريرٌ للأول ومَنْ مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الناصر. ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ الصاحب[1].

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحّد الصالِح وعقاب المشرك الطالح لا دافعَ له ولا مانع.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار، والمعنى: أن الله ناصرٌ رسولَه في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعُه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق، والضمير لمَنْ. ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ فَلْيستَقْصِ في إزالة غيظه أو جزعَه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المُبَالغ جزعاً حتى يَمُدّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق، مِنْ قَطَع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نَفَسَه بحبس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عِنانها فيجتهدَ في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر لِيَقْطَع بكسر اللام. ﴿فَلۡيَنظُرۡ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ﴾ فعلُه ذلك، وسماه على الأول كيداً لأنه منتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نَصْرِ الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدةِ غيظهم على المشركين.

= خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِدِ امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

(١) وإيراد صيغة التفضيل في «أقرب» مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حاله والإمعان في ذمه (س٦/٩٨).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الإنزال. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أنزلنا القرآن كلَّه. ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ ولأن الله يهدي به أو يُثبت على الهدى. ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايتَه أو إثباته، أنزله كذلك مبيناً.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكُومة بينهم وإظهارِ المُحِق منهم على المبطل، أو الجزاءِ فيجازي كلاً ما يليق به ويُدخله المحل المعدَّ له، وإنما أدخلت إنّ على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأتى عن تدبيره، أو يَدُل بذِلّته على عظمة مدبره. ومَنْ يجوز أن يعمّ أولي العقل وغيرَهم على التغليب، فيكونُ قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعادِ ذلك منها. وقرىء والدوابُ بالتخفيف كراهةَ التضعيف أو الجمعِ بين الساكنين[1]. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَطْف عليها إن جُوّز إعمالُ اللفظ الواحد في كل واحد من مفهوميه، وإسنادُه باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر، فإن تخصيصَ الكثير يدل على خصوص المعنى المسندِ إليهم. أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، يدل عليه خبرُ قسيمه نحوُ حقَّ له الثوابُ. أو فاعِلُ فعلٍ مضمَر، أي ويسجد له كثير من الناس سجودَ طاعة. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بكفره وإبائه عن الطاعة، ويجوز أن يُجْعَل وكثيرٌ تكريراً للأول مبالغةً في تكثير المحقوقين بالعذاب وأَنْ يُعْطَفَ به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرىء حُقَّ بالضم، وحَقّاً بإضمار فعله. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة، وقرىء بالفتح[2] بمعنى الإكرام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الإكرام والإهانة.

(١٩) ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان، ولذلك قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ حملاً على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بهما المؤمنون والكافرون. ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقال اليهود: نحن أحقُّ بالله وأقدمُ منكم كتاباً ونبيُّنا قبل نبيكم، وقال

(١) والمراد بالرؤية في «ألم تر» العلم، وقد عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم (س٦/ ١٠٠).

(٢) أي بفتح الراء أي مُكْرَم.

المؤمنون: نحن أحقُّ بالله آمنا بمحمد ونبيِّكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيَّنا ثم كفرتم به حسداً، فنزلت[١]. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فَصْلٌ لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢]. ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم. وقرىء بالتخفيف. ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ نيران تحيط بهم إحاطةَ الثياب. ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم، أو خبر ثان. والحميمُ الماء الحارّ.

يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فَرْط حرارتِه في بطونهم تأثيرَه في ظاهرهم فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودُهم. والجملة حال من الحميم، أو من ضميرهم. وقرىء بالتشديد للتكثير[٣].

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ سياط منه يُجلَدون بها، جمع مِقْمعة، وحقيقتها ما يُقمع به أي يُكفّ بعنف.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ من النار. ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ من غمومها، بدلٌ من الهاء بإعادة الجار. ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي فخرَجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيبُ النار فيرفعهم إلى أعلاها فيُضرَبون بالمقامع فيَهوُون فيها. ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النارِ البالغة في الإحراق.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ غيّر الأسلوب فيه وأسند الإدخالَ إلى الله تعالى وأكده بإنّ إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من حَلَيْتُ المرأةَ إذا ألبستُها الحُلَىٰ. وقرىء بالتخفيف، والمعنى واحد. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعولٍ محذوف، وأساور جَمْعُ أسورة وهو جمع سِوَار. ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانٌ له. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف عليها لا على ذهب لأنه لم يُعهد السوارُ منه إلا أن يراد المرصعةُ به. ونَصَبَه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمارِ الناصب مثلُ ويُؤتَون، وروَىٰ حفص بهمزتين، وترك أبو بكر والسوسيُّ عن أبي عمرو الهمزةَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٨) عن ابن عباس بدون إسناد وأخرجه ابن جرير (١٧/٩٩) عن ابن عباس من طريق عطية العوفي، وسنده ضعيف لضعف عطية.
ولكن أخرج البخاري (٣٩٦٥، ٤٧٤٤) أن الآية نزلت في مبارزة حمزة وعبيدة وعلي مع عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر.

(٢) الحج: «١٧».

(٣) وتأخير الجلود إما لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس (س٦/١٠١).

الأولى، وقرىء لُؤْلُوَاً بقلب الثانية واواً، ولُوليَاً بقلبهما واوين ثم قلب الثانية ياء، ولِيلِيَاً بقلبهما ياءين، ولَوْلِ كأَدْلِ[1]. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غيّر أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابُهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[2] أو كلمة التوحيد. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه وهو الجنة أو الحُور، أو المستحق لذاته الحمدَ وهو الله سبحانه وتعالى وصراطُه الإسلام.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً واستقبالاً وإنما يريد به استمرارَ الصدّ منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حَسُنَ عطفُه على الماضي. وقيل هو حال من فاعل كفروا، وخبرُ إن محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على اسم الله. وأَوَّلَهُ الحنفية بمكة، واستشهدوا بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ - أي المقيم والطارىء - على عدم جواز بيع دُورها وإجارتها، وهو مع ضعفه مُعَارَض بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾[3] وشراءِ عمرَ رضي الله تعالى عنه دارَ السجن فيها من غير نكير[4]. وسواءٌ خبرٌ مقدَّم، والجملة مفعولٌ ثانٍ لجعلناه إن جُعل للناس حالاً من الهاء وإلا فحالٌ من المستكنّ فيه. ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحالُ، والعاكِفُ مرتفِع به، وقرىء العاكفِ بالجر على أنه بدل من الناس. ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مما تُرِك مفعولُه ليتناول كل مُتَناوَلٍ، وقرىء بالفتح[5] من الورود. ﴿بِإِلْحَادٍۭ﴾ عدول عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلةٌ له أي مُلْحِداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام. ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جوابٌ لمَنْ.

---

(١) أَدْلِ جمع دَلْو.

(٢) الزمر: «٧٤».

(٣) الحشر: «٨».

(٤) نقل البيضاوي عن الحنفية غير محرر، فالفتوىٰ عند الحنفية خلاف ذلك، والمنقول عن أبي حنيفة بأنه لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها، وفي رواية عنه بأنه لا بأس ببيع أرضها، وكره أبو حنيفة إجارة البيوت في مكة أيام الموسم.
انظر تحرير هذه المسألة في روح المعاني (١٧/١٣٨).

(٥) أي بفتح الياء «يَرِدْ».

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مباءةً، وقيل اللام زائدة، ومكانَ ظرفٌ أي وإذ أنزلناه فيه. قيل: رُفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانَه بريح أرسلها فكَنَست ما حوله فبناه على أُسّه القديم. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَنْ مفسِّرةٌ لبوأنا من حيث إنه تضمن معنى تعبّدْنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدريةٌ موصولة بالنهي أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذارِ لمن يطوف به ويصلي فيه. ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقلٌ باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟. وقرىء يُشرِكْ بالياء، وقرأ نافع وحفص وهشام بَيْتِيَ بفتح الياء.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ﴾ نادِ فيهم. وقرىء وآذن. ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعِد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حُجّوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج[1]. وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أُمِرَ بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشاةً جمعُ راجل كقائم وقيام. وقرىء بضم الراء مخفف الجيم ومثقّله، ورَجالىٰ كعَجالى. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بُعْدُ السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفةٌ لضامر محمولة على معناه. وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان، أو استئناف فيكون الضمير للناس. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقرىء مَعِيق يقال بئر بعيدة العُمْق والمُعْق بمعنى.

(٢٨) ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ ليَحضروا. ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينيةً ودنيوية، وتنكيرُها لأن المراد بها نوعٌ من المنافع مخصوصٌ بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحِها. وقيل كنّى بالذكْر عن النحر لأن ذبحَ المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشرُ ذي الحِجة، وقيل أيامُ النحر. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ علّق الفعل بالمرزوق وبيّنه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها، أَمَرَ بذلك إباحةً وإزاحة لما عليه أهلُ الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوَّع به دون الواجب. ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿الْفَقِيرَ﴾ المحتاج، والأمرُ فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥) ـ.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

(٢٩) ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون من البرّ في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الرُّكن الذي به تمامُ التحلل فإنه قرينةُ قضاء التَّفَث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامرٍ وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أولُ بيت وضع للناس، أو المُعْتَق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدِمه فمنعه الله تعالى؟ وأما الحجاجُ فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُ محذوفٍ أي الأمر ذلك، وهو وأمثاله تَطلُّقٌ للفصل بين كلامين. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائرَ ما لا يَحِلّ هتكه، أو الحَرَم وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرّم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتعظيم خير له. ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلوَّ عليكم تحريمُه، وهو ما حَرُم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله، فلا تُخرجوا منها غير ما حرمه الله كالبَحيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس، وهو غايةُ المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفيرِ عن عبادتها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأسُ الزور، كأنه لمّا حث على تعظيم الحُرُمات أتبعه ذلك رداً لِمَا كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حَكَمَ بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عَدَلت شهادةُ الزور الإشراك بالله تعالى» ثلاثاً، وتلا هذه الآية[1]. والزُّور من الزَّوَر وهو الانحراف كما أن الإفك من الأَفْك وهو الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤ رقم ٣٥٩٩) والترمذي (٤/ ٥٤٧ رقم ٢٣٠٠) وابن ماجه (٢/ ٧٩٤ رقم ٢٣٧٢) وأحمد (٤/ ٣٢١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ١٥٤) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٤٩ رقم ٤١٦٢) كلهم من طريق محمد بن عبيد عن سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك.
وسكت عليه أبو داود، وقال الترمذي: هذا عندي أصحُّ، وخريم بن فاتك له صحبه. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف ابن ماجه.
● وأخرجه الترمذي (٤/ ٥٤٧ رقم ٢٢٩٩) وأحمد (٤/ ٢٣٣، ٣٢٢) وابن جرير (١٠/ج١٧/ ١٥٤).
كلهم من طريق مروان الفزاري، عن سفيان بن زياد العصفري عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم وفاتك بن فضالة مجهول الحال كما في التقريب (٢/ ١٠٧ رقم١).
وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ.
والخلاصة أن الحديث مرسل ضعيف.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره. وقرأ نافع وحده فتَخَطَّفه بفتح الخاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوّح به في الضلالة. وأو للتخيير كما في قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)]، أو للتنويع فإن من المشركين مَنْ لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى: ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكاً يشبه أحد الهلاكيْن.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ دين الله، أو فرائضَ الحج ومواضع نُسُكه، أو الهدايا لأنها من معالم الحج، وهو أوفق لظاهر ما بعده. وتعظيمُها أن تختارها حِسَاناً سِماناً غاليةَ الأثمان. روي أنه ﷺ أهدىٰ مائة بَدَنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَة[(٢)] من ذهب[(٣)]، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدىٰ نَجيبة[(٤)] طلبت منه بثلثمائة دينار[(٥)]. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوىٰ القلوب، فحذفت هذه المضافات، والعائد إلى مَنْ، وذِكْرُ القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الآمرةُ بهما.

---

(١) البقرة: «١٩».

(٢) البُرة هي الحلقة التي تجعل في أنف الجمل.

(٣) ● أخرج البزار في الكشف (٢/ ١٩ رقم ١١٠٤) عن ابن عباس أن النبي ﷺ أهدى مائة بدنةٍ مقلَّدة مجلَّلَة» وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٢٥) وقال «رواه البزار وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة لكنه مدلس» هـ.
● وأخرج أبو داود (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١ رقم ١٧٤٩) والحاكم (١/ ٤٦٧) وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٩١ رقم ١١١٤٧) و(١١/ ٩٢ رقم ١١١٤٨) وأحمد في المسند (١/ ٢٦١) كلهم من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل في رأسه بُرَةَ فِضَّة. قال ابن منهال: بُرَة من ذهب. زاد النفيلي، يغيظ بذلك المشركين».
قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وسكت أبو داود والمنذري على الحديث. وحسنه الألباني في صحيح أبو داود.

(٤) النجيبة مؤنث «فعيل» من نجب أي الفاضل من الإبل [النهاية (٥/ ١٧)].

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٦٥ رقم ١٧٥٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٣١) من حديث ابن عمر.
قال البخاري: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم. وقال الذهبي فيه جهالة، وقال الحافظ: مقبول. [الميزان (١/ ٤٢٦) والتقريب (١/ ١٢٥)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافعُ دَرِّها ونسْلها وصوفِها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقتُ نحرِها منتهيةً إلى البيت أي ما يليه من الحرم. وثمّ تَحتمل التراخيَ في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافعُ دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافعُ دينية أعظمُ منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث الأنعام والضميرُ فيه لها، أو المرادُ على الأول لكم فيها منافعُ دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت ثم محِلها منتهيةً إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال، أو يكون فيها ثوابها وهو البيتُ المعمور أو الجنة، وعلى الثاني لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقتُ الخروج منها منتهيةً إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ متعبَّداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر[١] أي موضع نُسُك. ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نَسيكتَهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نَعَماً. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أخلِصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتُهم.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبةً منه، لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من الكُلَف والمصائب. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. وقرىء والمقيمين الصلاة على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(٣٦) ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة كخُشْب وخَشَبَة، وأصله الضم وقد قرىء به[٢]، وإنما سميت بها الإبل لعظَم بَدَنها، مأخوذة مِنْ بَدُنَ بَدَانةً. ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في إجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة»[٣] تناوُلُ اسم البدنة لها شرعاً، بل الحديث

---

(١) أي بكسر السين في «مَنْسِكاً».

(٢) أي وأصله ضم الدال، وقد قرىء بضم الدال «والبُدُن».

(٣) أخرجه أبو داود (٣/٢٣٩ رقم ٢٨٠٩) عن جابر. وهو حديث صحيح.

● وأخرج مسلم (٢/٩٥٥ رقم ١٣١٨/٣٥١) ومالك في الموطأ (٢/٤٨٦ رقم ٩) والترمذي (٣/٢٤٨ رقم ٩٠٤) وأبو داود (٣/٢٣٩ رقم ٢٨٠٧) والنسائي (٧/٢٢٢ رقم ٤٣٩٣) والدارمي (٢/٧٨). =

يمنع ذلك، وانتصابُه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ ومَنْ رفعه جعله مبتدأ. ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أَعْلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافعُ دينية ودنيوية. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك. ﴿صَوَآفَّ﴾ قائماتٍ قد صَفَفْن أيديَهن وأرجلَهن. وقرىء صَوافِنَ من صَفَن الفرس إذا قام على ثلاثٍ وعلى طرفِ حافر الرابعة لأن البَدَنة تُعْقَل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرىء صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف، وصَوَافِيَ أي خوالصَ لوجه الله، وصَوَافِيْ بسكون الياء على لغة من يسكّن الياء مطلقاً كقولهم: أعطِ القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده وبما يُعطىٰ مِن غير مسألة ويؤيده قراءة القَنِعَ، أو السائل من قَنَعتُ إليه قُنُوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ والمعترض بالسؤال. وقرىء والمعتري، يقال عَرَهُ وعراه واعتره واعتراه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عِظَمها وقوتها حتى تأخذوها منقادة فتعقِلوها وتحبسوها صافةً قوائمَها، ثم تطعنون في لَبَّاتِها[1]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ لن يُصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّق بها. ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهَراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له. وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القَرَابينَ لطّخوا الكعبة بدمائها قُربةً إلى الله تعالى، فَهَمّ به المسلمون، فنزلت[2]. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيرُه فتُوحِّدوه بالكبرياء. وقيل هو التكبيرُ عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها. وما تحتمل المصدريةَ والخبرية، وعلى متعلقةٌ بتكبروا لتضمُّنه معنىٰ الشكر. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه.

(٣٨) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ غائلةَ المشركين. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يُدَافِعُ أي يبالغ في الدفع مبالغةَ مَنْ يُغَالب فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، كمَنْ يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

= عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهِلّينَ بالحج، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقرِ كلُ سبعةٍ منا في بَدَنةٍ.

(١) اللَّبَّةُ هي موضع النحر والجمع لَبَّابٌ (مختار الصحاح مادة لبب).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه (فتح القدير ٣/ ٤٥٦).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿أُذِنَ﴾ رُخِّص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ المشركين، والمأذون فيه محذوفٌ لدلالته عليه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتِلهم المشركون. ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يَتظلّمون إليه فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر فأنزلت[1]. وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نَيّف[2] وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَعْدٌ لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم[3].

(٤٠) ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقوه به. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ على طريقة قول النابغة.

وَلاَ عَيْـبَ فِيهِـمْ غَيْـرَ أَنَّ سُيُـوفَهُـمْ   بِهِـنَّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكَتَـائِـبِ[4]

وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل. وقرأ نافع دِفَاعُ، وقرأ نافع وابن كثير لَهُدِمَتْ بالتخفيف. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيَعٌ﴾ بِيَعُ النصارى. ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصلى فيها، وقيل أصلها صَلُوتا بالعبرانية فعُرِّبت. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١١٣ رقم ٢٩) «لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين قلت: هو منتزع من أحاديث. أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حبان قوله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...» وذكر الطبري أن الصحابة رضي الله عنهم استأذنوا رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسراً. فأنزل الله «إن الله لا يحب كل خوان كفور» فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال «أذن للذين يُقاتلون...» الآية هـ.

(٢) النيّفُ معناه الزيادة، وهو من واحد إلى ثلاث، أما البضع فمن أربع إلى تسع، ولا يقال إلا بعد عِقْدٍ أي عشرة ونيف أو مائة ونيّف أو ألف ونيف (المصباح المنير مادة نيف).

(٣) والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سُنن الكبرياء، وتأكيدُه بإنّ وباللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين (س٦/١٠٨).

(٤) من الطويل.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

(٤١) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يَسْتَجْمِع ذلك غيرُهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وَعَدَه.

(٤٢) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوْحدي في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ﴾ غيّر فيه النظمُ وبُني الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ولم يكذبوه وإنما كذبه القِبْط، ولأن تكذيبه كان أشنعَ وآياتِه كانت أعظم وأشيع. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت[1] آجالُهم المقدّرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياةِ هلاكاً والعمارةِ خراباً.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم[2]. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلُها. ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانُها على سقوفها بأن تعطّل بنيانُها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، فيكون الجارّ متعلقاً بخاوية، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مُطِلّة عليها بأن سقطت وبقِيَتْ الحيطان مائلة مشرفة عليها. والجملة معطوفة على «أهلكناها» لا على «وهي ظالمة» فإنها حالٌ والإهلاك ليس حالَ خُوائها، فلا محلَ لها إنْ نَصَبْتَ كأيٍّ بمقدر يفسره أهلكنا وإن رفعتَهُ بالابتداء فمحلها الرفع. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على قرية أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستقىٰ منها لهلاك أهلها. وقرىء بالتخفيف[3]، مِنْ أَعْطَله بمعنى عطّله. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى خاويةٌ على عروشها خاليةٌ مع بقاء عروشها. وقيل المراد ببئر بئرٌ في سفح جبل بحضرموت، وبقصرٍ قصرٌ مشرفٌ على قُلّته كانا لقوم حنظلةَ بنِ صفوانَ من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما[4].

---

(١) انصرمت أي انقضت.

(٢) أي بالتاء «أَهْلَكْتُها» والبصريان هما أبو عمرو ويعقوب.

(٣) أي بتخفيف الطاء «مُعْطَلَة».

(٤) وهو قول الضحاك، ولكن ظاهر التنكير يفيد عدم إرادة معيّنٍ منهما (روح المعاني ١٧/١٦٦).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروْا مصارع المُهْلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يجب أن يُعْقَل من التوحيد بما حَصَل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع من الوحي والتذكير بحال مَنْ شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار، وفي تعمى راجع إليه والظاهرُ أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار، أي ليس الخللُ في مشاعرهم وإنما أَيِفَت عقولُهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذِكْرُ الصدور للتأكيد ونفيِ التجوّز وفضلِ التنبيهِ على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾[1] قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت[2] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[3].

(٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ المتوعَّد به. ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الخُلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يُعَجِّل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنيه حتى استقصر المُدَدَ الطوال، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكَمْ من أهل قرية، فَحُذِفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه في الإعراب، ورُجِع للضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل. وإنما عَطَفَ الأولىٰ بالفاء وهذه بالواو لأن الأُولى بدلٌ من قوله «فكيف كان نكير» وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيانِ أنّ المتوعَّد به يَحيق بهم لا محالة وأن تأخيره لعادته تعالى. ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمهلتكم. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلَكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب. ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلىٰ حكمي مرجعُ الجميع.

(٤٩) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُوَضِّح لكم ما أُنذِركم به. والاقتصارُ على الإنذار ـ مع عموم الخطاب وذِكْرِ الفريقين ـ لأن صدر الكلام ومساقَه للمشركين، وإنما ذكرَ المؤمنين وثوابهم زيادةً في غيظهم.

(٥٠) ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما بَدَر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة. والكريمُ من كل نوع ما يَجْمَع فضائلَه.

---

(١) الإسراء: «٧٢».
(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٧/١٦٨) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٧٧).
(٣) الحج: «٤٦».

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

(٥١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقّين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، مِنْ عاجَزَه فأعجزه وعجَّزه إذا سابقه فسَبَقه، لأن كلاً من المتسابقيْن يطلب إعجاز الآخر عن اللُّحوق به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو مُعْجِزِين على أنه حال مقدَّرة. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسمُ دَرَكَةٍ.

(٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسولُ مَنْ بعثه الله بشريعة مجدَّدة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومَنْ بعثه لتقرير شرعٍ سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبيُّ ﷺ علماء أمته بهم[(١)]، فالنبي أعمُّ من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً» قيل فكم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جماً غفيراً»[(٢)]. وقيل الرسول من جَمَعَ إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبيُّ غيرُ الرسول مَنْ لا كتاب له. وقيل الرسول مَنْ يأتيه الملك بالوحي، والنبي يقال له ولمن يوحىٰ إليه في المنام. ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ زَوَّر في نفسه ما يهواه. ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في تشهِّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام «وإنه لَيُغَانُ على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[(٣)]. ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يُزيحه. ﴿ثُمَّ

---

(١) يشير المؤلف إلى ما اشتهر «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».
قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٧٠٢) «قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له. وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر...» هـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٦) وإسحاق، من رواية معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: كم الأنبياء؟ فقال مثله.
وفيه معان بن رفاعة ضعيف [التقريب (٢/ ٢٥٨)] وعلي بن يزيد ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الموارد (ص٥٢ ـ ٥٤ رقم ٩٤) و(ص٥٠٨ رقم ٢٠٧٩). من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر فذكره في حديث طويل جداً.
وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور، ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجها في المستدرك (٢/ ٥٩٧) وغيره، من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله، يحيى السعدي ضعيف [المجروحين (٣/ ١٢٩)]. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة ـ انظر «الكافي الشاف» (ص١١٣ ـ ١١٤ رقم ٣٠) ـ.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٥ رقم ٤١/ ٢٧٠٢) وأبو داود (٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨ رقم ١٥١٥) من حديث الأعز المزني.
● ليغان: ـ قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد، والمراد هنا ما يتغشى القلب. قال القاضي: ـ قيل المراد العترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه. فإذا أفتر عنه أو غفل عُدَّ ذلك ذنباً، واستغفر منه (صحيح مسلم).

﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ثم يُثبت آياته الداعيةَ إلى الاستغراق في أمر الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم. قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يُقرِّبهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾[1] فأخذ يقرؤها، فلما بلغ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[2] وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانُه سهواً إلى أن قال: تلك الغرانيقُ العُلىٰ وإن شفاعتهنّ لتُرتجى، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لمَّا سجد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحققين[3]، وإن صح فابتلاءٌ يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه. وقيل تمنّىٰ قرأ كقوله:

تَمَنَّـــــى كِتَـــــابَ الله أَوَّلَ لَيْلَـــــةٍ ... تَمَنِّـــــيَ دَاوُدَ الـــزَّبُـــورَ عَلَـــى رِسْـــلِ

وأُمنيَّتُهُ قراءتُه. وإلقاءُ الشيطان فيها أن تكلمَ بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه مِنْ قراءة النبي ﷺ، وقد رُدَّ أيضاً بأنه يُخِلّ بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٣) ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ علةٌ لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن المُلْقىٰ أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني الفريقين، فوَضَعَ الظاهرَ موضع ضميرهم قضاءً عليهم بالظلم. ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحقُّ النازلُ من عند الله، أو تمكينُ الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادتُه في الإنس من لدن آدم.

---

(١) النجم: «١».

(٢) النجم: «٢٠».

(٣) أخرج هذه القصة البزار (٣/ ٧٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٣ رقم ١٢٤٥٠) عن ابن عباس.
قال البزار: «لا نعلمه يروي بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور. وإنما يُعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس» هـ.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٥) ورجال البزار والطبراني رجال الصحيح. قلت: ـ القائل الشيخ حمدي السلفي ـ والضعف من التردد والشك بالإضافة إلى ما ذكره البزار.
وأفضل ما يرجع إليه في هذه القصة رسالة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني بعنوان:
[نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق]. وانظر «روح المعاني» للألوسي (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤) «وفتح القدير» الشوكاني (٣/ ٤٦١) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٢/ ٧٩) وما بعدها.

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيما أشكل. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيحٌ يوصلهم إلى ما هو الحقُّ فيه.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته، يقولون ما بالُه ذكرها بخير ثم ارتد عنها؟ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة أو أشراطُها أو الموتُ. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم حرب يُقتَلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يُقتَلون فيه فيَصِرْن كالعُقْم، أو لأن المقاتلين أبناءُ الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً فوُصف اليومُ بوصفها اتّساعاً، أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريحُ العقيم لِمَا لم تُنشىء مطراً ولم تلقّحْ شجراً، أو لأنه لا مِثْلَ له لقتال الملائكة فيه. أو يوم القيامة على أن المراد بالساعة غيرُه، أو على وضعه موضع ضميرها للتهويل.

(٥٦) ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ التنوينُ فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغايةُ، أي: يوم تزول مِريتُهم. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة، والضميرُ يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وإدخالُ الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيهٌ على أن إثابة المؤمنين بالجنات تَفَضُّلٌ من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ عن أعمالهم فلذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب[1].

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الجنةَ ونعيمَها، وإنما سوّى بين من قُتل في الجهاد ومن مات حتفَ أنفِه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قُتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا؟ فنزلت. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مَعادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

---

(١) قوله «فأولئك» استعمل اسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم في الشر والفساد (س٦/ ١١٤).

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿۞ ذَٰلِكَ﴾ أيِ الأمرُ ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الابتداءُ بالعقاب ـ الذي هو الجزاءُ ـ للازدواج أو لأنه سببُه. ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما نَدَب اللهُ إليه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(١)]، وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرتِه وتعالي شأنِه لما كان يعفو ويغفر فغيرُه بذلك أولى، وتنبيهٌ على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادرُ على ضده.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادرٌ على تغليب الأمور بعضها على بعض، جارٍ عادتُه على المداولة بين الأشياء المتعاندة، ومن ذلك إيلاجُ أحد المَلَوَين في الآخر بأن يزيد فيه ما يَنقُص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع قول المعاقِب والمعاقَب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يُهملهما.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصفُ بكمال القدرة والعلم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ في نفسه الواجبُ لذاته وحده، فإن وجوبَ وجودِه ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأً لكل ما يوجد سواه عالِماً بذاته وبما عداه، أو الثابتُ الإلهيةِ، ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرىء بالبناء للمفعول فتكون الواو لِما فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدومُ في حد ذاته، أو باطلُ الألوهية. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على الأشياء. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريكٌ لا شيءَ أعلىٰ منه شأناً وأكبر منه سلطاناً.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهامُ تقريرٍ، ولذلك رُفِعَ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطفٌ على أَنْزَلَ، إذ لو نُصِبَ جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولِكَ: ألم تر أني جئتك فتكرمني، والمقصودُ إثباتُه[(٢)]. وإنما عُدِل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد

---

(١) الشورى: «٤٣».

(٢) أتىٰ الفعل المضارع «فتُصبحُ» مرفوعاً، ولم يأت منصوباً علىٰ أنه جواب للاستفهام، لأنه لو كان منصوباً لبطل الغرض، وذلك أن المراد إثبات الاخضرار، ولو كان منصوباً لأفاد نفي الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم ترَ أني أنعمت عليك فتشكر، فإن نصبت الفعل «فتشكر» فتكون قد نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وإن رفعته أثبت شكره.

زمان[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمُه أو لطفه إلى كل ما جَلّ ودقّ. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلها مذلَّلةً لكم مُعدَّةً لمنافعكم. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ما أو على اسم أنّ، وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حالٌ منها أو خبر. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أن تقع أو كراهةَ، بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إلا بمشيئته، وذلك يومَ القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها فإنها مساويةٌ لسائر الأجسام في الجسمية فتكونُ قابلةً للميل الهابطِ قَبولَ غيرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيأ لهم أسبابَ الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفعَ عنهم أنواع المضار.

(٦٦) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصرَ ونُطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلُكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لَجَحودٌ لنعم الله مع ظهورها.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ متعبَّداً أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيداً. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسُكونه. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائرُ أرباب الملل. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النسائكِ لأنهم بين جُهّال وأهلِ عِناد، أو لأن أمر دينك أظهرُ من أن يقبل النِزاع، وقيل المرادُ نهيُ الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينِهم من المناظرة المؤديةِ إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالبَ الحق وهؤلاء أهلُ مِراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يُضارَّ بك زيد وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله. وقرىء فلا يَنْزِعُنّك على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه، على أنه من نازعتُه فنزعتُه إذا غلبته. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي.

= وعليه فقد ورد الفعل المضارع في الآية مرفوعاً «فتصبحُ» وكانت الفاء عاطفة وليست سببية، وكان الاستفهام للتقرير، والفعل «فتصبحُ» معطوف على الفعل «أنزلَ».

(١) أي أن الفعل «فتصبح» ورد بصيغة المضارع دون الماضي، فقال «فتصبح» ولم يقل فأصبحت للدلالة على بقاء أثر المطر واستمراره.
أو لاستحضار الصورة البديعة (الألوسي ١٧/ ١٩١).

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(٦٨) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحقُّ ولزمت الحُجة. ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيدٌ فيه رِفق.

(٦٩) ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما فصَلَ في الدنيا بالحُجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٧٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فلا يخفى عليه شيء. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ هو اللوحُ كتبه فيه قبل حدوثه، فلا يُهمَّنك أمرُهم مع علمنا به وحفظِنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباتَه في اللوح المحفوظ، أو الحكمَ بينكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمَه مقتضى ذاتِه المتعلقُ بكل المعلومات على سواء.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن[١]. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ الإنكارَ، لفَرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيلَ أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة، وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضعَ الضمير. أو ما يقصِدونه[٢] من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ يَثِبون ويبطِشون بهم. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتِكم عليهم، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلَوْا عليكم. ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النارُ كأنه جوابُ سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ﴾. وقرىء بالنصب على الاختصاص، وبالجر بدلاً من شر، فتكونُ الجملةُ استئنافاً كما إذا رُفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

---

(١) وصيغة المضارع في «تتلى» للدلالة على الاستمرار التجددي (س٦/ ١٢٠).
(٢) قوله: أو ما يقصدونه عطف على قوله الإنكارَ، أي تعرف في وجوه الذين كفروا الإنكارَ أو ما يقصدونه من الشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بُيِّن لكم حالٌ مستغرَبة أو قصةٌ رائعة ولذلك سماها مثَلاً، أو جُعل لله مثَلٌ أي مثل في استحقاق العبادة. ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ للمثَل أو لشأنه استماعَ تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنامَ. وقرأ يعقوبُ بالياء، وقرىء مبنياً للمفعول. والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ على الأولين. ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صِغره، لأن لنْ بما فيها من تأكيد النفي دالةٌ على منافاة ما بين المنفيِّ والمنفي عنه. والذباب من الذبِّ لأنه يُذَب، وجمعُه أذِبّة وذِبّان. ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي للخلق، هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين؟! ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جهّلهم غايةَ التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدَر على المقدورات كلِّها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيلَ هي أعجزُ الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدِر على خلق أقلِّ الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوَى على مقاومة هذا الأقلِّ الأذل وتعجِز عن ذبِّه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل كانوا يطْلونها بالطيب والعسل ويُغلقون عليها الأبوابَ فيدخل الذباب من الكُوىٰ فيأكله. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ عابدُ الصنم ومعبودُه، أو الذبابُ يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب، والصنمُ يطلُب الذبابُ منه السلَبَ، أو الصنمُ والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققتَ وجدتَ الصنمَ أضعفَ بدرجات.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرَفوه حقَّ معرفته حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق المُمكِنات بأسرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلِبه شيءٌ، وآلهتُهم التي يعبُدونها عاجزةٌ عن أقلها مقهورةٌ من أذلها.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدعون سائرَهم إلى الحق ويبلّغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيتَه في الألوهية ونفىٰ أن يشاركه غيرُه في صفاتها بيّن أن له عباداً مُصطَفَيْنَ للرسالة يُتوسّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سِواه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والملائكةُ بناتُ الله تعالى، ونحوِ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلِّها.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عالم بواقعها ومُترقَّبها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإليه ترجع الأمورُ كلُّها لأنه مالكُها بالذات لا يُسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيرِه وهم يسألون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونهما أولَ الإسلام، أو صلُّوا، وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظمُ أركانها، أو اخضَعوا لله وخِرُّوا له سُجّداً. ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلةِ الأرحام ومكارمِ الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ أي افعلوا هذه كلَّها وأنتم راجون الفلاحَ غيرُ متيقنين له واثقينَ على أعمالكم، والآيةُ آيةُ سجدةٍ عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فُضّلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجُدْهما فلا يقرؤها»[١].

(٧٨) ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رجَعنا من الجهاد الأصغر إلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢١ رقم ١٤٠٢) والترمذي (٢/ ٤٧١ رقم ٥٧٨) وأحمد (٤/ ١٥١، ١٥٥) والدارقطني في السنن (١/ ٤٠٨) والطبراني في الكبير، (١٧/ ٣٠٧ رقم ٨٤٦، ٨٤٧) والحاكم (١/ ٢٢١) و(٢/ ٣٩٠) كلهم من رواية ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة، قال: قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان، قال: نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما.
قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.
قلت: لعل سبب ضعفه عنده (ابن لهيعة) ومشرح، لكن الراوي عن ابن لهيعة عند أبي داود أحد المبادلة أما مشرح فهو مقبول.
وقد صحح الشيخ أبو الأشبال الحديث فقال: هو حديث صحيح فإن ابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان.
وصححه الحاكم باعتضاده بالآثار الصحيحة المروية عن: عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن عمر وابن مسعود، وأبي موسى وأبي الدرداء، وعمار رضي الله عنهم. وقد أخرج آثارهم الحاكم.
وللحديث شاهد مرفوع من حديث عمرو بن العاص. أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٠ رقم ١٤٠١) وابن ماجه (١/ ٣٣٥ رقم ١٠٥٧) كلاهما عن طريق الحارث بن سعيد العتقي عن عبدالله بن منين عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان.
والحارث بن سعيد مقبول [التقريب (١/ ١٤٠) لكنه يتقوى بحديث ابن لهيعة وآثار الصحابة المذكورين].
وقال الألباني في تخريج المشكاة (رقم: ١٠٢٩): «إسناده ضعيف، فيه عبد الله بن منين وفيه جهالة وقال في ضعيف الجامع (٤/ ٩٥): ضعيف. بينما مال الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٢١) إلى تصحيحه حيث قال في حديث ابن لهيعة: فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع وأكثر ما نقموا عليه تدليسه.
ثم أورد آثار الصحابة وقال: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً. كما صحح الحديث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط في تخريج «جامع الأصول» (٥/ ٥٥٥ رقم ٣٧٨٨). والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

الجهاد الأكبر»[1]. ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعُكس، وأُضيف الحقُّ إلى الجهاد مبالغةً كقولك: هو حقُّ عالم، وأضيف الجهادُ إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعولٌ لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنُصرته، وفيه تنبيهٌ على المقتضي للجهاد والداعي إليه وفي قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أيْ ضِيق بتكليف ما يشتد القيامُ به عليكم إشارةٌ إلى أنه لا مانعَ لهم عنه ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شَقّ عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتُكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم»[2]. وقيل: ذلك بأن جَعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتحَ عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفاراتِ في حقوقه، والأرُوشَ والدّياتِ في حقوق العباد ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منتصبةٌ على المصدر بفعل دل عليه مضمونُ ما قبلها بحذف المضاف أي: وسّع دينَكم توسعةَ ملةِ أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص. وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسولِ الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سببٌ لحياتهم الأبديةِ ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرة، أو لأن أكثرَ العرب كانوا من ذريته فغُلّبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل قرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ وفي القرآن. والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء اللهُ سمّاكم، أو لإبراهيم. وتسميتُهم بمسلمين في القرآن ـ وإن لم تكن منه ـ كانت بسبب تسميته من قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3]. وقيل: وفي هذا تقديرُه: وفي هذا بيانُ تسميته إياكم مسلمين. ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة، متعلقٌ بسمّاكم. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم، فيدُل على قَبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعِصيان من عصى. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لِما خصكم بهذا الفضل والشرف. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثِقوا به في مجامع أموركم ولا تطلُبوا الإعانةَ والنُّصرة إلا منه ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصُركم ومتولي أمورِكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هُو، إذ لا مثلَ له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصيرَ سواه في الحقيقة. عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أُعطيَ من الأجر كحَجة حجها وعُمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي»[4].

☆ ☆ ☆

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٤ رقم ٣٣): «كذا ذكره الثعلبي بغير سند».
وأخرجه البيهقي في «الزهد» (ص١٩٨ رقم ٣٧٤) عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاه فقال: قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر.
قال: مجاهدة العبد هواه.
قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف. وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥١١ رقم ١٣٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٢٥١ رقم ٧٢٨٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) البقرة: «١٢٨».
(٤) وهو حديث موضوع.
وقد تقدم الكلام على إسناده في آخر آل عمران.

سُورَةُ المُؤْمِنُون

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

سورة المؤمنون مكيةٌ وهي مائةٌ وتسعَ عشرةَ آيةً عند البصريين وثماني عشرةَ عند الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانيِّهم. وقد تُثبِت المتوقَّع ـ كما أنّ لمّا تَنفيه ـ وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تُقَرِّبُه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صُدِّرت بها بِشارتُهم. وقرأ ورشٌ عن نافعٍ قَد أفْلَحَ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرىء أَفْلَحُوا على لغة «أكلوني البراغيثُ» أو على الإبهام والتفسير، وأَفْلَحُ بالضم اجتزاءً بالضمة عن الواو، وأُفْلِحَ على البناء للمفعول.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذلِّلون له مُلزِمون أبصارَهم مساجدَهم. روي[١] أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصرَه إلى السماء، فلما نزلت رمىٰ ببصره نحوَ مسجدِه

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٨٣).
من حديث أبي هريرة بلفظ «كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: «الذين همُ في صلاتهم خاشعون» فطأطأ رأسه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لولا خلاف فيه على محمد ـ ابن سيرين ـ عنه مرسلاً.
وقال الذهبي: الصحيح مرسلاً وكذا قال البيهقي.
● والمرسل أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص٩٦ رقم ٤٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ٢).

وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعَت جوارحُه»[١].

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ عما لا يَعنيهم من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بِهِم من الجِدّ ما شغلهم عنه. وهو أبلغُ من الذين لا يلهُون من وجوه: جعلِ الجملة اسميةً، وبناءِ الحُكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه. وإقامةِ الإعراض مُقام التركِ لِيدُلَّ على بُعدهم عنه رأساً مباشرةً وتسبباً وميلاً وحضوراً؛ فإن أصله أن يكون في عُرْضٍ غيرِ عُرضه. وكذلك قوله:

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفهم بذلك بعد وصْفِهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغايةَ في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنّب عن المحرمات وسائرِ ما توجب المروءةُ اجتنابَه، والزكاةُ تقع على المعنىٰ والعَيْن، والمراد الأوّل لأن الفاعلَ فاعلُ الحدَث لا المحلِّ الذي هو موقعُه، أو الثاني على تقدير مضاف[٢].

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يبذُلونها.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ زوجاتُهم أو سَرِيّاتُهم. و«على» صلةٌ لحافظون من قولك احْفَظْ على عِنان فرسي، أو حالٌ أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري؛ أو بِفعْل[٣] دلّ عليه غير ملومين. وإنما قال (ما) إجراءً للمماليك مُجرى غيرِ العقلاء إذ المِلكُ أصلٌ شائعٌ فيه، وإفرادُ ذلك بعد تعميم قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرةَ أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمُها خطراً. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناءُ أي فإنْ بذلوها لأزواجهم أو إمائِهم فإنهم غيرُ ملومين على ذلك.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يؤتمنون عليه ويعاهَدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها. وقرأ ابن كثير هنا وفي المعارج[٤] لأمانتهم على الإفراد، لأَمْنِ الإلْباس أو لأنها في الأصل مصدر.

= عن ابن سيرين، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة، نظر هكذا وهكذا، فلما نزلت «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون». نظر هكذا، وقال أبو شهاب: ببصره نحو الأرض.
قال الشيخ شعيب: رجاله ثقات، رجال الشيخين. أبو شهاب: اسمه عبدربه بن نافع الكناني الحناط. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٨٤ بسند ضعيف من حديث أبي هريرة.
وانظر «فيض القدير» (٥/ ٣١٩ رقم ٧٤٤٧) والإرواء (٢/ ٩٢ رقم ٣٧٣) وقال الألباني «فهو ـ أي الحديث ـ لا يصح لا مرفوعاً ولا موقوفاً، والمرفوع أشد ضعفاً، بل هو موضوع وكأنه لذلك لم يعرج عليه البيهقي فلم يورده في سننه الكبرى ـ على سعتها ـ وإنما أورده (٢/ ٢٨٩) موقوفاً معلقاً. والله سبحانه أعلم» هـ.

(٢) وتوسيط الحديث عن الإعراض عن اللغو بَيْن الحديث عن الصلاة والزكاة لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة (س٦/ ١٢٤).

(٣) قوله: أو بفعل عطف على قوله أو حال، أي أنّ «علىٰ» متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي حافظوها أو متعلقة بفعل دلّ عليه «غير ملومين».

(٤) المعارج: «٣٢».

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها. ولفظُ الفعل فيه لِما في الصلاة من التجدّد والتكرر، ولذلك جَمَعَه غيرُ حمزةَ والكسائي. وليس ذلك تكريراً لِمَا وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها[1]. وفي تصدير الأوصاف وختمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها.

(١٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحِقاءُ بأن يُسمُّوا وُرّاثاً دون غيرهم.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرِثونه وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارةٌ لاستحقاقهم الفردوسَ من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعدِه مبالغةً فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلَهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أنّث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من خُلاصة سُلّت من بين الكَدَر. ﴿مِّن طِينٍ﴾ متعلقٌ بمحذوف لأنه صفة لسلالة، أو مِن بيانية، أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلولة فتكون ابتدائية كالأولى. والإنسانُ آدمُ عليه الصلاة والسلام خُلق من صفوة سُلّت من الطين، أو الجنسِ فإنهم خُلِقوا من سلالات جُعلت نُطَفاً بعد أدوار، وقيل المرادُ بالطين آدمُ لأنه خلق منه والسلالةُ نطفتُه.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ ثم جعلنا نسلَه، فحُذِف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثم جعلنا السُلالَةَ نطفةً، وتذكيرُ الضمير على تأويل الجوهرِ أو المسلولِ أو الماء. ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقرٌ حصينٍ، يعني الرّحِم وهو في الأصل صفةٌ للمستقر وُصف به المحلُّ للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاءَ علقةً حمراءَ. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيّرناها قطعةَ لحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ بأن صلّبناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ مما بقيَ من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها. واختلافُ العواطف لتفاوت الاستحالات، والجمعُ لاختلافها في الهيئة والصلابة. وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاءً باسم الجنس عن الجمع، وقرىء بإفراد أحدهما وجمعِ الآخر[2]. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وهو صورةُ البدن أو الروح أو

---

(١) والفصل بين الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها للإيذان بأن كلاً منهما فضيلة مستقلة بنفسها، ولو قُرِنَا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (س٦/ ١٢٥).

(٢) قراءة ابن عامر وأبي بكر على التوحيد، أي توحيد العظام، أي «فخلقنا المضغة عَظْماً فكَسَوْنا العظم لحماً».
وقرىء بإفراد أحدهما وجمع الثاني، فقرىء «فخلقنا المضغة عَظْماً فكسونا العِظام» وقرىء «فخلقنا المضغة عِظَاماً

القُوى بنفخه فيه، أو المجموع. وثم لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصَب بيضةً فأفرخَتْ عنده لزمه ضمانُ البيضة لا الفرخ لأنه خلقٌ آخرُ. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى شأنُهُ في قدرته وحكمته[1]. ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المقدِّرين تقديراً، فحُذف المميِّز لدلالة الخالقين عليه.

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذُكر النعتُ الذي للثبوت دون اسم الفاعل، وقد قرىء به[2].

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للمحاسبة والمجازاة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سمواتٍ، لأنها طُورق بعضُها فوق بعض مطارقةَ النعل بالنعل وكل ما فوقه مثلُه فهو طريقُه؛ أو لأنها طرُق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرُها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوقِ الذي هو السمواتُ، أو عن جميع المخلوقات، ﴿غَافِلِينَ﴾ مُهمِلين أمرَه بل نحفظها عن الزوال والاختلال، ونُدبّر أمرها حتى تبلُغ منتهى ما قُدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمةُ وتعلقت به المشيئةُ.

(١٨) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يكثُر نفعُه ويقِل ضررُه، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً، ﴿فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطُه. ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله. وفي تنكير (ذهاب) إيماءٌ إلى كثرة طُرقه ومبالغةٌ في الإيعاد به، ولذلك جُعل أبلغَ من قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾[3].

(١٩) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ بالماء. ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفهكون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ ومن الجنات ثمارِها وزروعِها. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً، أو تُرزقون وتحصّلون معايشَكم من قولهم: فلان يأكل من حِرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه الرُّطَب والعنبُ والتمر والزبيب والعصيرُ والدِّبس وغيرُ ذلك وطعامٌ تأكلونه.

= فكسونا العَظْم لحماً».

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية؛ وللإيذان بأن من حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه تعالى (س٦/ ١٢٦).

(٢) أي قرىء باسم الفاعل «لَمَايِتُون».

(٣) الملك: «٣٠».

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جناتٍ. وقرئت بالرفع على الابتداء، أي ومما أنشأنا لكم به شجرةٌ ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ جبلِ موسى عليه الصلاة والسلام بين مصرَ وأَيلةَ وقيل بفلسطين، وقد يقال له طورُ سينين. ولا يخلو من أن يكون الطورُ للجبل وسِيناءُ اسمُ بقعة أضيف إليها، أو المركّبُ منهما علَمٌ له كامرىء القيس. ومنْعُ صرفِه للتعريف والعُجمةِ أو التأنيثِ على تأويل البقعة، لا للألف لأنه فِيعال كديماس من السناء ـ بالمدّ ـ وهو الرفعة أو بالقصر وهو النُّور، أو ملحق بفِعْلال كعِلباء من السِّين، إذْ لا فِعلاء بألف التأنيث. بخلاف سَيْناءَ على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب، فإنه فَيْعالُ ككَيسانَ أو فَعلاءُ كصحراء، لا فَعْلالُ إذ ليس في كلامهم. وقرىء بالكسر والقصر[١]. ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحِباً له، ويجوز أن تكون الباءُ صلةً معدِّيةً لتنبُتُ كما في قولك: ذهبت بزيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوبُ في رواية تُنبِتُ، وهو إما من أَنْبَتَ بمعنى نَبَتَ كقول زهير:

رَأَيْـتُ ذوي الحَـاجَـاتِ عِنْـدَ بُيُـوتِهِـمْ قَطِينـاً لَهُـمْ حَتَّـى إذا أَنْبَـتَ البَقْـلُ[٢]

أو على تقدير تُنبت زيتونَها ملتبساً بالدهن. وقرىء على البناء للمفعول[٣] وهو كالأول، وتُثمر بالدهن[٤]، وتَخرج بالدهن، وتُخرج الدّهنَ، وتَنبت بالدهان. ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ معطوفٌ على الدهن جارٍ على إعرابه عطفَ أحد وصفي الشيء على الآخر، أي تنبُت بالشيء الجامعِ بين كونه دُهناً يُدهَن به ويُسْرَج منه وكونِه إداماً يُصبغ فيه الخبز ـ أي يُغمس فيه ـ للائتدام. وقرىء وصِباغ كدباغ في دِبْغ.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف، فإن اللبن يتكون منه، فمن للتبعيض أو للابتداء. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو بكر ويعقوبُ نَسقيكم بفتح النون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فإن منها ما يُحمل عليه كالإبل والبقر. وقيل المراد الإبلُ، لأنها هي المحمولُ عليها عندهم والمناسبُ للفُلك فإنها سفائنُ البرّ قال ذو الرمة[٥].

---

(١) أي قرىء بكسر السين وبدون همزة «سِينا».

(٢) من الطويل.

(٣) قوله على البناء للمفعول أي (تُنْبَتُ) بضم التاء وفتح الباء.

(٤) قوله وتثمر... معطوف على قوله وقرىء...

وقال الألوسي: (وما رووْا من قراءة عبدالله «تخرج الدهنَ» وقراءة أبيّ «تثمر بالدهن» محمول على التفسير على ما في البحر [أي البحر المحيط] لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور) (روح المعاني ١٨/ ٢٢).

(٥) ذو الرّمّة واسمه غَيلان بن عقبة أحد بني عَدِيّ بن عبدمَناة بن أدّ. =

سَفِينَةُ بَرٍ تَحْتَ خَدّي زِمَامُهَا[1]

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[2]. ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر[3].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مَسوقٌ لبيان كُفران الناس ما عُدّد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ لتعليل الأمر بالعبادة. وقرأ الكسائي «غيرِه» بالجرّ على اللفظ. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون أن يُزيل عنكم نِعَمه فيُهلِكَكم ويعذبَكم برفضكم عبادتَه إلى عبادة غيره وكفرانِكم نعمَه التي لا تُحصونها.

(٢٤) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ الأشراف. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لعوامهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أن يطلب الفضلَ عليكم ويسودَكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون نوحاً عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفيِ إلٰه غيرِه، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفَرط عِنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولأجله يقول ذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ فاحتمِلوه وانتظروا. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يُفيق من جنونه.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ بعدما أَيِس من إيمانهم ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتُهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تُخطىء فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرنا وتعليمِنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

= [خزانة الأدب (١/ ١٠٦ ـ ١١٠)].

(١) من الطويل.

(٢) البقرة: «٢٢٨».

(٣) وفي الجمع بينها وبين الفُلك في إيقاع الحمل عليها مبالغةٌ في تحملها للحمل. وهو الداعي إلى تأخير ذِكْر هذه المنفعة ـ مع كونها من المنافع الحاصلة منها ـ عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها (س٦/ ١٢٩).

روي[1] أنه قيل لنوح إذا فار الماءُ من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماءُ منه أخبرته امرأتُه فركب. ومحلُّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي بابَ كِندةَ، وقيل عينُ وردةَ من الشام وفيه وجوه أُخَرُ ذكرتُها في هود[2] ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ فادخل فيها، يقال سلك فيه وسلك غيرَه، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[3]. ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ من كل أمتي الذكرَ والأنثى واحدَين مزدوجين. وقرأ حفص من كلٍّ بالتنوين، أي من كل نوع زوجين، واثنين تأكيدٌ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وأهلَ بيتك، أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القولُ من الله تعالى بإهلاكه لكفره. وإنما جيء بعلى لأن السابق ضارٌّ، كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[4]. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومَن هذا شأنُه لا يُشفع له ولا يُشفَّع فيه، كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(٢٨) ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

(٢٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرىء مَنزلاً بمعنى إنزالاً أو موضعَ إنزال. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناءٌ مطابق لدعائه، أَمَرَهُ بأن يَشْفَعَه به مبالغةً فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرده بالأمر ـ والمعلَّقُ به أن يستويَ هو ومن معه ـ إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحةً عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما فُعل بنوح وقومه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يَستدل بها ويعتبر أُولو الاستبصار والاعتبار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادَنا بهذه الآياتِ. وإنْ هي المخففة، واللامُ هي الفارقة.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح. وإنما جُعل القول موضعَ الإرسال ليدل على أنه

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٨/٢٦) بدون راوٍ ولا سند.
(٢) هود: «٤٠».
(٣) المدثر: «٤٢».
(٤) الأنبياء: «١٠١».
(٥) الأنعام: «٤٥».

لم يأتهم من مكان غيرِ مكانهم، وإنما أوحيَ إليه وهو بين أظهُرهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تفسيرٌ لأرسلنا، أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لعله ذُكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح وحيث استؤنف به فعلى تقدير سؤال ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وما خبريةٌ، والعائد إلى الثاني منصوبٌ محذوف أو مجرورٌ حُذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ حيث أذللتم أنفسكم، وإذاً جزاءٌ للشرط وجواب للذين قَاوَلُوهُمْ من قومه.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ مجردةً عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، وأنكم تكريرٌ للأول أُكّد به لمّا طال الفصل بينه وبين خبره. أو أنكم لمخرجون مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم، أو فاعلٌ للفعل المقدر جواباً للشرط والجملةُ خبرُ الأول؛ أي: أنكم إخراجُكم إذا متم؛ أو أنكم إذا مِتم وقع؛ لأن اسمَه جُثّة.

(٣٦) ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أو بَعُدما توعدون، واللام للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] كأنهم لما صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل فما له هذا الاستبعادُ؟ قالوا لما توعدون. وقيل هيهات بمعنى البُعد، وهو مبتدأ خبرُه لما توعدون. وقرىء بالفتح منوناً للتنكير، وبالضم منوناً على أنه جمعُ هَيْهة وغيرَ منون تشبيهاً بِقَبْلُ، وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاءً[2].

(٣٧) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصلُه إنِ الحياةُ إلا حياتُنا الدنيا فأُقيم الضميرُ مُقامَ الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعيُّنها مغنٍ عن التصريح بها، كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

ومعناه لا حياةَ إلا هذه الحياةُ لأن إنْ نافيةٌ دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالةِ على الجنس

---

(١) يوسف: «٢٣».

(٢) قراءات (هيهاتَ) هي: هَيْهاتاً، هيهاتٌ، هَيْهاتْ، هَيْهاتٍ، هَيْهاتِ، هَيْهاهْ.

فكانت مثلَ لا التي تنفي ما بعدها نفيَ الجنس. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضُنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من إرساله له وفيما يعِدُنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليلٍ، وما صلةٌ لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العَذَاب.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ جبريلُ صاح عليهم صيحةً هائلة تصدّعت منها قلوبهم فماتوا، واستُدل به على أن القومَ قومُ صالح. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه الثابتِ الذي لا دافعَ له، أو بالعدل من الله كقولك فلانٌ يقضي بالحق، أو بالوعد الصِّدقِ. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ شبههم في دمارهم بغُثاء السيل وهو حَميلُه كقول العرب «سال به الوادي» لمَنْ هلك. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحتمل الإخبار والدعاء. وبُعداً مصدرُ بُعد إذا هلك، وهو من المصادر التي تُنصب بأفعال لا يستعمل إظهارُها. واللامُ لبيان من دُعِيَ عليه بالبعد. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للتعليل.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هي قومُ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرهم.

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الوقتَ الذي حُدّ لهلاكها، ومن مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ الأجلَ.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ متواترين واحداً بعد واحد، من الوِتر وهو الفرد، والياءُ بدلٌ من الواو كتولج وتيقور، والألفُ للتأنيث لأن الرسلَ جماعة. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتنوين على أنه مصدرٌ بمعنى المُواتَرة وقع حالاً، وأماله حمزةُ وابن عامر والكسائي[1]. ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ إضافةُ الرسول مع الإرسال إلى المرسِل ومع المجيء إلى المرسَل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأُ الأمر منه والمجيءَ الذي هو منتهاه إليهم[2] ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم نُبقِ منهم

(١) كتبت كلمة (تترا) بالألف المقصورة، والرسم القرآني هو بالألف الممدودة، أما الرسم القرآني بالألف المقصورة فهي على قراءة من قرأ بها منونة، والله أعلم.

(٢) يريد من هذه العبارة أن إضافة الرسول إلى الأمة، ثم إضافة الإرسال إلى المُرْسِل وهو الله تعالى «أرسلنا» وإضافة المجيء إلى المرسَل إليهم وهم الأمة «كلما جاء أمةً رسولُها». =

إلا حكاياتٍ يُسمَر بها، وهو اسمُ جمعٍ للحديث، أو جمعُ أُحدوثة وهي ما يُتحدّث به تلهّياً ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالآيات التّسع[١] ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجةٍ واضحة ملزِمةٍ للخصم. ويجوز أن يراد به العصا، وإفرادُها لأنها أولُ المعجزات وأمُّها؛ تعلقتْ بها معجزات شتّى؛ كانقلابها حيةً وتلقُّفِها ما أفكتْه السحرة وانفلاقِ البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وحراستها ومصيرها شمعةً وشجرةً خضراءَ مثمرةً ورِشاءً ودلواً، وأن يراد به المعجزاتُ وبالآيات الحججُ، وأن يراد بهما المعجزاتُ فإنها آياتٌ للنبوة وحجةٌ بينةٌ على ما يدعيه النبي ﷺ.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على الإيمان والمتابعة ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنى البشرَ لأنه يطلق للواحد كقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢] كما يطلق للجمع كقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾[٣] ولم يُثَنِّ المِثْلَ لأنه في حكم المصدر، وهذه القِصصُ كما ترى تشهد بأن قُصارى شُبَه المنكرين للنبوة قياسُ حالِ الأنبياء على أحوالهم لِما بينهم من المماثلة في الحقيقة، وفسادُه يظهر للمستبصر بأدنى تأمل، فإن النفوسَ البشرية وإن تشاركت في أصل القُوى والإدراك لكنها متباينةُ الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب النقصان أغبياءَ لا يعود عليهم الفِكر براءةٍ، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغنياءُ عن التفكر والتعلم في أكثر الأشياء وأغلبِ الأحوال فيدركون ما لا يدرك غيرُهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمُهم، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٤]. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ خادمون منقادون كالعباد.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلْزَم.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عَودُ الضمير إلى فرعون وقومِه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

= لأن الإرسال منه تعالىٰ بداية فأضيف إليه، والمجيءَ منتهىٰ الإرسال فأضيف إليهم.

(١) الآيات التسع هي: العصا، اليد، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الثمرات، الطاعون، فلق البحر.
قال الشوكاني: (ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا، لأن المراد الآياتُ التي كذبوا بها واستكبروا عنها) (فتح القدير ٣/ ٤٨٥).

(٢) مريم: «١٧».

(٣) مريم: «٢٦».

(٤) الكهف: «١١٠».

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مَسيس، فالآيةُ أمرٌ واحد مضافٌ إليهما. أو جعلنا ابنَ مريمَ آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزاتٌ أُخَرُ، وأمَّه آيةً بأن وَلدت من غير مسيس، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها[١]. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أرض بيتِ المقدس فإنها مرتفعة، أو دمشقَ أو رَمْلةَ فلسطين، أو مصر[٢] فإن قُراها على الرُّبا. وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء، وقرىء رُباوة بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقَرٌّ من الأرض منبسطة. وقيل ذاتِ ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماءٍ معينٍ ظاهر جارٍ، فعيل من مَعَن الماءُ إذا جرى وأصله الإبعادُ في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفّاع، أو مفعول مِنْ عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مُدرَك بالعيون. وُصِف ماؤها بذلك لأنه الجامعُ لأسباب التنزّه وطِيب المكان.

(٥١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ نداءٌ وخطابٌ لجميع الأنبياء، لا على أنهم خُوطبوا بذلك دفعةً لأنهم أُرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ويكون ابتداءَ كلام تنبيهاً على أن تهيئةَ أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرعٌ قديم، واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكايةٌ لما ذكر لعيسى وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رُزقا. وقيل النداءُ له ولفظُ الجمع للتعظيم، والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلالُ الصافي القِوامُ، فالحلالُ ما لا يُعصى اللهُ فيه، والصافي ما لا يُنسىٰ الله فيه، والقِوامُ ما يُمسِك النفسَ ويحفظ العقل ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فإنه المقصودُ منكم والنافعُ عند ربكم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ولأن هذه والمعلَّلُ به فاتقون، أو واعلموا أن هذه، وقيل أنه معطوف على ما تعملون. وقرأ ابن عامر بالتخفيف، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مِلّتكم ملةً واحدة أي متحدةً في الاعتقاد وأصولِ الشرائع، أو جماعتُكم جماعةً واحدة متفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة، ونصبُ أمةً على الحال ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفةِ الكلمة.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمرَ دينهم جعلوه أدياناً مختلفة، أو فتفرقوا وتحزبوا، وأمرَهم منصوبٌ بنَزْع الخافض أو التمييز، والضميرُ لما دل عليه الأمةُ من أربابها أوْلها. ﴿زُبُرًا﴾ قِطعاً جمع

---

(١) ذكره مقدماً عليه السلام على أمه لأصالته فيما ذكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالى: «وجعلناها وابنها آية للعالمين» ـ الأنبياء: «٩١» ـ لأصالتها فيما نسبه إليها من الإحصان والنفخ (س٦/ ١٣٧).

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ٢٥ ـ ٢٧) ثم قال مرجحاً: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرَّملة، لأن الرملة لا ماء بها معين. والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين» هـ.

زَبور الذي بمعنى الفِرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زُبْرة، وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثان لتقطعوا فإنه متضمّنٌ معنى جعل. وقيل كتباً من زَبَرتُ الكتاب، فيكون مفعولاً ثانياً، أو حالاً من أمْرَهم على تقدير مثلِ كُتب. وقرىء بتخفيف الباء كرُسْل في رسُل ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعجَبون معتقِدون أنهم على الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم، شبّهها بالماء الذي يغمُر القامةَ لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها. وقرىء في غمراتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يُقتلوا أو يموتوا.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً، ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لما وليس خبراً له، فإنه غيرُ معاتَب عليه، وإنما المعاتَبُ عليه اعتقادُهم أن ذلك خيرٌ لهم، خَبَرُهُ.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والراجعُ محذوفٌ والمعنى: أيحسبون أن الذي نُمدُّهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرُهم وإكرامُهم. ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فِطنةَ لهم ولا شعورَ ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمدادَ استدراجٌ لا مسارعةٌ في الخير. وقرىء يَمُدهم على الغَيبة وكذلك يُسارِع ويُسرِع، ويحتمل أن يكون فيهما ضميرُ المُمَدِّ به، ويسارَع مبنياً للمفعول.

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ من خوف عذابه. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذِرون.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبةِ والمُنزَلة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

(٥٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شِرْكاً جلياً ولا خفياً[1].

(٦٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ يُعطون ما أعطَوه من الصدقات. وقرىء يأتون ما أَتَوْا، أي يفعلون ما فعلوا من الطاعاتِ[2] ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ أنْ لا يُقبل منهم وأن لا يقعَ على الوجه اللائقِ فيؤاخَذَ به. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ لأن مرجِعَهم إليه، أو مِن أن مرجِعَهم إليه، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

(٦١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودةِ على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾[3]

(١) التعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك (س٦/ ١٤٠).

(٢) تكرير الموصول «الذين» للإيذان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (س٦/ ١٤٠).

(٣) آل عمران: «١٤٨».

فيكون إثباتاً لهم ما نُفيَ عن أضدادهم[١] ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لأجلها فاعلون السبْقَ أو سابقون الناسَ إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[٢].

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدْرَ طاقتها، يريد به التحريضَ على ما وَصَف به الصالحين وتسهيلَه على النفوس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يريد به اللوحَ، أو صحيفة الأعمال. ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب أو نُقصانِ ثواب.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرةٍ لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِن الذي وُصف به هؤلاء، أو من كتاب الحفظة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ متجاوزةٌ لما وُصفوا به أو متخطيةً عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ معتادون فعلها.

(٦٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعِّميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر، أو الجوعَ حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سِنينَ كسني يوسُف»[٣]. فقُحطوا حتى أكلوا الجيَفَ والكلابَ والعظامَ المُحرَقَة. ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ فاجَؤوا الصُّراخِ بالاستغاثة، وهو جوابُ الشرط، والجملةُ مبتدأٌ بعد حتى، ويجوز أن يكون الجوابُ:

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا تجأروا اليوم[٤]. ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي، أي لا تجأروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تُمنعون منّا، أو لا يلحقكم نصر ومعونةٌ من جهتنا.

---

(١) أسند سبحانه المسارعة إليهم ولم يقل نسارع لهم كسابقه، حيث غير الأسلوب وذلك للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.
وإيثار كلمة (في) على كلمة «على» فقال «في الخيرات» وذلك للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كالآية «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» (س٦/ ١٤٠).

(٢) المؤمنون: «٦٣».

(٣) الحديث مركب من حدثين.
الشطر الأول إلى قوله: (كسني يوسف) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٠ رقم ٨٠٤) و(٢/ ٤٩٢ رقم ١٠٠٦) ومسلم (١/ ٤٦٧ رقم ٢٩٤) من حديث أبي هريرة.
وبنحو الشطر الثاني أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٣ رقم ١٠٠٧) و(٨/ ٣٦٣ رقم ٤٦٩٣).
و(٨/ ٥١١ رقم ٤٧٧٤) و(٨/ ٥٤٧ رقم ٤٨٠٩) و(٨/ ٥٧٣ رقم ٤٨٢١ و٤٨٢٢ و٤٨٢٣ و٤٨٢٤) ومسلم (٤/ ٢١٥٦ رقم ٣٩). من حديث ابن مسعود.
وانظر «الكافي الشافِ» (ص١١٥ رقم ٤١).

(٤) تخصيص اليوم بالذكر لتهويله، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار (س٦/ ١٤٢).

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقِها والعملِ بها، والنكوصُ الرجوعُ قهقرىٰ.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ الضمير للبيت، وشهوةُ استكبارهم وافتخارِهم بأنهم قِوامُه أغنت عن سبق ذكره، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي، والباء متعلقة بمستكبرين لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله ﴿سَـٰمِرًا﴾ أي تسمُرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدرٌ جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرىء سمَراً جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهَجْر ـ بالفتح ـ إما بمعنى القطيعة أو الهذيان، أي تُعرِضون عن القرآن أو تَهذون في شأنه، أو الهُجْر ـ بالضم ـ أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءةُ نافع تُهْجِرون من أهجرَ وقرىء تُهجِّرون على المبالغة.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآنَ ليعلموا أنه الحقُّ من ربهم بإعجاز لفظه ووضوحِ مدلوله ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيلَ وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسلِه وأطاعوه.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدقِ وحسنِ الخلق وكمالِ العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دعواه لأحدِ هذه الوجوه إذ لا وجهَ له غيرُها، فإن إنكارَ الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعُه بحسب النوعِ أو الشخص، أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحَهم عقلاً وأدقَّهم نظراً ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتِهم وأهواءَهم فلذلك أنكروه. وإنما قُيِّد الحكمُ بالأكثر لأنه كان منهم مَن تَرَكَ الإيمانَ استنكافاً من توبيخ قومِه، أو لقلة فطنتِه وعدم فِكرتِه، لا كراهةً للحق.

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهةٌ شتّى. ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]. وقيل لو اتبع الحقُ أهواءَهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالَم فلم يبقَ، أو لو اتبع الحقُ الذي جاء به محمد ﷺ أهواءَهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فرْط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءَهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدِرْ أن يُمسك السمواتِ والأرضَ،

(١) الأنبياء: «٢٢».

وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذِكرُهم، أي وعظُهم أو صيتُهم، أو الذكرِ الذي تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾[1] وقرىء بذكراهم[2]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ قيل إنه قسيمُ قوله «أم به جنة» ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ رزقُه في الدنيا، أو ثوابُه في العُقبىٰ. ﴿خَيْرٌ﴾ لسَعته ودوامِه ففيه مندوحةٌ لك عن عطائهم. والخَرْج بإزاء الدخْل، يقال لكل ما تُخرِجه إلى غيرك، والخَراجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغَ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقرأ ابن عامر خرْجاً فخَرْجُ، وحمزة والكسائي خَراجاً فخراجُ للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجِه تعالى.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقولُ السليمةُ على استقامته لا عِوَجَ فيه يوجب اتهامَهم له. واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحُجةَ وأزاح العِلّة في هذه الآياتِ، بأن حصَر أقسامَ ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبيّن انتفاءَها ما عدا كراهةَ الحق وقلةَ الفِطنة.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ لعادلون عنه، فإن خوفَ الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوكِ طريقه.

(٧٥) ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني القَحط. ﴿لَّلَجُّوا﴾ لثبتوا، واللَّجاج التمادي في الشيء. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوةِ الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى. روي أنهم قُحطوا حتى أكلوا العِلْهِزَ[3]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشُدك اللهَ والرحِمَ ألستَ تزعُم أنك بُعثت رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى» فقال: قتلتَ الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع، فنزلت[4].

---

(١) الصافات: «١٦٨».

(٢) وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة «أتيناهم» بعد إسناده إلى ضميره ـ ﷺ ـ تنويه لشأن النبي ـ عليه السلام ـ وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل (س٦/ ١٤٥).

(٣) العلهز هو شيء يتخذونه في سنيّ المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. وقيل: شيء ينبت ببلاد بني سُليم له أصل كأصل البردى (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٩٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٨١) من طريق علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس في سياق حديث إسلام ثمامة بن أثال، فيه «فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال بلى، قال فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فأنزل الله «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون» [المؤمنون: «٧٦»].

وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عُتُوِّهم واستكبارِهم. واستكان استفعل من الكون لأن المفتقرَ انتقل من كون إلى كون، أو افتعل من السكون أُشبعت فتحتُه. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وليس من عادتهم التضرعُ، وهو استشهادٌ على ما قبله.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوعَ فإنه أشدُّ من القتل والأسر، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيِّرون آيِسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

(٧٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لتُحِسّوا بها ما نُصب من الآيات ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكُرونها شكراً قليلاً لأن العُمدة في شكرها استعمالُها فيما خلقت لأجله، والإذعانُ لمانِحِها من غير إشراك، وما صلةٌ للتأكيد.

(٧٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

(٨٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ويختص به تعاقبُهما لا يقدِر عليه غيرُه، فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقةً، أو لأمره وقضائِه تعاقبُهما، أو انتقاصُ أحدهما وازديادُ الآخَر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأملِ، أن الكل منا وأن قدرتَنا تعمّ المُمْكِنات كلَّها وأن البعثَ من جملتها. وقرىء بالياء على أن الخِطابَ السابقَ لتغليب المؤمنين.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ أي كفارُ مكةَ. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومَنْ دان بدينهم.

(٨٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخُلقوا.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبُهم التي كتبوها، جمعُ أُسطورة لأنه يستعمل فيما يتلى به كالأعاجيب والأضاحيك. وقيل جمعُ أسطارٍ جمعُ سطر.

(٨٤) ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانةً بهم وتقريراً لفرْط جهالتِهم حتى جهِلوا مثلَ هذا الجليِّ الواضحِ إلزاماً بما لا يمكن لمن له مُسْكةٌ من العلم إنكارُه، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال:

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريحَ قد اضطرَّهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقُها. ﴿قُلْ﴾

أي بعد ما قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قادرٌ على إيجادها ثانياً، فإن بدءَ الخلق ليس أهونَ من إعادته. وقرىء تتذكرون على الأصل.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظمُ من ذلك.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظُ السؤال ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابَه فلا تُشركوا به بعضَ مخلوقاته ولا تُنكروا قدرتَه على بعض مقدوراته.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُلكُه غايةَ ما يمكن، وقيل خزائنُه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُغيث من يشاء ويحرُسه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يُغاث أحدٌ ولا يُمنع منه، وتعديتُه بعلى لتضمين معنى النُّصرة. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فمِن أين تُخدعون فتُصْرَفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهُرِ الأدلة!.

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعدِ بالنشور. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك.

(٩١) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدُّسه عن مماثلة أحد. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يساهمه في الألوهية. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جوابُ مُحاجَتِهم وجزاء شرطٍ حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهةٌ كما تقولون لذهب كلٌّ منهم بما خلقه واستبدّ به وامتاز مُلكُه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم التحاربُ والتغالبُ كما هو حالُ ملوكِ الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوتُ كل شيء، واللازمُ باطل بالإجماع والاستقراء وقيامِ البرهان على استناد جميع الممْكِنات إلى واجب واحد. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

(٩٢) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقد جرّه ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرٍو ويعقوبُ وحفصٌ على الصفة، وهو دليلٌ آخرُ على نفْي الشريكِ بناءً على توافقهم في أنه المنفردُ بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

(٩٣) ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ إن كان لابد من أن تُرِيَني، لأن ما والنون للتأكيد. ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قريناً لهم في العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شُؤم الظَلَمة قد يَحيق بمَنْ وراءهم كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ

خَآصَّةً﴾[١]. عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيَّه ـ عليه السلام ـ أن له في أمته نِقْمةً ولم يُطْلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاءِ. وتكريرُ النداء وتصديرُ كل واحد من الشرط والجزاءِ به فضلُ تضرّعٍ وجُؤار.

وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ لكنا نؤخره علماً بأن بعضَهم أو بعضَ أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، ولعله ردٌّ لإنكارهم الموعودَ واستعجالِهم له استهزاءً به. وقيل قد أراه، وهو قتلُ بدر أو فتحُ مكةَ.

(٩٦) ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفحُ عنها والإحسانُ في مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدِّ إلى وهَن في الدين. وقيل هي كلمةُ التوحيد والسيئةُ الشرك. وقيل هو الأمرُ بالمعروف والسيئةُ المنكر، وهو أبلغُ من ادفع بالحسنة السيئةَ لِما فيه من التنصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالِك، وأقدرُ على جزائهم فوكِّلْ إلينا أمرَهم.

(٩٧) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وساوسِهم، وأصلُ الهمْز النخْسُ ومنه مِهمازُ الرائض[٢]، شَبّه حثهم الناسَ على المعاصي بهمز الراضَةِ للدواب على المشي، والجمعُ للمرّات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضافِ إليه.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيصُ حال الصلاة وقراءةِ القرآن وحلولِ الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يُخَافَ عليه[٣].

(٩٩) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ متعلقٌ بيصفون، وما بينهما اعتراضٌ لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يُزِلّه عن الحِلْم ويُغريَه على الانتقام، أو بقوله إنهم لكاذبون. ﴿قَالَ﴾ تحسّراً على ما فرّط فيه من الإيمان والطاعةِ لَمّا اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ رُدّوني إلى الدنيا. والواو لتعظيم المخاطَب، وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قِفا وأطرِقا.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركتُه، أي لعلي آتي الإيمانَ وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا عاين المؤمنُ الملائكة قالوا أنُرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب

---

(١) الأنفال: «٢٥».
(٢) مهماز الرائض: حديدة تربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب.
(٣) وإعادة الفعل «أعوذ» مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء (س٦/ ١٥٠).

ارجعون»[١]. ﴿كَلَّآۚ﴾ ردعٌ مَن طلب الرجعة واستبعادٌ لها. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ إلخ، والكلمةُ الطائفةُ من الكلام المنتظمُ بعضُها مع بعض. ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالة لتسلُّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أمامهم، والضميرُ للجماعة. ﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناطُ كلٍّ عن الرجوع إلى الدنيا لِمَا عُلم أنه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوعُ فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، والقراءةُ بفتح الواو وبه وبكسر الصاد يؤيد أن الصُّور أيضاً جمع الصورة[٢]. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحَيْرة واستيلاء الدهشة بحيث يفِر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، أو يفتخرون بها. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٣] لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة أو دخولِ أهل الجنة الجنةَ والنارِ النارَ.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موزوناتُ عقائِده وأعماله، أي فمن كانت له عقائدُ وأعمالٌ صالحةٌ يكون لها وزنٌ عند الله تعالى وقدْرٌ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

(١٠٣) ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزنٌ، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[٤]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ غَبنوها حيث ضيعوا زمانَ استكمالِها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من الصلة، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك.

(١٠٤) ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها، واللفْحُ كالنفح إلا أنه أشدُّ تأثيراً[٥]. ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكُلوحُ تقلصُ الشفتين عن الأسنان. وقرىء كَلِحُون.

(١٠٥) ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم ألم تكن. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيبٌ وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذابَ لأجله.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ج١٨/ ٥٢) عن ابن جريج مرسلاً. وفيه «سنيد» ضعيف.

(٢) أي أن المعنىٰ يكون: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، وهو معنىٰ قراءة من قرأ «في الصُّوَر» و«في الصِّوَر»، فإن المذكور في هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنىٰ القَرْن قطعاً، والأصل توافق معاني القراءات.
ولا تنافي بين النفخ في الصُّور بمعنىٰ القرن ـ الذي جاء في الأخبار ودلت عليه آيات أخر ـ وبين النفخ في الصُّوَر جمع صورة، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك. انظر روح المعاني (١٨/ ٦٤).

(٣) الطور: «٢٥».

(٤) الكهف: «١٠٥».

(٥) وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل (س٦/ ١٥١).

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ مَلَكَتْنا بحيث صارت أحوالُنا مؤديةً إلى سوء العاقبة. وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنا ـ بالفتح ـ كالسَّعادة، وقرىء بالكسر كالكِتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا.

(١٠٨) ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ اسكُتوا سكوتَ هوانٍ في النار فإنها ليست مقامَ سؤال، مِنْ خسأْتُ الكلبَ إذا زجرته فَخَسِىءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب أو لا تكلمون رأساً. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ربنا أَبْصَرنا وسمعنا، فيُجابون: حق القولُ مني، فيقولون ألفاً: ربنا أمتّنا اثنتين، فيُجابون: ذلكم بأنه دُعيَ اللهُ وحده كفرتم، فيقولون ألفاً: «يا مالكُ ليقضِ علينا ربك»[1] فيجابون: إنكم ماكثون، فيقولون ألفاً: ربنا أخرنا إلى أجل قريب، فيجابون: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل، فيقولون ألفاً: ربنا أخرجنا نعملْ صالحاً، فيجابون: أو لم نعمِّرْكم، فيقولون ألفاً: رب ارجعون، فيجابون: اخسؤوا فيها، ثم لا يكون لهم فيها إلا زفيرٌ وشهيقٌ وعُواء[2].

(١٠٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح أي لأنه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني المؤمنين، وقيل الصحابةُ، وقيل أهلُ الصُّفّة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هُزُؤاً. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي هنا وفي صّ بالضم[3]، وهما مصدرُ سَخِر زيدت فيهما ياءُ النَّسَب للمبالغة، وعند الكوفيين المكسورُ بمعنى الهُزْء، والمضمومُ من السُّخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرْط تشاغُلِكم بالاستهزاء بهم، فلَمْ تخافوني في أوليائي. ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم.

(١١١) ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فوزُهم بمجامع مُراداتِهم مخصوصين به، وهو ثاني مفعولي جزيتُهم. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر استئنافاً[4].

(١١٢) ﴿قَٰلَ﴾ أي اللهُ، أو الملَك المأمورُ بسؤالهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي على الأمر[5]

---

(١) الزخرف: «٧٧».
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥) وصححه الذهبي بنحوه.
(٣) سورة صّ «٦٣» أي بضم السين «سُخْرياً».
(٤) أي بكسر الهمزة في «أنّهم».
(٥) أي «قُلْ كم لبثتم».

للملك أو لبعض رؤساء أهل النار. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ لِكَم.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لُبْثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيامَ سرورهم وأيامُ السرور قِصارٌ، أو لأنها مُنقضيةٌ والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾ الذين يتمكنون من عدّ أيامها إن أردتَ تحقيقها فإنا لِما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكةَ الذين يعُدّون أعمارَ الناس ويُحصون أعمالَهم. وقرىء العادِين ـ بالتخفيف ـ أي الظَلَمة فإنهم يقولون ما نقول، والعاديين أن القدماءَ المعمرين فإنهم أيضاً يَستقْصِرون.

(١١٤) ﴿قَالَ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي قُلْ. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في مقالهم.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم. وعبثاً حالٌ بمعنى عابثين، أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لنتعبّدكم ونُجازيَكم على أعمالكم، وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على أنما خلقناكم أو عبثاً. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوبُ بفتح التاء وكسر الجيم.

(١١٦) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يَحِق له المُلكُ مطلقاً، فإن مَن عداه مملوكٌ بالذات مالِكٌ بالعَرَض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يُحيط بالأجرام ويَنزِل منه مُحكماتُ الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرىء بالرفع على أنه صفةُ الرب.

(١١٧) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ يعبده إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفةٌ أخرى لإلهاً لازمةٌ له فإن الباطل لا برهانَ به، جيء بها للتأكيد وبناءِ الحُكم عليه تنبيهاً على أن التدينَ بما لا دليلَ عليه ممنوعٌ فضلاً عما دل الدليلُ على خلافه، أو اعتراضٌ بين الشرط والجزاءِ لذلك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فهو مُجازٍ له مقدارَ ما يستحقه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابُه عدمُ الفلاح. بدأ السورةَ بتقرير فلاح المؤمنين وخَتَمَها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحِمَه فقال:

(١١٨) ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنين بشرتْه الملائكة بالروْح والريحان وما تقرُّ به عينُه عند نزول ملك........

الموت»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشرُ آيات، مَن أقامهن دخلَ الجنة، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر»[٢]. ورُوي «أن أولها وآخرَها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آياتٍ من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح»[٣].



---

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام على إسناده في آخر سورة آل عمران.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٦ رقم ٣١٧٣) والنسائي (٨/ ٨٣ ـ تحفة الأشراف) من حديث عمر.
وقال النسائي: «هذا حديث منكر. لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه... والله أعلم» هـ.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢) وقال: صحيح الإسناد.
وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبدالرزاق عن شيخه ذا فقال: أظنه لا شيء.
قال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨٥): يونس بن سليم: مجهول.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٦ رقم ٤٥): «لم أجده».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

سورة النور مدنية[١] وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورةٌ، أو فيما أوحينا إليك سورةٌ ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ صفتُها، ومَنْ نصبها جعله مفسِّراً لناصبها فلا يكون له محلٌّ إلا إذا قُدِّر اتلُ أو دونك أو نحوُه. ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها، أو المفروضِ عليهم، أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة[٢] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم. وقرىء بتخفيف الذال[٣].

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ أي فيما فرضنا أو أنزلنا حكمُهما وهو الجلْد، ويجوز أن يُرفعا بالابتداء والخبرُ ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاءُ لتضمُّنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي. وقرىء بالنصب على

---

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء.
أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله.
انظر «الدر المنثور» (٦/ ١٢٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣).

(٢) وتكرير أنزلنا لإبراز كمال العناية بشأنها (س٦/ ١٥٥).

(٣) من عادة البيضاوي الإشارة للقراءات غير المتواترة بلفظ قرىء، إلا أنه هنا أشار بلفظ قرىء لمن قرأ بتخفيف الذال وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة وعلي وخلف وحفص. انظر تفسير النسفي (٣/ ١٣٠).

إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسنُ من نصب سورة لأجل الأمر، والزانِ بلا ياء[١]، وإنما قَدّم الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرّضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجَلْدُ ضرب الجِلْد، وهو حكمٌ يُخصّ بمن ليس بمحصَن لِما دل على أن حدّ المحصَن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريبَ الحرِّ سنةً لقوله عليه الصلاة والسلام «البِكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام»[٢]، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدُهما الآخرَ نسخاً مقبولاً أو مردوداً. وله في العبد ثلاثةُ أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابةِ في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلامَ أيضاً وهو مردودٌ برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين[٣]، ولا يعارضه: «من أشرك بالله فليس بمُحصَن»[٤] إذ المرادُ بالمحصَن الذي يُقتصّ له من المسلم. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامةِ حدِّه فتُعطّلوه تُسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو سرقت فاطمةُ بنتُ محمد لقطعت يدها»[٥]. وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة[٦]، وقرئت بالمد على فَعالة. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهادَ في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهييج. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادةً في التنكيل فإن التفضيحَ قد ينكِّل أكثرَ مما ينكّل التعذيب. والطائفةُ فِرقةٌ يمكن أن تكون حافّةً حول شيء، من الطوف، وأقلُّها ثلاثة وقيل واحداً واثنان، والمراد جمع يحصُل به التشهير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالبُ أن المائلَ إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافِحةَ لا يرغب فيها الصُلَحاء، فإن المشاكلة علةٌ للألفة والتضامّ والمخالفةَ سببٌ للنفرة والافتراق. وكان حقُّ المقابلة أن يقال والزانية لا تنكِح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكنّ المرادَ بيانُ أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضَعَفة المهاجرين لمّا همّوا أن يتزوجوا بغايا يُكْرين أنفسَهن لِيُنفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية[٧] ولذلك قدم الزاني. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه تشبّهٌ بالفساق وتعرّضٌ للتهمة وتسبُّبٌ لسوء القالة والطعْنِ في النسب وغيرِ ذلك من المفاسد، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل النفيُ بمعنى النهي، وقد قرىء به. والحُرمةُ على ظاهرها، والحكمُ مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه أو منسوخٌ بقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٨] فإنه يتناول المسافحاتِ، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله

---

(١) قوله: والزانِ بلا ياء معطوف على قوله وقرىء بالنصب، أي وقرىء والزانِ بلا ياء.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩) من حديث ابن عمر.

(٤) لم أجده.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٣ رقم ٣٤٧٥) و(٧/ ٨٧ رقم ٣٧٣٣) و(١٢/ ٨٧ رقم ٦٧٨٨) ومسلم (٣/ ١٣١٥ رقم ٨ - ١١) وأبو داود (٤/ ٥٣٧ - ٥٣٨ رقم ٤٣٧٣) والترمذي (٤/ ٣٧ - ٣٨) والنسائي (٨/ ٧٢ - ٧٥ رقم ٤٨٩٤ - ٤٩٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أي بفتح همزة رأفة أي رَأَفَةٌ، وقرئت رَآفة.

(٧) أخرجه ابن جرير (١٠/ ج١٨/ ٧١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بإسناد صحيح.

(٨) النور: ٣٢.

سِفاحٌ وآخِرُه نكاحٌ والحرامُ لا يحرم الحلال»[1]، وقيل المرادُ بالنكاح الوطءُ فيؤول إلى نهي الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانيةِ أن يزنيَ بها إلا زانٍ وهو فاسد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ يقذِفونهن بالزنا، لوَصْفِ المقذوفات بالإحصان وذِكْرِهن عَقيبَ الزواني واعتبارِ أربعة شهداءَ بقوله ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ والقذفُ بغيره مثلُ يا فاسق ويا شاربَ الخمر يوجب التعزيرَ كقذف غيرِ المحصَن، والإحصانُ ههنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى. وتخصيصُ المحصَنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذفَ النساء أغلبُ وأشنع. ولا يشترط اجتماعُ الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادةُ زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربُه أخفَّ من ضرب الزنا لضعف سببه واحتمالِه، ولذلك نَقص عددُه. ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً﴾ أيَّ شهادة كانت لأنه مُفترٍ. وقيل شهادتَهم في القذف، ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجَلد خلافاً لأبي حنيفة، فإن الأمر بالجلد والنهيَ عن القَبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيبَ بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحالُه قبل الجلد أسوأُ مما بعده ﴿أَبَدٗاۚ﴾ ما لم يتُب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ المحكومُ بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن القذف. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالَهم بالتدارُك، ومنه الاستسلامُ للحد أو الاستحلالُ من المقذوف. والاستثناءُ راجعٌ إلى أصل الحكم وهو اقتضاءُ الشرط لهذه الأمورِ؛ ولا يلزَمه سقوطُ الحد به كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلامَ له أو الاستحلال؛ ومحلُّ المستثنى النصبُ على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحلُّه الجرُّ على البدل مِنْ هم في لهم، وقيل إلى

---

(١) إن الحديث يتألف من حدثين:
(الأول): (أوله سفاح وأخره نكاح) موقوف على ابن عباس.
(والثاني): (الحرام لا يحرم الحلال) مرفوع من حديث عائشة.
● أما حديث ابن عباس الموقوف: فقد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٠٢). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٢٤٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٥). والدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩١).
● أما حديث عائشة المرفوع: فقد أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩٠) وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) وعزاه للطبراني في الأوسط. وقال: فيه عثمان بن عبدالرحمٰن الزهري وهو متروك.
● ولحديث عائشة شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٤٩ رقم ٢٠١٥) والدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٦٨ رقم ٨٩).
قال البوصري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٠ رقم ٧٢٢) «هذا إسناد ضعيف، لضعف عبدالله بن عمر العمري...» هـ.
والخلاصة أن حديث عائشة ضعيف والله أعلم.

الأخيرة[١] ومحلُّه النصبُ لأنه من موجَب، وقيل منقطِعٌ متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بنِ أُميةَ رأى رجلاً على فراشه[٢]. وأنفسُهم بدل من شهداءُ أو صفةٌ لهم على أنْ إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ فالواجبُ شهادةُ أحدهم أو فعليهم شهادةُ أحدهم وأربعَ نُصب على المصدر، وقد رفعه حمزةُ والكسائي وحفصٌ على أنه خبرُ شهادة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بشهاداتٍ لأنها أقرب، وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحُذف الجارُّ وكُسرت إنْ وعُلّق العامل عنه باللام تأكيداً.

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ والشهادةُ الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي. هذا لِعانُ الرجل، وحُكمُه: سقوطُ حدِّ القذف عنه، وحصولُ الفُرقة بينهما بنفسه فرقةَ فسخٍ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[٣]. وتفريقُ الحاكم فُرقةُ طلاقٍ عندَ أبي حنيفةَ، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه، وثبوتُ حد الزنا على المرأة لقوله:

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي الحد. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك، ورفعُ الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبرُ، أو بالعطف على أن تشهد، ونصَبَها حفصٌ عطفاً على أربعَ. وقرأ نافع ويعقوبُ أنْ لَعْنةُ اللهِ وأنْ غَضِبَ اللهُ بتخفيف النون فيهما وكسرِ الضاد وفتح الباء من غضب ورفعِ الهاء من اسم الله[٤]، والباقون بتشديد النون فيهما ونصبِ التاء وفتح الضاد وجر الهاء[٥].

---

(١) قوله: وقيل إلى النهي... وقيل إلى الأخيرة. معطوف على قوله، والاستثناء راجع إلى الحكم...

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩ رقم ٤٧٤٧) والبغوي في شرح السنة (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٧٦) وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٥١) إسناده جيد. وله شواهد من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٥) وفي سنده عياض الفهري لين الحديث كما في التقريب (٢/ ٩٦). ومن حديث علي وابن مسعود أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٧).

(٤) ذكر البيضاوي أن قراءة نافع ويعقوب واحدة، لكن ذكر ابن مهران في كتابه المبسوط في القراءات العشر ص٢٦٦ أن يعقوب قد قرأ «أنْ لَعْنَتُ اللهِ» و«أنْ غَضَبُ اللهِ» فهي بنصب الضاد والله أعلم.

(٥) وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقْعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى (س٦/ ١٥٩).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروكُ الجواب للتعظيم، أي لَفَضَحكم وعاجلكم بالعقوبة.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الأَفْك وهو الصَّرْف لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمرادُ ما أُفِك به على عائشةَ رضي الله تعالى عنها، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذّن ليلةً في القُفول بالرحيل، فمشتْ لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ مِن جَزْع ظُفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه، فظَن الذي كان يُرحِّلُها أنها دخلت الهودج فرحّله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمةَ أحداً فجلست كي يرجعَ إليها مُنشد، وكان صفوانُ بنُ المعطَّل السُّلَميُّ رضي الله تعالى عنه قد عرّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبَتْها فقادها حتى أتيا الجيشَ، فاتُّهمت به. ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعةٌ منكم، وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبدَالله بنَ أُبيّ وزيدَ بنَ رفاعة وحسانَ بنَ ثابت ومِسطَحَ بنَ أُثاثةَ وحَمْنَةَ بنتَ جحش ومن ساعدهم، وهي خبر إنّ، وقولُه ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مستأنفٌ، والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم، والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثوابَ العظيمَ، وظهورِ كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشْرةَ آيةً في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناءِ على من ظن بكم خيراً ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لكلٍ جزاءُ ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ مُعظمَه. وقرأ يعقوبُ بالضم[1]، وهو لغة فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين، وهو ابنُ أُبيّ فإنه بدأ به وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ، أو هو وحسانُ ومِسْطح فإنهما شايعاه بالتصريح به. والذي بمعنى الذين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. أو في الدنيا بأن جُلدوا، وصار ابنُ أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسانُ أعمى أشلَّ اليدين، ومِسطحُ مكفوفَ البصر.

(١٢) ﴿لَّوْلَآ﴾ هلاّ، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. وإنما عُدل فيه من الخطاب إلى الغَيبة مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين والكفَّ عن الطعن فيهم وذبَّ الطاعنين عنهم كما يذُبّونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصلُ بين لولا وفِعْله بالظرف لأنه منزّلٌ منزلتَه من حيث إنه لا ينفك عنه، وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكرَ الظرف أهمُّ فإن التحضيضَ على أن لا يُخِلّوا بأوّله. ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقنُ المطّلع على الحال.

---

(١) أي بضم الكاف (كُبْرَهُ).
(٢) الحجرات: «١١».

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً، فإن ما لا حجةَ عليه كذِبٌ عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضلُ الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة ورحمتُه في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقر دونه اللومُ والجَلْد.

(١٥) ﴿إِذْ﴾ ظرف لمستكم أو أفضتم. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال تلقَّىٰ القولَ كتلقّفه وتلقنه. وقرىء تَتَلَقَّوْنَه على الأصل، وتَلْقَونه من لقِيَه إذا لقِفه، وتِلْقَوْنه بكسر حرف المضارعة، وتُلْقُونَه من إلقائه بعضهم على بعض، وتَلِقُونَهُ وتَأْلَقُونَهُ من الألْق والإلْقِ وهو الكذب، وتَثْقفونه من ثِقفتُه إذا طلبتُه فوجدته، وتَقْفُونه أي تتبعونه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[(١)] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعةَ له. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزْر واستجرارِ العذاب. فهذه ثلاثةُ آثام مترتبة عُلّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقّي الإفك بألسنتهم، والتحدثُ به من غير تحقق، واستصغارُهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارةُ إلى القول المخصوصِ وأن تكون إلى نوعه، فإنّ قذفَ آحادِ الناس محرمٌ شرعاً فضلاً عن تعرض الصدّيقة ابنةِ الصديق حُرمةِ رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجّب من ذلك الإفكِ أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يُذكر عند كل متعجَّب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعُب عليه مثلُه، ثم كثُر فاستعمل لكل متعجّب. أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حُرمةُ نبيه فاجرةً، فإن فجورها يُنفَر عنه ويُخِلّ بمقصود الزواج بخلاف كفرها، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارةَ الذنوب وعِظَمَها باعتبار متعلَّقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهةَ أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياءً مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهييجٌ وتقريع.

---

(١) آل عمران: «١٦٧».

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالةَ على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها[١]. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكَشْحنة[٢] على نبيه ولا يقرِّره عليها.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر. ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهرُ، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنّة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عِظَم الجريمة، ولذا عُطف قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمتِه عليهم، وحُذف الجواب وهو مستغنًى عنه بذكره مرة[٣].

(٢١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بإشاعة الفاحشة. وقرىء بفتح الطاء، وقرأ نافع والبزي وأبو عمرٍو وأبو بكر وحمزةُ بسكونها ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بيان لعلة النهي عن اتباعه، والفحشاءُ ما أفرط قبحُه، والمنكر ما أنكره الشرع[٤]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرعِ الحدود المكفرةِ لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهُر من دنسها. ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخرَ الدهر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بحمله على التوبة وقَبولِها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلِفْ، افتعالٌ من الأَلِيّة، أو ولا يُقصِّر من الأُلُوّ. ويؤيد الأول أنه قرىء ولا يَتَألَّ، وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا يُنفق على مِسْطحٍ بعْدُ وكان ابنَ خالته وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وفيه

---

(١) إظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (س٦/ ١٦٣).

(٢) الكشحنة هي إضمار العداوة.

(٣) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة (س٦/ ١٦٤).

(٤) قال: «ومَنْ يتبع خطوات الشيطان» ولم يقل ومن يتبعها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (س٦/ ١٦٤).

دليلٌ على فضل أبي بكر وشرفِهِ رضي الله تعالى عنه ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾ على أن لا يؤتوا، أو في أن يؤتوا. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مُقامَها فيكون أبلغَ في تعليل المقصود ﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ عما فرَط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحِكم وإحسانِكم إلى مَنْ أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلّقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: بلى أُحب، ورَجَع إلى مِسطح نفقتَه[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائفَ. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عما قُذفن به ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله وبرسوله، استباحةً لعِرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أُبَيّ ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَم ذنوبهم، وقيل هو حكمُ كلِّ قاذفٍ ما لم يتُب، وقيل مخصوصٌ بمن قذف أزواجَ النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيداتِ القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشةَ رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾[2] ظرفٌ لِما في لهم من معنى الاستقرار، لا للعذاب لأنه موصوف. وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيدُ تهويل للعذاب.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءَهم المستحقّ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الثابتُ بذاته الظاهرُ ألوهيتُه لا يشاركه في ذلك غيرُه، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البيِّنِ أي العادلُ الظاهرُ عدلُه، ومن كان هذا شأنَه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الخبائثُ يتزوجن الخِباثَ وبالعكس، وكذلك أهلُ الطيِّب فيكون كالدليل على قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني أهلَ بيت النبي ﷺ، أو الرسولَ وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٧٢ رقم ٢٦٦١) و(٧/ ٤٣٤ رقم ٤١٤١) و(٨/ ٤٤٥ رقم ٤٧٥٠) و(١١/ ٥٦٤ رقم ٦٦٧٩) ومسلم (٤/ ٢١٣٦ رقم ٥٦). كلاهما في سياق حديث الإفك الطويل. من حديث عائشة.

(٢) وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٦/ ١٦٦).

عليه الصلاة والسلام ولم يُقرِّرْ عليها، وقيل الخبيثاتُ والطيبات من الأقوال، والإشارة إلى الطيبين، والضمير في يقولون للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم، أو للخبيثين والخبيثات أي مبرؤون من أن يقولوا مثلَ قولهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برّأ الله أربعةً بأربعة: برأ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجَر الذي ذهب بثوبه، ومريمَ بإنطاق ولدها، وعائشةَ رضي الله تعالى عنها بهذه الآياتِ الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصِب الرسول ﷺ وإعلاءِ منزلته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكُنونها، فإن الآجِرَ والمُعير أيضاً لا يدخُلان إلا بإذن. ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيءَ إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلِمٌ للحال مستكشفٌ أنه هل يُراد دخولُه أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش فإن المستأذن مستوحِشٌ خائفٌ أن لا يُؤذَن له، فإذا له أذن استأنس، أو تتعرفوا هل ثَمّ إنسانٌ من الإنس ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أأدخُل؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليمُ أن يقول السلامُ عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أُذن له دخل وإلا رجع»[1]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذانُ أو التسليمُ خيرٌ لكم من أن تدخُلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية، كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غيرَ بيته قال: حُيِّيتم صباحاً أو حُيِّيتم مساءً ودخل، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لِحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أأستأذن عليها كلما دخلْتُ، قال: «أتحب أن تراها عُرْيانة»، قال: لا، قال: «فاستأذِنْ»[2]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أُنزِل عليكم أو قيل لكم هذا إرادةَ أن تذكُروا وتعمَلوا بما هو أصلُح لكم.

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يأتيَ مَنْ يأذن لكم، فإن

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. نعم أخرج البخاري (١١/٢٧ رقم ٦٢٤٥) ومسلم (٣/١٦٩٤ ـ ١٦٩٧ رقم ٣٣ ـ ٣٧). في سياق قصة أبي موسى مع عمر رضي الله عنهم. من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٦٣ رقم١) وأبو داود في المراسيل (ص٣٣٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/١١١ ـ ١١٢) من حديث عطاء بن يسار مرسلاً.
قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٦/٢٢٩): «. . . وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه. . .» هـ. وقال الشيخ شعيب في تخريج «المراسيل» رجاله ثقات رجال الشيخين» هـ.

المانعَ من الدخول ليس الاطلاعَ على العورات فقط، بل وعلى ما يُخفيه الناسُ عادة مع أن التصرفَ في مِلك الغير بغير إذنه محظور، واستُثنى ما إذا عرَض فيه حَرْقٌ أو غرَقٌ أو كان فيه منكرٌ ونحوُها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ ولا تُلِحّوا. ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ الرجوعُ أطهرُ لكم عما لا يخلو الإلحاحُ والوقوفُ على الباب عنه من الكراهة وتركِ المروءة، أو أنفعُ لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ كالرُّبُط[١] والحوانيت والخانات والخانقات[٢] ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ﴾ استمتاع. ﴿لَّكُمۡ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواءِ الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناءٌ من الحكم السابق لشموله المسكونةَ وغيرَها. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلُّعٍ على عورات.

(٣٠) ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي ما يكون نحوَ محرّم. ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم، ولمّا كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغضِّ أطلقه، وقيّد الغضَّ بحرف التبعيض. وقيل حفظُ الفروج ههنا خاصّة سَترها. ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أنفعُ لهم أو أطهرُ لما فيه من البعد عن الريبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالةُ أبصارهم واستعمالُ سائرِ حواسِّهم وتحريكُ جوارحهم وما يقصِدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظُرن إلى ما لا يحِلّ لهن النظرُ إليه من الرجال ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديمُ الغضّ لأن النظر بريدُ الزنا. ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُليِ والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تُبْدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سَترها حرجاً، وقيل المرادُ بالزينة مواضعُها على حذف المضاف، أو ما يعُمّ المحاسنَ الخَلْقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجهُ والكفانِ لأنها ليست بعورة،

(١) الرُّبُط هي ما يبنىٰ للفقراء.
(٢) لعل المراد بها الأماكن الخيرية أو الحمامات.

والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرّة عورةٌ لا يحل لغير الزوج، والمحرّمُ النظرُ إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتَحَمُّلِ الشهادة. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سَتراً لأعناقهن. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عمرٍو وهشامٌ بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرّره لبيان من يحل له الإبداءُ ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتى الفرج بكُرْهٍ. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجِهن إلى مداخلتهم وقلةِ توقّع الفتنة من قِبَلهم لِما في الطباع من النفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المِهنة والخِدمة، وإنما لم يُذكر الأعمامُ والأخوالُ لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يتستّرن عنهم حذراً أن يصِفوهن لأبنائهم ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المؤمناتِ فإن الكافراتِ لا يتحرّجن عن وصفهن للرجال أو النساءِ كلِّهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعُم الإماءَ والعبيد، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمةَ بعبد وهبَه لها وعليها ثوبٌ إذا قنّعت به رأسَها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلُغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[1]. وقيل المراد بها الإماءُ، وعبدُ المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخُ الهُم[2] والممسوحون[3]، وفي المجبوب[4] والخَصيِّ خلافَ، وقيل البُلْه الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم ولا يعرِفون شيئاً من أمور النساء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «غيرَ» بالنصب على الحال ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشهوة، من الظهور بمعنى الغلَبة. والطفلُ جنسٌ وُضع موضعَ الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ليتقعقع خَلخالُها فيُعلمَ أنها ذاتُ خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغُ من النهي عن إظهار الزينة وأدلُّ على المنع من رفع الصوت.
﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبّ بالإسلام لكنه يجب الندمُ عليه والعزمُ على الكف عنه كلما يُتذكر. وقرأ ابن عامر «أيهُ المؤمنون» وفي الزخرف «يا أيهُ الساحر»[5] وفي الرحمن «أيهُ الثقلان»[6] بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقون بغير الألف. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٣٥٩ رقم ٤١٠٦) وفي إسناده: سالم بن دينار وثقه ابن معين.
وقال أحمد: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو زرعة: لين الحديث، وقال الحافظ: مقبول.
[انظر «الجرح والتعديل» (٤/ ١٨٠ ـ ١٨١) و«التقريب» (١/ ٢٧٩ رقم ٦)].
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) الشيخ الهِمّ: الفاني وهي هِمّة.

(٣) الممسوح: من لا آلة له.

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

(٥) الزخرف: «٤٩».

(٦) الرحمٰن: «٣١».

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ لمّا نهىٰ عما عسىٰ يُفضي إلى السفاح المُخِلّ بالنسب المقتضي للأُلفة وحسنِ التربية ومزيدِ الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغةً فيه عقّبه بأمر النكاح الحافظِ له. والخطابُ للأولياء والسادة. وفيه دليلٌ على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعارٌ بأن المرأة والعبد لا يَستبدّان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولىٰ. وأيامَى مقلوبُ أيايم كيتامى، جمع أَيِّم وهو العزَب ذكراً كان أو أنثى بِكراً كان أو ثيباً قال:

فَــإِنْ تَنْكِحِــي أَنْكِــحْ وَإِنْ تَتَــأَيَّمِــي ـ وَإِنْ كُنْــتُ أَفْتَــى مِنْكُــمُ ـ أَتَــأَيَّــمِ[1]

وتخصيصُ الصالحين لأن إحصانَ دينهم والاهتمامَ بشأنهم أهمّ، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيامِ بحقوقه. ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ردٌّ لِما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يَمنعَنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غُنيةً عن المال فإنه غادٍ ورائحٌ. أو وعدٌ من الله بالإغناء لقوله ﷺ: «اطلُبوا الغنى في هذه الآية»[2]، لكنْ مشروطٌ بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾[3]. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سَعة لا تنفد نعمتُه إذ لا تنتهي قدرتُه ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسُط الرزقَ ويقدِر على ما تقتضيه حكمتُه.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليجتهدْ في العِفة وقمع الشهوة. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما يُنكَح به، أو بالوُجدان التمكنُ منه. ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المكاتبةَ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتُك على كذا من الكتاب لأن السيد

---

(١) من الطويل.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ. وفي معناه حديث «التمسوا الرزق بالنكاح» أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد ـ وهو ضعيف ـ وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فإنَّهنَّ يأتين بالمال». قال الحاكم ـ (٢/ ١٦١) ـ تفرد به سلم وهو ثقة. وقال البزار ـ (٢/ ١٤٩ ـ كشف) ـ والدارقطني في العلل ـ وغير سلم يرويه مرسلاً. انتهى. وهو كما قال.
ـ وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة ـ (في المصنف: ٤/ ١٢٧) ـ عن أبي أسامة، فلم يذكر عائشة.
ـ وكذلك أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص١٨٠ رقم ٢٠٣) عن أبي توبة ـ واسمه الربيع ـ عن أبي أسامة ـ ورجاله ثقات رجال الشيخين ـ.
ـ وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان ـ ص٢٤٢ ـ بلفظ «عليكم بالتزويج فإنه... الرزق» ـ من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولاً. والحسين متهم بالكذب ـ المجروحين. ـ (١ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ـ. انظر «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٧٧).

(٣) التوبة: «٢٨».

كتب على نفسه عِتقَه إذا أدّى المال، أن لأنه مما يُكتب لتأجيله، أو من الكَتْب بمعنى الجمع لأن العِوَض فيه يكون مُنَجّماً بنُجوم بضمّ بعضِها إلى بعض ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمةً، والموصولُ بصلته مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أو مفعولٌ لمضمرٍ هذا تفسيره، والفاءُ لتضمّن معنى الشرط. والأمرُ فيه للندب عند أكثر العلماء، لأن الكتابة معاوَضَةٌ تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها، واحتجاجُ الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيفٌ لأن المُطْلق لا يعمّ، مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السَّلَم فيما لا يوجد عند المحلّ. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانةً وقدرةً على أداء المال بالاحتراف، وقد رُوي مثله مرفوعاً[١]. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً، وضَعْفُه ظاهرٌ لفظاً ومعنًى، وهو شرطُ الأمر فلا يلزم من عدمه عدمُ الجواز. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذُلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقلُّ ما يُتموّل. وعن علي رضي الله تعالى عنه يَحُطّ الربع[٢]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث[٣]. وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يُؤتوا ويَعتِقوا، وقيل أمرٌ لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمَهم من الزكاة، ويحِلُّ للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقةً كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية»[٤]. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءَكم. ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ على الزنا، كانت لعبدالله بن أُبيّ ستُّ جَوارٍ يُكرهُهن على الزنا، وضَرب عليهن الضرائبَ فشكا بعضُهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت[٥]. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً، شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جُعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جوازُ الإكراه لجواز أن يكون ارتفاعُ النهي بامتناع المنهيّ عنه. وإيثارُ «إنْ» على إذا لأن إرادة التحصّن من الإماء كالشاذّ النادر. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهن، أو له إن تاب، والأولُ أوفقُ للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ولا يرد عليه أن المُكرَهةَ غيرُ آثمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراهَ لا ينافي المؤاخذةَ بالذات، ولذلك حَرُم على المُكْره القتلُ وأُوجِب عليه القِصاص.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (١٣/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٢٩) عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٣١) والمصنف لعبدالرزاق (٨/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٥ رقم ١٤٩٣) و(٥/ ٢٠٣ رقم ٢٥٧٨) و(٩/ ١٣٨ رقم ٥٠٩٧) و(٩/ ٤٠٤ رقم ٥٢٧٩) و(٥/ ٤١٠ رقم ٥٢٨٤) و(١٢/ ٣٩ رقم ٦٧٥١) ومسلم (٢/ ٧٥٥ رقم ١٧١ ـ ١٧٢) و(٢/ ١١٤٣ ـ ١١٤٥ رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٤) من حديث عائشة في حديث قصة بريرة وعتقها.

(٥) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٨٢).

وهو عند مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٦/ ٢٧) من حديث جابر.

ـ وأخرجه البزار (٣/ ٦٠ ـ كشف) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٧) من حديث ابن عباس.

ـ وأخرجه البزار من حديث أنس نحوه وفي إسناد حديث أنس كذاب ـ كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣).

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني الآياتِ التي بُينت في هذه السورةِ وأوضحت فيها الأحكامُ والحدود. وقرأ ابن عامر وحفصٌ وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي الطلاق[1] لأنها واضحات تصدِّقها الكتبُ المتقدمة والعقولُ المستقيمة منْ بَيَّن بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكامَ والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال مَن قبلكم أي وقصةً عجيبة مثلَ قِصصهم، وهي قصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسفَ ومريمَ. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وَعظ به في تلك الآيات، وتخصيصُ المتقين لأنهم المنتفعون بها، وقيل المرادُ بالآيات القرآنُ والصفاتِ المذكورةِ صفاتُه.

(٣٥) ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ النور في الأصل كيفيةٌ تُدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائرَ المبصَرات كالكيفية الفائضة من النيِّرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرَمٌ بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منوِّر السموات والأرض، وقد قرىء به فإنه تعالى نوّرهما بالكواكب وما يَفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبّرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نورُ القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجِدُهما فإن النورَ ظاهرٌ بذاته مظهر لغيره وأصلُ الظهور هو الوجود كما أن أصلَ الخفاء هو العدم. والله سبحانه وتعالى موجود بذاته مُوجِدٌ لما عداه، أو الذي به تُدرَك، أو يُدرِك أهلُها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرِك نفسَها وغيرَها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكاتِ ليست لذاتها وإلا لما فارقَتْها فهي إذن من سبب يُفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سُمّوا أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي مَن فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصورِ الإدراكات عليهما وعلى المتعلّق بهما والمدلول لهما ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ صفةُ نوره العجيبةُ الشأن، وإضافتُه إلى ضميره سبحانه وتعالى دليلٌ على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكُوّة الغيرُ النافذة. وقرأ الكسائي برواية . . . .

---

(١) الطلاق: «١١».

الدوري[١] بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأُنبوبةُ في وسط القنديل والمصباحُ الفتيلة المشتعلة ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ مضيء متلألىء كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدَّرأ، وفُعيّل كمُريّق من الدرء فإنه يدفع الظلامَ بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزتُه ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دِرِيءٌ كشِريب وقد قرىء به مقلوباً[٢]. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ أي ابتداءُ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعُه بأن رويَت ذُبالتهُ بزَيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفِها بالبركة ثم إبدالِ الزيتونة عنها تفخيمٌ لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أَوْقد، وحمزةُ والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرىء تَوَقَّدُ من تتوقد، ويَوَقَّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي تكون على قُلّة أو صحراءَ واسعةٍ، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتُها أصفى، أو لا نابتةٍ في شرق المعمورة وغربِها بل في وسطها وهو الشامُ فإن زيتونه أجودُ الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمسُ عليها دائماً فتحرِقها أو في مَقْنأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقْنأة[٣] ولا خير فيهما في مضحى»[٤] ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألُئِه وفَرْط وَبيصِه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ نور متضاعف فإن نورَ المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزُهرةُ القِنديل وضبطُ المِشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآياتُ المبينات في جلاء مدلولها وظهورِ ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيهٌ للهدى من حيث إنه محفوفٌ بظلمات أوهام الناس وخيالاتِهم بالمصباح، وإنما وليَ الكافُ المشكاةَ لاشتمالها عليه وتشبيههُ به أوفقُ من تشبيهه بالشمس، أو تمثيلٌ لما نوّر الله به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبيّ: مثلُ نورِ المؤمن، أو تمثيلٌ لِما منَح الله به عبادَه من القُوى الدراكة الخمسِ المترتبة التي منوطٌ بها المعاشُ والمَعاد وهي: الحسّاسةُ التي تُدرك بها المحسوساتُ بالحواس الخمس، والخَيالِيّةُ التي تحفظ صورَ تلك المحسوساتِ لتعرِضَها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائقَ الكلية والمفكّرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلمَ ما لم تعلم، والقوةُ القدسية التي تتجلى فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ الملكوت المختصةُ بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ

---

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمرٍ الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.
قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٥٥].

(٢) قوله قرىء به مقلوباً أي (دِئْري).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.

عِبَادِنَاۚ﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والشجرة، والزيت، فإن الحساسةَ كالمشكاة لأن محلها كالكُوَى ووجهُها إلى الظاهر لا تُدرك ما وراءها، وإضاءتُها بالمعقولات لا بالذات، والخياليةَ كالزجاجة في قبول صور المُدرَكات من الجوانب وضبطِها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلةَ كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارفِ الإلهية، والمفكّرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهايةَ لها الزيتونةَ المثمرةَ بالزيت الذي هو مادةُ المصابيح التي لا تكون شرقيةً ولا غربية لتجرُّدها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلين منتفعةً من الجانبين، والقوةَ القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدةِ ذَكائِها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيلٌ للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خاليةٌ عن العلوم مستعدةٌ لقَبولها كالمشكاة؛ ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئياتِ بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئةً في نفسها قابلةً للأنوار، وذلك التمكنُ إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدْس فكالزيت وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحْي والإلهامِ الذي مثلُه النارُ من حيث إن العقولَ تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلومُ بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لهذا النورِ الثاقب ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ فإن الأسبابَ دون مشيئته لاغيةٌ إذ بها تمامُها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ إدناءً للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعدٌ ووعيدٌ لمن تدبرها وإن لم يكترثْ بها.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلِّقٌ بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييداً للممثَّل به بما يكون تحبيراً ومبالغةً فيه فإن قناديلَ المساجد تكون أعظمَ، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانِهم بالمساجد، ولا ينافي جمعُ البيوت وحدةَ المشكاة إذ المرادُ بها مالَه هذا الوصفُ بلا اعتبار وَحْدةٍ ولا كثرة. أو بما بعده[2] وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد، لا بيُذكرَ لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله. أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمرادُ بها المساجدُ لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجدُ الثلاثة والتنكيرُ للتعظيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يتضمن ذكرَه حتى المذاكرةَ في أفعاله والمباحثةَ في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ينزهونه أي يُصلّون له فيها بالغدوات والعشيات، والغُدوّ مصدرٌ أطلق للوقت، ولذلك حسُن اقترانُه بالآصال وهو جمع أصيل. وقرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسبَّحُ بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرىء تسبِّح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع، ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

---

(١) الشورى: «٥٢».

(٢) قوله: أو بما بعده.. و.. أو بمحذوف هو معطوف على قوله: متعلق بما قبله.

رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ لا تشغلهم معاملةٌ رابحة ﴿وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مُطلقُ المعاوضة، أو بأفراد ما هو الأهمُ من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويُتوقع بالشراء. وقيل المرادُ بالتجارة الشراءُ فإنه أصلُها ومبدؤها. وقيل الجَلَب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجَر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماءٌ بأنهم تجار[1]. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عُوّض فيه الإضافةُ من التاء المعوَّضة عن العين[2] الساقطةِ بالإعلال كقوله:

وَأَخلَفُوكَ عِدَ الأمرِ الَّذِي وَعَدُوا[3]

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجب إخراجُه من المال للمستحقين ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالُها فتفقَه القلوبُ ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصارُ ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوبُ مع توقّع النجاةِ وخوف الهلاك، والأبصارُ من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى بكتبهم.

(٣٨) ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلقٌ بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أحسنَ جزاءِ ما عملوا الموعودَ لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أشياءَ لم يعِدْهم بها على أعمالهم ولم تخطُر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تقريرٌ للزيادة وتنبيهٌ على كمال القدرة ونفاذِ المشيئة وسَعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ والذين كفروا حالُهم على ضد ذلك، فإن أعمالَهم التي يحسبونها صالحةً نافعةً عند الله يجدونها لاغيةً مخيَّبةً في العاقبة كالسراب، وهو ما يُرى في الفلاة من لمَعان الشمسِ عليها وقتَ الظهيرة فيُظنّ أنه ماءٌ يسرُب أي يجري، والقِيعة بمعنى القاع وهو الأرضُ الخالية عن النبات وغيرُ المستوية، وقيل جمعُه كجار وجِيرة. وقرىء بقِيعات كديمات في ديمة ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي العطشانُ، وتخصيصُه لتشبيه الكافر به في شدة الخَيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ جاء ما توهّمه ماءً، أو موضعَه ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عقابه أو زبانيتَه أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ استعراضاً أو مجازاةً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يشغله

---

(١) وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها.
وإفراد البيع بالذكر ـ مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن وربح ما عداه متوقع ـ (س٦/١٧٩).

(٢) وهي الواو في الأصل (أقوام الصلاة) حذفت الواو وعوض عنها التاء (إقامة) وقوله عن الأمر أي عدة الأمر بمعنى وحده.

(٣) من البسيط.

حسابٌ عن حساب. روي أنها نزلت في عُتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ أميةَ، تعبّد في الجاهلية والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلامُ كفر[١].

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

(٤٠) ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على كسراب. وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسراب ولكونها خاليةً عن نور الحق كالظلمات المتراكمةِ من لُجّ البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالَهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحةً فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ذي لُجّ أي عميق منسوب إلى اللُّج وهو معظمُ الماء ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي أمواجٍ مترادفةٌ متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجومَ وحجب أنوارها، والجملةُ صفة أخرى للبحر ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ أي هذه ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير ظلماتٍ بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزّي[٢] ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهي أقربُ ما يُرى إليه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لم يقرَبْ أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة[٣]:

إِذَا غَيَّـرَ النَّـأْيُ المُحِبِّيـنَ لَـمْ يَكَـدْ رَسِيـسُ الهَـوَى مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ يَبْـرَحُ

والضمائرُ للواقع في البحر وإن لم يجرِ ذكرُه لدلالة المعنى عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ ومن لم يقدِّر له الهداية لم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ خلافَ الموفَّق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلمْ علماً يشبه المشاهدةَ في اليقين والوثاقةِ بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كل نقص وآفةٍ أهلُ السموات والأرض، ومَن لتغليب العقلاء، أو الملائكةُ والثقلانِ بما يدل عليه من مقال أو دلالةِ حال ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ على الأول تخصيصٌ لما فيها من الصنع الظاهر والدليلِ الباهر ولذلك قيدها بقوله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فإن إعطاءَ الأجرام الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوف في الجو باسطةً أجنحتَها بما فيها من القبض والبسط حجةٌ قاطعة على كمال قدرةِ الصانع تعالى ولُطفِ تدبيره ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي قد علم

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٨٢) قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبدشمس.

(٢) البزي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة.

وقال الأهوازي أبو بزة الذي ينسب إليه البزي اسمه بشار فارس من أهل همذان أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي والبزة الشدة ومعنى أبو بزة أبو شدة ويقال إن نافعاً هو أبو بزة الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرىء مكة ومؤذن الحرام ولد سنة سبعين ومائة استذا محقق ضابط ومتقن [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١١٩].

(٣) ذي الرمة: سبق ترجمته في سورة المؤمنون.

الله دعاءَه وتنزيهَه اختياراً أو طبعاً لقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أو علِم كلٌّ على تشبيه حالِه في الدِلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخُصه بحال مَن علم ذلك مع أنه لا يبعُد أن يُلهم الله تعالى الطيرَ دعاءً وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيُّشِها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه الخالقُ لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنةٌ واجبةُ الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مرجعُ الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يسوقه، ومنه البضاعةُ المُزْجاة فإنه يُزْجيها كلُّ أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ بأن يكون قَزَعاً فيَضُم بعضَه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صح (بينه) إذ المعنى بين أجزائه. وقرأ نافع برواية ورش يوَلّف غيرَ مهموز. ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكماً بعضُه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ المطرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فُتوقه، جمع خَلل كجبال في جبل. وقرىء من خِلله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، وكلُ ما علاك فهو سماء ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ من قِطع عظامٍ تشبه الجبال في عِظَمها أو جمودها ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيان للجبال، والمفعول محذوف أي ينزل مبتدَأً من السماء من جبال فيها مِن بَرَد بَرداً، ويجوز أن تكون مِنْ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعةً موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المِظلة، وفيها جبالٌ من برد كما في الأرض جبالٌ من حجر، وليس في العقل قاطعٌ يمنعه، والمشهورُ أن الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحلّلها حرارةٌ فبلغت الطبقةَ الباردة من الهواء وقوِيَ البرْدُ هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتدَّ البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً ينزل منه المطر أو الثلج، وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتِها، وإليها أشار بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ والضمير للبرَد ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ ضوء برقه. وقرىء بالمد بمعنى العلو، وبإدغام الدال في السين، وبُرَقِه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع بُرقة وهي المقدار من البرْق كالغرفة، وبضمها للإتباع. ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة[١]. وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد. وقرىء يُذهِبُ على زيادة الباء.

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادةِ الآخر، أو بتغيير أحوالِهما بالحر والبرد والظُلمة والنور أو بما يعم ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما تقدم ذكره ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لَدِلالةَ

---

١) وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض (س٦/ ١٨٥).

على وجود الصانع القديم، وكمالِ قدرته وإحاطةِ علمه ونفاذِ مشيئته وتنزّهه على الحاجة وما يُفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ حيوانٍ يدبّ على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ كلِّ دابة بالإضافة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفةُ فيكون تنزيلاً للغالب منزلةَ الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل من ماء متعلقٌ بدابة وليس بصلة لخلق ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وإنما سُمّي الزحفُ مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعَم والوحش، ويندرج فيه ماله أكثرُ من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكيرُ الضمير لتغليب العقلاء، والتعبيرُ عن الأصنافِ ليوافق التفصيلُ الجملة، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرفُ في القدرة ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئاتِ والحركات والطبائعِ والقوى والأفعالِ مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبرِ لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دينُ الإسلام الموصلُ إلى درَك الحق والفوزِ بالجنة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ نزلت في بشْر المنافق، خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي ﷺ[2]. وقيل في مغيرةَ بنِ وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ[3]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعَهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبُهم، أو إلى الفريق منهم، وسلْبُ الإيمان عنهم لتوليهم. والتعريفُ فيه للدِلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرَفْتَهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعوُّ إليه،

---

(١) إظهار اسم الجلالة «الله» في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية (س٦/١٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٢٧.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٢٩٣).

وذِكْرُ الله لتعظيمه والدَلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكمُ الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ إذا كان الحقُّ عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرحٌ للتولي ومبالغة فيه.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحكمُ لا عليهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، وإليه صلةٌ ليأتوا أو لمذعنين، وتقديمُه للاختصاص.

(٥٠) ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر أو ميلٌ إلى الظلم ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ بأن رأوا منك تُهمةً فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الحكومة ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ إضرابٌ عن القِسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأولُ، ووجهُ التقسيم أن امتناعَهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل، لأن منصِبَ نبوته وفرْطَ أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول، وظلمُهم يعم خَللَ عقيدتهم وميلَ نفوسهم إلى الحيف، والفصلُ لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعوُّ إلى حكمه.

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المُحق المبطل، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرىء قولُ بالرفع، وليُحكَمَ على البناء للمفعول، وإسنادُه إلى ضمير مصدرِه على معنى ليفعل الحكم.

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمُرانه، أو في الفرائض والسنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقِيَ من عمره، وقرأ يعقوبُ وقالونُ عن نافع بلا ياء[1]، وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء[2]، وحفص بسكون القاف فشبه تَقْهِ بكتْف وخَفّف، والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

(٥٣) ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ إنكارٌ للامتناع عن حكمه ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ الخروجَ عن ديارهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية. ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ على الكذب. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفة لا اليمينُ على الطاعة النفاقية المنكَرة، أو طاعة معروفة أمثلُ منها، أو لتكن طاعةٌ. وقرئت بالنصب على: أطيعوا طاعة[3]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سرائرُكم.

---

(١) قوله بلا ياء أي بلا إشباع للهاء بالياء، مع كسر القاف.

(٢) مع كسر القاف أيضاً.

(٣) التعبير عن الطاعة بأنها معروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد (س٦/١٨٩).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغةً في تبكيتهم[١] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﷺ. ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال[٢]. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه. ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ التبليغُ الموضحُ لما كُلّفتم به، وقد أدىٰ، وإنما بقي ما حمّلتم فإن أدّيتم فلكم وإن توليتم فعليكم.

(٥٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة، أو له ولمن معه، ومِن للبيان[٣] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليجعلنّهم خلفاءَ متصرفين في الأرض تصرفَ الملوك في مماليكهم. وهو جوابُ قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو الوعدُ في تحققه منزّلٌ منزلةَ القسم. ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيلَ استخلفهم في مصرَ والشام بعد الجبابرة. وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام، وإذا ابتدأ ضمّ الألفَ والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت[٤]. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. ﴿أَمْنًا﴾ منهم. وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه مكثوا بمكةَ عشرَ سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلِّهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليلٌ على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافةِ الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعودُ والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوفُ من العذاب والأمنُ منه في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من الذين لتقييد الوعدِ بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من الواو أي يعبدونني غيرَ مشركين. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الوعد أو حصولِ الخلافة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمةَ العظيمة.

---

(١) كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد والتقريع وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع (س٦/ ١٨٩).

(٢) ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد (س٦/ ١٨٩).

(٣) توسيط الظرف (منكم) بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم (س٦/ ١٩٠).

(٤) وتقديم (لهم) على المفعول الصريح (دينَهم) للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده (س٦/ ١٩١).

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به، ولا يبعُد عطفُ ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعدٌ على المأمور به، فيكون تكريرُ الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليقِ الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفارَ معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و(في الأرض) صلةُ معجزين. وقرأ ابن عامر وحمزةُ بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء، أو الذين كفروا فاعل، والمعنى ولا يحسبن الكفارُ في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه، أو لا يحسبونهم معجزين، فحُذف المفعولُ الأول لأن الفاعلَ والمفعولين لشيء واحد فاكتُفِيَ بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الإعجاز. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوع إلى تتمة الأحكام السالفةِ بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرِها والوعدِ عليها والوعيدِ على الإعراض عنها. والمرادُ به خطابُ الرجال والنساء، غُلِّب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماءَ بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقت كرِهته فنزلت[١]. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلَج بنَ عمرٍو الأنصاريَّ[٢] وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعوَ عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله عز وجل نهىٰ آباءنا وأبناءَنا وخدَمَنا أن لا يدخُلوا هذه الساعاتِ علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية[٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والصبيانُ الذين لم

---

١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن مقاتل.

٢) هو مدلج الأنصاري بعثه النبي ﷺ في شغل إلى عمر إن صح ذلك. (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٢/ ٦٦ رقم ٧٢٤).

٣) أخرجه ابن منده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الإصابة» =

يبلُغوا من الأحرار، فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ في اليوم والليلة. مرة ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقتُ القيام من المضاجع وطرحِ ثياب النوم ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلُّه النصبُ بدلاً من ثلاث مرات، أو الرفعُ خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين[(١)]. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ أي هي ثلاثُ أوقات يختل فيها تستُّركم، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرُه ما بعده، وأصلُ العورة الخلل ومنها أعورُ المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ثلاثَ بالنصب بدلاً من ثلاث مرات ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقاتِ في ترك الاستئذان. وليس فيه ما ينافي آيةَ الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليكِ المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي هم طوافون، استئنافٌ ببيان العذر المرخّصِ في ترك الاستئذانِ وهو المخالطةُ وكثرةُ المداخلة. وفيه دليلٌ على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقاتِ الثلاثة وغيرِها بأنها عورات. ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ بعضُكم طائفٌ على بعض أو يطوف بعضكم على بعض. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أي الأحكام. ﴿وَٱللَّهُ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما شرع لكم.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلِّها، واستدل به من أوجب استئذانَ العبد البالغ على سيدته، وجوابُه أن المرادَ بهم المعهودون الذين جُعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(٦٠) ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العجائزُ اللاتي قعدن عن الحيض والحمل. ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ لا يطمعن فيه لكِبَرهن. ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثيابَ الظاهرة كالجِلباب، والفاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ غيرَ مظهرات زينةً مما أُمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[(٢)]. وأصلُ التبرج التكلّفُ في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينةٌ بارجة لا غطاءَ عليها، والبَرَج سعةُ العين بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادها كلِّه لا يغيب منه شيء، إلا أنه خُصّ بتكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ من الوضع لأنه أبعدُ من التهمة. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال. ﴿عَلِيمٞ﴾ بمقصودهن.

= (٣/ ٣٩٥) ـ. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن ابن عباس.
وهو حديث باطل إسناده مظلم.

(١) والتصريح بوضع الثياب في هذا الوقت دون الأول (قبل الفجر). والآخر (بعد العشاء) لقلة زمان القيلولة ولكثرة الورود والصدور، فهو مظنة لظهور الأحوال. أما الوقتين الآخرين فالتجرد فيه أمر معروف ولا يحتاج للتصريح به (س٦/ ١٩٣).

(٢) النور: «٣١».

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفيٌ لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصِحّاء حذراً من استقذارهم، أو أكلِهم من بيت من يدفع إليهم المفتاحَ ويُبيح لهم التبسُّطَ فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافةَ أن لا يكون ذلك من طِيب قلب، أو مِن إجابةِ من دعَوهم إلى بيوت آبائهم وأولادِهم وأقاربهم فيُطعمونهم كراهةَ أن يكونوا كَلًّا عليهم، وهذا إنما يكون إذا علِم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[(١)]. وقيل نفيٌ للحرج عنهم في القعود عن الجهاد، وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجُكم وعيالُكم، فيدخل فيها بيوتُ الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[(٢)]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل المؤمنُ من كسبه، وإن ولده مِن كسْبه»[(٣)]. ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) الأحزاب: «٥٣».

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩١) من حديث جابر.
ـ قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٥ رقم ٨١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري وله شاهد من حديث عائشة، رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. ورواه أبو داود ـ (٣/ ٨٠١ رقم ٣٥٣٠) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٢) ـ من حديث عبدالله بن عمرو» هـ.
ووافقه الألباني على تصحيحه في الإرواء رقم (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٠، ٨٠١ رقم ٣٥٢٨، ٣٥٢٩) والترمذي (٣/ ٦٣٩ رقم ١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ رقم ٤٤٤٩ و٤٤٥٠) وابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٠) وابن حبان (ص٢٦٨ رقم ١٠٩١ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٤٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩/ ١٣٣) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٥٨) وأحمد في المسند (٦/ ٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٠) والدارمي (٢/ ٢٤٧) والطيالسي في مسنده (ص٢٢١).
كلهم من طريق عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة. إلاّ أن في إحدى روايتي أبي داود (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ٢٠٢) عن أمه بدل عمته. وفي إحدى روايتي ابن أبي شيبة. والحاكم (أبيه) وكان في أصل المصنف (أبيه) فجعله المحقق (أمه) من السنن الكبرى. قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠): =

﴿أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضَيعة أو ماشيةٍ وكالةً أو حفظاً، وقيل بيوت المماليك. والمفاتح جمع مَفتَح وهو ما يفتح به، وقرىء مِفتاحَه. ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ أو بيوت صديقِكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسرُّ به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسّطُ بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطعَ بسرقة مال المحرَم. ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كِنانةَ كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده[1]، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه[2]، أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنَّهمة[3]. ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة. ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتةً بأمره مشروعة من لَدُنه، ويجوز أن تكون من صلةً للتحية فإنه طلبُ الحياة وهي من عنده تعالى، وانتصابُها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَٰرَكَةٗ﴾ لأنها يرجى بها زيادةُ الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةٗۚ﴾ تطيب بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقِيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطُلْ عمرُك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثُر خيرُ بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاةُ الأبرار الأوابين»[4]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيمِ الأحكام المختتمة به، وفصل الأولين بما هوالمقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي الحقَّ والخيرَ في الأمور.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور، ووصفُ الأمر بالجمع للمبالغة. وقرىء أمرِ جميع ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذنَ لهم، واعتبارُه في كمال الإيمان لأنه كالمِصداق لصحته والمميزُ للمخلِص فيه عن المنافق فإن ديدَنَه التسللُ والفرار، ولتعظُّم الجُرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ فإنه يفيد أن المستأذنَ مؤمنٌ لا محالة وأن

= ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عمة عمارة فلم أعرفها.

● وله سند آخر أخرجه النسائي (٧/ ٢٤١ رقم ٤٤٥١ و٤٥٥٢) وابن ماجة (٢/ ٧٢٣ رقم ٢١٣٧) وأحمد (٦/ ٤٢، ٢٢٠) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة.

قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠) إسناده صحيح.

والخلاصة أن الحديث صحيح. والله أعلم.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٠.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ رقم ٨٨٣) بسند ضعيف.

وانظر «الكافي الشاف» (ص١٢٠ رقم ٩١).

الذهابَ بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرِض لهم من المهامّ، وفيه أيضاً مبالغةُ وتضييقُ الأمر ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستُدل به على أن بعضَ الأحكام مفوّضةٌ إلى رأيه، ومن منع ذلك قيّد المشيئة بأن تكون تابعةً لعلمه بصدقه فكأن المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذانَ ولو لعذر قصورٌ لأنه تقديمٌ لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطات العباد. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تَقيسوا دعاءَه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلةِ في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبةٌ والمراجعةُ بغير إذنه محرّمة. وقيل لا تجعلوا نداءَه وتسميتَه كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوتِ به والنِداءِ من وراء الحجرات ولكن بلَقَبه المعظم مثلُ يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجِبٌ، أو لا تجعلوا دعاءه ربَّه كدعاء صغيركم كبيرَكم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ ينسلّون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظيرُ تسلّل تدرّج وتدخّل ﴿لِوَاذًا﴾ يستتر بعضُكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذَن له فينطلق معه كأنه تابعُه. وانتصابه على الحال. وقرىء بالفتح[1]. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سَمْتاً خلافَ سَمته، وعن لتضمُّنه معنى الإعراض. أو يصُدّون عن أمره دون المؤمنين مَن خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذفُ المفعول لأن المقصود بيانُ المخالِف والمخالَف عنه، والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. واستُدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمرِ مقتضٍ لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب[2].

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وأنما أكد علمَه بقد لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجعُ المنافقون إليه

---

(١) أي بفتح اللام.

(٢) وإعادة الفعل صريحاً «يصيبهم» للاعتناء بالتهديد والتحذير (س٦/ ١٩٩).

للجزاء، ويجوز أن يكون الخطابُ أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات. وقرأ يعقوبُ بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يخفى عليه خافية. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطيَ من الأجر عشرَ حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
[«الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٢)].

سُورَةُ الفُرْقَانِ — ترتيبها ٢٥ — آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

سورةُ الفرقان مكية[1] وآيُها سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ تكاثر خيرُه، من البركة وهي كثرةُ الخير، أو تزايدَ على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبُه عن إنزاله الفرقانَ لما فيه من كثرة الخير أو لدَلالته على تعاليه. وقيل دام، من بروك الطير على الماء ومنه البِرْكة لدوام الماء فيها، وهو لا يُتصرف فيه ولا يُستعمل إلا لله تعالى. والفرقانُ مصدرُ فرَق بين الشيئين إذا فصل بينهما سُمّي به القرآنُ لفصله بين الحق والباطل بتقريره، أو المُحقُّ والمبطل بإعجازه، أو لكونه مفصولاً بعضُه عن بعض في الإنزال. وقرىء على عباده وهم رسولُ الله ﷺ وأمتُه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾[2] أو الأنبياءُ على أن الفرقان اسمُ جنس للكتب السماوية. ﴿لِيَكُونَ﴾ العبدُ أو الفرقان

---

(١) مكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع قول الجمهور.
انظر «زاد المسير» (٦/ ٧١) و«الدر المنثور» (٦/ ٢٣٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١) و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٠).

(٢) النور: «٣٤».

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، هذه الجملةُ وإن لم تكن معلومةً لكنها لقوة دليلها أُجريت مُجرى المعلوم وجُعلت صلة[1].

(٢) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوعٌ أو منصوب ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى[2]. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية. أثبت له الملكَ مطلقاً ونفَى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مُراعًى فيه التقديرُ حسب إرادته كخَلْقه الإنسانَ من موادَّ مخصوصةٍ وصورٍ وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهمِ والنظرِ والتدبير، واستنباطِ الصنائع المتنوعة ومزاولةِ الأعمال المختلفة إلى غير ذلك، أو فقدّره للبقاء إلى أجل مسمى. وقد يُطلَق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

(٣) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لمّا تضمن الكلامُ إثباتَ التوحيد والنبوةِ أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عَبَدتَهم ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ دفعَ ضر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلبَ نفع[3] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولا يملكون إماتةَ أحدٍ وإحياءَه أولاً وبعثَه ثانياً، ومَنْ كان كذلك فبمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافِه بما ينافيها، وفيه تنبيهٌ على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذِبٌ مصروف عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي اليهودُ فإنهم يُلقون إليه أخبارَ الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جَبرٌ ويَسارٌ وعدّاسٌ وقد سبق في قوله ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[4] ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ بجعل الكلام المعجزِ إفكاً مختلَقاً متلقَّفاً من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه. وأتى وجاء يُطلقان بمعنى فعل فيُعدَّيانِ تعْديتَه.

(٥) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره المتقدمون ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها. وقرىء على البناء للمفعول لأنه أُميٌّ، وأصلُه اكتتبها كاتب له، فحُذف اللام وأفضى الفعلُ إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب، ثم حُذف الفاعل وبُنيَ الفعل للضمير فاستَتر فيه ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ليحفظَها، فإنه أميٌّ لا يقدِر أن يكرر من الكتاب، أو لِتُكتب.

---

(١) وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة (س٦/ ٢٠٠).

(٢) ونَظْمُهُ في سِلْك الصلة للإيذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيما بعد تقرير ما قبله (س٢/ ٢٠١).

(٣) وتقديم ذكر الضر لأن دفعه ـ مع كونه أهم في نفسه ـ أولُ مراتب النفع وأقدمها (س٦/ ٢٠٢).

(٤) النحل: «١٠٣».

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمُّنه أخباراً عن مغيبات مستقبَلةٍ وأشياءَ مكنونةٍ لا يعلمها إلا عالمُ الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقِكم أن يصُبَّ عليكم العذاب صباً.

(٧) ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي يزعُم الرسالةَ، وفيه استهانةٌ وتهكم ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما بالُه لم يخالف حالُه حالَنا، وذلك لِعَمَههم وقصورِ نظرهم على المحسوسات، فإنّ تميّز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾[١]. ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ لنعلم صدقَه بتصديق الملَك.

(٨) ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ هذا على سبيل التنزّل أي إن لم يُلقَ إليه كنز فلا أقلَّ من أن يكون له بستان كما للدَّهاقينِ والمياسيرِ[٢] فيتعيَّشَ بريْعه. وقرأ حمزة والكسائي بالنون، والضميرُ للكفار ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وضع الظالمون موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه. ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سُحِر فغُلِب على عقله. وقيل ذا سُحْر وهو الرئة، أي بشراً لا ملَكاً.

(٩) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذةَ واخترعوا لك الأحوالَ النادرة. ﴿ فَضَلُّوا۟﴾ عن الطريق الموصلِ إلى معرفة خواصِّ النبي والمميِّزِ بينه وبين المتنبي فخبَطوا خبْطَ عشْواءَ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.

(١٠) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ مما قالوا، لكن أخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى[٣] ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل من خيراً ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ عطفٌ على محل الجزاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزمُ

---

(١) الكهف: «١١٠».

(٢) الدهاقين: كلمة معربة وتطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار (المصباح المنير «دُهقان»). والمياسير: هم أصحاب السعة والمال وضده المعاسير.

(٣) وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح (س٦/ ٢٠٥).

والرفع كقوله:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ   يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرِمُ[(١)]

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له في الآخرة. وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فقصُرت أنظارُهم على الحُطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لِما تمحّلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجبُ منه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاستعار، وقيل هو اسمٌ لجهنمَ فيكون صرفُه باعتبار المكان.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»[(٢)] أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز، والتأنيثُ لأنه بمعنى النار أو جهنم[(٣)] ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يُرى منه ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ صوتَ تغيظٍ، شبّه صوتَ غليانها بصوت المغتاظ وزفيرِه وهو صوتٌ يُسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبُنية أمكن أن يخلق الله فيها حياةً فترى وتتغيظُ وتزفُر وقيل إن ذلك لزبانيتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

---

(١) من البسيط.

(٢) أخرج الترمذي (٤/ ١٥٥ رقم ١٦٠٤) وأبو داود (٣/ ١٠٤ رقم ٢٦٤٥) والنسائي (٨/ ٣٦ رقم ٤٧٨٠) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العَقْل، وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: «لا تراءى نارَاهما».
ورجال إسناده ثقات، ولكن البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم. قال الترمذي: وهذا أصح، يعني المرسل، وقال: سمعت محمداً ـ أي البخاري ـ يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.
والخلاصة أن الحديث صحيح دون جملة العقل. انظر الإرواء رقم (١٢٠٧).
● لا تراءى ناراهما: أن لا يكون كل واحد منهما بحيث يرى نارَ صاحبه، فجعل الرؤية للنار ولا رؤية لها، يعني: أن تدْنوَ هذه من هذه، يقال: داري تنظر إلى دار فلان، أي: تقابلها. وقيل: معناه: أنه أراد نار الحرب، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف تتفقان؟ وكيف يُساكنهم في بلادهم وهذه حال هؤلاء.
وهذه حال هؤلاء؟ [جامع الأصول (٤/ ٤٤٦)].

(٣) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم (س٦/ ٢٠٦).

وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا﴾ في مكان، ومنها بيانٌ تقدّم فصار حالاً ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكربَ مع الضيق والرَّوحَ مع السَّعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عَرضها كعَرض السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي يتمنَّون الهلاكَ وينادونه فيقولون تعال يا ثُبوراهْ فهذا حينُك.

(١٤) ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ أي يقال لهم ذلك[1] ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأن عذابكم أنواعٌ كثيرة، كلُّ نوع منها ثُبورٌ لشدته، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[2] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثُبورٌ.

(١٥) ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى العذاب، والاستفهامُ والتفضيلُ والترديدُ للتقريع مع التهكم، أو إلى الكنز والجنة، والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها، أو التمييزِ عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم بالوعد ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه، ولا يمنع كونُها جزاءً لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين مَن يتقي الكفرَ والتكذيبَ لأنهم في مقابلتهم.

(١٦) ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما يشاؤونه من النعيم، ولعله تقصُر هِممُ كلِّ طائفةٍ على ما يليق برتبته، إذ الظاهرُ أن الناقصَ لا يدرك شأوَ الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المراداتِ لا تحصُل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرِهم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ الضمير في كان لما يشاؤون، والوعدُ الموعود أي كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب، أو مسؤولاً سأله الناسُ في دعائهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[3] أو الملائكةُ بقولهم ربنا وأدخِلْهم جناتِ عدن التي وعدتهم، وما في (على) من معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاءُ إلى الإنجاز، فإن تعلُّقَ الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجِبِ للإنجاز.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء. وقرىء بكسر الشين، وقرأ ابن كثير ويعقوبُ وحفص بالياء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعم كلَّ معبود سواه تعالى، واستعمالُ (ما) إما لأن وضعه أعمُّ ولذلك يُطلق

---

(١) وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة (س٦/٢٠٧).
(٢) النساء: «٥٦».
(٣) آل عمران: «١٩٤».

لكل شبح يُرى ولا يُعرف، أو لأنه أريد به الوصفُ كأنه قيل ومعبودُهم، أو لتغليب الأصنام تحقيراً، أو اعتبارِ الغلَبة عُبّادَها، أو يخص الملائكةَ وعُزيراً والمسيحَ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنامَ يُنطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب. وقرأ ابن عامر بالنون ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضِهم عن المرشد النصيح، وهو استفهامُ تقريعٍ وتبكيتٍ للعَبَدة، وأصله أأضللتم أو ضلوا فغيّر النظم لِيَلِيَ حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكةٌ أو أنبياءُ معصومون، أو جماداتٌ لا تقدر على شيء. أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيدِه فكيف يليق بهم إضلالُ عبيده. أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ ما يصح لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ للعصمة، أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعوَ غيرنا أن يتولى أحداً دونك. وقرىء نُتَّخَذَ على البناء للمفعول، مِن اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1] ومفعولُه الثاني من أولياء. ومن للتبعيض، وعلى الأول مزيدةٌ لتأكيد النفي ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم، وإسنادٌ له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عينُ ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجةً علينا للمعتزلة ﴿وَكَانُوا۟﴾ في قضائك ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكين، مصدرٌ وُصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذٍ وعُوذٍ.

(١٩) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ الْتفات إلى العَبَدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول، والمعنى فقد كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهةٌ أو هؤلاء أَضلونا والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من الضمير. وعن ابن كثير بالياء أي كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي المعبودون، وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين ﴿صَرْفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلةً من قولهم إنه لَيتصرف أي يحتال ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النار. والشرطُ وإن عم كلَّ من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيدٌ بعدم المزاحِم وفاقاً، وهو التوبةُ والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

---

(١) النساء: «١٢٥».

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحُذف الموصوف لدِلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفةُ مُقامَه كقوله تعالى ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[١]، ويجوز أن تكون حالاً اكتُفيَ فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢]. وقرىء يُمَشَّوْن أي تُمشيهم حوائجُهم أو الناسُ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاءً، ومن ذلك ابتلاءُ الفقراء بالأغنياء، والمرسَلين بالمرسَل إليهم ومناصبتهم لهم العداوةَ وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علةٌ للجعل، والمعنى وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً لنعلم أيُّكم يصبر، ونظيرُه قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣] أو حثٌّ على الصبر على ما افتُتِنوا به ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر، أو بالصواب فيما يبتلي به وغيره.

(٢١) ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأمُلون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أو لا يخافون لقاءنا بالشر على لغة تِهامةَ، وأصلُ اللقاء الوصولُ إلى الشيء، ومنه الرؤيةُ فإنه وصولٌ إلى المرئي، والمرادُ به الوصولُ إلى جزائه، ويمكن أن يراد به الرؤيةُ على الأول ﴿لَوْلَآ﴾ هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتُخبرَنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمُرَنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكملُ خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظمُ من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ وتجاوزوا الحدَّ في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبِه حيث عاينوا المعجزاتِ القاهرةَ فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثةِ ما سَدّت دونه مطامعَ النفوس القدسية، واللامُ جواب قسم محذوف، وفي الاستئناف بالجملة حُسنٌ وإشعارٌ بالتعجب من استكبارهم وعُتوّهم كقوله:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنا بِنَابِهَا كلَيْباً غَلَتْ نَابُ كُلَيْبٍ بَوَاؤُهَا

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ملائكةَ الموت أو العذاب، ويومَ نُصب باذكُرْ أو بما دل عليه[٤] ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يُمنعون البشرى أو ....

---

(١) الصافات: «١٦٤».

(٢) الفرقان: «٧».

(٣) الملك: «٢».

(٤) وإنما قيل «يوم يَرَوْن» دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود (س٦/ ٢١١).

يَعدَمونها[١]، ويومئذ تكريرٌ أو خبر، وللمجرمين تبيينٌ أو خبرٌ ثان أو ظرف لِما يتعلق به اللام، أو لبشرى إنْ قُدِّرت منونةً غيرَ مبنية مع لا فإنها لا تعمل. وللمجرمين إما عامٌّ يتناول حكمُه حكمَهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفيُ البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخرَ، وإما خاصٌّ وضع موضعَ ضميرهم تسجيلاً على جُرمهم وإشعاراً بما هو المانعُ للبشرى والموجِبُ لِما يقابلها ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمةَ استعاذةً وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءَهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاءِ عدوٍّ أو هجوم مكروه، أو تقولها الملائكة بمعنى حَراماً مُحرماً عليكم الجنةُ أو البشرى. وقرىء حُجراً بالضم وأصله الفتح، غير أنه لمّا اختَصّ بموضع مخصوص غُيِّر كقَعْدَك وعَمْرَك، ولذلك لا يُتصرف فيه ولا يظهر ناصبُه، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم موتٌ مائت.

وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ أي وعمَدنا. إلى ما عمِلوا في كفرهم من المكارم كقِرىٰ الضيف وصلةِ الرحم وإغاثةِ الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرطُ اعتباره، وهو تشبيهُ حالِهم وأعمالهم بحال قوم استعصَوا على سلطانهم فقدِم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يُبق لها أثراً. والهباءُ غبارٌ يُرى في شعاع يطلُع من الكُوَّة، من الهبوة وهي الغبار، ومنثوراً صفتُه، شبّه عملَهم المُحبَطَ بالهَباء في حقارته وعدمِ نفعه، ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمُه أو تَفرّقُه نحوَ أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوَها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٢].

(٢٤) ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ مكاناً يُستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ مكاناً يُؤوىٰ إليه للاسترواح بالأزواج والتمتعِ بهن، تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة. وفي «أحسنُ» رمزٌ إلى ما يَتميز به مَقيلُهم من حُسن الصور وغيرِه من التحاسين، ويُحتمل أن يراد بأحدهما المصدرُ أو الزمانُ إشارةً إلى أن مكانهم وزمانَهم أطيبُ ما يُتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيلُ إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا. روي أنه يُفرَغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيَقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار.

(٢٥) ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصله تتشقق فحُذفت التاء، وأدغمها ابنُ كثير ونافع وابن عامر ويعقوب. ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ

---

(١) والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرىٰ (س٦/ ٢١١).

(٢) البقرة: «٦٥».

﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[١] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ في ذلك الغمام بصحائفِ أعمال العباد. وقرأ ابن كثير ونُنزِلُ، وقرىء ونُزِّلَت وأُنْزِل ونَزَل ونَزَّل الملائكةَ بحذف نون الكلمة.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الثابتُ له لأن كل مِلْك يَبطُل يومئذ ولا يبقى إلا مُلكُه فهو الخير، وللرحمن صلتُه، أو تبيينٌ، ويومئذ معمولُ المُلكُ لا الحقُّ لأنه متأخر، أو صفتُه والخبرُ يومئذ أو للرحمن[٢] ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فَرْط الحسرة. وعضُّ اليدين وأكلُ البَنان وحَرْقُ الأسنان ونحوُها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما، والمرادُ بالظالم الجنسُ. وقيل عُقبةُ بنُ أبي مُعَيط كان يُكثِر مجالسةَ النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته فأبىٰ أن يأكل من طعامه حتى ينطِق بالشهادتين ففعل، وكان أُبيُّ بنُ خلف صديقَه فعاتبه وقال صبأتَ فقال: لا، ولكن آلىٰ أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحَيت منه فشهِدتُ له، فقال لا أرضىٰ منك إلا أن تأتيَه فتطأ قَفاه وتبزُقَ في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقاك خارجاً من مكةَ إلا علوتُ رأسك بالسيف» فأُسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن أُبياً بأُحُد في المبارزة فرجع إلى مكة ومات[٣]. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، أو طريقاً واحداً وهو طريقُ الحق ولم تتشعبْ بي طرقُ الضلالة.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقرىء بالياء على الأصل ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني مَنْ أضله، وفلانٌ كنايةٌ عن الأعلام كما أن هنا كنايةٌ عن الأجناس.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليلَ المُضِلَّ أو إبليسَ لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كلُّ من تشيطن من جن وإنس ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يوالِيه حتى يؤدّيَه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه. فَعولٌ من الخِذلان.

---

(١) البقرة: «٢١٠».

(٢) وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالىٰ بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة (س٦/ ٢١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/ ٦٠٦) عن ابن عباس بنفس السياق.
وانظر «الكافي الشاف» لابن حجر (ص١٢١ رقم ٩٤).

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد يومئذ، أو في الدنيا بثاً إلى الله تعالى ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مُصحفَه ولم يتعاهده ولم ينظُر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدُك هذا اتخذني مهجوراً اقضِ بيني وبينه»[1] أو هجَروا ولغَوْا فيه إذا سمِعوه، أو زعموا أنه هُجْرٌ وأساطيرُ الأولين، فيكون أصله مهجوراً فيه فحُذف الجارُّ، ويجوز أن يكون بمعنى الهَجْر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويفٌ لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكَوْا إلى الله تعالى قومَهم عجّل لهم العذاب.

(٣١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبَروا، وفيه دليلٌ على أنه خالقُ الشر. والعدوُّ يحتمل الواحدَ والجمع ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك عليهم.

(٣٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي أُنزل عليه كخَبَر بمعنى أخبر لئلا يناقضَ قولَه ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعةً واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراضٌ لا طائلَ تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائدَ، منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوّي بتفريقه فؤادَك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حالَ موسى وداودَ وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمّياً وكانوا يكتُبون، فلو أُلقيَ عليه جملةً لَعِيل بحفظه، ولعله لم يستتبَّ له فإن التلقفَ لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيدَ بصيرة وغوصٍ في المعنى، ولأنه إذا نزل منجّماً وهو يتحدّى بكل نجْمٍ فيعجِزون عن معارضته زاد ذلك قوةَ قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريلُ حالاً بعد حال يثبُت به فؤادُه، ومنها معرفةُ الناسخ والمنسوخ ومنها انضمامُ القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة. و(كذلك) صفةُ مصدرٍ محذوفٍ والإشارةُ إلى إنزاله مفرقاً، فإنه مدلولٌ عليه بقوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وُقف عليه فيكون حالاً، والإشارةُ إلى الكتب السابقة، واللامُ على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تُؤَدة وتمهُّل في عشرين سنةً أو ثلاثٍ وعشرين، وأصلُ الترتيل في الأسنان وهو تفليجُها.

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤال عجيب كأنه مَثَل في البطلان يريدون به القدحَ في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسنُ بياناً أو معنًى من سؤالهم، أو لا يأتونك بحال عجيبةٍ يقولون هلاّ كانت هذه حالَه إلا أعطيناك من الأحوال ما يحِقّ لك في حكمتنا وما هو أحسنُ كشفاً لما بُعِثت له.

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب.
ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٢١ رقم ٩٥).

ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ **أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلّقةً قلوبُهم بالسُّفليات متوجهةً وجوهُهم إليها وعنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفٌ على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه»[1] وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ والمفضَّل عليه هو الرسولُ ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[2] كأنه قيل إن حاملَهم على هذه الأسئلة تحقيرُ مكانه وتضليلُ سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾[3] ووصفُ السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.**

(٣٥) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ **يوازره في الدعوة وإعلاءِ الكلمة، ولا ينافي ذلك مشاركتَه في النبوة، لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه.**

---

(١) أخرجه البيهقي ـ في البعث (رقم: ٢٦٢) من تحقيق الصاعدي ـ من طريق سدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس، عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا.
وأصله في الترمذي ـ (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وقال: هذا حديث حسن ـ والبزار وأحمد ـ في المسند (٢/ ٣٦٣) ـ وإسحاق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس بن خالد ـ وأوس مجهول كما قال الحافظ في التقريب (١/ ٨٥) ـ.
وعند الحاكم ـ (٤/ ٥٦٤) وقال: واحتج به النسائي ـ من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق «أنّ الناس يحشرون ثلاثة أفواج. فوجاً طاعمين لابسين راكبين. وفوجاً يمشون ويسعون. وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار».
وفي الترمذي ـ (٤/ ٦١٦ رقم ٢٤٢٤) و(٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٣) ـ والنسائي ـ في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٨/ ٤٣٣) ـ من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالاً وتمرون على وجوهكم» ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٧) ـ.
قلت: وقع في «الكافي الشافِ» (من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم) وهو خطأ والصواب (من رواية بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة).
وقلت: لم يخرجه النسائي من طريق بهز بن حكيم به، وإنما أخرجه من طريق سويد بن حجير أبي قزعة عن حكيم به.
وأخرجه الحاكم من كلا الطريقين، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الحاكم بهز أيضاً مأمون ولا يحتاج في روايته إلى متابع.
والخلاصه أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) المائدة: «٦٠».

(٣) الفرقان: «٢٤».

فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ يعني فرعونَ وقومَه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، فاقتُصر على حاشيتي القصة اكتفاءً بما هو المقصودُ منها وهو إلزامُ الحجة ببعثة الرسل، واستحقاقُ التدمير بتكذيبهم، والتعقيبُ باعتبار الحكمِ لا الوقوعِ. وقرىء: فَدَمَّرتُهم، فَدَمِّراهُم، فدَمِّرانِّهم على التأكيد بالنون الثقيلة.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ كذبوا نوحاً ومَن قبله، أو نوحاً وحده ولكنّ تكذيبَ واحد من الرسل كتكذيب الكل، أو بعثةَ الرسل مطلقاً كالبراهمة ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل التعميمَ والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضعَ المُضمَر تظليماً لهم.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ عطفٌ على هم في جعلناهم، أو على الظالمين لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزةُ وحفصٌ وثمودَ على تأويل القبيلة ﴿وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ﴾ قوم كانوا يعبُدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حولَ الرسِّ وهي البئرُ الغيرُ المطوية فانهارت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل الرسُّ قريةٌ بفلْج[1] اليمامة كان فيها بقايا ثمودَ فبُعث إليهم نبيٌّ فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود، وقيل بئرٌ بأنطاكيةَ قَتلوا فيها حبيباً النجّارَ، وقيل هم أصحابُ حنظلةَ بنِ صفوانَ النبيِّ ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسمَّوها عنقاءَ لطول عنُقها وكانت تسكُن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ وتنقضّ على صبيانهم فتخطَفُهم إذا أعوزها الصيدُ، ولذلك سُمّيت مُغْرِباً فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه فأُهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسُّوه أي دسّوه في بئرٍ[2] ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهلَ أَعصار، قيل القرنُ أربعون سنةً وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلا الله.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَٰلَ﴾ بيّنا له القِصصَ العجيبةَ من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أُهلكوا كما قال ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فتّتناه تفتيتاً، ومنه التِّبرُ لِفُتات الذهب والفضة، وكلاً الأولُ منصوبٌ بما دل عليه ضربنا كأنذرنا، والثاني بتبّرنا لأنه فارغ.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾

---

(١) فَلْج اليمامة هي قرية في اليمامة يقال لها الرس، وأصل الفلْج الظفر والفوز (مختار الصحاح مادة فلج).

(٢) لم يقم على هذه الأقوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت. ورجح الطبري في «جامع البيان» (١١/ج١٩/ ١٤) أنهم أصحاب الأخدود. وبعض الأقوال الأخرى مردودة بنصوص أخرى.
وانظر «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

يعني سَدوم عُظمىٰ قرى قوم لوط أُمطرت عليها الحجارة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ في مِرار مرورَهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمرُّوا بها كما مرت رِكابُهم، أو لا يأمُلون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ما يتخذونك إلا موضعَ هُزْء أو مَهزُوّاً به ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ مَحكيٌّ بعد قول مضمر، والإشارةُ للاستحقار، وإخراجُ بعَث اللهُ رسولاً في معرض التسليم بجعله صلةً وهم على غاية الإنكار تهكمٌ واستهزاء، ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

(٤٢) ﴿ إِن ﴾ إنه ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ ليَصرِفنا عن عبادتها بفَرْط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرةِ ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حُججٌ ومعجزات ﴿ لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتْنا عليها واستمسكنا بعبادتها، ولولا في مثله تقيد الحكمَ المطلقَ من حيث المعنى دون اللفظ ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ كالجواب لقولهم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ فإنه يفيد نفيَ ما يلزَمه ويكون الموجِبَ له، وفيه وعيدٌ ودِلالةٌ على أنه لا يُهمِلهم وإن أمهلهم.

(٤٣) ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجةً ولا يبصر دليلاً، وإنما قُدّم المفعولُ الثاني للعناية به ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحالُه هذا، فالاستفهامُ الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار.

(٤٤) ﴿ أَمْ تَحْسَبُ ﴾ بل أتحسب ﴿ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ فتُجديَ لهم الآياتُ أو الحجج فتهتمَّ بشأنهم وتطمعَ في إيمانهم، وهو أشدُّ مذمةً مما قبله حتى حُقّ بالإضراب عنه إليه، وتخصيصُ الأكثر لأنه كان منهم مَن آمن ومنهم من عَقَل الحقَّ وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ في عدم انتفاعِهم بقرع الآياتِ آذانَهم وعدمِ تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتُميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرِفون إحسانه مِن إساءة الشيطان ولا يطلُبون الثواب الذي هو أعظمُ المنافعِ ولا يتقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارّ، ولأنها إن لم تعتقِد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء، ولأن جَهالتها لا تضُر بأحد وجهالةُ هؤلاء تؤدي إلى هَيْج الفتن وصدِّ الناس عن الحق، ولأنها غيرُ متمكنة من طلب الكمال فلا تقصيرَ منها ولا ذم، وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظمَ العقاب على تقصيرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظرْ إلى صنعه [١] ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه، أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربُّك، فغُيِّر النظمُ إشعاراً بأنه المعقولُ من هذا الكلام لوضوح برهانه، وهو دِلالةُ حدوثه وتصرُّفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فِعلُ الصانعِ الحكيم كالمشاهَد المَرْئيِّ فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينتهِ علمُك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيبُ الأحوال، فإن الظلمةَ الخالصة تُنفِّر الطبعَ وتسُد النظرَ، وشعاعُ الشمس يُسخِّن الجوَّ ويَبهَر البصر، ولذلك وَصف به الجنة فقال: «وظلٍّ ممدود» ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ثابتاً، من السُّكنى أو غيرَ متقلص، من السكون بأن يجعل الشمس مُقيمةً على وضع واحد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلُع فيقعَ ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها [٢].

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعَه، لمَا عبّر عن إحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالحُ الكون ويتحصّلَ به ما لا يُحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضُل الأمور أو لتفاضل مبادىء أوقاتِ ظهورها. وقيل مدَّ الظل لمَا بنى السماء بلا نيِّر، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلَّطاً عليه مستتْبِعاً إياه كما يستتبع الدليلَ المدلولُ، أو دليلَ الطريق مَن يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهيَ غايةُ نقصانه، أو قبضاً سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المُظِلة والمُظَل عليها.

(٤٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبّه ظلامه باللباس في سَتره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل، وأصلُ السبت القطعُ، أو موتاً كقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [٣] لأنه قطع الحياة ومنه المسبوتُ للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشارٍ ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعثٍ من النوم بعْثَ الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أُنموذجٌ للموت والنشور. وعن لُقمانَ عليه السلام يا بُني كما تنام فتُوقَظ كذلك تموت فتُنشَر.

---

(١) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه عليه السلام، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى (س٦/ ٢٢٢).

(٢) والالتفات إلى نون العظمة في (جعلنا) لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وهو السر في إيراد كلمة التراخي «ثم». (س٦/ ٢٢٢).

(٣) الأنعام: «٦٠».

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادةً للجنس ﴿بُشۡرَۢا﴾ ناشراتٍ للسحاب جمع نَشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف، وحمزةُ والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به، وعاصم بُشراً تخفيف بُشُر جمع بَشور بمعنى مبشِّر ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني قُدّامَ المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ مطهِّراً لقوله ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[١] وهو اسم لما يُتطهر به كالوَضوء والوَقود لما يُتوضأ به ويُوقد به. قال عليه الصلاة والسلام: «التراب طَهور المؤمن»[٢] «طَهورُ إناءِ أحدكم إذا ولَغ الكلبُ فيه أن يُغسل سبعاً إحداهن بالتراب»[٣]. وقيل بليغاً في الطهارة. وفَعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضَّبوث وللمصدر كالقَبول وللاسم كالذَنوب، وتوصيفُ الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميمٌ للمنة فيما بعده فإن الماء الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ مما خالطه ما يزيل طَهوريته، وتنبيهٌ على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنُهم بذلك أولى.

(٤٩) ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ بالنبات، وتذكيرُ ميتاً لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غيرُ جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأُجريَ مُجرى الجامد ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ يعني أهلَ البوادي الذين يعيشون بالحَيا ولذلك نكّر الأنعام والأناسيّ، وتخصيصُهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافعُ فيهم وبما حولهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا السماء، وسائرُ الحيوانات تبعُد في طلب الماء فلا يُعوزها الشربُ غالباً مع أن مَساقَ هذه الآياتِ كما هو للدَلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ قُنيةُ الإنسان وعامةُ منافعهم وعَلِيّةُ معايشهم منوطةٌ بها، ولذلك قَدم سقيَها على سقيهم كما قدم عليها إحياءَ الأرض فإنه سببٌ لحياتها وتعيُّشها. وقرىء نَسقيَه بالفتح، وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سُقياً، وأناسيَّ بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظَرابيّ في ظِرْبان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

(٥٠) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ صرفنا هذا القولَ بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطرَ بينهم في البلدان المختلفة والأوقاتِ المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ وغيرِهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما عامٌ أمطرُ من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية[٤] أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكروا ويعرِفوا كمال القدرة وحقَّ النعمة في ذلك

---

(١) الأنفال: «١١».

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٥ رقم ٣٣٢) و(١/ ٢٣٧ رقم ٣٣٣) والترمذي (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم ١٢٤) والنسائي (١/ ١٧١ رقم ٣٢٢). وهو حديث حسن.
انظر «نصب الراية» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩) والتلخيص لابن حجر (١/ ١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣١٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٣) من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. =

ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا كفرانَ النعمة وقلةَ الاكتراث لها، أو جحودَها بأن يقولوا مُطِرنا بنَوء كذا. ومَن لا يرى الإمطارَ إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواءُ وسائطُ وأَماراتٌ بجعله تعالى.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ نبياً يُنذر أهلها فيخِفُّ عليك أعباءُ النبوة، لكن قصَرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهارِ الحق.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهييجٌ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه (فلا تطع) والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحةِ باطلهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأن مجاهدةَ السفهاء بالحُجج أكبرُ من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتَهم فيما بين أظْهرهم مع عُتُوهم وظهورهم، أو لأنه جهادٌ مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

(٥٣) ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلاّهما متجاورَين متلاصقَين بحيث لا يتمازجان، من مَرج دابته إذا خلاها ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش من فَرْط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغُ الملوحة. وقرىء مَلِحٌ على فَعِلٌ، ولعل أصله مالِح فخُفف كبَرِد في بارد ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً من قدرته ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ للمتعوَّذ عنه. وقيل حدّاً محدوداً وذلك كدِجْلةَ تدخل البحر فتشُقه فتجري في خلاله فراسخَ لا يتغير طعمُها، وقيل المراد بالبحر العذبِ النهرُ العظيم مثلُ النيل، وبالبحر المِلْح البحرُ الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلافِ الصفة، مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كلِّ عنصر أن تضامّت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

(٥٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ يعني الذي خمَّر به طينةَ آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتُبْشَرَ وتسْلَسَ وتقبَلَ الأشكال والهيئاتِ بسهولة، أو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسَب أي ذكوراً يُنسب إليهم، وذواتِ صهر أي إناثاً يصاهَر بهن كقوله تعالى ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاءٍ مختلفة وطباعٍ متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

= قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

(١) القيامة: «٣٩».

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنامَ أو كلَّ ما عُبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك، والمرادُ بالكافر الجنسُ أو أبو جهل. وقيل هيّناً مَهيناً لا وقعَ له عنده، من قولهم ظَهَرتَ به إذا نبَذتَه خلف ظهرك فيكون كقوله ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[1].

(٥٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمؤمنين والكافرين.

(٥٧) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه إلا مبشراً ونذيراً ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ﴾ إلا فِعلَ من شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلُب الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصودٌ فعلُه واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مَرضيّاً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدَلالته. وقيل الاستثناءُ منقطعٌ، معناه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناءِ عن أجورهم، فإنه الحقيقُ بأن يُتوكّل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع مَن توكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مُثنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ مطّلعاً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد سبق الكلام فيه[2]، ولعل ذكره زيادةُ تقرير لكونه حقيقاً بأن يُتوكَّل عليه من حيث إنه الخالقُ للكل والمتصرِّف فيه، وتحريضٌ على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعةِ نفاذ أمره في كل مراد خَلَق الأشياء على تُؤَدة وتدرُّج. والرحمنُ خبرُ الذي إن جعلتَه مبتدأ ولمحذوفٍ إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكنّ في استوى، وقرىء بالجر صفةٌ للحي. ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالماً يُخبرْك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريلَ، أو مَن وجده في الكتب المتقدمة لِيَصْدُقَك فيه، وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرُك من أهل الكتاب ليعرِفوا مجيءَ ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمنُ مبتدأ والخبر

---

(١) آل عمران: «٧٧».

(٢) سبق الكلام فيه في الأعراف «٥٤».

ما بعده، والسؤال كما يُعدّى بعن لتضمُّنه معنى التفتيشِ يُعدَّى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة خبيراً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأنهم ما كانوا يُطلِقونه على الله، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيرَه ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرناه يعني تأمرنا بسجوده، أو لأمرك لنا من غير عِرفان. وقيل لأنه كان معرَّباً لم يسمعوه. وقرأ حمزةُ والكسائي يأمرنا بالياء على أنه قولُ بعضهم لبعض ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمرُ بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا ۩﴾ عن الإيمان.

(٦١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروجَ الاثني عشَرَ سُمّيت به وهي القصورُ العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسُكانها واشتقاقُه من التبرّج لظهوره ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني الشمسَ لقوله ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1]. وقرأ حمزة والكسائي سُرُجاً وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل. وقرىء وقُمْراً أي ذا قُمْر وهو جمع قمراء، ويحتمل أن يكون بمعنى القَمْر كالرُّشْد والرَّشَد والعُرْب والعَرَب.

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذَوِيْ خِلفة يخلُف كلٌّ منهما الآخرَ بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[2] وهي للحالة من خَلَف كالرِّكْبة والجِلْسة ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يتذكر آلاءَ الله ويتفكر في صنعه فيعلمَ أن لا بد له من صانع حكيم واجبِ الذات رحيم على العباد ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكّرين والشاكرين؛ مَنْ فاته وِرْده في أحدهما تداركه في الآخرة. وقرأ حمزة أن يذْكُر من ذكَر بمعنى تذكّر، وكذلك ليَذْكُروا ووافقه الكسائي فيه[3].

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ وخبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾[4] أو ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وإضافتُهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته، على أن (عبادُ) جمعُ عابد كتاجر وتِجَار ﴿هَوْنًا﴾ هيّنين أو مشياً هيناً، مصدرٌ وُصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة

---

(١) نوح: «١٦».
(٢) البقرة: «١٦٤».
(٣) أي وقرأ حمزة «ولقد صرفناه بينهم لِيَذْكُروا» بتخفيف الذال كما مرَّ في الآية (٥٠) من سورة الفرقان، ووافقه الكسائي في التخفيف في قوله «لِيَذْكروا».
انظر المبسوط لابن مهران ص٢٧١.
(٤) الفرقان: «٧٥».

وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ تسلّماً منكم ومُتاركةً لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سَداداً من القول يسْلَمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آيةُ القتال لتنسَخَه فإن المراد به الإغضاءُ عن السفهاء وتركُ مقابلتهم في الكلام.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

(٦٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ في الصلاة، وتخصيصُ البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمَزُ[١] وأبعدُ عن الرياء وتأخيرُ القيام للرّويّ، وهو جمعُ قائم، أو مصدرٌ أُجريَ مجراه.

(٦٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ لازماً ومنه الغريمُ لملازمته، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادِهم في عبادة الحق وَجِلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقِهم على استمرار أحوالهم.

(٦٦) ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بِئْست مستقراً، وفيها ضميرٌ مبهم يفسره المميِّز، والمخصوصُ بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملةُ باسم إن، أو أَحْزنَتْ. وفيها ضميرٌ اسمُ إنّ، ومستقراً حالٌ أو تمييز، والجملةُ تعليلٌ للعلة الأولى أو تعليلٌ ثانٍ، وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله.

(٦٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ ولم يضيّقوا تضييق الشحيح، وقيل الإسرافُ هو الإنفاقُ في المحارم والتقتيرُ منعُ الواجب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، ونافعٌ وابنُ عامرٍ والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر، وقرىء بالتشديد والكل واحد ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وسَطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سُمّي سواءً لاستوائهما. وقرىء بالكسر وهو ما يُقام به الحاجةُ لا يفضُل عنها ولا يَنقُص. وهو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً، وقيل إنه اسمُ كان لكنه مبنيٌّ لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القَوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه.

(٦٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلَها[٢] ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بالقتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ نفَى عنهم أمهاتِ المعاصي بعدما أثبت لهم أصولَ الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكورَ موعودٌ

---

(١) أحمز أي أقوى وأمتن. انظر مختار الصحاح مادة (حمز).

(٢) والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلْكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم (س٦/ ٢٢٩).

للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاءَ إثم أو إثماً بإضمار الجزاء، وقرىء أيّاماً أي شدائدَ يقال يوم ذو أيام أي صعب.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من يلْقَ لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا   تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[1]

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ وابنُ كثير ويعقوبُ يُضَعَّفْ بالجزم، وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في يضعّفُ، وقرىء ويُخْلَد على بناء المفعول مخففاً، وقرىء مثقّلاً. وتضعيفُ العذابِ مضاعفتُه لانضمام المعصية إلى الكفر ويدلّ عليه قوله:

(٧٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحوَ سوابقَ معاصيهم بالتوبة ويُثبِتَ مكانها لواحقَ طاعتهم، أو يبدّلَ ملَكةَ المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يُثبت له بدلَ كل عقاب ثواباً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

(٧١) ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلافى به ما فرّط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إلى الله بذلك ﴿مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجِعاً حسناً وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

(٧٢) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يُقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضُرون محاضِر الكذب، فإن مشاهدة الباطل شِركةٌ فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يُلغىٰ ويُطرح ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرِضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوضِ فيه، ومن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش والصفحُ عن الذنوب والكنايةُ عما يُستهجَن التصريحُ به.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يُقيموا عليها غيرَ واعين لها ولا متبصّرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصِر، بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعيةٍ مبْصرين بعيون راعية، فالمرادُ من النفي نفيُ الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلّماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلولِ عليها باللغو.

---

(١) من الطويل.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازةِ الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهلُه في طاعة الله سُرّ بهم قلبُه وقَرّت بهم عينُه لما يَرى من مساعدتهم له في الدين وتوقُّعِ لُحوقهم به في الجنة، ومِن ابتدائيةٌ أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً. وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر وذريتِنا، وقرأ ابن عامر والحَرَميان وحفصٌ ويعقوبُ وذرياتنا بالألف. وتنكيرُ الأعين لإرادة تنكير القُرة تعظيماً، وتقليلها لأن المراد أعينُ المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل وتوحيدُه إما للدِلالة على الجنس وعدم اللَّبس كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[١] أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاقِ كلمتهم. وقيل جمعُ آمٍّ كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم[٢].

(٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أعلى مواضعِ الجنة وهي اسمُ جنس أريد به الجمعُ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٣] وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفضِ الشهوات وتحمُّل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ دعاءً بالتعمير والسلامة أي يحييّهم الملائكةُ ويسلّمون عليهم، أو يحيي بعضُهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقيةً دائمةً وسلامةً من كل آفة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يَلْقَون من لقِيَ.

(٧٦) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لا يموتون فيها ولا يَخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابلُ ساءت مستقراً معنًى ومثلُه إعراباً.

(٧٧) ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم، من عبأْتُ الجيش إذا هيأته، أو لا يَعتدّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ لولا عبادتُكم فإن شرف الإنسان وكرامتَه بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائرُ الحيوانات سواءٌ. وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهةً. وما إن جُعلت استفهاميةً فمحلُها النصبُ على المصدر كأنه قيل: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذَب القتالَ إذا لم يبالغ فيه. وقرىء فقد كذب الكافرون أي الكافرون

---

(١) غافر: «٦٧».

(٢) إعادة الموصول في المواقع السبعة ـ مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول ـ للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي (س٦/ ٢٣١).

(٣) سبأ: «٣٧».

منكم لأن توجُّه الخطاب إلى الناس عامة بما وُجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاءُ التكذيب لازماً يَحيق بكم لا محالة، أو أثرُه لازماً بكم حتى يَكُبَّكم في النار، وإنما أُضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيهِ على أنه لا يكتَنِهه الوصفُ، وقيل المراد قتلُ يومِ بدر وأنه لوزم بين القتلى لِزاماً. وقرىء لَزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفرقان لقيَ الله وهو مؤمن بأن الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها وأُدخل الجنة بغير نصَب»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥). وانظر آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ترتيبها ٢٦ — آياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

سورة الشعراء مكية

إلا قولَه تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخرها وهي مائتان وستٌ أو سبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بينَ، كراهةَ للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونَه حمزةُ لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهرِ إعجازُه وصحتُه، والإشارةُ إلى السورة أو القرآنِ على ما قُرّر في أول البقرة.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلٌ نفسَك، وأصلُ البخع أن يبلُغ بالذبح النُّخاع وهو عرقٌ مستبطِنٌ الفَقارَ وذلك أقصى حد الذبح، وقرىء باخعُ نفسِك بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتُلها حسرة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دِلالةً مُلجِئةً إلى الإيمان أو بليّة قاسرةً عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين، وأصلُه فظلوا لها خاضعين فأُقحِمت الأعناقُ لبيان موضع الخضوعِ وتُرك الخبرُ على أصله. وقيل لمّا وُصفت الأعناقُ بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو

الجماعات من قولهم: جاءنا عُنقٌ من الناس لِفَوج منهم. وقرىء خاضعةً وظلت، عطفٌ على ننزل عطفَ (وأكنْ) على (فأصدَّق) لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

(٥) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ موعظةٌ أو طائفة من القرآن ﴿ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ يوحيه إلى نبيه ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ مجدَّدٍ إنزالُه لتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

(٦) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المُخبَرِ به عنهم ضمناً في قوله ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ أي إذا مسهم عذابُ الله يومَ بدر أو يوم القيامة ﴿ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يُصَدّق ويُعظّمَ قدرُه. أو يكذبَ فيُستخَفَّ أمرُه.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

(٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها ﴿ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ كَرِيمٍ ﴾ محمودٍ كثيرِ المنفعة، وهو صفةٌ لكل ما يُحمد ويُرضىٰ، وههنا يحتمل أن تكون مقيدةً لما يتضمن الدَّلالةَ على القدرة، وأن تكون مبينةً منبّهةً على أنه ما من نبت إلا وله فائدةٌ إما وحده أو مع غيره، وكلّ لإحاطة الأزواج، وكم لكثرتها.

(٨) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف، أو في كل واحد ﴿ لَءَايَةً ﴾ على أن مُنبِتَها تامُّ القدرة والحكمة، سابغُ النعمة والرحمة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثالُ هذه الآياتِ العظام.

(٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر، الرحيم لمن تاب وآمن.

(١٠) ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ مقدرٌ باذكر أو ظرف لما بعده ﴿ أَنِ ٱئْتِ ﴾ أي ائت أو بأن ائت ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أولادهم.

(١١) ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من الأول أو عطفُ بيانٍ له، ولعل الاقتصارَ على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ استئنافٌ أتبعه إرسالَه إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائِهم عليه. وقرىء بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كانوا غُيّباً حينئذ أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم من حيث إنه مبلِّغُه إليهم وإسماعُه مبدأُ إسماعِهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورِدَه، وقرىء بكسر النون اكتفاءً بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناسُ اتقونِ كقوله ﴿ألا يسجدوا﴾.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ رتب استدعاءَ ضمِّ أخيه إليه وإشراكِه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ القلب انفعالاً عنه، وازديادِ الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى مُعين يقوّي قلبه وينوب منابه متى تعتريه حبْسةٌ حتى لا تختلَّ دعوتُه ولا تنبترَ حُجتُه، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لِما يكونُ معونةً على امتثاله وتمهيد عُذرِه فيه. وقرأ يعقوبُ ويضيقَ ولا ينطلقَ بالنصب عطفاً على يكذبون، فيكونان من جملة ما خاف منه.

(١٤) ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ أي تبعةُ ذنب فحُذف المضاف أو سُمّي باسمه، والمراد قتلُ القِبْطيّ وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصارُ قصته المبسوطةِ في مواضعَ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاعٌ للبلية المتوقَّعة، كما أن ذاك استعدادٌ واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

(١٥) ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ إجابةٌ له إلى الطِّلْبتين بوعده بدفع بلائهم اللازمِ ردعُه عن الخوف، وضمِّ أخيه إليه في الإرسال، والخطابُ في فاذهبا على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبتَه ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني موسى وهٰرون وفرعون ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأُظهِرُ كما عليه، مثّل نفسَه تعالى بمن حضر مجادلةَ قومٍ استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة، ولذلك تُجوِّز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلقُ إدراك الحروف والأصوات، وهو خبرٌ ثانٍ أو الخبرُ وحده ومعكم لغو.

(١٦) ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أفرد الرسولَ لأنه مصدرٌ وُصف به فإنه مشترِكٌ بين المرسَل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

ولذلك ثنى تارةً وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوّة أو لوَحدة المرسَل والمرسَل به، أو لأنه اراد أن كل واحد منا.

(١٧) ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمنِ معنى القول، والمراد خلِّهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدٗا﴾

طفلاً سُمّي به لقربه من الولادة. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدينَ عشرَ سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قتلَ القِبْطي، وبّخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته. وقرىء فِعلتك بالكسر لأنها كانت قِتْلةً بالوكز ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بنعمتي حتى عمَدتَ إلى قتل خواصّي، أو ممن تكفّرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتَدأً عليه بأنه من الكافرين بإلّهيته أو بنعمته لمَا عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

(٢٠) ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به[1]، والمعنى من الفاعلين فعلَ أولي الجهل والسّفَه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكزُ لأنه أراد به التأديبَ، أو الناسين من قوله تعالى ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾[2].

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ حِكمة ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عدّ عليه من النعمة ولم يصرح برده لأنه كان صدقاً غيرَ قادح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمةً لكونه مسبَّباً عنها فقال:

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وتلك التربيةُ نعمةٌ تمنها علي ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدُك بني إسرائيلَ وقصدُهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمزة الإنكارِ أي تلك نعمةٌ تمنها علي وهي أن عبدت، ومحل أن عبدت الرفعُ على أنه خبرُ محذوفٍ، أو بدل في نعمةٌ، أو الجرُّ بإضمار الباء أو النصبُ بحذفها. وقيل تلك إشارةٌ إلى خَصلة شنعاءَ مبهمةٍ وأن عبّدت عطفُ بيانها والمعنى: تعبيدُك بني إسرائيل نعمةٌ تمنها علي، وإنما وجد الخطابُ في تمنها وجُمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده، والخوفُ والفرارُ منه ومن مَلَئه.

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمّا سمع جوابَ ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعَوِ بذلك شرَع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ عرّفه بأظهرِ خواصّه وآثاره لمّا امتنع تعريفُ الأفراد إلا

---

(١) قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط (٧/ ١١): وفي قراءة عبدالله وابن عباس «وأنا من الجاهلين» ويظهر أنه تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ.

(٢) البقرة: «٢٨٢».

بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياءَ محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسةَ ممكنةٌ لتركُّبها وتعدّدها وتغيّرِ أحوالها، فلها مُبدىءٌ واجبٌ لذاته، وذلك المُبدىء لا بد وأن يكون مبدأً لسائر الممكنات: ما يمكن أن يُحَسّ بها وما لا يمكن وإلا لزم تعددُ الواجب، أو استغناءُ بعض الممكنات عنه وكلاهما مُحالٌ، ثم ذلك الواجبُ لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابَه، سألتُه عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعُم أنه ربُّ السموات وهي واجبةٌ متحركة لذاتها كما هو مذهبُ الدهرية، أو غيرُ معلوم افتقارُها إلى مؤثر.

(٢٦) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُدولاً إلى ما لا يمكن أن يُتوهَّم فيه مثلُه ويُشَكَّ في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقربَ إلى الناظر وأوضحَ عند التأمل.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخرَ. وسماه رسولاً على السخرية.

(٢٨) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تشاهدون كلَّ يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غيرِ مدار اليوم الذي قبله حتى يبلّغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمورُ الكائنات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقلٌ علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك. لايَـنَهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم.

(٢٩) ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ عُدولاً إلى التهديد عن المُحاجّة بعد الانقطاع وهكذا ديدنُ المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهيةَ وإنكارِه الصانعَ وأنّ تعجُّبه بقوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[1] من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن مَن ملك قُطراً أو تولى أمره بقوة طالِعِه استحق العبادة من أهله، واللام في المسجونين للعهد أي ممن عرَفتَ حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتى يموتوا ولذلك جُعل أبلغَ من لأسجُننّك.

(٣٠) ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صِدْقَ دعواي، يعني المعجزةَ فإنها الجامعةُ بين الدّلالة على وجود الصانع وحكمتِه والدِلالة على صدق مدّعي نبوته، فالواو للحال وَلِيَها الهمزةُ بعد حذف الفعل.

---

(١) الشعراء: «٢٥».

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾

(٣١) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أن لك بينةً أو في دعواك، فإن مدّعيَ النبوة لا بد له من حجة.

(٣٢) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ ثُعبانِيَّتُه، واشتقاقُ الثعبان من ثعَبتُ الماء فانثعب إذا فجرتُه فانفجر.

(٣٣) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ روي أن فرعون لمّا رأى الآيةَ الأولى قال فهل غيرُها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبْطه ثم نزعها ولها شعاعٌ يكاد يُغشي الأبصارَ ويسدّ الأفق.

(٣٤) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقعَ الحال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في علم السحر.

(٣٥) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهَره سلطانُ المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارِهم وتنفيرِهم عن موسى وإظهارِ الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه.

(٣٦) ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخّرْ أمرهما. وقيل احبِسْهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شُرَطاً يحشُرون السحرة.

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضُلون عليه في هذا الفنّ. وأمالها ابنُ عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرىء بكل ساحر.

(٣٨) ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لما وُقّت به من ساعات يوم معين وهو وقتُ الضحى من يوم الزينة.

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاءٌ لهم في الاجتماع حثا على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لَحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

أي ابعث أحدهما إلينا سريعاً.

(٤٠) ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلَبوا، والترجّي باعتبار الغلبة المقتضيةِ للاتّباع، ومقصودُهم الأصلُ أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة، فساقوا الكلام مَساقَ الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

(٤١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ .

(٤٢) ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ التزم لهم الأجرَ والقُربة عنده زيادة عليه إن غلَبوا، فإذاً على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرىء نَعِمْ بالكسر وهما لغتان.

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي بعدما قالوا له إما أن تلقيَ وإما أن نكون نحن الملقين، ولم يُرِد به أمرَهم بالسحر والتمويه بل الإذنَ في تقديم ما هم فاعلوه لا محالةَ توسلاً به إلى إظهار الحق.

(٤٤) ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبةَ لهم لِفَرْط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتىٰ به من السحر.

(٤٥) ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع، وقرأ حفص تلْقف بالتخفيف ﴿ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلِبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرِهم فيُخيِّلون حبالَهم وعِصِيَّهم أنها حياتٌ تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغة.

(٤٦) ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لعلمهم بأن مثلَه لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويهٌ وتزويق يخيِّل شيئاً لا حقيقة له، وأن التبحر في كل فن نافعٌ. وإنما بُدِّل الخُرورُ بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لمّا رأَوا ما رأَوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أُخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خوّلهم من التوفيق.

(٤٧) ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بدلٌ مِن أُلقي بدلَ الاشتمال، أو حالٌ بإضمار قد.

(٤٨) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إبدالٌ للتوضيح ودفعِ التوهم، والإشعارِ على أن الموجبَ لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

(٤٩) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبيسَ على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح أأمنتم بهمزتين ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ما فعلتم وقوله ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيان له.

(٥٠) ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بما تُوعِدُنا به فإن الصبر عليه محاةٌ للذنوب موجبٌ للثواب والقُرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتلُ أنفعُها وأرجاها.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ لأنْ كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد، والجملة في المعنى تعليلٌ ثانٍ لنفي الضمير، أو تعليلٍ للعلة المتقدمة. وقرىء إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المُدِلِّ بأمره نحو إن أحسنتُ إليك فلا تنسَ حقي.

(٥٢) ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعد سنينَ أقامها بين أظهُرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآياتِ فلم يزيدوا إلا عتُواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع أنِ أسْرِ بعبادي بكسر النون ووصل الألف من سَرى، وقرىء أنْ سِرْ من السير ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعونُ وجنوده، وهو علةُ الأمر بالإسراء أي أَسْرِ بهم حتى إذا اتبعوكم مُصْبحين كان لكم تقدّمٌ عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تَلِجون البحر فيدخُلون مَدخلَكم فأُطبِقُه عليهم فأُغرقهم.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بِسُراهم. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ العساكرَ ليتبعوهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وأنما استقلهم وكانوا سِتَّمِائةِ ألفٍ وسبعين ألفاً بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمتُه سبعَمِائةِ ألفٍ. والشرذمةُ الطائفة القليلة، ومنها ثوبٌ شَراذمُ لِما بَلِيَ وتقطع، وقليلون باعتبار أنهم أسباط، كلُّ سِبط منهم قليل.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ لفاعلون ما يَغيظنا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وإنا لجميعٌ مِن عادتنا الحذرُ واستعمالُ الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعَهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فَرْط عداوتهم ووجوبِ التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يُظَنَّ به ما يَكسِرُ سلطانَه، وقرأ ابن عامر برواية ابنِ ذَكوانَ[1] والكوفيون حاذرون، والأولُ للثبات والثاني للتجدّد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يُفعل حذراً، وقرىء حادرون بالدال المهملة أي أقوياء قال:

أُحِبُّ الصَّبِيَ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وأُبغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ

أو تامّو السلاح فإن ذلك يوجب حدارةً في أجسامهم.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلقنا داعيةَ الخروج بهذا السبب فحمَلتُهم عليه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

---

(١) هو محمد بن سليمان بن أحمد بن ذكوان، أبو طاهر البعلبكي المؤذن، مقرىء معمر عالي السند صالح نزيل صيدا. ولد سنة (٢٦٤هـ) ومات سنة (٣٥٤هـ). [غاية النهاية (١٤٨/٢)].

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني المنازلَ الحسنةَ والمجالس البهية..

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر، أو مثلَ ذلك المقامِ الذي كان لهم على أنه صفةُ مقام، أو الأمرُ كذلك فيكون خبراً لمحذوف. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ وقرىء فاتبعوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كلُّ واحد منهما الآخرَ، وقرىء تراءتِ الفئتان ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لَمُلحقون، وقرىء لَمُدّرِكون من ادّرك الشيءُ إذا تتابع ففنِيَ، أي: لمتابِعون في الهلاك على أيديهم[1].

(٦٢) ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ لن يُدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالحفظ والنُّصرة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النجاة منهم، روي أن مؤمنَ آلِ فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أُمِرتَ فهذا البحرُ أمامك وقد غشِيَكَ آلُ فرعون، فقال: أُمرتُ بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

(٦٣) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ بحرَ القَلْزم أو النيلَ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضُرب فانفلق وصار اثني عشر فَرقاً بينها مسالك ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل المُنيفِ الثابت في مقره فدخلوا في شعابها، كلُّ سِبط في شعب.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فرعونَ وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخِلَهم.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئةِ إلى أن عبَروا.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ وأيةَ آية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرُهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقيَ في مصرَ من القِبط، وبنو إسرائيلَ بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبُدونها واتخذوا العجلَ وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2].

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقمُ من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

---

(١) وفي قوله «إنا لمدركون» حيث جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق (س٦/ ٢٤٥).

(٢) البقرة: «٥٥».

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

(٦٩) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي العرب ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

(٧٠) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم لِيُرِيَهم أن ما يعبُدونه لا يستحق العبادة.

(٧١) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فأطالوا جوابَهم بشرح حالهم معه تبجّحاً به وافتخاراً، ونظل ههنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

(٧٢) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه. وقرىء يُسمعونكم أي يُسمعونكم الجواب عن دعائكم، ومجيئُه مضارعاً مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها.

(٧٣) ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ مَنْ أعرض عنها.

(٧٤) ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أضرَبوا عن أن يكون لهم سمعٌ أو يُتوقّع منهم ضُرٌّ أو نفع، والتجأوا إلى التقليد.

(٧٥) ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

(٧٦) ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصِّحة ولا ينقلب به الباطلُ حقاً.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ يريد أنهم أعداءٌ لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوِّه، أو إن المُغرِيَ بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفعُ في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحةٌ بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القَبول. وإفرادُ العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسَب ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبدوه، وكان من آبائهم مَنْ عبدالله.

(٧٨) ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لِما خُلق[١] له من أمور المعاش والمَعاد كما قال ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٢] هدايةً مدرَّجةً من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار، مبدؤُها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين إلى امتصاص دم الطمْث من الرحِم، ومنتهاها الهدايةُ إلى طريق الجنة والتنعمُ بلذائذها. والفاء للسببية إن جُعل الموصول مبتدأ، وللعطف إن جُعل صفةَ ربِّ العالمين فيكون اختلافُ النظم لتقدم الخلق واستمرارِ الهداية. وقوله:

---

(١) وصف الله تعالى بأنه خلقه مع أنه خالق للجميع من باب التصريح بالنعم الخاصة ولكون ذلك أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى (س٦/٢٤٨).

(٢) الأعلى: «٣».

وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ على الأول مبتدأٌ محذوفُ الخبر لدِلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكريرُ الموصول على الوجهين للدَّلالة على أن كل واحدة من الصِلات مستقلةٌ باقتضاء الحكم.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفٌ على يطعمني ويسقين لأنه من روادفهما من حيث إن الصحةَ والمرضَ في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسُب المرضَ إليه تعالى لأن المقصود تعديدُ النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يُحسَن به لا ضررَ فيه وإنما الضررُ في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلةٌ إلى نيل المحابِّ التي تُستحقر دونها الحياةُ الدنيوية، وخلاصٌ من أنواع المِحَن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدُث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافُر، والصحةُ إنما تحصُل باستحفاظ اجتماعها والاعتدالِ المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصيَ ويكونوا على حذر، وطلباً لأن يغفر لهم ما يفرَط منهم واستغفاراً لما عسى ينذُر منه من الصغائر، وحملُ الخطيئة على كلماته الثلاث: إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، وقولِه هي أختي، ضعيفٌ لأنها معاريضُ وليست خطايا.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ كما في العلم والعمل أستعدُّ به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظِمَ به في عِداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحَهم كبيرُ ذنب ولا صغيرُه.

(٨٤) ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ جاهاً وحسنَ صِيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما مِن أمة إلا وهم مُحبَون له مُثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

(٨٥) ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الوراثة فيها.

(٨٦) ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ طريقَ الحق وإن كان هذا الدعاءُ بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمانَ تقيةً من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يُمنَع بعد من الاستغفار للكفار.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ بمعاتبتي على ما فرّطْتُ، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الورّاث، أو بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو يبعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو للضالين.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليمَ القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائرِ آفاته، أو لا ينفعان إلا مالُ مَن هذا شأنُه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاءَ له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنًى إلاَّ غناه. وقيل منقطِعٌ، والمعنى لكنْ سلامةُ من أتى الله بقلب سليم تنفعه.

(٩٠) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجّحون بأنهم المحشورون إليها[1].

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فيرَونها مكشوفةً ويتحسرون على أنهم المَسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين ترجيحٌ لجانب الوعد.

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

(٩٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتُكم الذين تزعمُون أنهم شفعاؤكم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتَهم يدخُلون النار كما قال.

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي الآلهةُ وعبدتُهم، والكَبْكبة تكريرُ الكبِّ لتكرير معناه كأن مَن ألقيَ في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبَعوه من عُصاة الثقلين. أو شياطينُه ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جُعل مبتدأً خبرُه ما بعده أو للضمير وما عطف عليه وكذا الضميرُ المنفصل وما يعود إليه في قوله:

(٩٦) ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ على أن الله يُنطق الأصنام فتخاصم العَبَدةَ ويؤيده الخطاب في قوله:

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي في استحقاق للعبادة، ويجوز أن تكون الضمائرُ للعبدة كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها[2].

---

(١) وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره (س٦/ ٢٥١).

(٢) وصيغة المضارع في «نسوّيكم» لاستحضار الصورة الماضية (س٦/ ٢٥٢).

وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إذِ الأَخِلاَّءُ يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلاَّ المتقين، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعُدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، أو وقعنا في مهلكة لا يخلّصُنا منها شافعٌ ولا صديق، وجمَع الشافعَ ووحّد الصديقَ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الصديقَ الواحد يسعى أكثرَ مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدوّ لأنه في الأصل مصدرٌ كالحنينِ والصهيل.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تَمنٍّ للرجعة أُقيم فيه (لو) مُقامَ ليت لتلاقيهما في معنى التقدير. أو شرطٌ حُذف جوابه. ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابُ التمني أو عطفٌ على كرةً، أي: لو أن لنا أن نكُرَّ فنكونَ من المؤمنين.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ لحجةً وعِظةً لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظَمِ ترتيب وأحسنِ تقرير، يتفطن المتأملُ فيها لغزارة علمه لِما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيهِ على دلائلها وحسنِ دعوته للقوم وحسنِ مخالفته معهم وكمالِ إشفاقه عليهم وتصوُّر الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقَبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر قومه. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ من ذريتهم.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ القومُ مؤنثة ولذلك تُصغر على قُوَيمة وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتترُكوا عبادةَ غيره.

(١٠٧) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

(١٠٩) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنُّصح ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره للتأكيد والتنبيهِ على دِلالة كل واحد من أمانته وحَسْم طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفصٌ بفتح الياء في أجريَ في الكلمات الخمس.

۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

(١١١) ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الأقلّون جاهاً ومالاً، جمعُ الأرذل على الصحة، وقرأ يعقوب وأتباعُك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تَبَع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصورِ رأيهم على الحُطام الدنيوية، حتى جعلوا اتّباع المُقِلّين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعَهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

(١١٢) ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنهم عمِلوه إخلاصاً أو طمعاً في طُعمة وما عليَّ إلا اعتبارُ الظاهر.

(١١٣) ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ ما حسابُهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطّلع عليها. ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

(١١٤) ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جوابٌ لِما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيفِ إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعَهم المانعَ عنه. وقوله:

(١١٥) ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجلٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين عن الكفر والمعاصي سواءٌ كانوا أعزّاءَ أو أذلاّءَ فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليَّ إلا إنذارُكم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطرُدَهم لاسترضائكم.

(١١٦) ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ إظهاراً لِما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيبُ الحق لا تخويفُهم له واستخفافُهم عليه.

(١١٨) ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفَتاحة ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من قَصْدهم أو شؤم عملهم.

(١١٩) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوء.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾ بعد إنجائه ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ من قومه.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسمُ أبيهم.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٢٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تصديرُ القَصص بها دَلالةٌ على أن البعثة مقصورةٌ على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرّب المدعُوَّ إلى ثوابه ويُبعده عن عقابه، وكان الأنبياءُ متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع، مُبرَّئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريعُ الأرض لارتفاعها ﴿آيَةً﴾ علَماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها. أو بروجَ الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمُر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذَ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتُحكِمون بنيانها.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بسيف أو سوط ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصدِ تأديبٍ ونظر في العاقبة.

(١٣١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفعُ لكم.

(١٣٢) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرِفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيدِ على تركه بالانقطاع، ثم فصل بعضَ تلك النعم كما فصل بعض مساويهم المدلولِ عليها إجمالاً بالإنكار في ألا تتقون مبالغةً في الإيقاظ والحث على التقوى فقال:

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أوعدهم فقال:

(١٣٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدَر على الإنعام قدَر على الانتقام.

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٣٦) ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغييرُ شقّ النفي عما تقتضيه المقابلةُ للمبالغة في قلة اعتدادِهم بوعظه.

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلا كذِبُ الأولين، أو ما خُلُقُنا هذا إلا خلقُهم نحيا ونموت مثلَهم ولا بعثَ ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة خُلُق الأولين بضمتين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادةُ الأولين كانوا يُلفّقون مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خُلُقُ الأولين وعادتُهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادةٌ قديمة لم تزل الناسُ عليها.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسبب التكذيب بريح صَرْصَر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٤٣) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٤٤) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٤٥) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إنكار لأن يُترَكوا كذلك، أو تذكيرٌ للنعمة في تخلية الله إياهم وأسبابِ تنعُّمهم آمنين ثم فسره بقوله:

(١٤٧) ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لطيفٌ لين لِلُطف الثمر، أو لأن النخلَ أنثى، وطلع أناث النخل ألطفُ وهو ما يطلُع منها كنصل السيف في جوفه شماريخُ القِنو، أو مُتدلٍّ منكسرٌ من كثرة الحمل، وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرُها من الأشجار.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بطرين، أو حاذقين من الفَراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرِهين وهو أبلغُ من فارهين.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾

(١٥٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ استُعير الطاعةُ التي هي انقيادُ الأمر لامتثال الأمر، أو نُسب حكمُ الآمر إلى أمره مجازاً.

(١٥٢) ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وصْف موضِّحٌ لإسرافهم ولذلك عُطف ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على يفسدون دِلالةً على خُلوص فسادهم.

(١٥٣) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سُحِروا كثيراً حتى غلب على عقلهم، أو من ذوي السَّحَر وهي الرئة أي من الأناسيّ، فيكونُ:

(١٥٤) ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكيداً له ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

(١٥٥) ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ نصيب من الماء كالسَّقْي والقِيت للحظ من السَّقْي والقوت. وقرىء بالضم ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتصروا على شِرْبكم ولا تزاحموها في شِرْبها.

(١٥٦) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وعَقْر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عِظَمُ اليوم لِعظم ما يحِلّ فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

(١٥٧) ﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ أسند العقرَ إلى كلهم لأن عاقرَها إنما عقرَها برضاهم ولذلك أُخذوا جميعاً ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبةً، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم.

(١٥٨) ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي العذابُ الموعود ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماءٌ بأنه لو آمن أكثرُهم أو شطرُهم لما أُخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصموا عن مثله ببركة مَن آمن منهم.

(١٥٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٦٠) ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٦١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٦٢) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

(١٦٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٦٤) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أتأتون مِن بينِ مَن عَداكم من العالمين الذُّكران لا يشاركُكم فيه غيرُكم، أو أتأتون الذكران من أولاد آدمَ مع كثرتهم وغلبةِ الإناث فيهم كأنهن قد أعوَزْنكم، فالمرادُ بالعالمين على الأول كلُّ من يَنكِح وعلى الثاني الناسُ.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للبيان إن أريد به جنسُ الأناث، أو للتبعيض إن أريد به العضوُ المباحُ منهن فيكون تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون مثلَ ذلك بنسائهم أيضاً ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مُفْرِطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقّاءُ بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمةَ.

(١٦٧) ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عما تدّعيه أو عن نهيِنا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من المنفيِّين مِن بينِ أظهُرِنا، ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على عُنفٍ وسوء حال.

(١٦٨) ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ من المبغضين غايةَ البغض لا أقِف عن الإنكار عليه بالإبعاد، وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قالٍ، لدَلالته على أنه معدودٌ في زمرتهم مشهورٌ بأنه من جملتهم.

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤمه وعذابه.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أهلَ بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم.

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ مقدّرةً في الباقين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضيةً بفعلهم. وقيل كائنةً فيمن بقيَ في القرية فإنها لم تخرج مع لوط.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وقيل أمطر الله على شُذّاذ القوم حجارةً فأهلكهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصِحَّ وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ساء، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ وهو مطرُهم.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

(١٧٥) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ .

(١٧٦) ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكةُ غِيضةٌ تُنبت ناعمَ الشجر، يريد غِيضةً بقرب مدينَ تسكنُها طائفةٌ فبعث الله إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدينَ وكان أجنبياً منهم فلذلك قال:

(١٧٧) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب. وقيل الأيكة شجرٌ ملتفٌّ وكان شجرَهم الدومُ وهو المقلُ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لَيْكةِ بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحةً على أنها لَيكةُ وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعاً للفظ.

(١٧٨) ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .

(١٧٩) ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

(١٨٠) ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

(١٨١) ﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوقَ الناس بالتطفيف.

(١٨٢) ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط ففِعْلاسٌ بتكرير العين وإلا ففعلال. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ولا تنقُصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطعِ الطريق.

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذوي الجِبِلّة الأولين يعني مَنْ تقدمهم من الخلائق.

(١٨٥) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ .

(١٨٦) ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامعٌ بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغةً في تكذيبه. ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٧) ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قطعةً منها، ولعله جوابٌ لِما أَشعر به الأمرُ بالتقوى من التهديد. وقرأ حفص بفتح السين ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٨) ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبعذابه منزّل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت أنهارُهم وأظلتهم سحابةٌ فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليها ناراً فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذا آخِرُ القِصص السبعِ المذكورة على سبيل الاختصار تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، واطّرادُ نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحُهم له استهزاءً وعدمَ مبالاة به يَدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاءً لهم لا مؤاخذةً على تكذيبهم.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحقّيه تلك القِصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمْها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلبُ إن أراد به الروحَ فذاك وإن أراد به العضوَ فتخصيصُه لأن المعانيَ الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوحُ المتخيِّلة، والروحُ الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمينُ الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصْبِ الروح الأمين ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضحِ المعنى لئلا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بنزَل، ويجوز أن يتعلق بالمنذِرين أي لتكون ممن أنذَروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسمٰعيل وشعيبٌ ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذِكرَه أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أن يعرِفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقريرٌ لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر تكن بالتاء وآيةٌ بالرفع على أنها الاسم،

---

(١) ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل، كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (س٦/ ٢٦٣).

والخبرُ لهم، وأن يعلمه بدلٌ، أو الفاعلُ وأن يعلمه بدلٌ ولهم حال، أو أن الاسم ضميرُ القصة وآيةٌ خبرُ (أن يعلمه) والجملة خبرُ تكن.

وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادةً في إعجازه أو بلغة العجم.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لِفَرْط عِنادهم واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافِهم من اتباع العجم، والأعجمين جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جُمع جَمع السلامة.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والضمير للكفر المدلولِ عليه بقوله ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[1] فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرَفوا معانيَه وإعجازَه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المُلجِىءَ إلى الإيمان.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسراً وتأسفاً.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون أمطِر علينا حجارةً من السماء، فائتِنا بما تعدِنا، وحالُهم عند نزول العذاب طلبُ النظِرة[2].

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ لم يغن عنهم تمتُّعهم المتطاولُ في دفع العذاب وتخفيفِه.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرةً ومحلُّها النصبُ على العلة أو المصدرِ لأنها في معنى الإنذار، أو الرفعُ على أنها صفةُ منذرون بإضمار ذووا، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة، أو خبرُ محذوفٍ والجملة اعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين، أو قبل الإنذار.

---

(١) الشعراء: «١٩٩».

(٢) قدم الجار والمجرور «أفبعذابنا» للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى، مع ما فيه من رعاية للفواصل (س٦/ ٢٦٦).

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قَبيل ما يُلقي الشياطينُ على الكهنة.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ وما يصح لهم أن يتنزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدِرون.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنه مشروطٌ بمشاركةٍ في صفاء الذات وقَبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظُلمانية شِرّيرة بالذات لا تقبل ذلك، والقرآنُ مشتملٌ على حقائقَ ومغيَّبات لا يمكن تلقّيها إلا من الملائكة.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ولطفٌ لسائر المكلفين.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ فإن الاهتمام بشأنهم أهمّ. روي أنه لما نزلت صعِد الصفا وناداهم فخِذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيّ، قالوا نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليِّن جانبك لهم، مستعارٌ من خفْض الطائرِ جناحَه إذا أراد أن ينحط، ومِن للتبيين لأن من اتَّبعَ أعمُّ ممن اتَّبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد من المؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدِر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكْفِكَ شرَّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقرأ نافع وابن عامر فتوكل على الإبدال من جواب الشرط.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتردّدَك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نُسخ قيامُ فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلةَ ببيوت أصحابه لينظُر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن[2]. أو تصرّفَك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أَمَمْتَهم، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٥١ رقم ٣٥٢٥) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧٠) و(٨/ ٥٣٩ رقم ٤٨٠١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧٢).
ومسلم (١/ ١٩٣ رقم ٣٥٥/ ٢٠٨) من حديث ابن عباس.

(٢) لم أقف عليه؟

وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايتَه بعد وصفه بأن مِن شأنه قهرَ أعدائه ونصرَ أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لمَا بيَن أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطينُ أكد ذلك بأنْ بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرّير كذاب كثيرِ الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لِما بينهما من التناسُب والتوادّ، وحالُ محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله:

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يُلقون السمع إلى الشياطين فيتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ لنقصان علمهم، فيضُمّون إليها على حسب تخيلاتهم أشياءَ لا يطابِق أكثرُها كما جاء في الحديث[١] «الكلمةُ يخطَفها الجِني فيُقِرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مِائة كِذْبة» ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عَن مغيبات كثيرة لا تُحصىٰ وقد طابق كلُّها، وقد فُسّر الأكثر بالكل لقوله تعالى ﴿كل أفاك أثيم﴾[٢]. والأظهرُ أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلَّ مَن يصدُق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا فيختطفون منهم بعضَ المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم، أو يلقون مسموعَهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يُسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وأتباعُ محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استئناف أبطل كونَه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالاتٌ لا حقيقةَ لها، وأغلبُ كلماتهم في النسيب بالحُرَم والغزل والابتهار[٣] وتمزيقِ الأعراض والقدح في الأنساب والوعدِ الكاذب والافتخار الباطل ومدحِ مَن لا يستحقه والإطراءِ فيه، وإليه أشار بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/٢١٦ رقم ٥٧٦٢) و(١٠/٥٩٥ رقم ٦٢٣١) و(١٣/٥٣٥ رقم ٧٥٦١) ومسلم (٤/١٧٥٠ رقم ١٢٢، ١٢٣) من حديث عائشة في أطول من ذلك.

(٢) الشعراء: «٢٢٢».

(٣) الابتهار: ادّعاء فعل الفجور ولم يفعله. انظر «بهر» في القاموس.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لَما كان إعجازُ القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلّم في القسمين وبيّن منافاةَ القرآن لهما ومضادةَ حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع يتْبعهم على التخفيف، وقرىء بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثرون ذكر الله ويكون أكثرُ أشعارهم في التوحيد والثناءِ على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصارَ ممن هجاهم ومكافحةَ هُجاةِ المسلمين كعبدالله بنِ رواحةَ[1] وحسانَ بنِ ثابت[2] والكعبين[3]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»[4]. وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «اُهجُهم فوالذي نفسي

---

(١) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر.
شهد بدراً والعقبة. يكنى أبا محمد، وأبا رواحة، وليس له عقب. وكان من كُتّاب الأنصار...
[الجرح والتعديل (٥/ ٥٠) وشذرات الذهب (١/ ١٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٥)].

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة.
واشتهرت مدائحُه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً، لعلة أصابته.
قال أبو عبيدة: فضَلَ حسانُ الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في الإسلام. وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. توفي سنة (٥٤هـ).
[الأعلام للزركلي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦)].

(٣) المقصود بهما كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن العَين الخزرجي السلمي عقبى، فاتته بدر، توفي في دمشق.
[انظر تجريد أسماء الصحابة ج٢ ص٢٣].
وكعب بن زهير بن أبي سلمى: صحابي وشاعر مُجَوِّد كثير الشعر.
[انظر «خزانة الأدب» (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٥)].

(٤) أخرج البخاري (٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٣) و(٧/ ٤١٦ رقم ٤١٢٣ و٤١٢٤) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٣). ومسلم (٤/ ١٩٣٣ رقم ١٥٣/ ٢٤٨٦).
عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت «اهجُهُمْ أو هاجِهِمْ وجبريل معك».
● وأخرج البخاري (١/ ٥٤٨ رقم ٤٥٣) و(٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٢) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٢) ومسلم (٤/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ رقم ١٥١/ ٢٤٨٥).
عن أبي هريرة أنَّ عمر مرَّ بحسانٍ وهو يُنشِدُ الشعر في المسجد. فَلَحَظَ إليه.
فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة. فقال: أَنْشُدُكَ الله! أسمعتَ

بيده لهو أشدُّ عليهم من النبل»[١] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لِما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أيِّ منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهِد إليه، وقرىء أي مُنفَلَت ينفلتون من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإبراهيمَ وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[٢].



= رسول الله ﷺ يقول «أجِبْ عني اللهم أيده بروح القدس» قال: اللهم نعم.

(١) أخرج مسلم (٤/ ١٩٣٥ رقم ١٥٧/ ٢٤٩٠).

عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُوا قريشاً. فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنبل» وفي آخره قصة.

● وأخرج الترمذي (٥/ ١٣٩ رقم ٢٨٤٧) والنسائي (٥/ ٢٠٢ رقم ٢٨٧٣) و(٥/ ٢١١ ـ ٢١٢ رقم ٢٨٩٣)، عن أنس ـ في أثناء حديث ـ فقال النبي ﷺ: «خَلِّ عنه يا عُمَرُ، فلهي أسرع من نضح النبل».

وهو حديث صحيح. وانظر ما قاله المحدث الألباني في «مختصر الشمائل» (رقم ٢١٠).

(٢) وهو حديث موضوع.

رواه الثعلبي وابن مردويه عن حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّمْلِ

ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النمل، مكيةٌ وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آي السورة[1]، والكتابُ المبين إما اللوحُ المحفوظُ ـ وإبانتُه أنه خُط فيه ما هو كائنٌ فهو يبينه للناظرين فيه، وتأخيرُه باعتبار تعلّقِ علمنا به وتقديمُه في (الحِجْر) باعتبار الوجود ـ أو القرآن، وإبانتُه لِما أودع فيه من الحِكَم والأحكام، أو لصحته بإعجازه. وعطفُه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، وتنكيرُه للتعظيم. وقرىء وكتابٌ بالرفع على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخَران أو خبران لمحذوف.

---

(١) وما في اسم الإشارة من معنى البعد ـ مع قرب العهد بالمشار إليه ـ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف (س٦/ ٢٧١).

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الذين يعملون الصالحاتِ من الصلاة والزكاة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغييرُ النظم للدِلالة على قوة يقينهم وثباتِه وأنهم الأوحدون فيه، أو جملةٌ اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمّلَ المشاقِّ إنما يكون لخوف العاقبة والوثوقِ على المحاسبة، وتكريرُ الضمير للاختصاص[1].

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ زين لهم أعمالَهم القبيحةَ بأن جعلها مشتهاةً للطبع محبوبةً للنفس، أو الأعمالَ الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المَثُوبات عليها ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها لا يُدركون ما يتبعها من ضر أو نفع.

(٥) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشدُّ الناس خسراناً لفوات المَثوبة واستحقاقِ العقوبة.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [2]. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيّ حكيم وأيّ عليم، والجمعُ بينهما مع أن العلم داخلٌ في الحكمة لعموم العلم ودَلالةِ الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علومَ القرآن منها ما هو حكمةٌ كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر قصتَه إذ قال ويجوز أن يتعلق بعليم ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمعُ الضمير ـ إن صح أنه لم يكن معه غيرُ امرأته ـ لِما كُنّيَ عنها بالأهل، والسينُ للدلالة على بعد المسافة والوعدِ بالإتيان وإن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ شُعلةِ نارٍ مقبوسة، وإضافةُ الشهاب إليه لأنه قد يكون قَبَساً وغيرَ قبس، ونوّنه الكوفيون ويعقوبُ على أن القبس بدلٌ منه أو وصفٌ له لأنه بمعنى المقبوس، والعِدَتانِ على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في طه، والترديدُ للدلالة على أنه إن لم يظفَر بهما لم يعدَمْ أحدَهما بناءً على ظاهر الأمر، أو ثقةً بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حِرمانين على عبده ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستدفئوا بها والصِّلاءُ النارُ العظيمة.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أي بورك فإن النداءَ فيه معنى القول، أو بأن بورك على أنها مصدريةٌ أو مخففةٌ من الثقيلة، والتخفيفُ وإن اقتضى التعويضَ بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاءٌ وهو يخالف غيرَه في أحكام كثيرة. ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مَن في مكان النار وهو البقعةُ المباركةُ المذكورة

---

(١) وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما قرينتا الإيمان (س٦/ ٢٧٢).

(٢) تصديره بحرفي التوكيد «إنّ واللام» لإبراز كمال العناية بمضمونه (س٦/ ٢٧٣).

في قوله تعالى ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ ﴾[١] ومَن حول مكانها، والظاهرُ أنه عامّ في كل من في تلك الأرض، وفي ذلك الوادِ وحواليها من أرض الشام الموسومةِ بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء وكِفاتَهم أحياءً وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعةَ التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكةُ الحاضرون، وتصديرُ الخطاب بذلك بشارةٌ بأنه قد قُضيَ له أمرٌ عظيم تنتشر بركتُه في أقطار الشام ﴿ وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ من تمام ما نوديَ به لئلا يَتوهّم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجيب من عظمة ذلك الأمرِ. أو تعجبٌ من موسى لما دهاه من عظمته.

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ الهاء للشأن وأنا الله جملةٌ مفسرة له، أو للمتكلم وأنا خبرُه واللهُ بيانٌ له. ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القويُّ القادر على ما يُبعد من الأوهام كقلب العصا حيةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعله بحكمة وتدبير.

(١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على بورك أي نودي أن بورك مَن في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قولُه وأن ألق عصاك بعد قوله أن يا موسى إني أنا الله بتكرير أن ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك باضطراب[٢] ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ حيةٌ خفيفةٌ سريعة، وقرىء جأنٌ على لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجِعْ، مِن عقّب المقاتلُ إذا كرّ بعد الفرار، وإنما رُعب لظنه أن ذلك الأمرَ أريد به ويدل عليه قوله ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقةً بي أو مطلقاً لقوله ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي حين يوحىٰ إليهم من فَرْط الاستغراقِ فإنهم أخوفُ الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبةٍ فيخافون منه.

(١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فَرَطتْ منه صغيرةٌ فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فِعلَها ما يُبطلها ويستحقون به من الله مغفرةً ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريضَ موسى بوكزه القِبطيَّ. وقيل متصلٌ وثم بدلٌ مستأنفٌ معطوف على محذوف أي من ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

(١٢) ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ لأنه كان بُمدرّعة صوف لا كُمَّ لها. وقيل الجيبُ القميصُ لأنه يُجاب[٣] أي يقطع ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ آفةٍ كبرص ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ في جملتها أو معها على أن التسعَ هي الفلقُ، والطوفانُ، والجراد، والقمّل، والضفادعُ، والدم، والطمْسةُ، والجدبُ في بواديهم،

(١) القصص: «٣٠».
(٢) والفاء للدلالة على سرعة وقوع مضمونها (س٦/ ٢٧٤).
(٣) تقول: جبت القميص أجيبه وأجوبه.

والنقصانُ في مزارعهم، ولمن عدّ العصا واليدَ من التسع أن يعُدّ الأخيرين واحداً ولا يعُد الفلقَ لأنه لم يُبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئنافٌ بالإرسال فيتعلق به ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ وعلى الأولَين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلاً ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ تعليل للإرسال.

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ بأن جاءهم موسى بها ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينةً، اسمُ فاعل أُطلق للمفعول، وإشعاراً بأنها لِفَرْط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تُبصر نفسَها لو كانت مما يبصِر، أو ذاتَ تبصّر من حيث إنها تهدي، والعُميُ لا تهتدي فضلاً عن أن تهديَ، أو مبصرة كلَّ من نظر إليها وتأمل فيها. وقرىء مَبصَرة أي مكاناً يكثُر فيه التبصرُ ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واضحٌ سِحريتُه.

(١٤) ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ وكذبوا بها ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال ﴿ ظُلْمًا ﴾ لأنفسهم ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ ترفعاً عن الإيمان. وانتصابُهما على العلة من جحدوا ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهو الإغراقُ في الدنيا والإحراقُ في الآخرة.

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ طائفةً من العلم وهو علمُ الحُكْم والشرائع، أو علماً أيَّ علم[١]. ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ عطَفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعضُ ما أتيا به في مقابلة هذه النعمةِ كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا وقالا الحمد لله ﴿ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني من لم يُؤت علماً أو مثلَ علمهما، وفيه دليلٌ على فضل العلم وشرفِ أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساسَ الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من المُلك الذي لم يؤتَ غيرُهما، وتحريضٌ للعالم على أن يحمَد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضعَ ويعتقد أنه وإن فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه كثير.

(١٦) ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ النبوةَ أو العلمَ أو الملكَ بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعةَ عشرَ ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها. ودعاءُ الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علمُ منطِق الطير وغيرُ ذلك من عظائمِ ما أوتيه، والنطقُ والمنطقُ في المتعارَف كلُّ لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوَّت به على التشبيه، أو التبعُ كقولهم نطقت الحمامةُ ومنه الناطقُ والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصواتَ الحيوانيةَ من حيث إنها تابعةٌ للتخيلات مُنزَّلةٌ منزلةَ العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوتَ حيوان علِم بقوته القُدسية التخيلَ الذي صوّته والغرضَ الذي توخاه به. ومن ذلك ما

(١) تصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه (س٦/ ٢٧٦).

حُكي[١] أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال: يقول إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ، وصاحت فاختةٌ فقال: إنها تقول ليت الخلقَ لم يُخلقوا، فلعله كان صوتُ البلبل عن شِبعٍ وفراغِ بال، وصياحُ الفاختة عن مقاساة شدةٍ وتألم قلبٍ، والضمير في عُلّمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام، أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة، والمراد من كل شيء كثرةُ ما أوتي كقولك: فلانٌ يقصِده كلُّ أحد ويعلم كلَّ شيء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا يخفى على أحد.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٧) ﴿وَحُشِرَ﴾ وجُمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبَسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا[٢].

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وادٍ بالشام كثيرُ النمل، وتعديةُ الفعل إليه بعلى إما لأن إتيانَهم كان من عالٍ أو لأن المرادَ قطعُه، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أُخرياتِ الوادي ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حَطْمهم فتبعها غيرُها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتْها، فشُبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتِهم ولذلك أُجروا مُجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقلَ والنطق ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ لهم عن الحطْم، والمرادُ نهيُها عن التوقف بحيث يحطِمونها كقولهم: لا أُرَيَنّك ها هنا، فهو استئنافٌ أو بدل من الأمر لا جوابٌ له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنهم يحطِمونكم إذ لو شعَروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمةَ الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقيل استئناف أي فهمْ (سليمانُ والقوم) لا يشعرون.

(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرِها واهتدائها إلى مصالحها، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضِها ولذلك سأل توفيق شكره ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك عندي، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقرأ البزي وورش بفتح ياء أوزعني ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أدرج فيه ذكرَ والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمةُ عليه يرجع نفعُها إليهما سيما الدينيةُ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتماماً للشكر واستدامةً للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في عدادهم الجنةَ.

---

(١) هذه الحكاية عن كلام الطيور متلقاة من أهل الكتاب، وليس فيها نص صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ والبحث في هذا مما لا طائل تحته. والله أعلم.

(٢) وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر، لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (س٦/ ٢٧٧).

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرّف الطير فلم يجد فيها الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أم منقطعةٌ كأنه لما لم يرَه ظن أنه حاضرٌ ولا يراه لساتر أو غيره فقال: مالي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائبٌ فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائبٌ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائِه في الشمس، أو حيث النملُ يأكله، أو جعلِه مع ضده في قفص. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبرَ به أبناءُ جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تبيّن عذرَه، والحلِف في الحقيقة على أحد الأولَين بتقدير عدم الثالث، لكن لما اقتضى ذلك وقوعَ أحد الأمور الثلاثةِ ثلّث المحلوفَ عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو ليأتينني بنونين الأولى مفتوحةٌ مشددة.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غيرَ مديد يريد به الدِلالةَ على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيهٌ له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقرَ إليه نفسه ويتصاغرَ لديه علمُه، وقرىء بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غيرَ مصروف على تـأويل لقبيلة والبلدة، والقواس بهمزة ساكنة. ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ بخبر متحقِّق. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكةَ صباحاً فوافى صنعاء ظَهيرةً فأعجبته نزاهةُ أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء ـ وكان الهدهدُ رائدَه لأنه يُحسن طلب الماء ـ فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكَى ما حكى، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياءَ أعظمَ من ذلك يستكبرها من يعرِفها ويستنكرها من ينكرها.

(٢٣) ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بِلْقيسَ بنتَ شَراحيلَ بنِ مالك بن الريان، والضميرُ لسبأ أو لأهلها. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عِظَمُه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عَرضاً وسَمْكاً، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عبادةَ الشمس وغيرَها من مقابح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ فصدهم لئلا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من أعمالَهم، أو لا يهتدون إلى أن يسجدوا بزيادة لا. وقرأ الكسائي ويعقوبُ ألا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء، ومناداه محذوف أي: ألا يا قومُ اسجُدوا كقوله:

وقَالَتْ أَلاَ يَا اسْمَعْ أَعِظْكَ بِخُطَّةٍ فقُلْتُ سَمِيعاً فَانْطِقِي وَأَصِيبِي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمانَ والوقفُ على لا يهتدون، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوبَ السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرىء هَلاّ وهَلاَ بقلب الهمزة هاءً وألا تسجُدون وهلا تسجُدون على الخطاب ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وصفٌ له تعالى بما يوجب اختصاصَه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلمِ حثاً على سجوده ورداً على من يسجُد لغيره، والخَبءُ ما خفِيَ في غيره، وإخراجُه إظهارُه، وهو يعُم إشراقَ الكواكب وإنزالَ الأمطار وإنباتَ النبات بل الإنشاءَ فإنه إخراجُ ما في الشيء بالقوة إلى الفعل، والإبداعَ، فإنه إخراجُ ما في الإمكان والعدمِ إلى الوجوب والوجود، ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفصٌ والكسائي ما تخفون وما تعلنون بالتاء.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ الذي هو أولُ الأجرام وأعظمُها والمحيطُ بجملتها، فبين العظيمين بونٌ.

(٢٧) ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ﴾ سنعرف، من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي أم كذبت، والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

(٢٨) ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يرجع بعضُهم إلى بعض من القول.

(٢٩) ﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما أُلقيَ إليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مُرسلِه، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقيةً في بيت مغلقةً الأبوابَ فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به[(١)].

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ استئنافٌ كأنه قيل لها ممن هو وما هو؟ فقالت إنه، أي إن الكتابَ أو العنوان من سليمان ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي وإن المكتوبَ أو المضمون وقرىء بالفتح على الإبدال من كتابٌ أو التعليلِ لكرمه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) لم يذكر فعلُ الهدهد وما أُمر به إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة، وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره (س٦/ ٢٨٣).

أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أنْ مفسرةٌ أو مصدريةٌ فتكون بصلتها خبرَ محذوفٍ أي هو، أو المقصودُ أن لا تعلوا، أو بدلٌ من كتابٌ ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين، وهذا كلامٌ في غاية الوجازة مع كمال الدِلالة على المقصود، لاشتماله على البسملة الدالةِ على ذات الصانع تعالى وصفاتِه صريحاً أو التزاماً، والنهيِ عن الترفع الذي هو أمُّ الرذائل، والأمرُ بالإسلام الجامعِ لأمهات الفضائل، وليس الأمرُ فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاءً للتقليد فإن إلقاءَ الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أجيبوني في أمري الفتي واذكُروا ما تستصوبون فيه[1] ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ ما أبتّ أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ إلا بمَحضَركم. استعطفتْهم بذلك ليُمالئوها على الإجابة.

(٣٣) ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ بالأجساد والعَدد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدةٍ وشجاعة ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكولٌ ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح نُطِعْك ونتبَع رأيك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عُنوةً وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييفٌ لِما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القُوى الذاتيةَ والعرضيةَ، وإشعارٌ بأنها ترى الصلحَ مخافةَ أن يتخطى سليمانُ خططَهم فيُسرعَ إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعِماراتهم، ثم إن الحربَ سِجالٌ لا تدري عاقبتها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِما وَصفت من حالهم وتقريرٌ بأن ذلك من عاداتهم الثابتةِ المستمرة، أو تصديقٌ لها من الله عز وجل.

(٣٥) ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيانٌ لِما ترى تقديمَه في المصالحة، والمعنى إني مرسلةٌ رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي[2] أنها بعثت منذرَ بنَ عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زِي الجواري وجواريَ على زي الغلمان، وحُقا فيه دُرةٌ عذراءُ وجزعة مُعْوجةَ الثُقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرةَ ثقباً مستوياً وسلك في الخَرْزة خيطاً، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمةَ شأنه تقاصرت إليهم نفوسُهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريلُ بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأَرَضَةَ فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودةً بيضاءَ فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجاريةُ تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلامُ كما يأخذه يضرِب به وجهه ثم رد الهدية.

---

(١) وكررت حكاية قولها (قالت) للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزه من قولها (س٦/ ٢٨٤).

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي الرسولُ أو ما أهدت إليه وقرىء فلما جاؤوا ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسِل على تغليب المخاطب. وقرأ حمزةُ ويعقوبُ بالإدغام، وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذفِ الياء. ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والمُلك الذي لا مزيدَ عليه، وقرأ نافعٌ وأبو عمْرٍو وحفصٌ بفتح الياء والباقون بإسكانها، وبإمالتها الكسائيُّ وحده ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فلا حاجةَ لي إلى هديتكم ولا وقعَ لها عندي ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يُهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، والإضرابُ عن إنكار الإمدادِ بالمال عليه وتقليلِه إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياسُ حاله على حالهم في قصور الهِمة بالدنيا والزيادة فيها.

(٣٧) ﴿ٱرْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بِلْقيسَ وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقةَ لهم بمقاومتها ولا قدرةَ لهم على مقابلتها وقرىء بهم. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أُسَراءُ مهانون.

(٣٨) ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يُرِيَها بعضَ ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالةِ على عِظَم القدرة وصدقِه في دعوى النبوة، ويختبرَ عقلَها بأن ينكّر عرشَها فينظُرَ أتعرِفه أم تُنكره. ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمةً لم يحِل أخذُه إلا برضاها.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيثٌ مارد ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيانٌ له لأنه يقال للرجل الخبيثِ المنكَرِ المعفِّرِ أقرانَه، وكان اسمُه ذكوانَ أو صخراً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئاً ولا أبدله.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ آصفُ بنُ برخيا وزيرُه، أو الخِضْرُ أو جبريلُ عليهما السلام أو ملَكٌ أيده الله به[1]، أو سليمانُ عليه السلام نفسُه فيكون التعبيرُ عنه بذلك للدِلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامةَ كانت بسببه، والخطاب في: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعِفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهارَ معجزة في نقله فتحداهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمرادُ بالكتاب جنسُ الكتب المنزلةِ أو اللوحُ، وآتيك في الموضعين صالحٌ

(١) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (١١/ج١٩/ ١٦٢ ـ ١٦٣) و«زاد المسير» (٦/ ١٧٥) و«الدر المنثور» (٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

للفعلية والاسمية، والطرفُ تحريكُ الأجفان للنظر فوُضع موضِعَه، ولما كان الناظرُ يوسف بإرسال الطرف كما في قوله:

وكُنْـتَ إِذَا أَرْسَلْـتَ طَـرْفَـكَ رَائِـداً ... لقَلْبِـكَ يَـوْمـاً أَتْعَبَتْـكَ المَنَـاظِـرُ

وُصف برد الطرف والطرفُ بالارتداد، والمعنى أنك تُرسل طرْفَك نحو شيء فقبل أن ترُدّه أُحضِر عرشَها بين يديك، وهذا غايةٌ في الإسراع ومثلٌ فيه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حاصلاً بين يديه ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلِصين من عباد الله تعالى ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ تفضّل به عليَّ من غير استحقاق، والإشارةُ إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرفِ من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلامُ في إمكان مِثْله قد مر في آية الإسراء ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حولٍ مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجدَ نفسي في البين، أو أقصرَ في أداء مواجبه ومحلُّها النصبُ على البدل من الياء ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يَستجلِب لها دوامَ النعمة ومزيدَها ويحط عنها عِبءَ الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالأنعام عليه ثانياً.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكلِه ﴿نَنظُرْ﴾ جوابُ الأمر، وقرىء بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته أو الجوابِ الصوابِ، وقيل إلى الإيمان بالله ورسولِه إذا رأت تقدُّم عرشِها وقد خلّفته مغلقةً عليه الأبوابَ موكّلةً عليها الحراسَ.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ تشبيهاً عليها زيادةً في امتحان عقلها إذْ ذُكرت عنده بسخافة العقل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثلَه وذلك من كمال عقلها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزة لها فقالت: وأوتينا العلمَ بكمال قدرة الله وصِحةِ نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمانَ عليه السلام وقومه، وعطفوه على جوابها لِما فيه من الدِلالة على إيمانها بالله ورسولِه حيث جوّزت أن يكون ذلك عرشَها تجويزاً غالباً، وإحضارُه ثَمةَ من المعجزات التي لا يقدِر عليها غيرُ الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلمَ بالله وقدرتِه وصحةِ ما جاء به عنده قبلَها وكنا منقادين لحكمه ولم نَزَل على دينه، ويكون غرضُهم فيه التحدثَ بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتُها الشمسَ عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدّها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ وقرىء بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نُشُؤها بين أظهُر الكفار، أو التعليلِ له.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ القصرَ وقيل عَرصةُ الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ روي أنه أَمر قبل قدومها ببناء قصر صحنُه من زجاج أبيضَ وأجرىٰ من تحته الماءَ وأَلقى فيه حيواناتِ البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها. وقرأ ابنُ كثير برواية قنبلَ سأْقيها بالهمز حملاً على جمعه سُؤوق وأسْؤُق. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن ما تظنينه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمسَ، وقيل بظني بسليمانَ فإنها حسِبت أنه يُغرقها في اللُّجّة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيما أمر به عبادَه، وقد اختُلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تُبّع ملِكِ همْدانَ.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله، وقرىء بضم النون على إتباعها الباءَ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجؤوا التفرقَ والاختصامَ فآمن فريقٌ وكفر فريق، والواوُ لمجموع الفريقين.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إنْ صدق إيعادُه تُبنا حينئذ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ قبل نزوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

(٤٧) ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائدُ، أو وقع بيننا الافتراقُ منذ اخترعتم دينَكم ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ سببُكم الذي جاء منه شرُّكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قدَرُه أو عملُكم المكتوبُ عنده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضرابُ من بيان طائرهم الذي هو مبدأُ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعةُ أنفسٍ، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرقُ بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنُهم الإفسادُ الخالصُ عن شوب الصلاح.

---

(١) هذه الرواية من الإسرائيليات وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض المرويات في ذلك (٣/٣٧٨ ـ ٣٧٩) «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة، عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم... من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة» هـ.

قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿قَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ مَقول أو خبرٌ وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ لَنُباغِتن صالحاً وأهلَه ليلاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ فيه القراءاتُ الثلاثُ ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ فضلاً أن تَولّينا إهلاكَهم، وهو يحتمل المصدرَ والزمانَ والمكانَ وكذا مهلِكَ في قراءة حفصٍ فإن مفعِلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ ونحلِف إنا لصادقون، أو والحالُ إنا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهدَ للشيء غيرُ المباشِر له عُرفاً، أو لأنا ما شهِدْنا مهلِكهم وحده بل مهلِكَه ومهلِكَهم كقولك ما رأيت ثَمةَ رجلاً بل رجلين.

(٥٠) ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحِجْر مسجدٌ في شِعْب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرُغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشِعْب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرةٌ حيالهم فطبّقتْ عليهم فمَ الشِعْب فهلكوا ثَمّةَ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان إن جُعلت ناقصةً فخبرُها كيف وإنا دَمَّرْنَاهُمْ استئنافٌ أو خبرٌ محذوفٌ لا خبرُ كان لعدم العائد، وإن جعلتها تامةً فكيف حال. وقرأ الكوفيون ويعقوبُ أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبرُ محذوفٍ أو بدلٌ من اسم كان أو خبرٌ له وكيف حال.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ خاليةً من خَوى البطنُ إذا خلا، أو ساقطةً منهدمةً من خوى النجمُ إذا سقط، وهي حالٌ عمِل فيها معنى الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صالحاً ومن معه ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فلذلك خُصّوا بالنجاة.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾ واذكر لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً لدِلالة ولقد أرسلنا عليه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بدلٌ على الأول وظرفٌ على الثاني ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فُحشَها، مِنْ بصَرِ القلب، واقترافُ القبائح من العالِم بقُبحها أقبحُ، أو يبصرها بعضُكم من بعض لأنهم كانوا يُعلنون بها فتكون أفحشَ.

(٥٥) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيانٌ لإتيانهم الفاحشةَ، وتعليلُه بالشهوة للدِلالة على قُبحه، والتنبيهُ على أن الحكمةَ في المواقعة طلبُ النسل لاقضاءُ الوطر. ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي خُلقْن لذلك

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فِعلَ من يجهل قبحَها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبةَ، والتاءُ فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار ويعُدّون فِعلَنا قذراً.

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قدّرنا كونَها من الباقين في العذاب.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مر مثلُه.

(٥٩) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ أمر رسولَه ﷺ ـ بعدما قص عليه القِصصَ الدالةَ على كمال قدرته وعِظَم شأنه وما خَص به رسلَه من الآيات الكبرى والانتصار من العِدا ـ بتحميده والسلام على المصطَفَينَ من عباده شكراً على ما أنعم عليهم، أو عِلْمِه ما جَهِل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحقِ تقدمهم واجتهادِهم في الدين، أو لوطاً بأن يحمَدَه على هلاك كفَرة قومه ويسلّمَ على من اصطفاه بالعِصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلزامٌ لهم وتهكّمٌ بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أنْ لا خيرَ فيما أشركوه رأساً حتى يُوازَن بينه وبين من هو مبدأُ كل خير. وقرأ أبو عمْرو وعاصمٌ ويعقوبُ بالتاء.

(٦٠) ﴿أَمَّنْ﴾ بل أَمَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصولُ الكائنات ومبادىءُ المنافع. وقرىء أمَن بالتخفيف على أنه بدلٌ من الله ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدَلَ به من الغَيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاصِ الفعل بذاته، والتنبيه على أن إنباتَ الحدائق البهيةِ المختلفةِ الأنواع المتباعدةِ الطباع من المواد المتشابهةِ لا يقدِر عليه غيرُه كما أشار إليه بقوله ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ شجرَ الحدائق وهي البساتينُ من الإحداق وهو الإحاطة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيرُه يُقرن به ويُجعل له شريكاً، وهو المنفردُ بالخلق والتكوين. وقرىء أإلهاً بإضمار فعلٍ مثلُ أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدةٍ بين الهمزتين وإخراجِ الثانية بينَ بينَ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من أمَن خلق السمواتِ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتِها بحيث يتأتى استقرارُ الإنسان والدوابُّ عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسَطها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جاريةً

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادِنُ وتنبع من حضيضها المنابعُ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذْب والمالح، أو خليجَيْ فارسَ والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة الفرقان ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيشركون به.

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُ الذي أحوجه شدةُ ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار، وهو افتعالٌ من الضرورة، واللامُ فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابةُ كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاءَ فيها بأن ورّثكم سُكناها والتصرفَ فيها ممن قبلكم ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامةِ والخاصة ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكُرون آلاءَه تذكراً قليلاً، وما مزيدةٌ والمرادُ بالقلة العدمُ أو الحقارةُ المُزيحةُ للفائدة. وقرأ أبو عمْرو وهشامٌ وروح بالياء، وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالتاء وتخفيف الذال(١).

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلاماتِ الأرض، والظلماتُ ظلماتُ الليالي، وإضافتُها إلى البر والبحر للملابسة، أو مشْتبِهاتُ الطرق، يقال طريقةٌ ظلماءُ وعمياءُ للتي لا منارَ بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السببَ الأكثرَ في تكوّن الرياح مُعاودةُ الأدخنةِ الصاعدة من الطبقة الباردةِ لانكسار حرّها وتمويجها الهواءَ فلا شك أن الأسبابَ الفاعليةَ والقابليةَ لذلك من خلْق الله تعالى، والفاعلُ للسبب فعلَ المُسبَّب. ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادةَ فهم محجوجون بالحُجج الدالةِ عليها ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماويةٍ وأرضية ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن غيرَه يقدِر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمالَ القدرة من لوازم الألوهية.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لمّا بين اختصاصَه تعالى بالقُدرة التامة الفائقةِ العامةِ أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفردُ بعلم الغيب، والاستثناءُ منقطعٌ، ورفعُ المستثنى على اللغة التميميةِ للدِلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها مَن يعلم الغيبَ مبالغةً في نفيه

---

(١) وفي تذييل الكلام بنفي التذكر عنهم إيذان بأن مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره (س٦/ ٢٩٥).

عنهم، أو متصلٌ على أن المرادَ ممن في السموات والأرض مَن تعلق علمُه بها واطلع عليها اطلاعَ الحاضر فيها، فإنه يعُم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصولٌ أو موصوف ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى يُنشرون، مركبةٌ من أيّ وآن، وقُرئت بكسر الهمزة والضميرُ لمن وقيل للكفرة.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لما نفىٰ عنهم علمَ الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلُهم لا محالة بالغة فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسبابُ علمهم من الحُجج والآيات وهو أن القيامةَ كائنةٌ لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلَها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختَص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسُب إلى جميعهم كما يُسند فِعلُ البعض إلى الكل، والإضراباتُ الثلاثُ تنزيلٌ لأحوالهم، وقيل الأولُ إضرابٌ عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل ادارك بمعنى انتهى واضمحلّ من قولهم أدركت الثمرةُ لأن تلك غايتُها التي عندها تعدَم. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بل ادّارك بمعنى تتابع حتى استحكم، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، وأبو بكر ادّرك وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرىء أأدّرَك بهمزتين وآادّرك بألفٍ بينهما، وبل أدرك، وبل تدارك وبلى أأدّرك وبلى أأدرك وأم ادّراك أو تدارك، وما فيه استفهامٌ صريح أو مُضمّن من ذلك فإنكارٌ، وما فيه بلى فإثباتٌ لشعورهم وتفسيرٌ له بالادّراك على التهكم، وما بعده إضرابٌ عن التفسير مبالغةً في نفيه ودَلالةً على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عَمونَ، أوْ ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كالبيان لِعَمَههم، والعاملُ في إذا ما دل عليه أئنا لمخرجون، وهو نُخرج لا مُخرجون لأن كلاً من الهمزة وإنّ واللام مانعةٌ من عمله فيما قبلها، وتكريرُ الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراجُ من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي إننا لمخرجون بنونين على الخبر.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل وعْد محمد ﷺ، وتقديمُ هذا على نحن لأن المقصودَ بالذكر هو البعثُ وحيث أُخر فالمقصودُ به المبعوث ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم على التكذيب وتخويفٌ بأن ينزل بهم مثلُ ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبيرُ عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرَج صدرٍ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان، وقرىء ضيّق أي أمرٍ ضيق ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم فإن الله يعصِمك من الناس.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ العذابُ الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ تبعكم ولحِقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، أو الفعلُ مضمّنٌ معنى فعّل يتعدىٰ باللام مثل دنا. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه[1] ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلولَه وهو عذابُ يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يُطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزَ منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرىٰ وعدُ الله تعالى ووعيدُه.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضلُ والفاضلةُ الأفضال وجميعُها فضولٌ وفواضلُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرِفون حقَّ النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعَه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تُخفيه وقرىء بفتح التاء من كَنَنْتُ أي سترت ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خافيةٍ فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاءُ فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمانِ لِما يغيب ويخفىٰ كالتاء في عافية وعاقبة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن، أو مُبيِّنٍ ما فيه لمن يطالعه، والمراد اللوحُ أو القضاءُ على الاستعارة.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوالِ الجنة والنار وعُزيرٍ والمسيح.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ بين بني إسرائيلَ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما يحكم به وهو الحقُّ، أو بحكمته ويدل عليه أنه قرىء بحُكمه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحُكمِه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تُبالِ بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وصاحبُ الحق حقيقٌ بالوثوق بحفظ الله ونصره.

---

١) وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسىٰ أن يردفكم... لكونه أدل على تحقق الوقوع (س٦/ ٢٩٨).

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ آخرُ للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعَه عن مشايعتهم ومعاضَدتهم رأساً، وإنما شُبّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شُبّهوا بالصُمّ في قوله ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعَهم في هذه الحالة أبعدُ. وقرأ ابن كثير ولا يَسمع الصُمّ.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ حيث الهدايةُ لا تحصُل إلا بالبصر. وقرأ حمزةُ وحده: وما أنت تَهدي العُمي ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يُجدي إسماعُك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون، مِن أسلم وجهه لله[1].

(٨٢) ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوعُ معناه وهو ما وُعدوا به من البعث والعذاب[2] ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجَسّاسة، روي[3] أن طولها ستون ذراعاً ولها أربعُ قوائمَ وزَغَبٌ وريشٌ وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يُدركها طالب. وروي[4] أنه عليه الصلاة والسلام سُئل من أين مخرجُها فقال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله» يعني المسجدَ الحرام ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وقيل من الكَلْم إذ قرئ تَكْلِمُهم. وروي[5] أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتمُ سليمانَ عليهما الصلاة والسلام، فتنكُت بالعصا في مسجد المؤمن نُكتةً بيضاءَ فيبيض وجهُه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتةً سوداءَ فيسودّ وجهه ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ خروجِها وسائرِ أحوالها فإنها من آيات الله تعالى. وقيل القرآنُ، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتيقنون، وهو حكايةُ معنى قولِها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تَكلُّمِها على حذف الجار.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانٌ للفوج أي فوجاً مكذّبين، ومِن الأولى للتبعيض لأن أمةَ كلِّ نبي وأهلَ كل قرن شاملٌ للمصدقين والمكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارةٌ عن كثرة عددِهم وتباعُد أطرافهم.

---

(١) وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية لأن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية (س٦/ ٣٠٠).

(٢) عبر عن الساعة بالقول لأنه مصداق للقول الناطق بمجيئها، وعبر عنه بالوقوع للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها (س٦/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة مرفوعاً وقال عنه ابن كثير (٣/ ٣٨٧): «إسناده لا يصح».

(٤) أخرجه ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وإسناده لا يصح كما قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٧).

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتم بها باديءَ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظراً يُحيط علمُكم بكنهها وأنها حقيقةٌ بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدمِ إلقاءِ الأذهان لتحققها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أيُّ شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غيرَ التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حل بهم العذابُ الموعودُ وهو كبُّهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيبُ بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذارٍ لشُغلهم بالعذاب.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ليتحقق لهم التوحيدُ ويرشدَهم إلى تجويز الحشر وبعثةِ الرسل، لأن تعاقبَ النور والظُّلمةِ على وجه مخصوص غيرِ متعيِّنٍ بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قدَر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدَر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار لِيُبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يُخِلّ بما هو مناطُ جميع مصالحهم في معاشهم ومَعادِهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بالنوم والقَرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن أصله ليُبصِروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعولِ عليها بحيث لا ينفك عنها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدِلالتها على الأمور الثلاثة.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ في الصور أو القَرن، وقيل إنه تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نُفخ في البوق. ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الهول. وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزَعَ بأن يُثبِّت قلبه. قيل هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ، وقيل الحورُ والخَزَنةُ وحملةُ العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صُعق مرة، ولعل المرادَ ما يعم ذلك. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقفَ بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره، وقرأ حمزةُ وحفصٌ أَتَوه على الفعل، وقرىء أتاه على التوحيد للفظ الكل ﴿دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين وقرىء دَخِرين.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتةً في مكانها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرامَ الكبارَ إذا تحركت في سمْتٍ واحد لا تكاد تَبين حركتُها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمةِ كقوله ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾[١] ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحكم خلقَه وسوّاه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالمٌ بظواهر الأفعال وبواطنِها فيجازيكم عليها كما قال:

---

(١) الروم: ٦.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ إذ ثبت له الشريفُ بالخسيس والباقي بالفاني وسبعُمائة بواحدة، وقيل خيرٌ منها أي خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمْرٍو وهشام خبير بما يفعلون بالياء والباقون بالتاء ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني به خوفَ عذاب يوم القيامة، وبالأول ما يلحق الإنسانَ من التهيب لِما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأنَّ المرادَ فزَعٌ واحدٌ من أفزاعِ ذلك اليوم، وآمنَ يتعدَّى بالجارِّ وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾[1]. وقرأ الكوفيون ونافعٌ يومَئذ بفتحِ الميم والباقون بكسْرِها.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيلَ بالشركِ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فكُبّوا فيها على وجوهِهم، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالوجوهِ أنفسُهم كما أُرِيدَتْ بالأيدي في قوله تعالى ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾[2] ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على الالتفاتِ أو بإضمارِ القولِ أي قيلَ لهم ذلك.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ الرسولُ ﷺ بأنْ يقولَ لهم ذلك بعدَما بيَّن المبدأَ والمعادَ وشرحَ أحوالَ القيامةِ، إشعاراً بأنه قد أتمَّ الدعوةَ وقد كمُلَتْ وما عليه بعدُ إلا الاشتغالُ بشأنه والاستغراقُ في عبادة ربِّه، وتخصيصُ مكَّةَ بهذه الإضافةِ تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنها. وقُرِىءَ التي حرَّمها. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ وأنْ أواظِبَ على تلاوتِه لتنكشِفَ لي حقائقُه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعِه وقرىء واتلُ عليهم وأنِ اتلُ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ باتباعِه إيايَّ في ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ فإنَّ منافعَه عائدةٌ إليه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتي ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ فلا عليَّ مِن وَبالِ ضلالِه شيءٌ إذْ ما على الرسولِ إلا البلاغُ وقد بلّغتُ.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ النبوَّةِ أو على ما علَّمني ووفَّقني للعملِ به. ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرةَ في الدنيا كوقعةِ بدرٍ وخروجِ دابَّةِ الأرض، أو في الآخرة ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أنها آياتُ اللهِ ولكنْ حينَ لا تنفعُكمُ المعرفةُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا تحسَبوا أنَّ تأخيرَ عذابِكم لغفلتِه عن أعمالِكم. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمْرو وحمزةُ والكسائيُ بالياءِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورة طَس كان له من الأجر عشرُ

---

(١) الأعراف: «٩٩».
(٢) البقرة: «١٩٥».

حسناتٍ بعددِ مَنْ صدَّقَ سليمانَ وكذَّبَ به وهوداً وصالحاً وإبراهيمَ وشعيباً، ويَخْرُجُ من قبرهِ وهو ينادي لا إله إلا الله»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي، وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٦ رقم ١٣٠) وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

فهرس السور

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

☆ ☆ ☆